موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين 8

درسها وحققها ووضع حواشيها

تيسير خلف

فلسطين في ثلاثينيات
وأربعينيات القرن العشرين

رحلات

عارف العارف. محمد ثابت. بشير كعدان



فلسطين في
ثلاثينيات واربعينيات القرن العشرين

فلسطين في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين

درسها وحققها ووضع حواشيها : تيسير خلف

الناشر : دار كنعان

للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية

دمشق – ص.ب 443 تلفاكس: 2134433 (11 - 963 +)

E-mail 1: said.b@scs-net.org

E-mail 2: kanaanbook@yahoo.com



بالتعاون مع

دائرة الثقافة والإعلام بعجمان

دولة الإمارات العربية المتحدة – تلفاكس: 0097167423189

E-mail 1: mafarag_2005@yahoo.com

E-mail 1: m_harbi3@yahoo.com

الطبعة الأولى ، 2010 / عدد النسخ 1000

إخراج: لبنى حمد

التدقيق اللغوي: سامي عبد المجيد

الإشراف العام: سعيد البرغوثي

يمكن الاطلاع على كتب الدار ومنشوراتها

على صفحة الشبكة التالية:

http://www.darkanaan.com

http://www.neelwafurat.com



موسوعة

رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين

"الجزء الثامن"

فلسطين في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين

رحلات

عارف العارف
1934 - 1943

محمد ثابت
1940

بشير كعدان
1945

درسها وحققها ووضع حواشيها

تيسير خلف

صدرت هذه الموسوعة بمناسبة

احتفالية القدس عاصمة للثقافة العربية 2009

بالتعاون مع دائرة الثقافة والإعلام بعجمان / دولة الإمارات العربية المتحدة







لنا كلمة

إن أهم إسهام يمكن أن نقدمه للقدس في احتفاليتها عاصمة للثقافة العربية لعام 2009 هو أن تبقى حية في الأذهان، في وقت يحاول المحتلون الصهاينة محو وجهها العربي والإسلامي، واستبداله بوجه غريب عنها، ولكي تبقى حية في الأذهان بصورتها العربية الإسلامية هي وأخواتها مدن فلسطين المحتلة الأخرى، لابد من تقديم الوجه الحقيقي لها من خلال الكتب والمؤلفات التي تناولتها من وجهة نظر عربية إسلامية.

ولذلك تحمسنا لمشروع موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين، لأننا أدركنا أهمية نشر هذا الأثر، وتعميمه في هذه الاحتفالية، لأنه يسد نقصاً كبيراً في المكتبة العربية، ومن شأنه أن يسهم بشكل مباشر في خدمة قضية القدس وفلسطين، بشكل حضاري يرد على الدعاية الصهيونية بالحجة والمنطق التاريخي.

ولذلك فنحن نرى أن الاحتفال بالقدس عاصمة للثقافة العربية لعام 2009م هو احتفاء بتاريخها وأعلامها، عبر جعل هذا التاريخ في متناول الجميع، لأن من شأن هذا الأمر أن يسهم في تعميق الوعي بضرورة تحريرها من رجس الاحتلال، وإعادتها مدينة عربية إسلامية، تُشد الرحال إليها كما اعتاد أجدادنا أن يفعلوا طوال القرون الخمس عشرة الهجرية الماضية.

والاحتفاء بالقدس يختلف عن الاحتفاء بأي مدينة عربية أخرى، فهو ليس ترفاً أو استعراضاً شكلياً بقدر ما هو ممارسة عملية واجبة على كل عربي ومسلم، والتزاماً فكرياً وإيماناً راسخاً بعروبة هذه المدينة، ولن يتم كل ذلك إلا بتكريس هذه القيم عبر الوسائل الثقافية والمعرفية، ومنها نشر الكتب وإنتاج الأفلام والبرامج والمسلسلات التي تؤكد على الوجه الحقيقي لهذه المدينة التي شهدت أعظم الأحداث في تاريخنا العربي والإسلامي.

دائرة الثقافة والإعلام – حكومة عجمان

هذه الموسوعة

إسهاماً منها في احتفالية القدس عاصمة للثقافة العربية لعام 2009م ارتأت دار كنعان للدراسات والنشر أن تُقدم لقراء العربية موسوعة شاملة لرحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين خلال أكثر من أحد عشر قرناً، شهدت فلسطين خلالها عدداً كبيراً من الرحلات التي قام بها عرب ومسلمون، بعضها تم تحقيقه خلال فترات زمنية مختلفة، ومنها ما بقي حبيس المخطوطات، لم يتيسر لعموم القراء مطالعته.

ولأدب الرحلات أهمية خاصة بالنسبة لفلسطين، فهي الأرض المقدسة التي زارها ملايين الحجاج ونقلوا لأحبتهم أخبار مشاهداتهم لهذه الديار المباركة. غير أن عدداً قليلاً منهم قام بتدوين مشاهداته، التي تمثل الزمن الذي عاش فيه هذا الرحالة أو ذاك، ولذلك فالرحلات وثائق تاريخية وجغرافية، من شأنها أن تعمق الوعي التاريخي وتوسع الآفاق والمعارف والرؤى.

ولقد عرفت فلسطين طوال هذه القرون تطورات وتحولات كثيرة، لم يكن بالإمكان الاطلاع عليها من خلال كتب التاريخ التقليدي المتداولة، نظراً لحصر اهتمام هذه الكتب في أخبار الحروب والتحركات السياسية والعسكرية لهذا القائد أو ذاك، بعيداً عن التاريخ الذي يخص الأرض والبشر، ولذلك نأمل أن نُسهم بقدر الاستطاعة في نفض الغبار عن هذا التاريخ المجهول الذي يميط اللثام عن الكثير من الحقائق الغائبة.

وتكمن أهمية هذه الموسوعة، في أنها تمثل الجانب الآخر من صورة الرحلات التي قام بها الرحالون الغربيون إلى فلسطين خلال قرون طويلة، أسهموا من خلالها في تكوين وعي معين تجاه فلسطين، مستقى بشكل أو بآخر من الوعي الديني المسيحي واليهودي الذي يُمثل فيما يُمثله جانباً واحداً من الصورة، غير أن الأمر بات أكثر خطورة بعد حملة نابليون على فلسطين آخر القرن الثامن عشر، حيث بدا نوع جديد من الرحلات مرتبط بشكل أو بآخر بالمشاريع الاستعمارية التي كانت تُعد في دوائر القوى العظمى، مستهدفة إنشاء وطن قومي لليهود على أرض فلسطين في مغالطة لحقائق التاريخ والجغرافيا والمنطق. ولذلك ساد خلال قرنين من الزمن نوع من الرحلات الاستكشافية إلى فلسطين

وما يحيط بها، أسهم بشكل مباشر في تكوين وعي زائف لتاريخ فلسطين خصوصاً وبلاد الشام بشكل عام، ما نزال نعاني من تبعاته حتى هذه اللحظة، إذ ركزت معظم رحلات الغربيين على إدعاءات كاذبة تحيل على جهل وتخلّف سكان فلسطين من العرب الذين يعيشون في خيام ويمتهنون السرقة والسلب والخروج على القوانين، تاركين هذه الأرض الخصبة معطلة، فكان لابد من إعمار هذه الأرض المقدسة بشعب متحضر يبلغ بها مراقي التقدم، معيداً لها مجدها القديم الذي توقف مع قدوم العرب المسلمين إليها. وهذا هو الوعي الذي سوغ للصهيونية كل جرائمها بحق فلسطين وأهلها حتى يومنا هذا.. فما أحوجنا إذاً لتصويب الصورة، وتوضيح الأمور ووضعها في نصابها، ونقل الجانب الآخر من الصورة الذي تمثله رحلات العرب والمسلمين التي ننشرها في موسوعتنا هذه.

ومن الملاحظ أن الوعي العربي للخطر الصهيوني بدأ بالظهور في مطلع القرن العشرين، والرحلات التي نقدمها خلال هذه الفترة؛ تُبين بشكل واضح وجلي أن الكثير من العرب كانوا على بينة من أبعاد المشروع الاستعماري الصهيوني لفلسطين، ولذلك ظهرت في ذلك الوقت أشكال متعددة لمقاومة هذا المشروع، منها أدب الرحلات الذي كان يهدف إلى تقديم حقيقة الأوضاع وتوعية الناس لما يجري حولهم، وهذا ما تصدى له كلٌ من نجيب نصار ونجيب عازوري وعارف العارف وبشير كمدان وغيرهم..

موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين، إذاً هي إسهامٌ هامٌ في احتفالية القدس عاصمة للثقافة العربية وهي إسهامٌ نطمح أن نثري به المكتبة العربية، فتكون هذه الموسوعة إضافةً هامةً إلى المراجع الأخرى التي تناولت الحديث عن فلسطين أرضاً وشعباً وتاريخاً عبر العصور الغابرة.

دار كنعان للدراسات والنشر

تمهيد

عاشت فلسطين طوال حقبة الثلاثينيات من القرن العشرين في ثورة مستمرة، نتيجة تكشف أبعاد المخطط البريطاني بتهيئة الظروف لقيام (الوطن القومي) اليهودي. فبعد ثورة البراق في أواسط شهر آب (أغسطس) عام 1929م، التي ختمت عقد العشرينيات بنهاية معبرة مثلت ذروة موقف العرب الفلسطينيين من الانتداب البريطاني والحركة الصهيونية، تواصلت التحركات على الأرض ووصلت إلى اندلاع ثورة الشيخ عز الدين القسام، ثم ثورة عام 1936م، والإضراب الكبير، والمظاهرات التي عمت جميع المدن الفلسطينية دون استثناء، ترافق ذلك مع تسليح اليهود في المستوطنات، والعمل من قبل هؤلاء على تأمين عملية الفصل الشامل بين المستوطنات، وبين المحيط العربي الفلسطيني.

وفي هذه المرحلة تراجعت حركة بيع الأراضي نتيجة الوعي لهذا الخطر بشكل كبير، كما تراجعت نسبة الهجرة اليهودية إلى فلسطين، مما هدد المشروع الصهيوني برمته، فأتت الحرب العالمية الثانية لتنقذ هذا المشروع ولتدفعه دفعة قوية ومصيرية إلى الأمام، بعد قيام هتلر بما قام اتجاه اليهود في أوروبا الوسطى والشرقية.

في هذه المرحلة تراجعت الرحلات العربية والإسلامية إلى فلسطين، والسبب توتر الأوضاع في القدس واتخاذ قوات الانتداب البريطانية إجراءات للحيلولة دون الاشتباك بين العرب الفلسطينيين واليهود، ومع ذلك نستطيع أن نعثر على نصوص متفرقة هنا وهناك يمكن أن تعطي فكرة عن أوضاع فلسطين في حقبة الثلاثينيات والأربعينيات التي شهدت نوعاً من الهدوء الحذر بعد إفشال ثورة عام 1936م، ودخول الحركة الوطنية الفلسطينية في لعبة التوازنات العربية والدولية. فكتب عارف العارف (قائمقام عدة مدن فلسطينية) في تلك الحقبة نصوصاً وصفية ضمنها بعض كتبه التاريخية عن أوضاع بعض المدن الفلسطينية منها بئر السبع وغزة وعسقلان والقدس. كما زار الرحالة المصري المعروف

محمد ثابت بعض المدن الفلسطينية أواخر الثلاثينيات أو مطلع الأربعينيات، ووثق رحلته بنص كلاسيكي وصفي لم ينطو على أي بعد سياسي، في حين قام صحفي سوري معروف هو بشير كمدان برحلة إلى فلسطين عام 1945م بهدف سياسي محدد وهو الوقوف على الأوضاع في فلسطين كما هي، ونقلها إلى القارئ العربي الذي كان يفتقد، حسب اعتقاده، معلومات كافية عن حقيقة ما يجري في فلسطين آنذاك.

وهذه النصوص التي تناولناها في عينتنا هذه عبرت بشكل أو بآخر عن طبيعة الوعي العربي لقضية فلسطين في ذلك الوقت، فنصوص عارف العارف نقلت صورة صادقة ومعبرة عن مستوى التطور الذي كانت تشهده المدن الفلسطينية ومنها مدينة غزة، بعد اتضاح أبعاد المخطط الصهيوني البريطاني، فكان الفلسطينيون يسابقون الزمن على صعيد بناء قاعدة تعليمية وعلمية ونهضة اقتصادية ووعي سياسي لمنافسة المستوطنين الصهاينة الذين كانوا قد نشروا عبر أجهزتهم الدعائية أن العرب الفلسطينيين متخلفون، وأن الحركة الصهيونية تقوم بإحياء الصحراء وتجفف المستنقعات و(تطهر) فلسطين من العرب والبعوض في آن واحد!.

كان الفلسطينيون في الأربعينيات قد أدركوا تماماً أن وجودهم مهدد وأن إنقاذ فلسطين لن يتم إلا بتحقيق نهوض شامل، ولذلك يمكن أن نفهم تصاعد نسب بناء المدارس وأعداد الدارسين فيها وتوسع نشوء المؤسسات التعليمية والاقتصادية الوطنية، واتساع استثمار الأراضي البور، وزيادة أعداد الأشجار المزروعة، وما إلى ذلك من مظاهر كانت تنبئ بنمو وعي وطني (خاص) بعيد عن مظاهر التسييس التقليدي، الذي فقد الفلسطينيون اهتمامهم به بعد الخيبة التي خلفتها مواقف الزعامات التقليدية من ثورات الثلاثينيات. ومن هنا يمكن فهم موقف مفكر وسياسي نهضوي فلسطيني من عيار عارف العارف عن العمل السياسي التقليدي بمعناه (الاحترافي)، واتجاهه نحو تطوير المدن التي كان يتولى المناصب الإدارية العليا فيها، ووضع خطط النهوض التي تتيح لها الوقوف بثقة وثبات في وجه المد الصهيوني.

وعلى الرغم من كل الوسائل الممكنة وغير الممكنة، التي كان الصهاينة والبريطانيون يقومون بها على صعيد تبديل هوية فلسطين وتلقي الحركة الصهيونية دعماً غير محدود من المجتمع الدولي بعد الحرب العالمية الثانية، وعلى الرغم من تيار الهجرة المتدفق بشدة من أوربا، على الرغم من كل ذلك بدا مشروع الدولة اليهودية في فلسطين في أواسط الأربعينيات بعيد التحقق في ظل موازين القوى على الأرض، نتيجة

الوعي الفلسطيني المتنامي، فما كان إلا لجوء الحركة الصهيونية إلى خيار الحرب والحسم العسكري عن طريق المذابح والتهجير القسري وخلق الوقائع على الأرض، وهو ما يخالف المبادئ التي بنيت عليها الحركة الصهيونية أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، ويناقض الخطاب الاستعطافي الذي كان يتكئ على اضطهاد اليهود في العالم.

تيسير خلف

دمشق في 26 شباط 2009م

عارف العارف يصف غزة وبئر السبع في الثلاثينيات والأربعينات

يحتل الوصف الذي وضعه الرحالة والمؤرخ الفلسطيني الكبير عارف العارف لمدينتي غزة وبئر السبع؛ أهمية خاصة في مسار كتابات هذا المؤلف الذي يعد شيخ مؤرخي فلسطين. ومنبع الأهمية يأتي من أنه سجل شهادته عن أحوال هاتين المدينتين اللتين عمل فيهما قائمقام في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، ووضع عنهما كتباً تتعلق بمختلف الجوانب المتعلقة بتاريخهما وحاضرهما. فمؤلفاته التاريخية، كما يقول هو، جمعها من مختلف المصادر المختلفة والفضل فيها لأصحابها. أما شهادته فهي له والفضل فيها يعود إليه.

ولد عارف شحادة في القدس في سنة 1892، وأرسل لمتابعة دراسته الثانوية في الأستانة، ثم درس الأدب في جامعة إستانبول حيث حصل على شهادته الجامعية سنة 1913، وعند تخرجه عمل محرراً ليلياً في صحيفة «بيام» التركية. وفي إستانبول انضم إلى المنتدى الأدبي، وبعد تخرجه في جامعة إستانبول، عُين مترجماً في وزارة الخارجية العثمانية. وباندلاع الحرب العظمى، انخرط في الكلية العسكرية في إستانبول، فتخرّج فيها بعد عام، ثم التحق بقوات الرديف (الاحتياط) للجيش العثماني، ونقل بعد ذلك إلى الجيش الخامس، وأرسل إلى القتال في جبهة القفقاس ضد القوات الروسية. اعتُقل في إحدى المعارك (التفصيلات أدناه)، وأمضى ثلاثة أعوام أسير حرب في سيبيريا.

انتهت فترة اعتقاله باندلاع الثورة البلشفية، وعندما تم تحريره (أو هربه في بعض الروايات) عاد إلى الوطن في رحلة طويلة من منشوريا واليابان وبحر الهند وقناة السويس، حيث انضم إلى الثورة العربية بقيادة الأمير فيصل. وفي القدس، قام بتحرير صحيفة (سورية الجنوبية) الفيصلية، وانخرط في النضال ضد الحكم العسكري البريطاني وإعلان بلفور، الأمر الذي أدى إلى إصدار حكم بالإعدام عليه وعلى بعض رفاقه بتهمة دعم

العصيان المسلح، فاستأنف الحكم الذي خفض إلى السجن، لكنه هرب من فلسطين إلى شرقي الأردن وإلى دمشق. في النهاية تم العفو عنه وعن زميله الحاج أمين الحسيني، وقضى في الإدارة سبعةً وعشرين عاماً (1921 - 1948) متنقلاً بين عدة مدن فلسطينية.

وكان قد تسلم قائمقام للمدن التالية (جنين نابلس، بيسان، يافا) وبعد ذلك عهد إليه إدارة مدينة بئر السبع، حيث قضى فيها عشرسنوات، ومن ثم نقل إلى مدينة غزة ومكث فيها قائمقاماً مدة أربعة أعوام.

وفي عام 1926 استعارته حكومة الشرق العربي (حكومة شرقي الأردن فيما بعد) سكرتيراً عاماً، فقصد عمان وقضى فيها ثلاثة أعوام (1926 - 1928)، لكن الإنجليز اتهموه بتشجيع المعارضة، وتحريض رجالها على رفض المعاهدة الأردنية البريطانية، فأعادوه إلى فلسطين وعينوه (قائمقام) في بئر السبع ثم في غزة، وتقديراً لمواهبه رفّع مساعداً لحاكم لواء القدس، وعهد إليه بإدارة قطاع رام الله.

عُين رئيساً لبلدية القدس بعد زوال الانتداب البريطاني على فلسطين وتوحيد ضفتي الأردن عام 1949، وانتخب رئيساً لها للمرة الثانية عام 1951، وللمرة الثالثة عام 1955.

وفي أعقاب عام 1955 تولى وزارة الأشغال العامة، واستقال منها بعد أيام.

بالإضافة إلى تعمقه في التاريخ فقد أجاد من اللغات بالإضافة للعربية التركية والعبرية والفرنسية والألمانية والإنكليزية والروسية. وقد أمد المكتبة العربية بعدد من المؤلفات هي (أحداث رفح ومأساة البدو من أهلها) و(أسرار الكون)، تأليف آرنست هيغل، نقله إلى اللغة التركية، و(الدور الفلسطينية التي هدمها الإسرائيليون) و(الفلسطينيون المبعدون عن بلادهم) و(الفلسطينيون في سجون إسرائيل) و(القضاء بين البدو) و(المسيحية في القدس) و(المعذبون في السجون الإسرائيلية من أبناء فلسطين) و(المفصل في تاريخ القدس) و(الموجز في تاريخ عسقلان) و(النكبة في صور) و(النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود)، 6 مجلدات و(تاريخ الحرم القدسي) و(تاريخ القدس) و(تاريخ بئر السبع وقبائلها) و(تاريخ غزة) و(رؤياي) و (بلا جناح) و(سجل الخلود: أسماء شهداء حرب فلسطين) و(علم الإحصاء) و(غزة نافذة على الجحيم) و(قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى المبارك) و(مآخذي على الحكم الإسرائيلي في القدس) و(مأساة البدو في النقب وقطاع بئر السبع) و(مذكراتي عن نشاط المقاومة الفلسطينية).

وفي عام 1967 عُين مديراً لمتحف الآثار الفلسطيني بالقدس، (متحف روكفيلر).

لم يغادر عارف العارف فلسطين بعد الاحتلال الإسرائيلي، وأقام في مدينة رام الله إلى أن توفي في 30 تموز عام 1973م.

صدر كتاب (تاريخ غزة) الذي أخذنا عنه النص المتعلق بوصف غزة في القدس عام 1943م، وطبع في مطبعة دار الأيتام الإسلامية في القدس، كما صدر كتاب (تاريخ بئر السبع وقبائلها) في القدس أيضاً عام 1934م.

وقد أسهب عارف العارف في وصف غزة في أدق تفاصيلها، جرياً على عادة الرحالة الكبار الذين وضعوا نصوصاً تُعدُ من أهم المصادر حول تلك الأماكن التي كتبوا عنها، فهو يتحدث عن العمارة والتاريخ والعادات الاجتماعية والأزياء والمواسم والمحاصيل الزراعية وباقي الأنشطة الاقتصادية، إضافة إلى الأحوال المناخية، مدعماً نصه بالأرقام حسب ما تقتضيه الحاجة.

غزة في يومنا هذا
1943م

1 ـ مدينة من أجمل المدن الفلسطينية الواقعة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط. ترتفع عن سطح البحر (55) متراً. القسم القديم منها بني على نشز عال، وعلى بعد ثلاثة كيلومترات من البحر. وأما الآن فقد امتد البناء في (غزة الجديدة) حتى كاد يتصل بالبحر[1].

فيها حدائق غناء، وحول المدينة القديمة بساتين تزرع فيها جميع أنواع الخضار، وأشجار الفاكهة. ماؤها عذب، وهواؤها عليل. إنك إذا جئتها صيفاً وجدتها أحسن مصيف، وإذا نزلتها شتاء ألفيتها أبدع مشتى في فلسطين.

إنها من أهم الأسواق الفلسطينية[2] لتصريف المنتجات الزراعية. وهي تأتي بعد اللد[3] من هذه الناحية. وأهم المنتجات التي تصرف فيها هي الحيوانات، والأثمار، والحبوب، والخضار، والألبان، والطيور الداجنة، والبيض، والأسماك، والمنسوجات القطنية والصوفية، والأواني الخزفية. ويزيدها أهمية وقوعها على مقربة من البحر، والسهل، والبادية، واعتدال الطقس، وكثرة المياه.

2 ـ يعيش في غزة في يومنا هذا ثلاثة وثلاثون ألف نسمة: كلهم عرب، إلا نفراً من الإنكليز الموظفين، وبعض الأغراب الذين ينتمون إلى قوميات مختلفة. وأكثر السكان مسلمون. وهناك ما يقرب من ألف مسيحي. ولقد دلت الإحصاءات الرسمية على أنه يوجد ثمة (1025) امرأة لكل ألف رجل.

---

[1] ـ قد تجد، أيها القارئ الكريم، في هذا الفصل ما يرضيك وما لا يرضيك وقد ينتابك أحياناً شيء من السآمة والملل، ولاسيما عندما تراني أسهبت في وصف ناحية من نواحي الحياة الغزية، فتصوب نحوي سهام لومك وتقريعك أرجو أن لا تتسرع في الحكم خذ ما صفا لك، واترك لغيرك ما لا يستسيغه ذوقك، تذكر أن ما لا يروق في عينك قد يروق في عين غيرك وكما أن ما نعتبره اليوم من المسائل الاجتماعية الهامة قد تسخر به الأجيال القادمة، فإن ما لا نعبأ به اليوم قد يعبأ به أبناء الغد عندما يقلبون صفحات التاريخ ليفاضلوا بين يومهم وأمسهم

[2] ـ النظام الاقتصادي في فلسطين. لسعيد حمادة

[3] ـ ويأتي بعدها بالترتيب: عكا وصفد ونابلس والناصرة ورام الله والقدس ويافا وحيفا.

قيل إنه كان يعيش في غزة في يوم من أيام مجدها الغابر عدد من الناس أكثر من الذين كانوا يعيشون في مدينة القدس، وإن هذا العدد تناقص خلال مائة السنة الأخيرة مراراً كثيرة:

مرة عام 1840 للميلاد، وذلك على أثر الحرب المصرية التي شنها إبراهيم باشا.

وأخرى عام 1905م، وذلك على إثر المحل الشديد الذي أصاب الزرع، وضرائب الحكومة، والفوائد الباهظة التي كان يدفعها الفلاحون للمرابين. أولئك الفلاحون الذين كانوا رازحين تحت عبء ثقيل من الديون. فنزح الكثيرون من أبناء المدينة عنها يومئذ طلباً للرزق.

وثالثة عام 1914 ـ 1918م وذلك بسبب الحرب الكبرى؛ تلك الحرب التي أضرت بغزة أكثر مما أضرت بأية مدينة أخرى من المدن الفلسطينية. وبعد أن كان عدد سكانها في السنة التي سبقت الحرب (1913) اثنين وأربعين ألفاً، انخفض هذا العدد أثناء الحرب انخفاضاً مريعاً حتى أقفرت شوارعها إلا من الجند، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها أخذ الغزيون يرجعون إلى بلدهم؛ فأصبح عددهم عام 1931 سبعة عشر ألفاً، وفي 1938م 19.695، وفي 1939م 20.668، وفي 1940م 21.252، وفي 1941م 27.409، وفي 1942م 30.000 وها هم أولاء اليوم 33.000.

3 ـ وعلى ذكر الحرب المنصرمة نقول إن الغزيين هجروا مدينتهم خلال تلك الحرب مرتين:

الأولى: عندما أعلنت تركيا النفير العام، وأخذ الجيش التركي يتأهب لغزو قناة السويس. ولاسيما عندما ضرب الأسطول الإيطالي غزة بقنابله من البحر. إن هذه القنابل وإن لم تصب غزة بضرر، إلا أن عدداً من السكان اختار الهجرة على إثرها. ولكن هذا العدد لم يتعد يومئذ المائتين، وكانت الهجرة يومئذ اختيارية بحتة.

والثانية: عندما اتخذ الجيش الإنكليزي خطة الهجوم، وأخذ يزحف نحو غزة؛ الأمر الذي اضطر جمال باشا أن يختار خطة الإجلاء. فجمع القائمقام معين بك المرعبي كبار المدينة وزعماءها، وبلغهم أمر الرحيل، وكان ذلك إجبارياً؛ فرحل على إثر ذلك ثمانية وعشرون ألف شخص، لم يرجع منهم إلى غزة عندما وضعت الحرب أوزارها سوى ثمانية عشر ألفاً، وبقي الآخرون في يافا وحيفا وحمص وحماه، وفي نواح أخرى من سوريا وفلسطين.

ويقال إن عدد الذين بقوا في حمص وحماه من الغزيين بلغ ثلاثة آلاف. وأما الذين

استوطنوا حيفا ويافا فقد تناسلوا في تلك المدينة، وكثروا حتى أصبح عددهم في يومنا هذا قريباً من 7000 في الأولى و 15000 في الثانية. وللجالية الغزية في كل منهما حي خاص، وكيان خاص، ومخاتير يرعون مصالحها الخاصة. ويحدثك الرواة عن نجاح هذه الجالية في مضمار التجارة والصناعة أحاديث تدعو إلى الفخر والإعجاب.

4 - تقوم المدينة في وقتنا هذا، بقسميها القديم والحديث، على بقعة من الأرض مساحتها ستة آلاف دونم[4] يحدها من الغرب البحر، ومن الشرق مقبرة التونيسي على طريق بئر السبع، ومن الجنوب المواميد الكائنة بالقرب من بركة أم الليمون ومن الشمال ملتقى السكة الحديدية بطريق يافا.

5 - أما المدينة القديمة فإنها عبارة عن منازل قديمة، وبيوت مبنية من الحجر الرملي؛ غير أنها صغيرة ومتلاصقة بشكل لا يتلاءم مع طلبات العصر الحالي والحضارة الحديثة من حيث الصحة والتنظيم. أضف إلى ذلك أن الخراب أصاب أكثر هذه البيوت والمنازل أثناء الحرب الكبرى. إذ كانت هدفاً لقنابل الجيش الإنكليزي من البحر والبر والهواء. وإن الأتراك أنفسهم هدموا قسماً كبيراً من هذه البيوت والمنازل بأيديهم، واستعملوا أخشابها متاريس في الحرب. وكذلك قل عن حديدها وبلاطها. وأما أزقتها فحدث عنها ولا حرج. فهي ضيقة للغاية حتى أن أكثرها يكاد لا يتسع لأكثر من شخصين يسيران جنباً إلى جنب في وقت واحد.

وتتجمع الأقذار والوحول في هذه الأزقة، ولاسيما في فصل الشتاء، بشكل يمجه الذوق؛ فضلاً عما فيه من خطر على المارة. ذلك لأنه ليس في غزة في يومنا هذا (مجار) منظمة[5].

---

[4] - يقولون إن غزة كانت في القرون الماضية أكبر مما هي عليه الآن بكثير. ولطالما سمعت الغزيين يتحدثون عن ماضيها، ويقولون أنها كانت تمتد (من الدير إلى الدير)؛ أي من دير سنيد في الشمال، إلى دير البلح في الجنوب بيد انني لم أعثر في كتب التاريخ، ولاسيما تلك التي تصفحتها لأستقي منها المعلومات التي أطلبها عن (تاريخ غزة)، ما يبرر هذا القول غير اني لا ارتاب قط في أن غزة كانت كبيرة جداً، وأن العرب الأوائل الذين كانوا يفدون إليها من كل حدب وصوب كانوا يجتمعون بين الديرين، وإن الجيش الذي كان يحتلها كان مضطراً للاحتفاظ بمخفرين، واحد من الأمام وآخر من الخلف، ليتمكن من دره عادية المغيرين ومن يدري؟ فلعل أحد هذين المخفرين كان في دير سنيد، والثاني في دير البلح

[5] - عثروا في غزة على اثر لمجرى قديم، يعتقد انه انشئ في عهد الرومان، ولكنه اليوم مهجور. ولا يعلم احد مبداه او منتهاه إلا انهم عثروا على قسم منه في (سوق التجار) القديم، عندما انخسفت الأرض تحت بعض الحوانيت التجارية الكائنة في ذلك السوق، وكان ذلك في أوائل القرن العشرين وقد اكتشف جانب آخر من المجرى على مقربة من المكان الأول عندما تهدمت بضعة حوانيت اخرى عام 1935 وسقطت لنفس السبب ولدى الكشف على اسس الحوانيت المتهدمة عثر المنقبون على جانب من المجرى المذكور. ويظهر في هذا القسم الذي اكتشف ان المجرى كان فسيحاً للغاية، حتى ان المنقبين استطاعوا أن يسيروا فيه مسافة طويلة رافعين رؤوسهم، حاملين المشاعل والمصابيح

وكل ما فيها حفر بسيطة حفرت أمام المنازل بشكل مؤقت، يربط الحفرة والمنزل القريب منها مجرى بسيط. وكثيراً ما يكون هذا المجرى مفتوحاً بشكل يأوي إليه البعوض؛ فيبيض فيه، ويفرخ، ويكون ذلك سبباً في انتشار الملاريا والأمراض الفتاكة الأخرى.

إن ضيق الشوارع، وتلاصق الأبنية والمنازل في المدينة القديمة، وفقدان المجاري فيها، وعدم نظافة الطبقة الجاهلة من السكان، وكثرة أشجار الصبر في الحواكير المجاورة، والرمال الواقعة بين المدينة والبحر، وما إلى ذلك من العوامل، أثرت في صحة السكان تأثيراً كبيراً. حتى إن نسبة الوفيات بين الأطفال في غزة كبيرة بدرجة تبعث على القلق. ولقد أحصت مصلحة الصحة هذه النسبة في عام 1940 فوجدت أنها 166 في الألف (أي أنه يموت 166 طفلاً من كل ألف طفل يولدون).

وإليك بيان الأمراض كثيرة الوقوع بمدينة غزة وعدد الذين ماتوا بسببها خلال السنوات التالية:

		1938	1939	1940
1	التهاب الأمعاء	174	190	316
2	التهاب الرئة	120	113	186
3	التهاب القصبات	31	32	45
4	التهاب الكلية	25	26	22
5	التهاب الزائدة الدودية	1	.	1
6	أمراض الطفولة الأولى	28	35	29
7	أمراض القلب	35	18	30
8	أمراض الجهاز الهضمي	11	8	18
9	أمراض الجهاز البولي	26	30	27
10	أمراض الكبد والمرارة	3	1	4
11	أمراض الدورة الدموية	4	3	5
12	الأمراض العصبية	5	.	2
13	الأمراض الجلدية والعظمية	4	3	10
14	الأمراض الإنتانية والطفيلية	4	8	16
15	الأمراض الزهرية	1	.	.

16	الحمى التيفوئيدية	10	3	7
17	الحمى البرداء (الملاريا)	.	1	.
18	الحمى الاسبانيولية (انفلونزا)	1	.	3
19	الحمى النفاسية (وأمراض الولادة)	1	1	2
20	الحصبة	6	1	59
21	السعال الديكي	2	.	.
22	الخناق (ديفتريا)	1	.	1
23	السكري	.	1	2
24	الروماتيزم المزمن	1	1	1
25	النزيف الدماغي	12	7	13
26	السل	7	9	21
27	الأورام السليمة	3	.	.
28	السرطان والأورام الخبيثة	8	6	7
29	التسمم الداخلي المزمن	5	1	8
30	القتل الجبري	13	3	.
31	الموت الفجائي	7	6	9
32	الانتحار	1	1	.
33	الشيخوخة	15	18	31
34	الموت لأسباب غير معروفة	43	40	60

وأما (مرض العيون) فحدث عنه ولا حرج. إنه منتشر في غزة بشكل مخيف. لا بل إنه رافق غزة منذ أقدم عصور التاريخ. ولقد قامت مصلحة الصحة بمكافحة هذا المرض على قدر المستطاع، فتمكنت إلى درجة ما من الحيلولة دون توسع الخرق. وإليك عدد الذين أصيبوا بمرض العيون من سكان مدينة غزة وعولجوا في العيادة الطبية[6] التي خصصتها الحكومة لمعالجة هذا المرض خلال السنوات الخمس الأخيرة:

(6) - إن هذه الأرقام لا تشمل الأشخاص الذين أصيبوا بمرض من أمراض العيون المختلفة وعولجوا عند الأطباء غير الحكوميين

السنة	عدد المصابين بالرمد الصديدي مع القرحة	عدد المصابين بالرمد الصديدي	عدد الذين عولجوا في بحر السنة	عدد المصابين في بحر السنة
1938	15	944	7607	2092
1939	9	1055	83382	2325
1940	3	813	77237	1809
1941	6	866	66839	1785
1942	19	959	78502	1871

6 . هناك في غزة القديمة خمسة أحياء هي: الدرج، والزيتون، والتفاح والشجاعية (بقسميها : الجديدة، والتركمان).

أما حي (الدرج) فلا نعلم عن أسباب تسميته شيئاً . وإنا نظن أنه سمي كذلك لأنه أعلى من الأراضي المجاورة له. والذاهب إليه يشعر كأنه يرتقي سلماً أو يصعد درجاً .

وأما حي (الزيتون) فإنه من أكبر الأحياء وأوسعها . وفيه عدد كبير من أشجار الزيتون.

وكذلك قل عن حي (التفاح) فإنه سمي كذلك لكثرة أشجار التفاح فيه ولاسيما في القطعة المسماة (السيفة) من أراضيه. ويسميه الأهلون بلغتهم الدارجة (التفين).

وهناك حارة في حي التفاح تدعى (بني عامر). وقد سميت كذلك بالنسبة إلى سكانها الذين ينتسبون إلى عامر بن لؤي.

وأما (الشجاعية) فهي حي كبير ينقسم إلى فرعين: التركمان والجديدة. ولعل تسميته بالشجاعية[7] نسبة إلى شجاع الدين عثمان الكردي الذي استشهد في غزة سنة 637 للهجرة إبان الحروب الصليبية.

ويعتقد الأستاذ مصطفى الدباغ أن سكان الجديدة أصلهم من الجديدة المدينة القريبة من الموصل. وأما سكان التركمان فإنهم من بقايا القبائل التركمانية التي نزلت غزة في عهد الملك الصالح أيوب الذي تولى الملك عام 637 للهجرة.

ويفصل بين حي الدرج والزيتون شارع فسيح أنشاه جمال باشا خلال الحرب الكبرى (1914 - 1917) وأطلق عليه اسمه. ولكن المجلس البلدي أسماه عام 1932 (شارع عمر المختار).

---

[7] بلادنا . فلسطين: للأستاذ مصطفى الدباغ

7 ـ وأما (غزة الجديدة) فإنها أنشئت فوق الرمال الممتدة من تل السكن على حدود المدينة القديمة إلى البحر. ويسمونها (الرمال) أو (الحارة الغربية). ومساحتها ثلاثة آلاف دونم. خصصت الحكومة منها ما يقرب من ألف دونم للبناء. وقد قسمت عام 1934 هذه المساحة من الأراضي إلى بقع مختلفة المساحة: بعضها دونمان، والبعض الآخر دونم؛ وباعتها لمن شاء البناء من الأهلين بسعر يتراوح بين الثلاثة ملات (للمتر الواحد من الأراضي الواقعة على شارع من الشوارع الفرعية) والخمسة ملات (للمتر الواحد من الأراضي الواقعة على شارع من الشوارع الرئيسية). واشترطت لذلك أن يهيئ المشتري تصميماً للبناء الذي ينوي إقامته فوق الأرض التي اشتراها، وذلك خلال سنتين من تاريخ التوقيع على العقد؛ وإن يشرع بالبناء فعلاً فيتمه خلال السنوات الخمس الأولى. فإذا قام بهذه الشروط سجلت الأرض وما عليها على اسمه في دائرة الطابو، وإلا فلا.

ولكي تتمكن من صد الرمال التي كانت تزحف في كل سنة من جهة البحر أنشأت غابتين جميلتين: الأولى على بعد ميلين من شمال المدينة إلى الغرب، والثانية على بعد ميل واحد من جنوبها إلى الغرب. وكلتاهما تمتدان حتى البحر. والفضل في نجاح هاتين الغابتين يرجع إلى أحد أبناء غزة المثقفين سعد الله بك البورنو. فقد احتضن هذا المشروع بكلتا يديه، وأولاه معظم أوقاته وجهوده، وأخذ يغرس في تلك الرمال من الأعشاب والأشجار ما حال دون سيرها فزال عن غزة خطر طالما تهددها من قبل. وأصبحت تلك الرمال الجرداء جنة غناء. وها هي تي المنازل تبنى على الطراز الحديث في غزة الجديدة، فتزيد منظر المدينة رونقاً وبهاء. وبين هذه المنازل شوارع فسيحة، وفي أكثرها حدائق غناء؛ وأوسعها حديقة البلدية الجميلة المعروفة (بالمنتزه)، وهي قائمة في نقطة متوسطة بين المدينة القديمة والجديدة.

8 ـ وفي غزة الجديدة تقع منازل الذوات والطبقة الراقية من الأهلين والموظفين. وفيها ملعب كبير لكرة القدم أنشاه النادي الرياضي الغزي[8]، وآخر للتنس، ومقهى ودار للسينما[9] من الطراز الحديث. وفيها تقوم مدارس الحكومة للذكور والإناث، وبستان للأطفال أسسته نخبة ممتازة من رجال غزة المثقفين.

وفيها دار الحكومة الجديدة المعروفة Tegart Building؛ وهي دار فخمة[10] مؤلفة

---

(8) ـ تأسس هذا النادي عام 1934م (1353هـ) ورئيسه السيد رشاد بن المرحوم الحاج سعيد افندي الشوا هو الذي أسسه

(9) ـ بناها السيدان رشاد الشوا وغالب النشاشيبي وشركاؤهما. وقد كلفهم بناؤها اثني عشر الفاً من الجنيهات

(10) ـ تم بناء هذه الدار عام 1941، وقد كلف بناؤها مبلغاً يقرب من مئة الف جنيه وهي من اضخم الدور بنيت على

من أربعة قصور شاهقة، متصل بعضها ببعض، وفيها تقيم جميع مصالح الحكومة ودواوينها.

9 ـ اختفت (مسرجة الزيت) من غزة في منتصف القرن التاسع عشر، وحل مكانها (مصباح البترول). ولا يزال السواد الأعظم من أهالي غزة يستعملون هذا المصباح بقصد الإنارة في منازلهم. ولم تعرف غزة النور الكهربائي إلا في سنة 1938م يوم تم الاتفاق بين المجلس البلدي وشركة كهرباء فلسطين[11] The Palestin Electric Corporation Ltd. على إضاءة غزة بالكهرباء. غير أن الغزيين لم يرتاحوا لهذا الاتفاق بل سخطوا عليه، بسبب العداء المستحكم بين العرب واليهود من جراء مشروع (الوطن القومي) اليهودي. فثاروا عليه، وحطموا مصابيح الكهرباء كلها وقسماً كبيراً من الأعمدة. ولما هدأت الثورة في عام 1940م استأنفت الشركة المذكورة عملها فأضاءت الشارع العام بمئة وثلاثين مصباحاً كهربائياً كما أضاءت بعض المنازل الواقعة في حي الرمال. ولكنها ما لبثت أن اضطرت، بعد بضعة شهور، للعدول عن إضاءة الشارع، وذلك على إثر الأنظمة التي فرضتها السلطة والتي تقضي بإطفاء الأنوار بسبب الحرب. فأضحى استعمال الكهرباء في غزة منحصراً في استخراج الماء من (بئر الصفا) وفي عدد محدود من منازل الذوات والموظفين، وأما المنازل الأخرى فإنها ما برحت تضاء بمصابيح البترول كالمعتاد.

10 ـ في غزة مدرسة حكومية للبنين، قائمة في بناء شيد في عهد الأتراك (عام 1911م) وهي ابتدائية كاملة وفيها قسم ثانوي ذو صفين.

تأسست هذه المدرسة في العهد التركي عام 1887م وكانت في بادئ الأمر ابتدائية بحتة، ذات صفوف ثلاثة. وكان طلابها ينتقون من المبرزين من طلاب (الكتاتيب) مثل كُتّاب العجمي، و كُتّاب الشيخ عطية، وكُتّاب جامع أبي ركاب في حي الزيتون؛ وكتاب الشيخ ظريف، وكتاب الشيخ خالد، وكتاب الشيخ فرج، وكتاب الهليس في حي الدرج؛ وكتاب جامع السدرة، وكتاب جامع ابن سلطان في حي التفاح؛ وكتاب جامع المحكمة، وكتاب جامع السيدة رقية، وكتاب جامع الغزالي، وكتاب جامع المغربي، وكتاب جامع الظفر دمري، وكتاب جامع الطيار في حي الشجاعية. ومن أسمائها يفهم أن هذه الكتاتيب كانت في المساجد.

هذا الشكل في جميع أنحاء فلسطين وواضع تصميمها هو السر تشارلس تيغارت الخبير في مكافحة الثورات، الذي استحضرته الحكومة لتستفيد من خبراته على إثر ثورة 1936.

[11] ـ مؤسس هذه الشركة (روتمبرغ)، وهو مهندس كهربائي من يهود روسيا.

ثم انقلبت المدرسة إلى (رشدية) ذات أربعة صفوف تعلم فيها العلوم التالية باللغة التركية وهي: التاريخ، والجغرافيا، ومبادئ العلوم الطبيعية، واللغة العربية. وظلت كذلك حتى الانقلاب العثماني وإعلان الدستور عام 1908م. وفي عام 1914 أصبحت مدرسة غزة ذات ستة صفوف مقسمة كما يلي:

ومدتها سنتان	الدورة الابتدائية الدنيا
ومدتها سنتان	الدورة الابتدائية الوسطى
ومدتها سنتان	الدورة الابتدائية العليا

كان هذا كله في البناء الذي اتخذ فيما بعد مدرسة للبنات في حي الدرج. ثم انتقلت إلى البناء الجديد (عام 1911م) الواقع أمام زاوية أبي العزم للجهة القبلية من مقبرة علي بن مروان. وهو مكون من جناحين يفصلهما بهو كبير. وفي كل جناح بهو وأربع غرف. وقد أضيف إليها في عام 1933م طابق علوي. وفي عام 1935 أضيف إليها غرفتان جديدتان. وبعد ذلك بسنتين أنشئت غرفة كبيرة جعلت لتعليم التجارة.

وظل التدريس قائماً في هذا البناء إلى أن نشبت الثورة الفلسطينية (1938م)، ثم أعلنت الحرب الحاضرة (1939م)؛ فاحتلها الجيش البريطاني وأقام بدلاً منها براكات خشبية اتخذت مدرسة. وهذه البراكات قائمة على أرض بيارة فراس المقابلة لدار سينما السامر.

ولقد كان في مدرسة غزة عام 1927 مئتان وأربعة وثمانون تلميذاً واثنا عشر معلماً. فأصبح عدد تلاميذها عام 1941م 1237 تلميذاً و 26 معلماً يدرس فيها أبناء غزة كلهم وأبناء الموظفين الذين يعيشون فيها على اختلاف طوائفهم.

وإليك عدد التلاميذ من المسلمين والمسيحيين الذين تعلموا في هذه المدرسة خلال السنوات الست عشرة الأخيرات، وعدد المعلمين في كل سنة منها:

سنة	عدد المعلمين	مجموع الطلاب	مسلمون	مسيحيون
1927	12	284	229	55
1928	12	209	166	43
1929	11	250	202	48
1930	11	281	230	51
1931	12	302	252	50
1932	13	378	315	63

مسيحيون	مسلمون	مجموع الطلاب	عدد المعلمين	سنة
70	466	536	16	1933
81	594	675	18	1934
72	711	783	19	1935
69	762	831	19	1936
70	939	1009	22	1937
64	939	987	21	1938
69	1121	1190	24	1939
58	1043	1101	23	1940
74	1163	1237	26	1941
75	970	1045	23	1942
71	933	1004	24	1943

وفي غزة مدرسة حكومية أخرى ذات أربعة صفوف، تعدّ فرعاً للمدرسة المتقدم ذكرها. وهي واقعة في حي (الشجاعية).

وهناك مدرستان للأوقاف: واحدة ابتدائية وهي ذات سبعة صفوف وفيها ثمانية معلمين وثلاثمئة تلميذ، وقد أنشأها المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى عندما تسلم الأوقاف المندرسة. والمكان الذي أنشئت فيه يعرف بحاكورة الباز. وقد ألف المجلس لجنة من أعيان غزة برئاسة مفتيها لتشرف على عمارتها المؤلفة من جناحين يفصلهما بهو كبير، وكل قسم يتألف من أربع غرف وبهو كبير. واختارت اللجنة لها اسماً هو (مدرسة الفلاح الإسلامية الوطنية).

وهناك مدرسة للمكفوفين أنشأتها مصلحة الوقف قبل الحرب العامة (1914م) والغاية منها تعليم العجزة القرآن الكريم واسمها (المدرسة الهاشمية) وهي واقعة في جامع السيد هاشم.

وفيها ثلاث مدارس للبنات: واحدة حكومية، وأخرى بلدية، وثالثة أهلية.

أما مدرسة البنات الحكومية فإنها كانت في بادئ الأمر في دير اللاتين، ثم انتقلت إلى بناء لآل رضوان واقع بالقرب من بئر الرفاعية. وكان هذا البناء بيتاً معداً للسكن، وظل كذلك حتى عام 1881م فجعل مدرسة للذكور. وظل كذلك حتى عام 1921م إذ جعل مدرسة للإناث. وانتقلت مدرسة الذكور إلى بنائها الجديد الذي أقيم أمام زاوية أبي العزم

للجهة القبلية من مقبرة علي بن مروان. وقد أضيف إلى مدرسة الإناث بعض الغرف في عام 1926م. ثم أخلي البناء بالمرة لتصدع أصابه بسبب الأمطار الغزيرة؛ فأقامت الحكومة بدلاً منه، على عرصة المدرسة نفسها، بناء أنشئ على الطراز الحديث (عام 1933) وكان هذا البناء مؤلفاً من ست غرف فسيحة جعلت إحداها للتدبير المنزلي. ثم أنشئ فوقه (1935) طابق علوي وهو مؤلف من ثلاث غرف أمامها رواق جميل. وفي عام 1937 أنشئت فيها مراحيض عديدة على الطراز الحديث.

وفيما كانت الهمة منصرفة نحو هذه المدرسة وتوسيعها هبت عاصفة هوجاء (في 6 آذار 1938) وهطلت أمطار غزيرة دامت خمس ساعات متوالية تصدعت على أثرها جدران المدرسة. فأمرت الحكومة، خشية الخطر، بهدم الركن الجنوبي الشرقي الذي كان على وشك الانهيار. ثم أمرت بإخلاء البناء كله، وبنقل المدرسة إلى دارين متجاورتين واقعتين على طريق البحر بالقرب من سينما السامر: واحدة للسيد محمود شراب، والأخرى للسيد محمد الريس.

وقد تولت إدارة هذه المدرسة الآنسة بهية فرح من سنة 1921 ـ 1924م والآنسة ليديا شاهين حاطوم من 1924 ـ 1938 والآنسة نهيزة بدران من 1938 ـ 1943.

وبعد أن كان في (1924) عدد الطالبات في المدرسة المذكورة مئة وخمسين، والمعلمات تسعاً أصبح الآن في (1942م) 527 والمعلمات ست عشرة. وإليك تفصيل هذا العدد خلال السنوات التسع عشرة الأخيرة:

طالبات	معلمات	السنة	طالبات	معلمات	السنة
545	14	1934	150	9	1924
573	15	1935	237	9	1925
599	15	1936	253	9	1926
610	16	1937	310	10	1927
.	.	1938[12]	312	11	1928
588	16	1939	312	11	1929
572	16	1940	296	11	1930
559	16	1941	279	11	1931
527	16	1942	307	11	1932
			423	13	1933

[12] ـ ظلت المدرسة مغلقة طيلة عام 1938 بسبب احتلال الجيش لبنائها.

وتتلقى الطالبة في هذه المدرسة العلوم الأولية في الدين، واللغتين العربية والإنكليزية، والحساب، والتاريخ، والجغرافيا، والصحة، والطبيعة، والرسم. وتتعلم أيضاً أصول الخياطة، والتفصيل، والتدبير المنزلي، وتربية الطفل؛ مما يهيئها لأن تكون ربة بيت نافعة. وفي المدرسة مكتبة فيها ما يقرب من ألفي كتاب.

وأما مدرسة البنات البلدية فقد أسسها المجلس البلدي من أموال المدينة وكان ذلك بتاريخ 16/ 2/ 1930. ذات ثمانية صفوف. ويتعلم فيها ما يقرب من أربعمئة طالبة، وفيها عشر معلمات. وتسير في تعليمها على منهاج مصلحة المعارف العامة. وأما مدرسة البنات الأهلية فقد أنشأتها سيدة من سيدات غزة تدعى (زهية السقا)، فيها 35 طالبة. وهي ذات صفين. تعلم فيها مبادئ العلوم الأولية.

وهناك مدرستان أهليتان: أحدهما في الشجاعية تدعى (مدرسة الشجاعية الأهلية)، والأخرى في حارة الزيتون تدعى (مدرسة أبي شهلة الأهلية). أما الأولى فقد أسسها السيد سليم فروانة، وكان ذلك عند مطلع عام 1937. فيها ثمانون طالباً، وهي ذات صفين فقط. وأما الثانية فقد أسسها الشيخ حسن أبو شهلة وكان ذلك في عام 1924. فيها مئة طالب، وهي ذات ثلاثة صفوف ابتدائية. ومنهاج التعليم في هاتين المدرستين يرمي إلى تعليم اللغة العربية والقرآن ومبادئ الدين والعلوم الأولية.

وفي غزة (بستان للأطفال) [روضة] أسسه مؤلف هذا الكتاب مع لفيف من أصدقائه، وكان ذلك بتاريخ 1/ 9/ 1942. فيه معلمتان وواحد وعشرون طفلاً من ذكور وإناث، ويحمل هؤلاء الأطفال من منازل آبائهم إلى البستان بعناية تامة وفي سيارة أعدت لهذه الغاية.

ولقد قام ثلاثة من شبان غزة المثقفين (وديع ترزي وأخوه شفيق وجعفر فلفل) بتأسيس كلية عربية أسموها (كلية غزة). وكان ذلك بتاريخ 1 أكتوبر 1942 وهي ذات ثمانية صفوف: خمسة منها (الأول والرابع والخامس والسادس والسابع) ابتدائية، واثنان (الأول والثالث) ثانويان، وبستان للأطفال من أولاد وبنات. فيها سبعة أساتذة وأربع معلمات. ولغة التدريس فيها العربية، وأما اللغة الإنكليزية فإنها تدرس كلغة ثانية. وفي الكلية قسم داخلي يضم بين جدرانه ستة وعشرين طالباً.

11 . وفي غزة أربع مكتبات عربية للمطالعة تحتوي على كتب قيمة: الأولى في الجامع العمري الكبير. والثانية في النادي الرياضي الأهلي. والثالثة في مدرسة الذكور. والرابعة في مدرسة الإناث. وهناك مكتبة إنكليزية في دار حاكم اللواء. وأكبر هذه المكاتب

هي مكتبة الجامع العمري الكبير فقد أسست عام 1352هـ وفيها الآن ألفان وخمسمائة كتاب بين مطبوع ومخطوط، وناظرها الشيخ عثمان أفندي الطباع. وهو في الوقت نفسه نائب رئيس جمعية الهداية الإسلامية بغزة. وفيها مكتبتان تجاريتان: واحدة للشيخ هاشم نعمان الخزندار، والأخرى لخميس بن سعيد أبي شعبان.

12 ـ ولقد تأسس في غزة عام 1892 أول (مجلس بلدي). فكانت ميزانيته ضعيفة للغاية، وكان رئيسه الحاج مصطفى أفندي العلمي. وبعد أن بقي هذا في البلدية خمسة أعوام، تنحى عنها فترأسها ولده الحاج أحمد أفندي العلمي. ثم علي أفندي الشوا وبقي فيها ستة أعوام. ثم تولاها الشيخ عبد الله أفندي العلمي سنتين. ثم تولاها خليل افندي بسيسو سنة واحدة. ثم تولاها الحاج سعيد أفندي الشوا وقد بقي فيها عشرة أعوام. وعلى عهده أنشئ المستشفى البلدي فوق تل السكن.

وبعد الاحتلال تولى رياسة البلدية محمود أفندي أبو خضرة ثلاثة أعوام. ثم تولاها عمر أفندي الصوراني ثلاثة أعوام أيضاً. ثم تولاها فهمي بك الحسيني ومكث فيها أحد عشر عاماً. إلى أن تولاها في 29/ 1/ 1939 رئيسها الحالي رشدي بك الشوا وهو ابن المرحوم الحاج سعيد أفندي الشوا.

وقد تم على يد الرئيسين الأخيرين فهمي بك الحسيني ورشدي بك الشوا وكلاهما من الطبقة المثقفة تثقيفاً عالياً إصلاحات جمة: إذ وسع الأول الشارع الكبير الذي يشطر المدينة شطرين وهو المعروف بشارع (عمر المختار)، وأنشأ دار البلدية الجديدة، كما أنشأ حديقة البلدية المعروفة (بالمنتزه). وعبّد الثاني الشوارع العديدة في البلدة القديمة وفي الرمال، وحفر (بئر الصفا) الذي تعول عليه المدينة اليوم في شربها وفي جميع مشاريعها العمرانية.

وأما المجلس البلدي الحالي فقد انتخب عام 1934 وهو الآن يتألف من رئيس وستة أعضاء هم: رشدي الشوا (رئيس) وعبد القادر حتحت والحاج سعيد أبو رمضان وموسى الصوراني ومحمد الريس والحاج راغب أبو شعبان وموسى البورنو وحافظ ترزي ـ أعضاء. هاشم اللولو ـ كاتب المجلس.

وبعد أن كانت ميزانية البلدية في السنة لا تتعدى بضع المئات من الجنيهات فقد أصبحت الآن تعد بالألوف. ولسنا بذاكرين ميزانيات السنين الأولى، إذ كانت هذه لا تتعدى عدد أصابع اليد. وإنما لابد لنا من ذكر الأرقام التي تحققت خلال السنوات الأربع عشرة الأخيرة.

المصروفات جنيه	الواردات جنيه	السنة	المصروفات جنيه	الواردات جنيه	السنة
8485	7945	1936[13]	7256	7129	1929
13831	13962	1937	8559	8403	1930
12258	13228	1938	8874	8527	1931
13411	14016	1939	9092	9235	1932
20129	18500	1940	11250	11318	1933
22197	21068	1941	11325	11403	1934
26510	23997	1942	14091	14258	1935

13 . وفيما يلي عدد الدكاكين والمخازن والفنادق والمطاعم والأفران والمطاحن وجميع أنواع الحرف والصنائع المرخصة في غزة حسب الإحصاء الذي قامت به مصلحة الصحة خلال عام 1941:

عدد		عدد	
28	مخازن حبوب	4	فنادق
131	دكاكين بقالة	7	معاصر
39	دكاكين خضرة	9	خمارات
35	دكاكين حلاقة	8	مقاهي
14	مصابغ	12	مخابز
13	دكاكين لبيع اللحوم	3	معامل بلاط
12	محلات عطارة	69	معامل فخار
1	مسمكات	3	مطاحن
5	خانات	2	صيدليات
5	أنوال حياكة	4	كراجات
3	حمامات	14	مخازن للكاز والبنزين
9	محلات للغسيل والكوي	11	محلات صياغة

[13] - نقصت ميزانية هذه السنة (1936) بسبب الإضراب العام الذي أعلنه العرب احتجاجاً على سياسة الحكومة من حيث الانتداب والوطن القومي واشتركت مدينة غزة في هذا الإضراب الذي دام ستة شهور، تعطلت خلالها جميع المصالح والأعمال

عدد		عدد	
45	متاجر متنوعة	15	محلات صنع الفراوي
60	باعة متجولون	6	محلات لبيع الحلويات
3	سروجية	5	مصانع تدار بالكهرباء

14 . ويقام في غزة أسواق عديدة: منها سوق الحيوانات، ويسمونها (سوق الجمعة) إذ أنها تقام يوم الجمعة في بركة نصار الواقعة شرقي المدينة. حيث يفد الناس من جميع أطراف المدينة ومن القرى المجاورة فيتسوقون ما يعرض فيها من خيل وغنم وحمير وبقر وبغال وإبل. ويكثر في هذه السوق عرض الإبل والأغنام النجدية التي يأتي بها تجار من عقيل. وهي سوق قديمة العهد جداً، قد ترجع بالأصل إلى عهد المعينيين وبني سبأ الذين قلنا عنهم في الفصول الأولى من هذا الكتاب إنهم إذا لم يكونوا هم الذين شيدوا غزة فإنهم بلا مراء أول من ارتادها وغشى أسواقها من العرب الأوائل الذين وصلتنا أخبارهم.

ومنها (سوق الحبوب) في خان أبي شعبان؛ و(سوق الخضار) في خان المعارف بالقرب من موقف السيارات؛ و(سوق الحاجيات) الواقع غربي المستشفى الذي أقامته الإرسالية الإنكليزية. ويعرض في هذه السوق الكلس والتبن والحصر والفخار وما إلى ذلك من السلع والحاجات. وهذه الأسواق الثلاث تقام في كل يوم. هذا بالإضافة إلى (سوق التجار) وفيها الدكاكين والمخازن التجارية التي أوردنا ذكرها في الأسطر المتقدمة.

أما الحنطة والشعير والذرة وسائر أنواع الحبوب فقد اعتاد الغزيون كيلها بـ (الصاع). وسعته من الحنطة ستة أرطال، ومن الشعير أربعة أرطال ونصف الرطل، ومن الذرة خمسة أرطال ونصف الرطل. وهناك (المسحة) أيضاً وسعتها من الحنطة خمسة أرطال ونصف الرطل، ومن الشعير أربعة أرطال، ومن الذرة خمسة. وبطلت (الكيلة) وقد كانت معروفة حتى الربع الأول من القرن العشرين، وهي ثلاثون كيلو من القمح وعشرون من الشعير وثمانية وعشرون من الذرة والقطاني.

وأما الأقمشة فإنها تقاس بـ (الذراع) وهي ثمانية وستون سنتيمتراً، و(اليارد) وهو ذراع وثلث، و(المتر) وهو مئة سنتيمتر أو ما يعادل ذراعاً ونصف الذراع تقريباً وهناك (الذراع المعماري) وهو خمسة وسبعون سنتيمتراً.

وأما (الموازين) السائدة في أسواق غزة فهي نوعان: نوع خفيف يعرف بـ (الميزان) وهو آلة ذات كفتين من النحاس توضع السلعة المراد وزنها في كفة، وعيار الوزن المطلوب في

الكفة الأخرى. وآخر يعرف بـ (القبان) وهو معد لوزن الأثقال. فيوضع الموزون فوقه ويزلج العيار على الذراع المنقوش فيها أرقام الوزن. ويظل التاجر يزلج العيار على هذا الذراع إلى أن تحصل المعادلة بينه وبين الموزون.

وإليك (الأوزان) المعروفة في غزة:

1 . (الرطل) = 900 درهم = 12 أوقية = 4/1 2 أوقة.

2 . (الأوقية) = 75 درهماً = 240 غراماً .

3 . (الأوقة) = 400 درهم.

4 . (القنطار) = 100 رطل.

5 . (الكيلو) = 312 درهماً = 1000 غرام.

وأكثر هذه الأوزان شيوعاً (الرطل) و(الأوقية). ولم يعرف الغزيون (الكيلو) إلا في الأعوام الأخيرة.

والأراضي تقاس بـ (الدونم) وهو ألف متر مربع.

15 . لم يكن في غزة مطاحن قبل خمسين عاماً . وكان الغزيون يطحنون قمحهم بمطاحن اعتيادية تدار باليد . وكان في كل دار من غزة طاحون من هذا النوع. ثم أنشئت في غزة مطحنة تدار بالخيل، وهي ذات حجر كبير مستدير. ثم أدخلت المطاحن التي كانت تدار تارة بالقصل [القش الخشن] وطوراً بالفحم الحجري. ثم صارت هذه بعد الاحتلال تدار بالبترول. ولم يستعمل الغزيون بعد المطاحن التي تدار بالكهرباء رغم اتصال مدينتهم بمشروع الكهرباء بفلسطين. ذلك الاتصال الذي وقع عام 1938. وفي غزة اليوم خمس مطاحن تدار كلها بالبترول وأجرة الطحن فيها قرش واحد (أي عشرة ملات) لكل ثلاثة أرطال[14].

16 ـ وفي غزة ست معاصر لعصر السمسم واستخراج السيرج منه: معصرة الغلاييني، والقرم، والشجاعية، وأبي شعبان، والبريري، والهندي. وتدار المعاصر الأربع الأولى على الطرق القديمة المألوفة من عهد الأجداد أي بواسطة الدواب. وأما الاثنتان الأخيرتان فقد طرأ عليهما بعض التحسن، فأصبحتا تداران بآلات حديثة تحركها الكهرباً.

17 . كانت صناعة الدباغة وتهيئة الجلود تمارس بالأكثر في ناحية غزة. وكان معظم

---

[14] - كانت اجرة الطحن في عهد الأتراك متليكاً تركياً (او ما يعادل ملين) للرطل الواحد، ثم صارت بعد الاحتلال قرشاً واحداً.

الطرق المستعملة فيها بسيطة أولية. وكانت صناعة الأحذية من الصناعات الشائعة. لكن هذه الصناعة تضاءلت بسبب كثرة الجلود المدبوغة المستوردة من الخارج؛ فأخذ صناع الأحذية يستعملون الجلود المستوردة في صنع الأحذية من النوع الجيد، وراحوا يستعملون الجلود الوطنية في صنع الأحذية من الدرجة الدنيا، وبالأحرى الأحذية التي يحتذيها الفلاحون والبدو. وليس في غزة الآن سوى 14 مصبغة.

18 . إن صناعة النسيج في غزة قديمة للغاية. لا يعرف أحد بالضبط متى وكيف انتقلت هذه الصناعة إليها. وإنما الاعتقاد سائد بأنها أتت إليها عن طريق الهند ومصر، لا عن طريق الشام.

ويبدو لنا أن صناعة النسيج كانت منتعشة في الماضي أكثر مما هي عليه الآن. ولقد عثرنا في كتاب إنكليزي ألفه الدكتور ماري J.A.H. Murray بعنوان: English Dictionary on Hist. Principles على كلمة Gauze وهي تستعمل للدلالة على نوع من الخمار الشفاف يوضع على الوجه. ويعتقد أنه سمي كذلك لأنه مأخوذ من غزة خلال العصر السادس عشر. وهناك نوع من القماش مصنوع من الحرير أو الكتان يسميه الأوروبيون Gazzatunm ويعتقدون إن مصدره مدينة غزة، وقد سمعوا به لأول مرة في تاريخ 1279م وذكروا عنه الشيء الكثير مأخوذاً من كتاب كتب عامئذ باللغة اللاتينية بعنوان Glossaruim.

هناك أربعة وأربعون نولا لنسج الأقمشة الصوفية: كالبسط، والسجاد البلدي، والعبي والمراير وما إلى ذلك. وعشرون نولا لنسج الأقمشة القطنية والحريرية: كالديما، والألبسة التي يستعملها الفلاحون. ويعمل في هذه الأنوال ما ينوف عن المئة عامل.

وتدار هذه الأنوال كلها باليد. ولا تعرف غزة الأنوال الحديثة والماكنات التي تدار بالكهرباء بعد. وخيوط الصوف المغزولة والمعدة لصنع الأقمشة تستورد كلها من الخارج[15] وكذلك قل عن خيوط القطن والحرير المبرومة. وأما ما يستعمل منها لنسج السجاد فإنه يغزل في غزة، وتغزله بعض نسائها من الصوف الخام.

والكيمات التي تنتجها هذه الأنوال في الوقت الحاضر قليلة تكاد لا تكفي لتموين أهل المدينة أنفسهم، والقرى المجاورة؛ دع عنك التصدير إلى خارج فلسطين.

أما (السداء) فيستعمل من القطن بنسبة 3/8 أو 3/10 أو 3/12 وبلونه الطبيعي والأبيض، وهذا يستورد من الهند. وأما (اللحمة) فإنها من الصوف الطبيعي المقصوص

---

[15] من الهند وإنكلترة

من الغنم[16] والذي تغزله النساء بمغازل يدوية[17]. ونسبة السداء القطني إلى اللحمة الصوفية هي بمعدل 1 إلى 7 أي أنه لكل واحد من القطن سبعة من الصوف. وينسج النول الواحد في اليوم ما زنته ستة كيلو غرامات.

ولقد تأسس في غزة حديثاً مصنعان لنسج الألبسة الصوفية والقطنية والكتانية والحريرية: الأول للسيد إبراهيم اليازجي (1941م) والثاني لشركة النسيج العربية (1942م). وهذان المصنعان وإن كانا قد أحدثا تحسيناً كبيراً في نوع النول الخشبي المعروف في هذه البلاد منذ آلاف السنين إلا أنهما لا يزالان من النوع الذي يدار باليد، ولا تستعمل فيه الماكنات الحديدية ولا الكهرباء.

عادت صناعة النسيج في غزة فانتعشت وبعد أن كانت منسوجاتها غير قادرة على مزاحمة المنسوجات الحديثة ولاسيما المستوردة من أوروبا أخذت تسبقها في مضمار التجارة وذلك بسبب الحرب الحاضرة (1939) وصعوبة المواصلات مع أوروبا من جهة، وانتشار الفكرة الوطنية وتحمس أهل البلاد وإيثارهم المنسوجات الوطنية على المنسوجات الأوربية من جهة أخرى.

إن (شركة النسيج العربية) شركة مساهمة أسست في عام 1942م من السادة عبد الرزاق بدران ورشاد الشوا وعبد الرحمن الخضرا ومنيب أبي غزالة. وقد كانت عند تأسيسها مؤلفة من ثمانين سهماً قيمة السهم الواحد منها خمسون جنيهاً. ثم زيدت الأسهم إلى ضعفيها بعد عام واحد. وها هي اليوم تسير بقدم ثابتة إلى الإمام. وللشركة في يومنا هذا لجنة إدارية مؤلفة من السادة جعفر فلفل رئيساً وعبد الرحمن الخضرا، ومنيب أبي غزالة، وهاشم اللولو، وعبد الرزاق بدران أعضاء. ولها سكرتير هو السيد عبد الرحمن طبارة. ومدير فني هو السيد خيري بدران[18] والمصنع ما برح في دور التكوين. فإن فيه الآن ثمانية أنوال يعمل فيها خمسة عشر عاملاً. ومعدل إنتاجه اليومي ثمانون متراً. وفي مقدورهم الآن أن ينظفوا الصوف المحلي ويغزلوه وينسجوا منه أقمشة صوفية متنوعة لاقت من الرواج ما لا عهد لأنوال غزة به من قبل.

---

[16] - انه وإن كان في غزة وبئر السبع وما جاورها من البلدان عدد كبير من الماشية وكان بالإمكان ان يستغل الأمر فلا يستعمل في أنوال غزة إلا ما ينتجه هذا العدد من الماشية من صوف إلا ان اصحاب الأنوال لا يرغبون كثيراً في استعمال الصوف المحلي، بل يؤثرون عليه الصوف المستورد من مصر والبلاد الأخرى لنظافته واما الصوف المحلي فإنه يباع إلى التجار الذي يصدرونه إلى البلاد الأخرى، حيث ينظف بالطرق العصرية الحديثة، ثم ينسج ويطرح للبيع في أسواق الشرق المختلفة ومنها غزة

[17] - كانت اجرة المراة التي تغزل الصوف قبل الحرب 20 ملا في اليوم واما الآن فإنها 80 ملا.

[18] - درس هذا الفن في مصر وانكلترا. و الم به من ناحية الرسم والطباعة والنسيج

وقد حسنوا صناعة الصبغ لمختلف أنواع الغزل، فما عادوا في حاجة للمصابغ الأجنبية كما كانوا من قبل.

وقصارى القول إن صناعة النسيج من الأسس التي ترتكز عليها اقتصاديات غزة. فبعد أن كانت كمية الصوف المغزول فيها عند نشوب الحرب (1939) عشرة أطنان والخيوط القطنية طنين فقط، بلغت في يومنا هذا (1943) عشرة أضعاف ما كانت عليه. وبعد أن كانت قيمة الغزولات المستعملة في صناعة النسيج يومئذ لا تتجاوز الألف وخمسمائة جنيه، أصبحت الآن تتعدى العشرة آلاف. وقد جاء في الإحصاءات الرسمية التي نشرتها الحكومة أن أنوال غزة صنعت عام 1939م 2120 عباءة من الصوف النقي و 3130 عباءة من الصوف الممزوج بالقطن و 440 بساطاً من الصوف النقي و 120 بساطاً من الصوف الممزوج بالقطن.

وأما في عامنا هذا فإني أقدر الكمية التي صنعتها أنوال غزة بما لا يقل عن عشرة أضعاف ما تقدم.

19 . وأما صناعة الفخار (الخزف) فهي قديمة العهد جداً. ذكر الفخار في أسفار العهد القديم سبع مرات، وفي أسفار العهد الجديد ثلاثاً. وقد ذكر أيضاً عام 727ق. م. ويظن أنه كان معروفاً في عهد الفراعنة أيضاً. وقد عثر المنقبون على آثار للفخار في كثير من القبور والتلال والأماكن الأثرية سواء كان في غزة أو في ما حولها من البلاد والمدن. واليوم نرى الفخار في الأبنية القديمة التي هدمت أثناء الحرب الكبرى. ولاسيما في الأقبية والأسطحة التي بنيت على الطراز القديم فيما سلف من الأزمان. وقد ذكر نابليون فخار غزة في مذكراته. ويقال عنه أنه ظن المزاريب المصنوعة من الفخار مدافع صغيرة نصبت على الأسطحة لمكافحة جيشه الذي احتل يومئذ غزة. وفي قبور الهيكسوس (ملوك الرعاة) التي اكتشفها السر فلندرس بتري في تل العجول عثر على أوان صنعت من الفخار.

ولا يزال الفخار يستعمل في كثير من الأواني المنزلية بغزة: فالأباريق، والأزيرة، والكشاكيل، والطناجر، وأواني الطهي، ولقانات الغسيل، والعجين، وقدر الأرز، والمجاري، والمزاريب كلها من الفخار. ولم تنتشر صناعة الفخار في بلد بفلسطين انتشارها في غزة. ولاسيما الفخار الأسود الذي لا يوجد منه في بلد سواها.

الأباريق والجرار وباقي الأواني الخزفية تصنع في أشكالها بواسطة دولاب الخزاف، ثم تشوى في أتون قليل الغور يتراوح قطره بين 8 و 10 أقدام، ويبلغ عمقه 4 أقدام وتحته موقد النار. وكثيراً ما يقوم بهذا العمل نساء وأولاد.

كان الغزيون ولا يزالون يستعملون شقف الفخار المكسر لبناء (العقود) في المنازل، ولبناء الجدران والأسوار حول المنازل. ويظهر أن طين غزة صالح لصنع الفخار، لأن فيه قليلاً من الحديد . ولذلك فإن فخارها وإن كان خشناً إلا أنه متين ويستعمل لمدة طويلة. إن فواخير غزة قائمة كلها في مكان قريب من (تل السكن). وتفكر البلدية الآن في نقلها إلى مكان خارج المدينة. لأن المكان الحالي أصبح في وسط المدينة بين قسميها القديم والحديث بعد أن كان في الطرف الأقصى من المدينة القديمة للشمال الغربي.

وتصدر كميات كبيرة من مصنوعات الفخار إلى جميع مدن فلسطين وشرقي الأردن وحوران. وفي غزة اليوم (69) مصنعاً للفخار.

20 ـ في غزة شركة تدعى (شركة مناجم الكبريت الفلسطينية المحدودة) Palestine Sulphur Quarries Ltd. أسست عام 1930م وهي تعمل على استخراج الكبريت من أرض يقال لها (المشبة) على بعد ستة أميال من غزة إلى الجنوب الغربي. والفضل في هذه الفكرة يرجع إلى مؤسسها الكبتن ويليامز الذي رمته يد التقادير في هذه البقعة من بقاع فلسطين أثناء الحرب الكبرى (1914 ـ 1917) فعثر على نوع من الحجارة استدل منها على وجود الكبريت فيها . فاحتفظ لنفسه بما رأى، وما كادت الحرب تضع أوزارها حتى نهض يعمل على استغلال ما اكتشف.

وقد منحته الحكومة (امتيازاً) حصرت بموجبه حق الاستغلال فيه. ولما كان ما بيده من المال لا يكفي لهذه الغاية، فقد أشرك معه عدداً من المتمولين العرب في غزة وبئر السبع، وآخر من الإنكليز المقيمين بفلسطين. فتألفت على أثر ذلك شركة عربية ـ إنكليزية رأسمالها 37500 جنيه (جنيه واحد لكل سهم)، 45 المائة من أسهمها للعرب و55 للإنكليز.

أسست هذه الشركة مصنعاً ضخماً في المَشَبَّة [منجم الكبريت]، واستحضرت من إنكلترا عدداً من الماكنات والآلات الحديثة، واستخدمت عدداً من المهندسين الأخصائيين. وأما العمال فكلهم من العرب: بعضهم من غزة والبعض الآخر من البدو المجاورين.

ولقد نجحت الشركة في عملها، فاستخرجت الكبريت على درجات متفاوتة: منها ما هو ناعم بدرجة إنك تكاد لا تعرضه في الفضاء حتى تتطاير ذراته في الهواء؛ ومنها ما هو خشن؛ ومنها ما هو متوسط الحجم، وهذا هو الأكثر. وهو ينفع لمكافحة الحشرات الزراعية الفتاكة. ويقال إن قوة الفتك فيه 97 في المائة بينما هي لا تتجاوز 92 في المائة في الكبريت الإيطالي مثلاً. وأسعار الكبريت تتراوح بين العشرين والأربعين من الجنيهات للطن

الواحد. ويجري تصريفه في أسواق الهند وسيلان وتركيا واليونان ومصر، وقليل منه يصرف في سوريا وفلسطين.

لا يمكن الجزم في تقدير كمية الكبريت الذي يمكن العثور عليه في هذا المنجم. وكل ما نعلمه هو أنه أعمق نقطة توصلوا إليها تبعد عن سطح الأرض عشرين متراً فقط، وإن نسبة الكبريت في هذه الطبقات تراوحت بين 15٪ ـ 30٪ وإن معدل الاستخراج طن واحد في الساعة، هذا عندما تكون نسبة الكبريت في الفلز 20٪. فقد استخرج في عام 1936م 422 طناً من الكبريت، بيعت كلها بـ 1792جنيهاً. غير أن هذه الكمية لا تسير على نمط واحد بسبب تفاوت النسبة في مختلف الطبقات من جهة، والخلل الذي يطرأ على الماكنات من جهة أخرى. ولقد ألم بهذا المشروع شيء من الفتور في السنوات الأخيرة، ولاسيما منذ اندلاع نار الثورة الفلسطينية في عام 1936 وتبلبل الأحوال بوجه عام، وزاد الطين بلة نشوب الحرب الأخيرة (1939) وما تلاها من صعوبة في النقل، وارتفاع في الأجور، وتعذر في جلب القطع اللازمة من أوربا لتصليح الآلات التي كثيراً ما يعتريها العطب.

وما دمنا قد انتهينا من ذكر كبريت المشبة فقد يكون من المفيد أن نذكر نوعاً من الرمل يكثر وجوده في هذا الموقع أيضاً. إن هذا الرمل ليس من النوع الاعتيادي الأصفر، الذي نراه في الصحارى أو على شواطئ البحار؛ وإنما هو أبيض اللون يستعمله الأخصائيون في صنع الزجاج.

21 ـ لم يتعلم فن الهندسة من أبناء غزة سوى اثنين أحدهما السيد عبد الحق بن الشيخ محيى الدين أفندي عبد الشافي والثاني السيد نصوحي الشوا. وهناك ثمانية من أبنائها محامون نظاميون وهم السادة: رشدي الشوا، وكمال البربري، وفوزي الدجاني، والشيخ سعيد الشوا، وسعيد الخلفاوي، وسعيد زين الدين، وفهمي الشوا، وسعدي بسيسو. كما أن فيها أربعة محامين شرعيين وهم: الشيخ هاشم القيشاوي، والشيخ مصطفى بسيسو، والشيخ حسين الشوا، والشيخ نعمان الخزندار.

. 22 ـ وفي غزة ثمانية أطباء: اثنان منهم حكوميان. والآخرون يعملون على حسابهم الخاص. ومن هؤلاء غزي واحد هو الدكتور صالح أبو كميل. وهناك دكتور في الكيمياء هو السيد مجدي الشوا. ويتعاطى مهنته في العراق.

وفيها مستشفيان: واحد تنفق عليه الحكومة مع إن البناء ملك البلدية. والثاني للإرسالية التبشيرية الإنكليزية. وقد أتينا على ذكر شيء من تاريخه عند البحث عن تاريخ الإرسالية.

23 ـ وفيها ثلاث عشرة مقبرة إسلامية، إليك أسماءها :

1 ـ مقبرة الشيخ شعبان: في حي الدرج. في منتصف السوق وعند موقف السيارات. فيها جامع ومقام. وتبلغ مساحتها دونمين ونصف الدونم.

2 ـ مقبرة الشيخ سالم: أكبر مقبرة في غزة وهي واقعة بين المستشفى البلدي والإنكليزي في حي الزيتون. مساحتها ستة وستون دونماً . ويسمونها أيضاً مقبرة الشيخ شعبان. ذلك لأنهما كانتا في الأصل مقبرة واحدة. فانفصلتا عندما أنشئ شارع عمر المختار.

3 ـ مقبرة الخروبي: في حي الدرج. وبالقرب من مقام السيد هاشم. مساحتها دونمان. ويظهر أنها ومقبرة الأوزاعي واحدة. فانفصلتا عند إنشاء الشارع.

4 ـ مقبرة الأوزاعي. وتبلغ مساحتها دونمين ونصف الدونم.

5 ـ مقبرة علي بن مروان: في حي التفاح وعند مدخل المدينة من الشمال. مساحتها أربعة عشر دونماً .

6 ـ مقبرة الدمرداش: في حارة التفاح. مساحتها لا تتجاوز العشرة دونمات.

7 ـ مقبرة أبي الكاس: ويقال لها أيضاً مقبرة التونيسي وهي كائنة في حي الشجاعية عند مدخل المدينة من الشرق. مساحتها تسعة دونمات.

8 ـ مقبرة المجاهدين: ويقال لها مقبرة العواميد وهي واقعة قبلي غزة في حارة الزيتون عند مدخل المدينة من الناحية القبلية وفيها عدد من المجاهدين الذين اشتركوا في حروب صلاح الدين. مساحتها سبعة دونمات. غير أن الشوارع فصلتها إلى ثلاث مقابر.

9 ـ مقبرة آل رضوان: خاصة بآل رضوان وأحفادهم وهي واقعة بالقرب من الجامع الكبير. ومساحتها أقل من نصف الدونم.

10 ـ مقبرة آل الفصين: خاصة بآل الفصين وأحفادهم. أنها في حي الدرج. وهي قريبة من مقبرة آل رضوان. ومساحتها لا تزيد عن الدونم إلا قليلاً.

11 ـ مقبرة آل الشوا: خاصة بآل الشوا وأحفادهم وهي واقعة في حي التركمان بالقرب من حاكورة الجاولي. ومساحتها دونم واحد .

12 ـ مقبرة آل الحسيني: واقعة في حي الدرج. وهي صغيرة المساحة (ربع دونم تقريباً) وحديثة العهد .

13 ـ مقبرة المنطار: فوق تل المنطار.

وهناك ثلاثة مقابر للمسيحيين: واحدة للروم الأرثوذكس وهي واقعة في ساحة

كنيستهم. وأخرى للبروتستانت وهي خارج المدينة على طريق خانيونس. وثالثة للاتين في ساحة دير اللاتين.

وهناك (مقبرة الحرب) وهي مقبرة أقامها الإنكليز لموتاهم أثناء الحرب الكبرى. أنها واقعة في شمال المدينة على طريق يافا وبالقرب من بئر الصفا.

24 ـ وفي غزة حمامات قديمة العهد، يجري إليها الماء من بئر الصفا، ووقودها الزبل والقصل. كانت كثيرة العدد إلا أنه لم يبق منها في يومنا هذا سوى ثلاثة حمامات هي: (حمام السمرة) في حارة الزيتون، وقف آل رضوان وقفاً ذرياً؛ و(حمام السوق) في حارة الدرج، وقد أوقف ريعه على الجامع الكبير القائم بالقرب منه؛ و(حمام الشجاعية) في حارة الشجاعية. وقد اشتراه المجلس البلدي قبل بضع سنين. وكان هناك حمام رابع هو (حمام المباشر)، إلا أنه درس في الأعوام الأخيرة وبنيت مكانه الحوانيت التي يشغلها (سبني) في الوقت الحاضر.

25 ـ وفي غزة عدد كبير من المساجد والجوامع بعضها كبير تقام فيه صلاة الجمعة، والبعض الآخر صغير لا تقام فيه هذه الصلاة. وهناك مساجد قديمة أخنى عليها الدهر بكلكله فأصبحت خراباً. وقد أتينا على ذكر لمحة من تاريخ هذه المساجد في الفصل الأخير من هذا الكتاب، فليرجع إليها من شاء الإطلاع على هذه الناحية من تاريخ غزة. ويصرف على هذه الجوامع والمساجد من أموال الوقف.

26 ـ وعلى ذكر الوقف نقول: إنه يوجد في غزة أوقاف كثيرة منها الصحيح، والملحق، والمندرس، والذري.

أما الوقف الصحيح المضبوط، فإنه يدار من قبل المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى بواسطة مأمور الأوقاف الذي يمثله في غزة. ويصرف ريعه في سبيل تعمير الجوامع التسعة الكبرى التي يصلي الناس فيها الجمعة والصلوات الخمس.

وأما الوقف الملحق، فإنه يدار أيضاً من قبل المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى بواسطة مأمور الأوقاف، غير أن ريعه يصرف في سبيل الجوامع من الدرجة الثانية التي تصلى فيها الصلوات الخمس فقط.

وأما الأوقاف المندرسة، فإنها تدار من لدن لجنة الأوقاف المحلية، ويصرف ريعها على تعليم أبناء مدينة غزة. ويصرف من هذه الأوقاف أيضاً بعض المبالغ في سبيل (مدرسة الفلاح الوطنية الإسلامية) و(مدرسة العجزة).

وأما الأوقاف الذرية، فإن ريعها يصرف على المرتزقة من أبناء الواقفين وأحفادهم

بعد ما يخصم منه ما تحتاجه هذه الأملاك من تعمير وإنشاء وضرائب. وهذه قسمان: قسم يدار من قبل مصلحة الوقف رأساً كوقف الحاجة عالمة، ووقف سليمان بك آل رضوان، ووقف الخريزاتي والخزندار، ووقف حسين باشا مكي؛ وقسم يدار من قبل المتولين أنفسهم مثل: وقف فطومة آل رضوان يتولاه الشيخ عثمان الطباع، ووقف رقية آل رضوان يتولاه السيد إحسان البكرية، ووقف تحفة آل رضوان يتولاه السيد زكريا العلمي، ووقف علي بك آل رضوان يتولاه السيد شعبان الريس، ووقف كلبهار آل رضوان يتولاه السيدان توفيق وعزة العلمي، ووقف الملا أحمد يتولاه السيد خليل عاشور، ووقف مرشد فارس يتولاه الحاج حافظ رجب، ووقف الجبري يتولاه السيد رباح الريس، ووقف المشرقي يتولاه السيد مصطفى الريس، ووقف خليل آغا مكي يتولاه الشيخ سعيد مكي.

27 ـ وفي غزة (محكمة شرعية) قديمة العهد جداً، مهمتها الفصل في قضايا المسلمين وأحوالهم الشخصية: كالزواج، والطلاق، والنفقة، والمهور، والمساكن الشرعية، والاختلافات التي تحدث بين الزوجين، وما إلى ذلك من الأمور. وقد تولى القضاء الشرعي في هذه المحكمة في العهد التركي عدد كبير من القضاة لم نعثر على أسمائهم وإنما عثرنا على أسماء أولئك الذين تولوه بعد الاحتلال الإنكليزي وهم:

الشيخ وهبة أفندي شرف الدين[19]. والشيخ يونس أفندي الخطيب[20]. والشيخ أمين أفندي الحلبي[21]. والشيخ يوسف أفندي الشرقاوي[22]. والشيخ محمود فوزي أفندي الدجاني[23].والشيخ عبد اللطيف أفندي الحاج إبراهيم[24]. والشيخ رشيد أفندي البيطار[25]. والشيخ سعيد أفندي أبو شعبان[26]. والشيخ سيف الدين أفندي الخماش[27]. والشيخ سليمان أفندي السعدي[28]. والشيخ رامز أفندي مسمار[29]. والشيخ مصطفى

---

(19) - جاء مع الحملة الإنكليزية وهو مصري الأصل

(20) - من حيفا وهو الآن خطيب الجامع الكبير فيها.

(21) - من الخليل وكان معروفاً بميله للبهائية

(22) - من يافا.

(23) - من يافا.

(24) - من طولكرم

(25) - من نابلس

(26) - غزي الأصل وقد كان مفتياً وتولى القضاء الشرعي بالوكالة

(27) - من نابلس

(28) - من صفد

(29) - من نابلس وهو الآن قاضي يافا.

أفندي العوري[30]. والشيخ نسيب أفندي البيطار[31]. والشيخ مطيع أفندي الحمامي[32]. والشيخ صبحي أفندي خيزران[33].

وإليك عدد حوادث الزواج والطلاق التي سجلتها المحكمة المذكورة خلال الثماني عشرة سنة الأخيرة في مدينة غزة وقراها:

السنة	الزواج	الطلاق	السنة	الزواج	الطلاق
1924	780	145	1933	872	102
1925	813	141	1934	1060	131
1926	759	139	1935	1007	104
1927	411	107	1936	650	92
1928	782	134	1937	829	117
1929	531	101	1938	599	69
1930	656	127	1939	1297	124
1931	644	125	1940	1206	129
1932	743	94	1941	1576	166

28ـ وأما من حيث المياه فإن غزة غنية للغاية. فيها مياه غزيرة، ويمكن العثور على الماء في الأراضي الواقعة حول المدينة على عمق يتراوح بين الثلاثين والأربعين متراً من سطح البحر. وفيها أربع آبار نبع عمومية:

1ـ بئر الأجمقية
2ـ بئر الرفاعية
3ـ بئر المنتزه
4ـ بئر الصفا

أما (بئر الأجمقية) فإنها أقدم هذه الآبار عهداً. لا يعرف أحد بالضبط من الذي

---

(30) - من القدس وهو الآن قاضي الرملة

(31) - من نابلس شقيق القاضي الشيخ رشيد البيطار وهو الآن قاضي الناصرة

(32) - من يافا وهو الآن قاضي بئر السبع

(33) - من عكا وهو القاضي الحالي

حفرها، ومتى؟ غير أن جميع الغزيين يعتقدون أنها قديمة جداً. وإني لمعتقد أن اسم (الاجمقية) محرف من كلمة (الجقمقية)، وإن هذه البئر حفرت في زمن الملك الظاهر جقمق بن الملك الأشرف برسباي (عام 842 للهجرة). ومن يدري؟ لعلها هي العين التي أشار إليها السائح التركي المشهور (اوليا جلبي) عام 1160م في رحلته التي سماها (اوليا جلبي سياحتنا مه سي).

وهي واقعة في الناحية الشمالية الشرقية من المدينة. ماؤها عذب، غير أنه ليس من الغزارة بدرجة تشبع سكان غزة. عمقها 23 متراً وقطرها متران إلا قليلا. وعمق الفجر 25 متراً. كان الغزيون ينشلون منها الماء بالدلو وينقلونه بالقرب المصنوعة من الجلد، إلى أن وضعت البلدية موتوراً من نوع دويتش ذا قوة تعادل 25 حصاناً ومضخة قطرها 6 إنشات. وقد وضع الموتور والمضخة على البئر المذكورة في عام 1926. وكان ماؤها يصب في خزان منخفض في المدينة، بينه وبين البئر مسافة 550 متراً. ولقد أصاب هذا الخزان عطب شديد بسبب الزلزال الذي وقع عام 1927.

كانت البئر المذكورة وقفاً، وكانت البلدية تستأجرها من مصلحة الوقف بإيجار معين تدفعه كل سنة. ثم تملكها لمجلس البلدي باسم المدينة. وقد أحصي عدد الذين يشربون من هذه البئر عام 1929 فكانوا عشرة آلاف نسمة. وكان معدل ما ينبع فيها من الماء خمسين متراً مكعباً في الساعة.

وأما (بئر الرفاعية) فقد حفرت عام 1285 للهجرة، والذي حفرها هو أحد حكام غزة في العهد التركي (أحمد رفعت بك الشركسي). وكان هذا يومئذ متسلماً بغزة. ومن يدري؟ فلعله لم يحفر بئراً جديدة وإنما هو نظف البئر القديمة التي كانت هناك والتي كانت تعرف بـ (بئر البرج). ويظهر أن لبهرام باشا آل رضوان فضلاً كبيراً في تعميرها. إذ أنني رأيت الكلمات الآتية منقوشة عليها:

بناه أعدل الحكام بهرام بك أمير اللواء   هو ابن المصطفى باشا تكون الجنة مثواه

فلما انتهى تأسيس هذا قيل للتاريخ   سبيل الله يا عطشان بسم الله

سنة 976

ولقد عمرت في سنة 1318 للهجرة من لدن السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، كما أنشئ يومئذ (سبيل) أمامها. كما عمرت مرة أخرى في سنة 1332 من قبل ضابط تركي يدعى (إسماعيل حقي). ولكن هذه البئر مهملة في الوقت الحاضر. لأن الماء الذي

ينبع فيها قل مع تقادم العهد لدرجة أنه لا يتناسب مع نفقات استخراجه، وجره إلى أي مكان.

وأما (بئر المنتزه) فقد حفرت في عام 1933 من قبل المجلس البلدي، يوم كان فهمي بك الحسيني رئيساً له. عمقها 31 متراً، وعمق الفجر فيها 26 متراً. وقطرها ثلاثة أمتار ونصف المتر. وعليها موتور من نوع ديزل ذو قوة قدروها باثنين وسبعين حصاناً. ماؤها غزير. وقد قدرت كمية الماء الذي ينبع منها بمئة وثلاثين متراً مكعباً في الساعة. غير أنه يا للأسف مالح لا يصلح للشرب.

وأما (بئر الصفا) فقد حفرت عام 1939 من قبل المجلس البلدي الذي يرأسه رشدي بك الشوا. وهي على بعد كيلو مترين من المدينة للشمال الشرقي. عمقها 25 متراً وعمق الفجر فيها 27 متراً. وقطر البئر أربعة أمتار وعليها محرك يدار بالكهرباء، قوته تقدر بمئة وعشرين حصاناً. تربطه بالخزان مواسير ثخنها ثمانية إنشات. وقد قدروا الكمية التي تنبع منها بمئتين وأربعين متراً مكعباً في الساعة. والمهم في الأمر أن ماءها عذب للغاية. لا بل هو أعذب المياه التي وجدت في غزة على الإطلاق. ولولاها لعطشت المدينة ولا سيما في الأعوام الأخيرة عطشاً شديداً أو اضطرت لشرب مياه لا تعادلها في الجودة.

وهناك خزان يبعد عن بئر الصفا (1850) متراً تتجمع فيه مياه الآبار المتقدم ذكرها. ولقد أنشئ هذا الخزان أمام مدرسة الذكور، وكان ذلك عام 1934. وقد استعمل في بنائه الأسمنت المسلح، وكلف بناؤه (722) جنيهاً. وهو يتسع لثلاثمائة متر مكعب في وقت واحد. وقد لوحظ في عام 1941 أنه مائل بمقدار 14 سانتيمتراً. وإن هذا الميل يزداد بشكل يخشى عليه من السقوط. وهذا ناشئ عن المياه التي سالت من أنبوبة قديمة بقربه، فظلت هذه تسيل مدة من الزمن دون أن ينتبه إليها المهندسون. فأضرت بأساس الخزان ضرراً كبيراً.

إن حالة الخزان المتقدم ذكرها من جهة، وصغر حجمه وعدم اتساعه لكميات تكفي لجميع احتياجات المدينة من جهة أخرى، جعلت ولاة الأمور يفكرون في إنشاء خزان آخر غيره. وهاهو المجلس البلدي يدرس مشروعاً جديداً للماء يحتوي على إنشاء خزان كبير في موقع (في الرمال) أنسب من موقع الخزان الحالي، وعلى استبدال الأنابيب القديمة البالية بأخرى جديدة. ذلك لأن عدد سكان المدينة زاد في السنين الأخيرة زيادة تلفت الأنظار، وحاجتهم للماء أيضاً قد ازدادت بنفس النسبة. إذ أثبتت الإحصاءات التي جمعتها البلدية أن كل فرد من السكان يصرف تسعة غالونات من الماء في كل يوم من أيام الشتاء، وعشرين

غالوناً في الصيف. وهذه النسبة أكثر من تلك التي يستهلكها سكان بيت المقدس. والسبب في ذلك كثرة الحدائق المنتشرة في الرمال.

وهناك بئران للحكومة: بئر المشتل الشمالي، وبئر المشتل القبلي. وهما في وسط الغابة التي أنشأتها الحكومة لصد الرمال بين البحر والمدينة.

وهناك آبار خصوصية أحصيتها فوجدتها ثماني وأربعين بئراً: منها ثمانية في حي الدرج، وثمانية في حي الزيتون، وستة في حي الجديدة، وسبعة في حي التركمان، وتسعة في حي التفاح، وعشرة في الرمال. من هذه الآبار الخصوصية عشر بيارات مغروسة أشجاراً حمضية، وعشرون مزروعة خضاراً، والباقية مهجورة لا تجد حولها زرعاً ولا ضرعاً.

29ـ إن معدل كمية الأمطار التي هطلت في غزة منذ بداية القرن العشرين حتى يومنا هذا يتراوح بين 350 و 400 ميلمتر في السنة إليك البيان:

السنة	كمية المطر بالميلمتر	السنة	كمية المطر بالميلمتر	السنة	كمية المطر بالميلمتر
1869	214	1923	334	1933	397
1900	301	1924	334	1934	348
1901	420	1925	322	1935	274
1902	509	1926	350	1936	400
1903	287	1927	280	1937	589
1904	465	1928	350	1938	520
1919	810	1929	497	1939	366
1920	405	1930	247	1940	352
1921	462	1931	282	1941	430
1922	324	1932	238	1942	449
				1943	481

30ـ وما دمنا قد انتهينا من بحث آبار غزة ومياهها نرى لزاماً علينا أن نقول كلمة من زراعتها. وهذه تتلخص في أن تربة غزة صالحة لجميع أنواع الزراعة. وهي معروفة بخصبها منذ العهود الغابرة. والأكثرية الساحقة في غزة تنتمي إلى طبقة الفلاحين

والمزارعين. وهم مجتهدون، لا يكلون أمر الأرض وفلاحتها إلى غيرهم. يزرعونها بأيديهم ويعتمدون في ذلك على سواعدهم المفتولة.

وأما الأفندية وأصحاب الأراضي الواسعة فإنهم يؤجرون أراضيهم إلى الفلاحين بشروط مختلفة أهمها ـ وهو السائد في هذه البلاد ـ أن الملاك يأخذ أربعين في المئة من الناتج والزارع يأخذ الستين.

ولقد عرفوا الحراث العميق منذ عام 1911[34]. وبهرهم الخصب الذي حل بالزرع على أثر ذلك فأعادوا الكرة في العام الذي تلاه، وفيما بعدهما، وظلوا كذلك حتى يومنا هذا. وقد حذت سائر القرى حذو غزة، حتى كاد الاعتقاد يسود بأنه لن يبق شبر واحد من الأرض دون أن يحرث بالآلات الحديثة بمجرد انتهاء الحرب الحاضرة، وأن المحراث البلدي القديم سيختفي من هذه البلاد بالمرة.

وقد ارتفعت، على إثر ذلك، أسعار الأراضي ارتفاعاً هائلاً. فإن الدونم الواحد من الأرض بعد أن كان يباع بمجيدي واحد فيما مضى أو جنيه واحد خلال الأعوام الأولى من الاحتلال أصبح في يومنا هذا (1943) يباع بعشرة جنيهات، هذا إذا كان في أطراف المدينة وكان لا ينفع إلا لزراعة الحبوب. وأما كروم الزيتون فيباع دونمها بخمس وثلاثين جنيهاً. وأما الأرض المعدة للبناء فإن ثمنها يختلف بالنسبة لاختلاف موقعها: فبينا يكون بالإمكان شراء الدونم الواحد من الأرض المعدة للبناء في أطراف المدينة بمئة جنيه، تجد من العسير الحصول على مثل ذلك على طريق البحر بأقل من ثلاثمئة جنيه. وأما على شارع (عمر المختار) فلا يتيسر لك الدونم الواحد بأقل من ثلاثة آلاف جنيه.

ويزرع في غزة في يومنا هذا من الحبوب: القمح، والشعير، والذرة، والسمسم، والفول، والعدس، والكرسنة، والجلبانة، والحمص، والترمس، والحلبة، والبسلة، واللوبيا، والفاصوليا. ومن الخضار: الباذنجان، والجزر، واللفت، والملوخيا، والقلقاس، والبطاطا، والهليون، والملفوف، والقرنبيط، والبقدونس، والفلفل، والبقلة. ومن الأشجار الحمضية: البرتقال، والليمون، والكريب فروت، واليوسفندي، والمندلينا، والبلنسيا، والكباد، والنارنج. من الزهور: الورد، و الياسمين، والفل، والنسرين، والآس، والريحان، والبان، والأقحوان، والجلنار، وشقائق النعمان، والنرجس، والسوسن، والبنفسج. ومن أشجار الفاكهة: التين، والزيتون، والعنب، والرمان، والبطيخ، والشمام، والموز، واللوز، والجوز، والزعرور،

---

[34] - ان اول من استعمل المحراث الحديث (تراكتور) هم السادة: الحاج سعيد الشوا، وخليل بسيسو، وموسى البورنو، واحمد حلاوة فحرثوا الفاً وخمسمائة دونم من اراضيهم باجرة بلغت خمسة وسبعين قرشاً تركياً للدونم الواحد.

والمشمش، والتفاح، والبرقوق، والخوخ (أو الدراقن)، والتوت، والسفرجل، والكمثري، والجميز[35]، والنخيل.

31ـ وعلى ذكر النخيل نقول:

إن النخيل كان أكثر أشجار الفاكهة انتشاراً في غزة. حتى أن المستر شيشستر H. Chichester الذي زار غزة في يناير سنة 1884 قال: «إنها كانت مليئة بالكروم والبساتين. وكان فيها من جميع أنواع الفاكهة والنخيل والزيتون. وأن أكثر أشجار الفاكهة انتشاراً فيها هو النخيل فالزيتون، فالجميز، فالخروب، فالتين».

إلا أن أشجار النخيل تناقصت بعدئذ. ذلك لأن الأتراك قطعوه أثناء الحرب الكبرى (1914 ـ 1918) ليصنعوا منه سقوفاً لمتاريسهم في الجبهة. وقد كانوا يأكلون لبه المعروف بالجمار. وهو مادة بيضاء اللون، طعمها لذيذ، وهي منعشة للغاية. ولأجل الحصول عليها كان لابد من قطع النخل لأن اللب المتقدم ذكره متوفر عند رأسها.

32ـ وكذلك قل عن العنب. فقد كانت غزة مشهورة بعنبها. وكان فيها مساحات واسعة من الكروم. وخمر غزة كان مشهوراً في أكثر أنحاء العالم. وتجارة الخمور كانت رائجة على مر العصور. وقد جاء في الروايات السالفة أن خمراً حملت من غزة إلى سوق (مجنة) قرب مكة قبل الإسلام. وقد ذكره أبو ذؤيب في شعره فقال:

سلافة[36] راح[37] ضمنتها اداوة[38] مقيرة[39] ردف[40] المؤخرة الرحل[41]

تزودها من أهل بصرى وغزة على جسرة[42] مرفوعة الذيل والكفل[43]

فوافى بها عسفان ثم أتى بها مجنة تصفو في القلال[44] ولا تغلي

---

(35) - إن هذه الشجرة محبوبة لدى الغزيين، وهي مباركة في نظرهم إذ ان ثمرها مفيد للبدن ومغذ للغاية يأكلونه طازجاً ومجففاً وخشبها ذو فائدة عظمى يستعملونه في بناء المنازل والآبار لقوته ومتانته فلا الماء ينفذ إليه، ولا السوس يجد مجالاً لأن ينخر فيه

(36) - السلافة هي الخمر.

(37) - الراح هو الخمر.

(38) - الاداوة المطهرة [قربة من الجلد يحمل فيها الماء والأشربة]

(39) - المقيرة: المطلية بالقار.

(40) - الردف الراكب خلف الهجان

(41) - الرحل مركب للبعير.

(42) - الناقة العظيمة الماضية

(43) - الكفل مركب للرجال يؤخذ من كساء فيعقد طرفاه فيلقى مقدمه على الكاهل ومؤخره ما يلي العجز.

وأما الآن فليس في مدينة غزة نفسها من كروم العنب إلا القليل. ولكن هذه الكروم كثرت وانتشرت في بريرة، والجورة، وحمامة وغيرها من القرى القريبة من غزة بدرجة أنها أصبحت تضاهي كروم الخليل ورام الله وغيرها من المدن الفلسطينية المشهورة. حتى أن عنب بريرة نال الجائزة الأولى في معرض لندن.

33. وأهم صادرات غزة هو الشعير. ذلك لأن شعير غزة وبئر السبع وما بينهما من الأراضي يصلح لصنع الجعة (البيرا) أكثر من أي نوع آخر من أنواع الشعير الذي ينبت في أنحاء فلسطين الأخرى. فقد ثبت ذلك يوم أرسلت حكومة فلسطين (عام 1924) نماذج متنوعة من الشعير الفلسطيني إلى إنكلترا، ففحصت كلها، ووجد أن شعير هذه البلاد يحتوي على نسبة عظيمة من المواد النافعة لصنع الجعة. وقد نال استحسان الخبراء والفاحصين. وتقدر مساحة الأراضي التي تزرع شعيراً في قضاء غزة بـ 150.000 دونماً، وفي قضاء بئر السبع 1.500.000 وهذه المساحة تؤلف 70 في المائة من مساحة أراضي فلسطين التي تزرع شعيراً.

ولقد كان تصدير الشعير إلى إنكلترا قبل الحرب أكثر منه في يومنا هذا. فقد صدر في سنة 1908 من غزة كمية قدرها 38000 طناً وفي سنة 1913 انخفضت الكمية المصدرة إلى 18.400 طناً. وقد حدثني عدد كبير من رجال غزة فقالوا إنه رسا على شاطئ غزة في سنة من السنين التي سبقت الحرب الكبرى (1914 - 1918) أربعون باخرة. أبحرت كلها إلى أوروبا حاملة ستين ألف طن من شعير هذه البلاد. وأما في السنوات الأخيرة فقد تضاءلت هذه الكمية تضاؤلاً محسوساً وذلك للأسباب التالية:

آ - ازدياد مساحة الأراضي التي غرست أشجاراً حمضية.

ب - رفع الزبل من الأراضي المعدة لزراعة الحبوب وبيعه لأصحاب البيارات ليزبلوا به بياراتهم.

ج - قلة الأمطار.

ويعلل البعض انحطاط تجارة الشعير وتناقص صادراته بقانون الامتناع عن المسكرات. ذلك القانون الذي سنته الولايات المتحدة في أمريكا في أوائل القرن الحاضر، والذي عاش بضع سنين ثم ألغي. وفي أثناء المنع وجد الشعير الكالفورني مجالاً للبحث عن أسواق بأوروبا يروج فيها. وقد نجح في الوصول إلى ضالته المنشودة فوجد السوق التي

---

(44) - القلال جمع قلة وهي الجرة الكبيرة

يبتغيها ولا سيما في إنكلترا. أضف إلى ذلك أن أجرة النقل من كاليفورنيا إلى إنكلترا أرخص بكثير منه إليها من فلسطين. كما أن الإنكليز أنفسهم أخذوا يكثرون من زراعة الشعير في بلادهم.

وكان بذلك القضاء على صادرات الشعير من هذه البلاد. حتى أن الكمية التي صدرت من هنا لم تتعد في أي سنة من السنين التي تلت الحرب الكبرى 18000 طناً. وإليك بياناً بعدد السفن التي رست على شاطئ غزة وكميات الشعير التي حملتها خلال السنوات التالية:

السنة	عدد السفن	كمية الشعير بالطن	السنة	عدد السفن	كمية الشعير بالطن
1928	61	2366	1932	32	907
1929	38	2630	1933	19	1079
1930	34	18616	1934	24	5277
1931	42	3958	1913	24	2344

ومن العوامل الأخرى تذبذب حالة الأمطار في منطقة غزة. إذ أن تجار الشعير في البلاد الأجنبية يؤثرون التعامل مع البلاد التي تستطيع تزويدهم بالكميات التي يطلبونها في كل عام. ذلك خير من التعامل مع بلاد تعجز في بعض السنين عن تزويدهم بما يطلبون بسبب قلة الأمطار.

هذه مصيبة كبرى أصابت الشعير، فطعنت اقتصاديات هذا البلد في الصميم. ذلك لأن عدداً كبيراً من سكان هذه البلاد كان يعيش من وراء زراعة الشعير وتجارته. فالملاك الذي يملك الأرض، والزارع الذي يزرعها، والحصاد، والجمال، والتاجر، والنوتي، حتى العتال. وهؤلاء كلهم يؤلفون الأكثرية الساحقة في هذه البلاد. ما كانوا يتنفسون الصعداء إلا في موسم الشعير. أما اليوم وقد زال الشطر الأكبر من هذه النعمة فقد أخذ الناس يتحدثون عن الشعير، وتجارة الشعير، وأرباح الشعير كشيء كان وانقضى. وسبحان الذي لا يزول.

34. وهناك مصيبة أخرى ألمت بسكان هذه المدينة عن طريق الزيتون فقد كانت غزة، حتى قبل زمن قريب، مشهورة بزيتها وزيتونها. وكان زيتها يصدر إلى الخارج وإلى سائر المدن الفلسطينية بكميات كبيرة. وكان في غزة وحولها غابات كثيفة من أشجار الزيتون، حتى قيل إن هذه الغابات كانت تمتد من وادي غزة إلى دير سنيد. وهناك من يقول إنها كانت تمتد إلى أسدود أو إلى ما أبعد من ذلك.

وكان فيها عدد كبير من معاصر الزيت[45]. وفي يومنا هذا تجد أينما حللت بقايا من البدود القديمة، والحجارة الكبيرة التي كانوا يستعملونها لعصر الزيتون واستخراج الزيت منه.

وكانت تجارة الزيت من التجارات الرائجة التي ترتكز عليها اقتصاديات المدينة. وكان الغزيون يخزنونه في آبار يحفرونها تحت الأرض لهذه الغاية.

ومن شدة شغفهم بالزيت واختزانه أنهم يحدثونك عن بعض المنازل التي بنيت في غزة واستعمل في بنائها الزيت بدلاً من الماء. ويقولون أن الجامع الكبير بني على هذه الطريقة. كما أن أحد وجوه غزة استعمل الزيت في بناء جدار له عندما علم أن الغزاة من البدو سيغزون غزة، وأن زيته واقع لا محالة في أيديهم.

وشجرة الزيتون شجرة مباركة جاء ذكرها في القرآن الكريم، وفي أسفار العهد القديم. والذي يتتبع هذه الأسفار يرى أن أول من أتقن زراعة الزيتون وصناعة الزيت هم الكنعانيون. وقد أخذ بنو إسرائيل عنهم هذه الزراعة. وكذلك فعل الفلسطينيون وفي طليعتهم الغزيون. فقد كانوا يعتنون بشجرة الزيتون اعتناء شديداً. وكان الزيت يجمع في جرار، أو في زقاق مصنوعة من الجلد. وكانوا يأكلونه مع الخبز، ويصدرونه إلى مصر وإلى تركيا وبر الأناضول، ويصنعون منه الصابون. وكان في غزة عدد كبير من المصابن. وكان صابون غزة رائجاً في أسواق الشرق الأدنى ولا سيما في مصر. وكان الغزيون يستعملون الزيت للضوء والعلاج، فيدهنون به الجلد والجروح والرأس في حالة الصداع، والصدر في حالة البرد؛ كما يدهنون الشعر بقصد تطويله. وكانوا يقطفونه بطريقتين إما بالصعود على سلم وقطف الحبة بعد الأخرى من الزيتون، أو بجده جداً بعصا طويلة. وبلغ مجموع ما جني من عشر الزيتون عن غزة وما جاورها من القرى عام 320 هجري (904م) 12569 قرشاً تركياً. وبعضهم يقول إنه بلغ في سنة من السنين ما لا يقل عن 1500 ليرة عثمانية ذهباً.

وكان سعر الجرة من الزيت (أي ستة أرطال) مجيدياً تركياً ونصف مجيدي. ومعنى ذلك أنه كان بإمكانك أن تشتري كل أربع جرار من الزيت بجنيه من الذهب الإنكليزي.

وأما اليوم فأشجار الزيتون في غزة قليلة وناتجها من الزيت يكاد لا يسد ربع حاجة سكانها، دع عنك التصدير إلى الخارج. ذلك لأن الجيش التركي الذي كان مرابطاً في غزة أثناء الحرب الكبرى (1914 - 1917) قطع 95 في المائة من أشجار الزيتون ليستعمل حطبها

---

[45] - يسمونها في هذه البلاد (بدود) وواحدها (بد).

للوقود بدلاً من الفحم الحجري في تسيير القطارات. فقضى بذلك على الغابات الكثيفة من أشجار الزيتون التي كانت تحيط بغزة من كل جانب.

وبعد أن كانت غزة من أشهر المدن الفلسطينية[46] بزيتها وزيتونها وصابونها أصبحت اليوم أقل هذه المدن إنتاجاً من هذه الناحية. فليس في غزة اليوم مصبنة واحدة، وقد دلت الإحصاءات التي قامت بها مصلحة الزراعة بفلسطين على أن المساحات المزروعة زيتوناً في فلسطين بلغت عام 1931 نصف مليون دونم وعدد أشجار الزيتون المغروسة فيها 4.059.950 وهذه توزع بين المدن الفلسطينية بالنسبة الآتية:

عدد	المدينة	عدد	المدينة
634185	نابلس	90000	القدس
624885	عكا	77865	طبريا
600000	جنين	68400	الخليل
507120	الرملة	45000	بيت لحم
495000	طول كرم	29250	يافا
357500	رام الله	10965	غزة
225000	صفد	3045	بيسان
150000	حيفا	300	أريحا
141435	الناصرة		

35ـ وكأن هاتين المصيبتين مصيبة الشعير ومصيبة الزيتون لم تكفيا، فقد ألم بغزة مصيبة ثالثة أصابت اقتصادياتها في الصميم. وهذه المصيبة الكبرى (ثالثة الأثافي) هي البرتقال. فقد انشأ عدد كبير من أصحاب الأراضي في هذه البلاد بيارات غرسوا فيها مئات الألوف من الأشجار الحمضية. ولا سيما في عام 1934 والأعوام التي تلت فقد وصل اهتمام الغزيين بالبيارات والأشجار الحمضية الذروة العليا. لأن تجارة الحمضيات كانت رائجة، وقد ربح الكثيرون منها أرباحاً لا تقدر. غير أنه سرعان ما انقلبت الآية، وباءت

[46] - قال المستر هيشستر H. Chichester الذي زار غزة في شهر يناير من سنة 1884م: «إن غزة كانت مليئة بالكروم والبساتين من جميع انواع الفاكهة وإن اكثرها انتشاراً هو النخيل فالزيتون وان زيتونها قديم جداً. وانه يوجد حول غزة غابات واسعة من الزيتون تمتد من الشمال والشرق إلى اربعة اميال، وانه لم يكن في فلسطين كلها غابات للزيتون اوسع من الغابات التي كانت في غزة»

هـذه التجـارة بالفـشل والخـسران، لكثـرة مـا غـرس مـن البيـارات بعـد ذلـك، ولمشاكـسة الظروف والأحوال التجارية.

وقد زاد الطين بلة نشوب الحرب الأخيرة (1939 ـ 1942) فقد بارت هذه التجارة بالمرة. إذ أصبح من العسير جداً تصدير البرتقال إلى خارج فلسطين بسبب الحرب القائمة وفقدان وسائط النقل وقلة العمال وغلاء أجور النقل والشحن والتأمين وما إلى ذلك. هناك 34184 دونماً من الأرض مغروسة أشجاراً حمضية. والكميات التي تنتجها أكثر مما يستطيع سكان البلاد استهلاكه. وهاهم [أولاء] أصحاب البيارات يلفظون أنفاسهم الأخيرة، لولا أن الحكومة تمدهم بالقروض المالية بين الفينة والفينة، ولولا المبالغ التي يستقرضونها هم من المصارف (البنوك).

36ـ وفي غزة مصرفان يتعاطيان الصرافة وخصم الكمبيالات وسائر الأعمال المالية والتجارية والزراعية. أحدهما فرع للبنك الزراعي العربي في القدس وقد أطلق عليه مؤخراً (بنك الأمة العربية). وقد تأسس هذا الفرع عام 1934. والثاني فرع لبنك باركليس في يافا. وقد تأسس هذا الفرع عام 1935.

37ـ ويكثر في غزة صيد السمك بجميع أنواعه، وأشهرها:

:1	السردين المبروم	:8	الدّهبان	:15	الطوبارة
:2	المسقار	:9	المطعوط	:16	البرش
:3	الغنبار	:10	السرغوس	:17	كلب البحر
:4	اللقز	:11	الطرخون	:18	الغبس
:5	الفرّيدن	:12	السلطان إبراهيم	:19	الانتياس
:6	الداقور	:13	المليطي	:20	الاسفرنة
:7	البوري	:14	البلميدة	:21	العصفور

وهناك أنواع أخرى من السمك، لكنها غير مقبولة: كالاجاج، والارفيدة، والكبان، والمكشل، والحفش، والقربي، والجِربيدن، والمنورين، والمرامير، وسمك موسى، وصوفر، والصلبي، وسلحفاة البحر، والأصداف وما إلى ذلك. ولقد تراوح وزن ما اصطيد من السمك على شاطئ غزة بين عام 1933 و 1941 بين خمسين ومئة وخمسين طناً في السنة. بلغ ثمنها في سنة 1941 اثني عشر ألف جنيه.

وهناك في قضاء غزة ثمانية مواقع ـ خلا غزة ـ واقعة على شاطئ البحر المتوسط، وتتعاطى صيد السمك. وإليك أسماءها حسب أهميتها وكثرة عدد الصيادين فيها؛ وهي

من الشمال إلى الجنوب: حمامة، الجورة، هربيا، النزلة، جباليا، الشيخ عجلين، دير البلح، خان يونس.

وأنه لما يستلفت النظر أن هذه المواقع كلها واقعة على بعد يتراوح ما بين كيلو مترين إلى ثلاثة كيلو مترات من الشاطئ. وليس بينها ما يقوم على الشاطئ نفسه. واعتقد أن السبب في ذلك هو خوف السكان الأقدمين وخشيتهم من شر قرصان البحر.

ويعزى التقدم في صيد الأسماك إلى ازدياد عدد السكان، وإلغاء الضريبة القديمة على الأسماك المصطادة وقدرها 20 في المائة، وحماية المصايد بقانون سن لهذه الغاية عام 1926 واسمه (قانون مصائد الأسماك). أضف إلى ذلك أن الأهلين أنفسهم أصبحوا يعرفون ما في السمك من قوة غذائية، وما في صيده والاتجار به من الفوائد الاقتصادية. غير أن هذا التقدم لم يخفض من سعر السمك في الأسواق بل زاده صعوداً بسبب الحرب القائمة. وبعد أن كان رطل السمك يباع قبل الحرب الحاضرة بثمانية عشر قرشاً فلسطينياً أصبح اليوم (1943) يباع بتسعين قرشاً بغزة، وإذا ما قدر له الوصول إلى القدس ويافا وتل أبيب بيع فيها بما يقرب من الجنيهين.

ويظهر أن سكان غزة الأقدمين كانوا مولعين بصيد السمك، وعلم الأسماك. حتى أنهم كانوا يصنعون حليهم ومجوهراتهم بشكل السمك الذي يحبونه.

ولقد رأى الأستاذ كليرمان غانو، سنة 1870م، عند صائغ من صياغ غزة قطعة ذات قيمة أثرية، لم يستطع ابتياعها بسبب غلائها، وقلة المال لديه. ولكنه سمع مؤخراً أنها اشتريت باسم متحف (اللوفر) بفرنسا من لدن المسيو دو صولسي M. de Saulcy.

وهذه القطعة عبارة عن حجر منبسط ذي صفائح خضراء اللون قاتمة. وهذا الحجر مقطوع بشكل سمكة مساحتها 12 × 7 سانتيمتراً وأطرافها مزينة بنقوش خفيفة. وفي مكان العين ثقب عميق مستدير. وفي القسم الأعلى من الحجر ثقب عميق آخر يظهر أنه صنع خصيصاً للتعليق. ومن هذه نفهم أن الحجر مصنوع بشكل تعويذة. ومنه أيضاً نفهم أن (علم الأسماك) كان ذا شأن في غزة والمدن الساحلية الفلسطينية الأخرى.

38. ويكثر في غزة أيضاً صيد الفر. إنه، على ما اعتقد، (السلوى) التي ورد ذكرها في القرآن والتوراة. ويجيء هذا في أغسطس وأيلول من أشهر الصيف. والمعتقد أنه يجيء من الجزائر وتونس وسائر البلاد الواقعة في أفريقيا الشمالية، ومن إيطاليا وفرنسا وسائر البلاد الواقعة في أوروبا الجنوبية.

39. ليس لغزة اليوم مرفأ، وإنما هناك (لسان) ممتد في البحر على طول خمسين

متراً تقريباً. وهو مصنوع من الأسمنت المسلح. ولقد أنشئ هذا اللسان في أوائل عهد الاحتلال الإنكليزي على أمل أن يساعد السفن التي ترسو على الشاطئ. ولكن هذا المشروع قد أخفق، وظلت السفن ترسو على بعد من الشاطئ.

والظاهر أنه كان لها مرفأ صغير. غير أن مرفأها هذا كان في معظم أدوار التاريخ[47] دون سائر موانئ الشام. ولم يكتب له أن ينتفع به حق الانتفاع إلا في أوقات قليلة. وقد أنشئ في الموضع نفسه لسان من الحديد في العهد التركي.

وعلى الرغم من عدم وجود مرفأ فقد كانت السفن تأتي إليها بكثرة، فترسو عند أقرب نقطة من الشاطئ يمكنها أن ترسو فيها، لتأخذ الكميات الكبيرة من الشعير[48] التي كانت تصدر من غزة أو من بئر السبع عن طريق غزة إلى أوروبا والبلاد الواقعة في حوض البحر الأبيض المتوسط.

وإليك عدد المراكب الشراعية والسفن التجارية التي رست على شاطئ غزة من سنة 1929 إلى سنة 1939:

السنة	المراكب الشراعية		السفن البخارية		مجموع المراكب والسفن	
	عددها	حمولتها طن	عددها	حمولتها طن	عددها	حمولتها طن
1929	98	3422	1	955	99	4377
1930	51	2171	15	24849	66	27020
1931	43	1792	1	2199	44	3991
1932	28	1468	-	-	28	1468
1933	22	984	1	200	23	1184
1934	30	1058	2	4460	32	5518
1935	31	1622	5	3696	36	5318
1936	10	467	3	2973	13	3440
1937	54	2944	11	5246	65	8190
1938	41	2071	1	11	42	2082
1939	7	592	-	-	7	592

[47] - خطط الشام

[48] -يقال ان المعدل الوسط من محصول الشعير الذي كان يشحن من غزة في السنة كان لا يقل عن مليون كيلة والكيلة عشرون كيلو فتكون الكمية المصدرة عشرين مليون كيلو وفي سنة من السنوات التي سبقت الحرب الكبرى رسا على شاطئ غزة اربعون باخرة حملت إلى أوروبا ستين الف طن من شعير هذه البلاد انظر إلى الصفحة 288 من هذا الكتاب

ولم ترس على شاطئ غزة أية سفينة بخارية منذ نشوب الحرب الحاضرة (1939 - 1943)

40. وأما السفر من غزة وإليها فإنه يجري هذا بواسطة السيارات بالدرجة الأولى والقطار بالدرجة الثانية. وأجرة السفر بالسيارة الصغيرة (التاكسي) من غزة إلى يافا 400 ملا وإلى بئر السبع وخان يونس 150 ملاً وإلى المجدل 100 ملٌ وإلى الفالوجة 300 ملٌ. وبالسيارة الكبيرة (الباص) من غزة إلى يافا 200 ملٌ وإلى بئر السبع 100 ملا وإلى المجدل وخان يونس 60 ملاً وإلى الفالوجة 140 ملا. وأما بالقطار فإن أجرة السفر من غزة إلى يافا بالدرجة الأولى 715 ملا وبالدرجة الثانية 475 ملا وبالدرجة الثالثة 215ملا. وإلى المجدل وخان يونس بالدرجة الأولى 215 ملا وبالدرجة الثانية 145 ملا وبالدرجة الثالثة 90 ملا. أما السكة الحديدية فإنها ملك الحكومة. وأما السيارات الصغيرة فإنها ملك أصحابها من الغزيين. وأما الباصات فإنها لشركة منحت وحدها حق تسيير الباصات في هذه المنطقة. اسمها (شركة سيارات غزة والقرى الجنوبية المحدودة)، ورئيسها السيد محمد أبو رمضان. رأسمالها كان في تاريخ تأسيسها (1933) أربعة آلاف سهم، كل سهم بجنيه واحد، وأما الآن فقد بلغ خمسين ألف جنيه.

41. في غزة مطار واسع أنشئ عام 1927. وهو واقع قبلي (تل المنطار). ولقد كان مطار غزة هذا المطار الرئيس لنقل البريد والركاب عن طريق الجو، لا في فلسطين وحدها، بل وفي الشرق الأوسط كله. وكان ثمة حركة نقل وسفر واسعة النطاق بين فلسطين وشرقي الأردن وسوريا ومصر والعراق ولبنان وتركيا وأوروبا. والشركات التي كانت تقوم بتنظيم هذه الحركة هي:

1. شركة الطرق الجوية الإمبراطورية المحدودة Imperial Airways Ltd
2. شركة الخطوط الجوية الهولندية الملكية K.L.M Royal Dutch Lines
3. شركة الطيران المصرية Misr Airlines
4. شركة لوت (Lot) البولندية

وكانت هذه الشركات تتبارى في الجو من حيث السرعة والنظافة والإتقان. ووصل تنافسها في عام 1935 حداً تضاعفت معه مواعيد السفر، فجعلت أربع مرات في الأسبوع بعد أن كانت اثنتين فقط. وكذلك قل عن الأجور، فجعلت أجرة الراكب بين غزة والقاهرة وبينها وبين بيروت خمس ليرات.

ولما كانت غزة في مركز متوسط لنقل البريد بين البلدان المتقدم ذكرها فقد كان

البريد يأتي إليها من كل صوب، ويوزع منها إلى جميع الأنحاء بسرعة[49] وبأوقات منظمة لا يعتورها الخلل إلا نادراً. وظلت الحال كذلك حتى عام 1937، إذ أنشئ مطار اللد. فاحتل ذلك المطار المكان الأول الذي كان يحتله مطار غزة.

ونلاحظ اليوم أن مطار غزة وإن كانت قيمته قد تضاءلت من هذه الناحية (أي من حيث نقل البريد والركاب) إلا أنه احتفظ بأهميته من الناحية العسكرية، ولا سيما خلال الحرب الحاضرة (1939 ـ 1943).

42. إن مساحة قضاء غزة 1196 كيلو متراً مربعاً. ويعيش في كل كيلو متر مربع من الأرض مئة شخص من السكان تقريباً. وهذه المساحة تحتوي على 1.106.983 دونماً من الأرض. وإليك تصنيفها من الوجهة الزراعية:

دونم		دونم	
699.823	أراض زراعية	1550	مدينة غزة (أبنية)
34184	أشجار حمضية	643	مدينة المجدل (=)
104792	أشجار فاكهة (غير الحمضيات)	500	مدينة خانيونس (=)
42843	أراض غير مزروعة	2693	قرى غزة (=)
200.000	أراض رملية	19955	مساحة الطرق والأودية

كانت أراضي غزة، المدينة والقضاء معاً، من الصنف المعروف بالمشاع. ولم تكن مفروزة قط. وكثيراً ما عانى أصحابها الآلام من أجل إثبات ملكيتها وتقسيمها وزرعها إلى أن اعتزمت الحكومة القيام (بتسوية) عامة. وبدأت في إخراج عزمها هذا إلى حيز الوجود في عام 1928. فمسحت هذه أولاً على الطريقة المصرية؛ ثم قسمت إلى قطعات كبيرة، فقسائم صغيرة عرفت مساحة كل منها على التمام؛ وقد أتيح لكل إنسان أن يبدي رأيه ويقول قوله كما سمح له ـ في حالة فقدان التفاهم ـ أن يتقاضى وخصمه أمام مأمور التسوية بصفته القضائية، وأمام (محكمة الاستئناف العليا) عند مسيس الحاجة. وعلى هذا المنوال تمت تسوية الأراضي، أو كادت، في غزة نفسها وفي جميع أنحاء القضاء ولما ينقض على البدء بها سوى خمسة عشر عاماً. فترى أن كل إنسان يملك أرضاً في غزة يعرف أرضه، ويعرف مساحتها بالضبط، ويعرف أيضاً كيف السبيل إلى استغلالها على أحسن وجه.

43. ويشتمل قضاء غزة على مدينتين في كل واحدة منهما مجلس بلدي: غزة، وخان

---

(49) ـ كان باستطاعة المرء ان يتناول الرسالة التي ترسل إليه من اثينا مثلاً في سبع ساعات

يونس[50]، ومدينة ثالثة فيها لجنة بلدية[51] هي المجدل، ورابعة فيها مجلس محلي هي الفالوجة[52].

وهناك ثلاثة وخمسون قرية تعتبر من أعمال لقضاء غزة وهي: بربرة[53]، برقة[54] برير، بطاني شرقي، بطاني غربي، بعلين، بني سهيلة، بيت جرجا[55]، بيت حانون[56]، بيت دراس، بيت طيما، بيت عفا، بيت لاهيا[57]، تل الترمس، جباليا، جسير، جلدية، الجورة[58]، جولس، الجية، حتا، حليقات، حمامة[59]، خزاعة، خصاص، دمرة، دير البلح[60]، دير سنيد، رفح، سدود[61] سكرير، سمسم، سوافير شمالي، سوافير شرقي، سوافير غربي، صميل، عبدس[62] عبسان، عراق سويدان، عراق المنشية، القسطينة، كراتيا، الكوفخة، كوكبة، المحرقة، المسمية الكبيرة[63] المسمية الصغيرة، نجد، النزلة، نعليا، هربيا[64]، هوج، ياسور.

---

[50] -عدد سكانها في يومنا هذا عشرة آلاف فيها مجلس بلدي مؤلف من ستة اعضاء، ورئيس هو السيد عبد الرحمن الفرا.

[51] - تولى مؤلف هذا الكتاب رياسة هذه اللجنة في عامي 1941 و 1942. وقد تولاها من بعده السيد يوسف الشريف ومعه خمسة اعضاء. والمجدل مدينة زراعية وتجارية وصناعية في آن واحد إنها مشهورة بمنتوجاتها الحريرية والقطنية والكتانية فيها سبعمائة نول تدار باليد.

[52] - قرية كبيرة ينوف عدد سكانها على السبعة آلاف وفيها مجلس محلي ذو عشرة اعضاء، رئيسهم الشيخ محمد عواد من خريجي الأزهر بمصر.

[53] - ولد فيها الشيخ يوسف البربراوي، وهو من الرجال الصالحين قال مجير الدين ان الشيخ يوسف هذا هو ابو المحاسن يوسف البربراوي وهو من العلماء الأعلام في الفقه والتشريع.

[54] - فيها النبي (برق).

[55] - يعتقد الأستاذ (كليرمان غانو) ان هذا الاسم محرف وأن أصله (بيت جرجه) وهي التي ذكرها ياقوت، وقال عنها انها قرية من قرى عسقلان.

[56] - إنها عاصمة (حانون) ملك غزة في عهد آشور. وهو الذي حالف المصريين ليتخلص من نير الآشوريين غير انه فشل، ووقع اسيراً في يد اعدائه .

[57] - ولد فيها ذاكر العجمي.

[58] - ويسمونها (جورة عسقلان) كانت عروس سوريا. وقد جاء في الحديث النبوي: «طوبى لمن سكن إحدى العروسين: غزة وعسقلان». ولقد أريق الكثير من دم المسلمين على أسوارها أثناء الفتح الإسلامي وأثناء الحروب الصليبية ولد فيها عدد كبير من الأدباء منهم وأشهرهم القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي اللخمي العسقلاني كما ولد فيها الخليفة الفاطمي العسقلاني الملقب (الحافظ لدين الله) فيها آثار قديمة.

[59] - ولد فيها عبد الجبار الخثعمي.

[60] - ولد فيه ابو بكر الداروني وعلى مقربة منها خربة داثن التي نشبت فيها المعركة الثانية بين الروم والعرب في الفتح الإسلامي تلك المعركة التي أبلى فيها أبو أسامة الباهلي بلاءً حسناً.

[61] - إن الصحابي المعروف عبد الله بن ابي سرح رضي الله عنه مدفون في هذه القرية.

[62] - ولد فيها شهاب الدين احمد بن عبد الله الكناني.

[63] - هنالك خربة بالقرب من المسمية الكبيرة تدعى (سناجية) اتخذها الصحابي الجليل ابو قرصافة جندرة بن حبيشة مقاماً له، حتى أنها كانت تعرف بقرية أبي قرصافة (بلادنا - فلسطين لمصطفى الدباغ).

وفي قضاء غزة عشيرة واحدة تدعى (أبو سويرح) يعيش قسم من أفرادها بالخيام وبيوت الشعر، والقسم الآخر في منازل مبنية من طوب الأسمنت والحجر الرملي؛ ومنازلها قريبة من وادي سكرير.

وفي قضاء غزة عشر مستعمرات يهودية هي التي نذكرها لك في البيان التالي. وأنك لتجد فيه تاريخ تأسيس كل واحدة منها، ومساحتها، وعدد سكانها في يومنا هذا:

العدد	اسم المستعمرة		سنة التأسيس	المساحة بالدونمات	عدد السكان
	العربي	العبري			
1	بيار تعبيا[65]	באך טובית	1895	4700	655
2	غان يبنا [66]	גן.יבח	1933	47300	450
3	كفار بتسارون [67]	כפך בצדון	1933	1000	120
4	نقبا [68]	נגבח	1939	2600	245
5	كفار واربورغ[69]	כפך. ודבודג	1939	2000	200
6	غات [70]	גח	1941	5500	174
7	دوروت[71]	דודות	1941	5500	205
8	محار. سمسم	מחך שומשום	1942	4000	50
9	نير حايم	כיך.חיים	1942	2300	40
10	رامات هاشومرون[72]	דמת חשוסרון	1943	6000	35
				37.900	2.174

أما الأولى والثالثة والخامسة فإنها (موشاو) מושב أي أن كل يهودي يعيش في أية

---

(64) - ولد فيها محمد بن الفضل المطري.

(65) - معناها (بئر خير الله) وقد ثار العرب فدمروها في أوائل الاحتلال وانشئت من جديد عام 1930.

(66) - معناها (بستان الحكمة).

(67) - معناها (القرية المحصنة) كانت بادئ ذي بدء مع غان يبنا ثم انفصلت عنها عام 1939.

(68) - معناها (إلى الجنوب).

(69) - نسبت إلى (فيلكس واربورغ) أحد زعماء اليهود في أمريكا.

(70) - سميت على اسم (عات) الفلسطينية القديمة التي يعتقد انها بالقرب من هذا المكان

(71) - إن هذا الاسم يتكون من الأحرف الثلاثة الأولى للزعيم اليهودي (دوف هوز) وامرأته (رفقة) وبنته (ترصة).

(72) - إنها أول مستعمرة يقيمها اليهود المتدينون

واحدة من هذه المستعمرات الثلاثة يملك لنفسه ما يستطيع من الدور والأراضي والحيوانات. غير أن سكان المستعمرة يؤلفون (جمعية تعاونية) تتولى شراء ما يحتاج إليه هؤلاء السكان، وجمع ما ينتجونه من حبوب وبيض وألبان وما إلى ذلك، وتخزن هذه النواتج في مخزن واحد، ثم تقوم بتصريفها في الأسواق الفلسطينية وتوزيع أثمانها، مع الربح، على أصحابها. ولكل واحدة من هذه المستعمرات (لجنة إدارية) هي المسؤولة عن تنظيم هذا التعاون بالإضافة إلى تدبير شؤون المستعمرة الأخرى: كمشاريع الماء والصحة والتعليم. وتنتخب هذه اللجنة من قبل سكان المستعمرة كلهم ذكوراً وإناثاً. ومما يجدر ذكره في صدد هذا النوع من الاستعمار أن رب البيت نفسه يقوم بجميع الأعمال التي تتطلبها مزرعته الخاصة. ولا يجوز له استخدام عمال من الخارج. وأما (غان يبنا) فإنها (موشاوا) מושבה أي أنها تعيش على المجهود الفردي. لكل امرئ من سكان هذه المستعمرة ملكه الخاص من أرض وحيوان وعقار. وهو حر التصرف بملكه ومنتجاته. وليس ثمة تعاون بين الأفراد بالمعنى المتقدم.

وأما المستعمرات الأخرى فإنها (كيبوتس) קבוץ أي أنها مؤسسة على الاشتراك والتعاون بكل ما في هاتين الكلمتين من معنى. فليس ثمة ملك خاص إلا في النساء. أما الأراضي في ملك الـ (كرن كايمت) הקרן הקימת לישראל وأما محصولها فإنه ملك المستعمرة. وكذلك قل عن الطيور الداجنة ومنتجاتها، والمنازل والأبقار، والآلات الزراعية، والأدوات المنزلية؛ وقصارى القول أن كل ما في المستعمرة من جماد ونبات هو ملك المستعمرة كلها، وليس بملك فرد من الأفراد. وللمستعمرة (لجنة إدارية) مسؤولة عن تدبير جميع شؤونها، وهي منتخبة كما في المستعمرات الأخرى.

وهناك، فوق الجميع، (لجنة القضاء) ועד ישובי העובים בדרום יהוה وهي التي تدبر الشؤون المشتركة لجميع المستعمرات اليهودية لا في قضاء غزة فحسب بل وفي جنوب فلسطين. إنها تهتم بشؤون التغذية والتموين والزراعة والاقتصاد والمواصلات والأمن والسياسة. ولما كانت لها صفة تمثيلية فهي التي تتولى الدفاع عن حقوق المستعمرات اليهودية لدى مصالح الحكومة ودواوينها المختلفة. إنها فرع من فروع (جمعية العمال المزارعين) התאחדות הפועלים החקלאים المعروفة باسم (المركز الزراعي) המרכז החקלאי التابع لنقابة العمال العامة بفلسطين. ويعمل الجميع تحت إمرة (الوكالة اليهودية) بالقدس.

ولقد قطعت المستعمرات اليهودية شوطاً لا بأس به في مضمار الرقي عن طريق التعاون والتنظيم المتقدم ذكرها: فهناك المدارس الابتدائية المختلطة (للذكور والإناث معاً)،

وغـرف القـراءة، ويـساتين الأطفـال؛ وهنـاك مـشاريع الـري والميـاه الـتي تـدار بـالآلات الميكانيكيـة وتـصل إلى المنـازل؛ وهنـاك العيـادات الطبيـة ونقابـات العمـال. والمستعمرات الخمس الأولى تـضاء بالكهربـاء. وفي كل مـن بيـار تعبيـا وغـان يبنـا بيـت للـشعب يدعونـه (ביתעם).

44. يعيش في قضاء غـزة في يومنـا هـذا 126.246 شخصاً. وقد كان هـذا العدد في السنين الفائتة كما يأتي:

السنة	العدد	السنة	العدد
1912	50.000	1939	96.596
1922	73.885	1940	99.906
1931	94.634	1941	98.520
1938	93.114	1942	126.246

واليك تصنيف هؤلاء السكان بالنسبة على أديانهم:

45. هذا فيما يختص ببني آدم. وأمـا مـن حيث الحيوانـات الأليفـة والطيـور الداجنـة فإن في قضاء غزة 493 رأساً من الخيل[73] و561 مـن البغـال و13038 مـن الحمـير و4997 مـن الجمـال و7574 مـن المـاعز و 27062 مـن الـضان و17685 مـن الأبقـار و436.000 مـن الطيـور الداجنة.

منها في مدينة غزة نفسها 117 رأساً مـن الخيل و63 مـن البغـال و2083 مـن الحمير و875 من الجمال و475 من الماعز و2810 من الضان و1058 من الأبقـار و33.000 مـن الطيـور الداجنة.

46 ـ واليك نبذة مختصرة عن الضرائب والنظام المالي السائد الآن في غـزة: ألغي النظـام المـالي التركـي، بطبيعـة الحـال، بعـد الاحـتلال. وحـل مكانـه نظـام مـالي يجمـع بـين الأنظمة التركية القديمة والمبادئ الإنكليزية الجديدة. ولقد اجتاز هذا التغيير أدواراً عديدة لا مجال لبحثها هنا بالتفصيل غير أني أجتزئ القول فأقول:

ألغـى الإنكليـز بعـد الاحـتلال ويركـو الأراضـي وضـريبة المـسقفات واسـتبدلوهما (1928) بضريبة الأملاك في المدن. وهـي ضـريبة (10٪) مبنيـة علـى قيمـة الإيجـار الـصافي

---

(73) - إن خيل غزة مشهورة في فلسطين وفي جميع انحاء الشرق الأدنى

السنوي للبيوت والأراضي الواقعة في المدينة. وتقوم بتخمينها لجنة مؤلفة من عدد من الموظفين وآخر من الأهلين.

غير أن البيوت المنخفضة الإيجار التي يسكنها أصحابها فإنها تعفى من هذه الضريبة. وإليك بيان المبالغ التي فرضت على مدينة غزة وقضاها باسم ضريبة الأملاك في المدن منذ عام 1935:

عام	مدينة غزة جف	خان يونس والمجدل ج ف	المجموع ج ف	عام	مدينة غزة ج ف	خان يونس والمجدل ج ف	المجموع ج ف
1935	1654	635	2289	1939	2647	892	3539
1936	1672	632	2304	1940	2854	924	3778
1937	1690	614	2304	1941	2932	928	3860
1938	2057	-	2057	1942	3411	929	4340

وخفضوا ضريبة العشر أولاً (1925) إلى 10 بالمائة ثم جعلوها (1927) مبلغاً سنوياً مقطوعاً. وقد استندوا في تحديد هذا المبلغ على الأعشار المخمنة في السنوات الأربع التي سبقت تاريخ التقدير. واسموا هذه الضريبة (ضريبة العشر المستبدل).

وكانت هذه الضريبة أخف وطأة على المزارعين من التخمين. إذ أنها مكنتهم من إنزال منتجاتهم الزراعية إلى السوق دون تأخير. ولكنهم لم يستفيدوا منها الاستفادة المطلوبة بسبب المحل من جهة، وهبوط الأسعار من جهة أخرى.

وقد ألغوا ضريبة العشر المستبدل بعدئذ، واستبدلوها بضريبة أسموها (ضريبة الأملاك في القرى)، وكان ذلك عام 1935. واستندوا في تقدير هذه الضريبة على الدخل الصافي أو الفائدة التي يجنيها الملاك من أرضه. وقد صنفوا الأراضي إلى ستة عشر صنفاً وفرضوا على كل صنف منها ضريبة تتناسب مع قيمة الربح الذي يجنى منها.

فالضريبة مثلاً عن الدونم الواحد من الأراضي المزروعة أشجاراً حمضية جعلت 825 ملا ثم خفضت إلى 500 مل؛ وعن الموز 560 ملا؛ وعن الأراضي التي تستقي بالماء والمفروسة أشجاراً مثمرة من 30 إلى 40 ملا؛ وعن الأراضي المستعملة لزراعة الحبوب من 8 ملات إلى 25 ملا. واستثنيت بعض الأراضي من دفع الضريبة

لقلة إنتاجها وعدم فائدتها. ولقد ضوعفت هذه الضريبة في عام 1943 بسبب ظروف الحرب.

وإليك بيان المبالغ التي فرضت على مدينة غزة وقضاها باسم ضريبة الأملاك في القرى مذ وضعت موضع التنفيذ:

عام	مدينة غزة	قرى غزة[74]	المجموع جنيه فلسطيني
1935	3518	14050	17568
1936	3712	28058	31770
1937	5879	28816	34695 [75]
1938	3764	19769	23533
1939	3661	21074	24735
1940	3738	21486	25224
1941	4090	21822	25912
1942	4188	22754	26942

وأما ضريبة الحيوانات التركية فقد بقيت في عهد الاحتلال الإنجليزي على ما كانت عليه قبلا. أي أنها تجبى عن الأغنام (ماعز أو ضان) بنسبة 48 ملا عن الرأس الواحد؛ والجمال المعدة للنقل بنسبة 120 ملا عن الجمل الواحد؛ والخنازير بنسبة 90 ملا عن الخنزير الواحد. ويعفى منها الحملان، والجمال المعدة للحراث، وقد بلغت هذه الضريبة التي جمعت من غزة وقراها خلال الأعوام الأخيرة المبلغ التالي:

عام	جنيه	عام	جنيه	عام	جنيه	عام	جنيه
1935	600	1937	292	1939	609	1941	745
1936	1011	1938	692	1940	634	1942	625

وقد ألغيت التجهيزات العسكرية بعد الاحتلال الإنكليزي، وألغيت ضريبة صيد الأسماك. كما ألغيت (ضريبة التمتع) التركية. إلا أن الإنكليز عادوا ففرضوا في عام 1941 ضريبة من جنسها أسموها (ضريبة الدخل). وهي تستند على تقدير قيمة الأرباح الصافية التي يجنيها المرء من عمله خلال السنة التي تسبق سنة التقدير. فيخصم من

---

[74] - تشمل هذه الأرقام ضريبة الأملاك في القرى المجموعة من خانيونس والمجدل والفالوجة ايضاً.

[75] - بلغ مجموع ما جني من فلسطين كلها من هذه الضريبة سنة 1037 (128.980 جنيه)

هـذه الأربـاح لمعيـشته 200 جنيـه ولامرأتـه 100 جنيـه ولولـده الأول 40 جنيهـاً والثـاني 30 والثالث 20 والرابع 10. هذا إذا كان متزوجاً. وأما إذا كان أعـزب فلا يخصم لـه سوى 200 جنيه عن نفسه و 50 جنيهاً عمـن يمش في كنفه وينفق عليه مـن مالـه الخاص. وبعد أن تخصم هـذه المبالغ من مجموع الـربح الصافي تفـرض ضـريبة الدخل على المبلغ البـاقي وذلك بالنسبة التالية:

عن كل جنيه من	الأربعمائة جنيه الأولى	50 ملا
عن كل جنيه من	الأربعمائة جنيه التالية	75 ملا
عن كل جنيه من	الأربعمائة جنيه التالية	125 ملا
عن كل جنيه من	الأربعمائة جنيه التالية	200 مل
عن كل جنيه من	الخمسمائة جنيه التالية	300 مل
عن كل جنيه من	الخمسمائة جنيه التالية	400 مل
عن كل جنيه من	المبالغ الباقية	500 مل

ولقد قام مؤلف هذا الكتاب في السنة الأولى (1941) التي وضع فيها هـذا القـانون موضـع التنفيذ بتقدير دخل الغـزيين الـذي يشملهم القـانون فبلغت الـضريبة الـتي جبيت منهم 500 جنيه فلسطيني، وفي السنة الثانية (1942) ستة آلاف جنيه.

ولقد ذكرنا في مكان آخر من هذا الكتاب شيئاً عن العملة التركية، وعن الأدوار التي مرت عليها. فلما انهـزم الأتـراك واحتل الإنكليـز الـبلاد (1917) ألغـوا النقـد التركـي وأحلـوا مكانـه النقـد المـصري. وفي عـام 1921 جعلـوا النقـد القـانوني مؤلفـاً مـن اللـيرة الذهبيـة المصرية، والنقد الورقي المصري، والمسكوكات الفضية والنكلية المصرية؛ والليرة الإنكليزية الذهبية (بسعر 97.50 من القروش المصرية).

واستبدل النقـد المـصري بنقـد فلسطيني عـام 1927، وسـحب النقـد المـصري شـيئاً فشيئاً من البلاد. والنقد الفلسطيني هو الآن عبارة عـن أوراق نقديـة (ذات خمـسمائة مـل، وجنيـه واحـد، وخمـسة جنيهـات، وعـشرة، وخمـسين، ومئـة)؛ ومـسكوكات فـضية (ذات خمـسين مـلا، ومئـة مـل)؛ ومـسكوكات نكليـة (ذات خمـسة ملات،وعـشرة مـلات، وعـشرين ملا)؛ ومسكوكات نحاسية (من فئة مل واحد وملين). وتستبدل الأوراق النقدية على سـعر كمبيو الليرة الإسترلينية الإنكليزية.

والليرة تقسم إلى ألف مل. وكثيراً ما يستعمل الناس لفظة (القرش) بدلاً من قولهم عشرة ملات و(التعريفة) بدلا من خمسة الملات.

47. ولنبحث الآن عن غزة من ناحية الحكومة وتشكيلاتها: فمدينة غزة هي مركز اللواء المعروف بلواء غزة. وهو أحد الألوية الإدارية الستة(76) التابعة لحكومة فلسطين:

وفلسطين كما تعلم من البلاد التابعة للانتداب الإنكليزي. يديرها مندوب سام وضعته الدولة المنتدبة بريطانيا العظمى. ويساعده في إدارته مجلسان: مجلس استشاري، وآخر تنفيذي. وجميع أعضاء هذين المجلسين بريطانيون يعينون رأساً من وزارة المستعمرات بلندن. فالمندوب السامي الحالي هو السر هارولد مكمايل Sir Harold Alfred Mac Michael G. C. M. G. D.S O. High Commissioner For Palestine، وحاكم لواء غزة هو المستر ادوارد بلارد، وأما قائمقام القضاء فإنه مؤلف هذا الكتاب، وزميلة اسحق أفندي النشاشيبي. الأول للشؤون الإدارية، والثاني للمالية. وهناك مساعد لحاكم اللواء هو اللورد أوكسفور.

فالحكومة في غزة مؤلفة في يومنا هذا من مصالح كثيرة منها: الإدارة، البوليس والسجون، المعارف، العدلية، الشرعية، الأشغال العامة، الصحة، الزراعة والأسماك، البيطرة، البرق والبريد، الجمارك، الآثار، الحراج والغابات، الطيران المدني، الطابو، تسوية الأراضي، مساحة الأراضي، ضريبة الدخل، تخمين المزروعات.

وهناك مصلحتان جديدتان أنشئتا بسبب الحرب الحاضرة، وهما: دائرة المؤن، والوقاية من الغارات الجوية.

وفي المصالح المتقدم ذكرها كلها عدد من الموظفين بلغ عددهم عند تأليف هذا الكتاب 2775 منهم 31 من ذوي الرتب العليا (19 إنكليز و 12 عرب) و 243 من ذوي الرتب الدنيا (13 إنكليز و 230 عرب) و 2193 انفار بوليس (130 إنكليز و 2063 عرب) و 308 خدامون (كلهم عرب) ويتقاضى هؤلاء رواتبهم من خزينة الدولة. فقد بلغ مجموع هذه الرواتب عند جمع هذه المعلومات (128.329) جنيهاً فلسطينياً، كما ترى ذلك في البيان التالي:

---

(76) - وأما الألوية الأخرى فهي: لواء القدس: يتبعه القضية القدس، ورام الله، وبيت لحم، والخليل ولواء حيفا: يتبعه القضية حيفا، وعكا. ولواء الجليل: يتبعه القضية الناصرة، وطبريا، وصفد، وبيسان ولواء السامرة: يتبعه القضية نابلس، وجنين، وطول كرم ولواء اللد: يتبعه القضية يافا، والرملة

بيان عدد الموظفين المستخدمين لإدارة قضاء غزة (1943)

رقم تسلسل	اسم المصلحة	عدد الموظفين				مجموع الرواتب السنوية جنيه فلسطيني
		الرتب العليا	الرتب الدنيا	الجنود والخدم	المجموع	
1	الإدارة	4 [77]	28	8	40	7.400
2	البوليس والسجون	14	20	2466	2500	88.800
3	المعارف	.	24	5	29	4.000
4	العدلية	1	4	3	8	1.420 [78]
5	الشرعية	1	3	2	6	916
6	الأشغال العامة	2	21	1	24	4.208 [79]
7	الصحة	2	33	1	36	3.960 [80]
8	الزراعة والأسماك	1	4	1	6	863 [81]
9	البيطرة	1	4	1	6	1.000
10	البرق والبريد	1	20	2	23	3.816 [82]
11	الجمارك	.	11	.	11	1.260
12	الآثار	.	1	.	1	60
13	الحراج والغابات	.	13	1	14	790
14	الطيران المدني	.	1	.	1	36
15	الطابو	1	7	1	9	1.180
16	تسوية الأراضي	1 [83]	3	4	8	2.000

[77] - اثنان من ذوي الرتب العليا إنكليز.

[78] - لا يدخل في هذا البند رواتب المحكمة المركزية التي تقيم في يافا والتي تزور غزة كلما مست الحاجة وكذلك قل عن القاضي البريطاني

[79] - لا يشمل هذا البند رواتب الممرضات ونفقات المستشفى

[80] - يشمل هذا البند رواتب الممرضات ونفقات المستشفى

[81] - لا يشمل هذا البند العمال المؤقتين

[82] - هذا عدا أجور العمال اليومية مفتش الخطوط إنكليزي من ذوي الرتب العليا.

[83] - رئيس هذه الدائرة إنكليزي

رقم تسلسل	اسم المصلحة	عدد الموظفين				مجموع الرواتب السنوية جنيه فلسطيني
		الرتب العليا	الرتب الدنيا	الجنود والخدم	المجموع	
17	مساحة الأراضي	-	16	1	17	2.290
18	ضريبة الدخل	-	1	-	1	80
19	مراقبة المؤن[84]	2	12	3	17	3.010
20	تخمين المزروعات	-	15	-	15	804
21	الوقاية من الغارات الجوية	-	2	1	3	436
		31	243	2501	2775	128329 [85]

إن مصلحة الإدارة وإن كانت لا تزال، كما كانت في العهود الغابرة، تشغل المقام الأول بين المصالح المتقدم ذكرها من حيث الأهمية، إلا أنها لا تتمتع بالنفوذ نفسه الذي كان لها في السابق. إذ أن المصالح الأخرى ترتبط برؤسائها ومديريها الذين يقيمون في القدس عاصمة البلاد. ثم تأتي مصلحة البوليس والسجون، فإن في غزة قوة نظامية من البوليس مجموع أفرادها ألف وخمسمائة رجل بين ضابط وشاويش وأونباشي ونفر بسيط. ووظيفة هذه القوة حفظ الأمن في القضاء. وهناك قوة إضافية أخرى مجموع أفرادها ألف رجل. وقد أنشئت هذه بسبب الحرب (1939م) لأجل خفارة معسكرات الجيش والقطارات وما إلى ذلك.

وهناك قوة ثالثة من البوليس الخصوصي في المستعمرات اليهودية مجموع أفرادها خمسمائة رجل. ومهمة هذه القوة حراسة المستعمرات اليهودية. وهم يهود، يتقاضون رواتبهم من الوكالة اليهودية، وتزودهم الحكومة بالأسلحة والعتاد.

وفي غزة نفسها من القوة النظامية ثلاثمائة رجل، ينتمون إلى الرتب التالية:

---

(84) - يقوم على رأس هذه المصلحة موظف يتناول راتبه من الإدارة وهو إنكليزي، وكذلك قل عن مساعده، وهما من ذوي الرتب العليا.

(85) - هنا هو مجموع الرواتب السنوية فقط ولا يشمل النفقات السفرية التي يتقاضاها الموظفون في رحلاتهم الرسمية.

	إنكليز		عرب		المجموع
ضابط	13	+	4	=	17
شاويش	13	+	4	=	17
أونباشي	-	+	3	=	3
جندي	130	+	133	=	263
	156	+	144	=	300

وهناك خمس (نقاط بوليس) تعمل في المجدل، وخان يونس، والجورة، وعراق سويدان، والبطاني، وتقيم هذه النقاط في عمارات ضخمة يسمونها عمارات تيغارت Tegart بالنسبة إلى موحدها السر تشارلس تيغارت الذي استحضرته الحكومة لتستشيره في أنجع الوسائل لقمع الثورة عام 1938. وقد بنيت هذه من الأسمنت المسلح. وهناك تسع نقاط لخفر السواحل في غزة، ودير البلح، وخان يونس، ورفح، ووادي غزة، والجورة، وهربيا، وحمامة،والنبي يونس.

وتعمل هذه النقاط تحت إمرة المركز العام للبوليس في غزة. والقابض على زمام هذا المركز ضباط إنكليز يرأسهم نائب مدير بوليس اللواء ويسمونه Deputy District Superintendent of Police وكثيراً ما يرمزون إليه بهذه الأحرف الثلاثة D.D.S.P وهذا يرجع بالمشورة إلى مفتش البوليس والسجون العام بفلسطين، ومركزه القدس.

وإليك عدد الحوادث المخلة بالأمن التي اطلع البوليس عليها خلال السنوات التالية:

سنة	عدد	سنة	عدد	سنة	عدد
1932	650	1936	582	1940	963
1933	450	1937	646	1941 [86]	1446
1934	399	1938	571	1942	1950
1935	393	1939	695	1943	2115

ولقد عقد موظفو الحكومة من الدرجة الثانية في مطلع عام 1943 اجتماعاً تراسه

(86) ازداد عدد الجرائم خلال هذه السنة والسنوات التي تلتها بسبب كثرة الغرباء واللاجئين والعمال الذين استخدمهم الجيش المرابط في غزة بسبب الحرب.

مؤلف هذا الكتاب وألفوا نقابة أسموها (نقابة الموظفين). وكان أول عمل قامت به هذه النقابة تأسيس (جمعية تعاونية) الغاية منها تموين الموظفين. وفتحت الجمعية مخزناً تعاونياً بدأ العمل فيه في 18/ 1/ 1943. وبعد أن كان رأس مال هذه الجمعية أربعمئة وخمسين جنيهاً، وكان عدد الأعضاء لا يزيد عن مئة وخمسين مساهماً (ثمن السهم الواحد ثلاث جنيهات) قفز رأس المال في شهر واحد إلى ألف ومئتين وخمس وثمانين جنيهاً وأصبح عدد الأعضاء ثلاثمئة وخمسةً وأربعين. وهاهي ذي جمعية الموظفين التعاونية تعد من كبريات الجمعيات التعاونية العربية في فلسطين. تديرها لجنة (انظر إلى الصورة التالية) مؤلفة من: عبد الخالق يغمور، محمود شراب، حكمت الخوري، عارف العارف، وديع خوري، وصفي أبو غزالة، إبراهيم حبيب.

وقبل أن نختم هذا الفصل الذي خصصناه لبحث (غزة في يومنا هذا) نرى لزاماً علينا أن نقول ثلاث كلمات: واحدة في (أخلاق الغزيين وطبائعهم) والثانية في (ملابسهم وأزيائهم) والثالثة في (أعيادهم ومواسمهم) فنقول:

48ـ أخلاقهم متباينة. قد تجد بينها، أيها القارئ الكريم، ما يرضيك وما لا يرضيك. أو قد تجد وصفاً يناقض الوصف الذي انطبع في مخيلتك لرجل من الرجال أو حادثة من الحوادث التي مرت بك في غزة. فرجائي إليك أن لا تتسرع في الحكم فتتهمني بقصر النظر وإخفاء الحقيقة. إذ لابد وأنك تسلم معي: أن لكل قاعدة شواذ، وإن الحكم يكون بنسبة الشيوع، وإن النادر لا حكم له. هذه هي القاعدة التي وضعتها نصب عيني عندما شرعت في تدوين هذا الفصل.

أما الشائع عن أخلاق الغزيين فهو الكرم[87] والنجدة[88] وحفظ الجوار، والصبر[89]، والشجاعة[90]، والوفاء، وعدم الغدر، تلك الصفات التي اشتهرت عن العرب بوجه عام. غير

---

(87) - قد يضن الغزي على نفسه وعياله بالشيء الكثير مما تملكه يداه لكنه يجود بالشيء الكثير من ذلك في سبيل ضيفه، ولا سيما إذا كان هذا غريباً.

(88) - إذا قصدته في أمر، لباك ولا يردك خائباً ما دام في مقدوره أن يرضيك.

(89) - لهم فيه الباع الطويل وقديماً قيل عنهم انهم اهل صبر وجلد لقد انخرطوا في سلك الجندية في العهد التركي، وتفرقوا وهدمت منازلهم أثناء الحرب الكبرى، فهجروها، وما كادت الحرب تضع أوزارها حتى رجعوا إليها، وعمروها. ولا يخلو دور من ادوار التاريخ لم يصب فيه الغزيون بنوع من انواع الأذى والعذاب ولكنهم والحق يقال صبروا على ذلك كله صبر الكرام

(90) - إنها من ابرز صفاتهم انهم شجعان، قويو البأس، شديدو المراس والمعتقد انهم ورثوا هذه الخلة بسبب الحروب الكثيرة التي المت بديارهم على مر الأحقاب ويقال إنهم هم الذين خاف بنو إسرائيل بطشهم، يوم قال هؤلاء لموسى: (ان فيها قوماً جبارين).

أن الذين يتحلون منهم بالحلم، تلك الصفة التي امتاز العرب بها، فإنهم قليلون. فقد دلني الاختبار على أن أكثرهم حادو المزاج، سريعو الغضب. ومن آثار غضبهم هذا أنهم كثيراً ما يحلفون بالطلاق. كما أنهم محبون للانتقام، والأخذ بالثأر. حتى أنهم لا يقيمون مأتماً على قتيلهم قبل أن يثأروا لأنفسهم، ويقتلوا من قتلة أو يقتلوا واحداً من أهله. وهم أحزاب وحمايل وصفوف. وفيهم، من هذه الناحية، أثر من آثار العصبية الجاهلية.

ولابد أن تدرك فيهم هذه الخلة عندما تنظر إلى لون بشرتهم القمحية، وشعرهم الكستنائي، وعيونهم السود.

غير أن أحزابهم لا يقتتلون، ولا يذهبون مذاهب بعيدة في السب والشتم والطعن كما هي الحال في الأنحاء الشمالية في فلسطين. قد يصل التنافس إلى أشده بين الزعماء يوم تثور معركة الانتخاب مثلاً، أو يقع الجد في حادثة من الحوادث؛ فتقوم كل عائلة تناضل عن كيانها وتؤمن مصالحها. لكن ذلك كله يقف عند حد القول أو الكتابة أو الاجتماعات التي يكثر فيها القيل والقال. فلا قتل، واغتيال، ولا حرق بيادر، ولا قطع أشجار، ولا تسميم أبقار، ولا ما يحزنون.

إنهم يغارون على دينهم وعرضهم وشرفهم: أكثرهم متدينون. يدلك على ذلك كثرة الجوامع والمساجد في غزة، وعلماء الدين الكثيرون الذين أنجبتهم غزة. ولكنهم، في الوقت نفسه، ميالون للنزهة واللهو والطرب. مثلهم في ذلك مثل الشاعر الذي قال:

ولله مني جانب لا أضيعه   وللهو مني والخلاعة جانب

عرضهم مصان. شأنهم في ذلك شأن العرب بوجه عام. ما سمعت بحوادث (الزناء) بينهم إلا نادراً. والنادر لا حكم له.

غير أن (تعدد الزوجات) عادة شائعة. ومن يدري؟ لعل هذه العادة نفسها هي التي صانتهم عن التردي في مهاوي الزناء.

مولعون بتدخين التبغ والتنباك. وأما الحشيش والكوكائين والمخدرات الفتاكة الأخرى فلا يستعملها منهم سوى أفراد قلائل ينتمون إلى طبقة العمال. وأما الذين يتعاطون تجارة هذه المخدرات منهم فكثيرون. ولهم في ذلك حيل واسعة تفوق الحيل السائدة في البلاد الأخرى.

عندهم ميل شديد للعلم. ويتهافتون على المدارس ودور العلم. وعدد الشبان المثقفين كل يوم في ازدياد. وكذلك قل عن البنات المثقفات. غير أن الأمية لا تزال سائدة ولا سيما بين طبقات العمال والصناع والمزارعين والطاعنين في السن منهم.

ولما كان التعليم في مدارس الحكومة لا يرمي إلى أهداف فنية، سواء أكان ذلك من الوجهة الزراعية أم من الناحية الصناعية، فإنك تجد المتعلمين منهم يميلون إلى الانخراط في سلك التوظيف، والاستخدام في مصالح الحكومة ودواوينها أكثر من أي عمل آخر من الأعمال الحرة.

كانوا حاذقين في تربية الخيل وركبها، وكان للخيل عندهم المقام الأول. غير أن هذا الميل قد تضاءل مع الأيام بسبب اختراع السيارات وانتشار وسائل النقل المختلفة في البلاد.

من أحسن خصالهم (البشاشة) وهذه في نظرهم خير من القرى. ما اجتمعت إلى غزي مرة إلا وكان باشاً. ومن يدري لعل في قلبه من الهم حين يلاقيك مالا يقدر عليه بشر؛ غير أنه لا يريك ما في قلبه، ولا يشكو إليك همه إلا إذا ألححت في السؤال.

(عيادة المريض) والاستفسار عن صحته فرض لازب في نظرهم. ولا يمكن أن يعودوا مريضاً دون أن يحملوا إليه هدية يسمونها (مطلة). وقد تكون المطلة تبغاً، أو سكراً، أو فاكهة، أو نوعاً من الحلوى، أو ما إلى ذلك. غير أنهم يتشاءمون من زيارة المرضى في أيام السبت والأربعاء. وإذا مات المريض دعوا أهله لتناول الطعام في منازلهم، وأرسلوا للنساء من أهل بيته طعامهن. ويدوم الحال على هذا المنوال بضعة أيام، وفي بعض الأحيان بضعة شهور. وقد يتناسى الأعداء ما بينهم من غل وحقد فيتزاورون في المآتم. لا، بل يدعون أعداءهم لتناول الطعام في منازلهم فيزول عن هذه الطريق ما في القلوب من غل وحقد.

ومن العادات الشائعة في غزة الإكثار من زيارة القبور، حتى أن مساعي المصلحين في هذا الباب ذهبت هباء منثوراً. ولم ينجحوا في مساعيهم التي بذلوها لأجل إقناع الغزيين للعدول عن هذه العادة. وكانت هناك عادة سقيمة أخرى، لكنها زالت في هذه الأيام أو كادت، ألا وهي استئجار النائحات من النساء، ليبكين على الميت.

يبكرون في الزواج، ويتهادون (النقوط) في الأعراس. والنقوط معروف في الطهور أيضاً، والولادة، والرجوع من الحج، وعادة المسلمين في ذلك كعادة المسيحيين عند العماد (أي التنصر).

وهنالك عادات وطبائع أخرى لا تبعد إلا قليلاً عن العادات والطبائع المنتشرة بين سكان فلسطين الآخرين لم نر فائدة في تدوينها.

49. لغزة، كما لكل صقع آخر من أصقاع العالم، زي خاص بها يلائم بيئتها. فهي

واقعة في الجنوب الغربي من آسيا، وتعتبر من ضمن المناطق المعتدلة. ولذلك يرتدي أهلها الأزياء التي تلائم الجو الذي يسود هذه المناطق عادة. ومع ذلك فإن هذه الأزياء ليست على شكل واحد بين جميع الطبقات. بل أنها على أشكال تختلف بنسبة اختلاف السكان من حيث ذهنيتهم ومبلغ رقيهم وطبيعة العمل الذي يقومون به. انظر مثلاً: أن الغمباز[91] منتشر بين طبقات العمال والصناع وأصحاب المتاجر الصغرى. فتراهم يرتدونه، ويتمنطقون من فوقه بالحزام المصنوع من الجلد أو الصوف أو الحرير أو القطن، ويلبسون فوق ذلك المعطف القصير[92] أو المعطف الطويل[93].

وفي بعض الأحيان يلبسون (العباءة) أيضاً، وذلك عند التجائهم إلى الراحة من العمل أو قيامهم بزيارة. وقد يكتسون العباءة فوق الغمباز مباشرة ومن غير معطف.

وأما أبناء الطبقة الراقية، وأغلبهم مثقفون تثقيفاً عالياً، فإنهم يلبسون (البذلة) الأوروبية المؤلفة من الجاكتة والبنطلون والصدرية والقميص وربطة الرقبة. فتكاد لا تميز بينهم وبين أبناء الطبقات الراقية عند أية أمة من الأمم المتمدنة من حيث النظافة والأناقة والذوق والهندام.

وكذلك قل عن غطاء الرأس فهو يختلف عندهم بالنسبة لاختلاف الذهنية ومبلغ الرقي. فمنهم من يلبس الطربوش المغربي، مشدوداً بكوفية من الحرير أو القطن الأبيض. وقد تكون هذه ذات لون أبيض. وقد يتخلل هذا البياض خطوط صفراء. ومنهم من يلبس الكوفية من غير طربوش. ويثبتونها بالعقال[94].

وأما أبناء الطبقة الراقية فإنهم يلبسون على رؤوسهم الطربوش الأحمر. وبعضهم يرتدي (الفيصلية)[95] وهؤلاء قليلون. وقد انتشرت بينهم الكوفية والعقال منذ الإضراب العام (1936م) والثورة الفلسطينية (1938م). وذاعت في الأيام الأخيرة (موضة)[96] بين الشبان وهي أن يظل الواحد منهم حاسر الرأس أينما حل وحيثما سار.

---

[91] - رداء طويل يشطر من الأمام شطراً من اعلاه إلى اسفله ويصنع من الحرير الأصلي والنباتي، او من الروزة، او من الصوف او القطن، او الكتان، وبألوان عديدة

[92] - ويقال له في يومنا هذا (الجاكتة) في لغة العامة

[93] - ويقال له في يومنا هذا (البالطو) أو (الكبود) في لغة العامة

[94] - اصله (عقل) الدابة اي منعها من الهرب والبدو يسمونه (مرير) وهو الأصح وهذه الكلمة مأخوذة من امر فتل الحبل اي احكمه واتقن فتله

[95] - لباس الرأس في العراق وقد وضعت في زمن ملك العراق المرحوم الملك فيصل الأول وتسمى ايضاً (سدارة) وعلى قول ان الملك فيصل اقتبسها عن (كليمانصو) الوزير الفرنسي المشهور.

[96] - (الموضة) كلمة اجنبية، لكنها شائعة في هذه البلاد أكثر من اصلها المعرب وهو (الزي الحديث)

وكذلك قل عن الأحذية فإنها تختلف باختلاف الأهواء والأذواق والذهنية ومبلغ الرقي: فهناك (الخف) و(النعل) و(الصندل) و(الكندرة) و(الجزمة). هذا من حيث الرجال. وأما النساء فهن نوعان: نوع ينتمي إلى طبقة العمال والمزارعين، وآخر ينتمي إلى الطبقة الراقية من وجوه البلد وأعيانها وموظفيها. إن نساء النوع الأول يلبسن في الغالب (الخمار) على الرأس ويسمونه (الطرحة). ولون هذا الخمار أسود في أكثر الحالات، وأبيض في بعض الحالات. ويغطين وجوههن ببرقع طويل يمتد من الناصية حتى أسفل الذقن. غير أن هذا البرقع لا يستر الوجه كله، بل يستر بعضه. فيبقى الجبين والأنف والفم وقسم من الخدين ظاهراً. والبرقع ذو شقين تخيط صاحبته على كل حافة من حافتيه ما يتيسر لها من نقود فضية أو ذهب قديم.

ويرتدين ثوباً طويلاً أسمر اللون يسمونه (مرطاً) وهو ذو كمين واسعين وردنين طويلين. وقد يطرز صدر هذا المرط بشيء من الحرير الملون.

وبعض النساء لا يلبسن البرقع. غير أنهن يسترن وجوههن بقسم من الخمار الذي يرتدينه. كما يرتدين الثوب (المشلح) من لون الخمار نفسه. والمشلح في هذه الحالة سابغ طويل بدرجة يمس معها الأرض.

والبعض من نساء هذه الطبقة يغيرن وجوههن بشيء من (الوشم). إلا أن هذه العادة القديمة أخذت مع الأيام تزول.

وأما نساء الطبقة الراقية فإنهن يرتدين الأزياء الحديثة: فيضعن على رؤوسهن (اللفاع)[97] أو (الغطاء)؛ أو يضعن (منديلاً) كبيراً ذا لون أسود أو كحلي، وهذا ما يسمينه (فيل). وقد يعصبن رؤوسهن بمنديل أسود، وهذا ما يسمينه (أبونيه). أو يلبسن خماراً كبيراً سابغاً. وهذا ما يسمينه (غطاء الملاءة). وأما منديل الوجه فقد يكون منفرداً رقيقاً، وقد يكون مزدوجاً مؤلفاً من منديلين رقيقين. ويلبسن (الكاب) وهو رداء طويل مصنوع من الحرير الخالص ذي اللون الأسود. وقد تنوعت ألوان الكابات وأشكالها في الأيام الأخيرة بدرجة تكاد لا تحصيها. فقد يكون طويلاً حتى يصل إلى القدم، أو قصيراً بشكل لا يتجاوز أسفل الركبة إلا قليلاً. وهو مشقوق من نصفه، ويربط شقيه أزرار من النوع الثمين. وهناك نوع من الكابات يسمينه (ترواكار) وهو مؤلف من قطعتين: واحدة من تحت وهي طويلة، والأخرى من فوق وهي قصيرة. وقد تستغني المرأة عن الكاب فتلبس بدلاً منه معطفاً يسمونه (الكبود) وهو مختلف الأشكال، والألوان.

---

(97) - غطاء الرأس الحديث

وأما الأحذية الحديثة الشائعة بين نساء الطبقة الراقية فإنها مختلفة الأشكال والألوان والأزياء. بعضها يصنع من الجلد (الشيموا)، والبعض الآخر من جلد الحية، والزي الذي شاع أخيراً بينهن هو المعروف (بالدبابة) وهو حذاء مصنوع من القماش الثمين ونعله من الفلين غالي الثمن.

والغريب في الأمر أنك بينما ترى (السفور) منتشراً بين نساء الفلاحين وطبقات العمال، ترى (الحجاب) سائداً بين نساء الطبقة الراقية. حتى أن الشطر الأكبر من السيدات المسيحيات أيضاً لا يزلن متمسكات بالحجاب. إلا بنات اليوم منهن فإن أكثرهن يخرجن سافرات.

50ـ لأهل غزة أعياد ومواسم خاصة بهم كموسم النبي موسى في القدس، وموسم النبي صالح في الرملة، وموسم وادي النمل في جورة عسقلان، وموسم النبي روبين في يافا.

وأن بعض المواسم الغزية يرجع بالأصل إلى عهد الوثنية؛ وبعضها مسيحي الأصل؛ والبعض ساير العهدين: الوثنية والنصرانية؛ والبعض الآخر من وضع إسلامي بحت.

ومن أشهر المواسم المعروفة في غزة في يومنا هذا نذكر المواسم التالية:

1ـ باب الدارون (أو الداروم)

2ـ الخمسان

3ـ أربعة أيوب

4ـ السيد هاشم

5ـ المنطار

وهناك العيدان: عيد الفطر وهو الصغير، وعيد الأضحى وهو الكبير. فإن أهل غزة يحتفلون بهما كما تحتفل بهما سائر البلاد الإسلامية. وكذلك عيد رأس السنة الهجرية، والمعراج، والمولد النبوي مما لا نرى حاجة لذكره هنا، لأنه معلوم.

أما (موسم الدارون) أو الداروم، فإنه موسم مسيحي يبدأ يوم الأحد؛ ويصادف غالباً أحد (الآحاد) الواقعة بين 16 فبراير و 23 آذار (غربي). قد يتقدم أو يتأخر حسب طقوس الديانة المسيحية، وبالأحرى حسب ترتيب الكنيسة الشرقية. ويسمونه (عيد الفصح) أو (العيد الكبير) أو (عيد القيامة). وهو انتهاء صومهم الكبير. إذ يبتدئ الصوم في يوم الاثنين الذي يلي يوم الأحد[98] مباشرة. فيمتنعون عن أكل كل ذي روح وما ينتج

---

(98) - أحد باب الدارون

عنه، ويمكثون على هذا المنوال ثمانية وأربعين يوماً. فلا يفطرون إلا في يوم الأحد الذي يلي خميس المنطار. وهو (عيد الفصح) عندهم. أي أن هذا العيد يقع في أحد الآحاد الواقعة بين 4 نيسان و 8 مايس (غربي) وفقاً لترتيب الكنيسة الشرقية.

ويبدأ هذا الموسم في الغالب عندما تتكسر حدة البرد، ويطل فصل الربيع، وقد جاء في الأمثال السائرة بين الغزيين (إذا صلبتم شتيتم، وإذا دورمتم صيفتم!)[99]

ومما هو جدير بالذكر أن المسلمين والمسيحيين يشتركون في هذا الموسم على حد سواء. فتراهم يكثرون من أكل البيض المصبوغ بكميات كبيرة، ويصنعون (المعمول) المحشو بالجوز و(الكعك) المحشو بالتمر، ويلبسون أثمن ما عندهم من ثياب، ويتجمهرون في مكان فسيح يقع شرقي المدينة ويسمى (باب الداروم). ويغلب على الظن أن أصل هذه الكلمة هو (باب دير الروم)، وأنه كان هناك، في المكان نفسه، دير للروم الأرثوذكسيين.

وأما (الخمسان)[100] فهي سبعة. أي أن الغزيين يعيدون في كل خميس من الخمسان السبعة التي تنقضي خلال مدة الصيام عند المسيحيين الشرقيين. ولكل خميس منها اسم يعرف به عند النساء. لأنهن هن اللواتي يعنين بالخمسان أكثر من الرجال. ولا يعني بالخمسان من الرجال سوى عامة الشعب.

أما الخميس الأول فيدعى (خميس فات) ويقال له أيضاً (خميس الجمبري) وهو الخميس الذي يعقب الداروم مباشرة. وليست له أية صفة جديرة بالذكر سوى أن الناس يتأهبون فيه للخمسان التي تليه.

وأما الخميس الثاني فإنه (خميس النبات) ويقال له (خميس السيد) وهو الخميس الذي يلي ذلك. فيه يبدأ الزرع والنبات يترعرع. فتسير الفتيات في الفلا، ويستنشقن الهواء الطلق، ويسرحن ويمرحن بين المروج الخضراء.

ومن بعد ذلك يأتي (خميس الزهور) أو (خليفة). فيه تتفتح الزهور، فيستنشق الناس عبيرها.

ثم (خميس الحلوى) أو (أبو حرمة) وفيه ينكب الأطفال على شراء الحلوى بجميع أنواعها، فيأكلونها. وقد يقدم الشبان على شرائها، فيقدمونها لخطيباتهم.

ثم يأتي (خميس الأموات) أو (أبو عبيد) وهو أكثر الخمسان شهرة. إذ فيه تتفقد كل امرأة فقيدها، فتخرج إلى قبره باكية نائحة. وفيه يتصدق أهل الميت على الفقراء

---

[99] - أي إذا حل الصليب دخل البرد المؤذن بالشتاء، وإذا جاء الداروم حل الدفء المؤذن بالصيف

[100] - او (الأخمسة) وهي جمع خميس

صدقات متنوعة عن أرواح موتاهم. وفي هذا العيد يكثر الفزيون من صنع الكمك والمعمول، فيأكلونه. وكثيراً ما يتهادونه تيهاً وفخاراً.

ثم يأتي (خميس البنات) أو (أبو الكاس). وفيه يقدم كل خاطب إلى مخطوبته ما يقدر عليه من ثياب وحلى وهدايا فاخرة.

وآخر الخمسان وأشهرها على الإطلاق (خميس المنطار) وسنأتي على ذكره فيما بعد. وأما (أربعة أيوب) فإنها تقع في يوم الأربعاء الذي يسبق خميس المنطار. ففي ذلك اليوم يذهب الناس إلى البحر للاستحمام فيه اعتقاداً منهم بأن أيوب (عليه السلام) إنما أبرأه الله من مرضه بعد اغتساله بالبحر في تلك الليلة. حتى أن أصحاب الإبل من الفلاحين يأخذون إبلهم إلى البحر ليغسلوها، وليسقوها ولو شيئاً من مائه المالح، اعتقاداً منهم بأن هذا يمنع عنها داء (الجمام).

وفي يوم الأربعاء هذا يذهب الناس زرافات ووحداناً إلى مكان واقع بالقرب من عسقلان يدعى (وادي النمل). ويقال إنه البقعة التي سمع فيها سليمان (عليه السلام) النمل تخاطب أخواتها وجندها بقولها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[101]. وفي هذه البقعة من الأرض يجتمع سكان المجدل وقراها، وسكان عسقلان، ومعظم أهالي غزة وقراها: حاملين أعلامهم، راكبين خيولهم، مرتدين أجمل ثيابهم، آكلين أحسن مآكلهم، راقصين أجمل الرقص، ومرتلين أعذب الألحان. ويبقى مهرجان وادي النمل حافلاً حتى قبل الغروب فيزور الناس مقام الحسين هناك ثم ينصرفون إلى منازلهم ثملين بلذة ذلك العيد. وعلى قول أن هذا العيد - كالأعياد الأخرى المماثلة له في سائر أنحاء فلسطين - هو من وضع السلطان صلاح الدين، وأنه كان يرجو من وراء وضعه صد تيار الكره. الشديد الذي كاد يجتاح هذه البلاد المقدسة على أثر الحروب الصليبية.

وأما (السيد هاشم) جد الرسول الأعظم فموسمه يبدأ في اليوم الأول من شهر ربيع الأول من كل سنة وينتهي في يوم ميلاد النبي العربي محمد المصطفى عليه الصلاة والسلام وهو اليوم الثاني عشر من الشهر المذكور. ويقتصر موسمه على إقامة معالم الزينة في المسجد المسمى باسمه (مسجد السيد هاشم) وهو واقع في حي الدرج. وفيه قبره[102]. فتنتصب الرايات وتزف الأعلام وتقام الأراجيح ويلعب الشبان

---

[101] - سورة النمل، الآية 19.

[102] - راجع ما كتبناه عنه في الفتح الإسلامي ص 113. وفي جوامع غزة ومساجدها.

وتتبارى الخيول المطهمة في ميدان السباق. وتقام بجانب المسجد سوق تباع فيها جميع أنواع (النقل) والحلوى. وفي الليلة الثانية عشرة من شهر ربيع الأول يزدان جامع السيد هاشم بالأنوار المختلفة فيفد الناس إليه من كل حي ويصلون فيه صلاة العشاء ثم تقرأ قصة المولد النبوي. وبعد ذلك ينفض القوم على أن يجتمعوا في صبيحة اليوم التالي في ديوان آل الحسيني وفي مقبرتهم، فيذكرون النبي عليه الصلاة والسلام ويذكرون جده السيد هاشم ويذكرون أيضاً أحد أجداد آل الحسيني بغزة ألا وهو المرحوم السيد أحمد محي الدين الحسيني الذي بني الجامع على عهده ويطلب منه. وبعد ذلك ينصرف القوم، وبانصرافهم ينتهي هذا الموسم، على أن يقام في مثل هذه الأيام من السنة القادمة.

وأما (موسم المنطار) فإنه موسم مسيحي شرقي. إنه نهاية صومهم. إذ أنهم يفطرون من صومهم الطويل يوم الأحد الذي يأتي بعد خميس المنطار مباشرة. وهو العيد الكبير عندهم. ويظهر أن هذا الموسم انقلب، مع الزمن، إلى عيد غزي عام يشترك فيه المسلمون والمسيحيون على حد سواء. فترى الناس يغدون إلى تل المنطار وإلى السهول المنبسطة من خلفه والبساتين المنتشرة من أمامه. يأتون مرتدين أحدث ما عندهم من ثياب، حاملين أحسن ما لديهم من طعام وشراب، مرتلين أجمل ما يعرفون من أهازيج وطنية وأناشيد قومية على النمط نفسه الذي وصفناه لك في وادي النمل سواء بسواء. غير أنه يختلف عن وادي النمل بالشموع التي تقدم على ضريح المنطار من قبيل النذر. وفوق رأس التل المعروف بتل المنطار يجتمع الدراويش الذين ينتمون إلى الطرق المختلفة، فينصبون حلقات الذكر ويذكرون الله كثيراً. وفي أثناء ذلك ينزل الشبان بجيادهم المطهمة إلى الميدان الواقع شمالي التل، فيتبارون. وعند غروب الشمس يرجع الجميع إلى منازلهم، ليزاولوا في صبيحة اليوم التالي أعمالهم المعتادة.

وعلى ذكر تل المنطار هذا نقول أنه واقع في الطرف الجنوبي الشرقي، وعلى بعد ميلين من الجامع الكبير. وهو على ارتفاع 83 متراً عن سطح البحر.

وقد ورد ذكره في سفر القضاة (الإصحاح السادس عشر) من أسفار العهد القديم بأنه (الجبل الذي مقابل حبرون)، ذلك الجبل الذي نقل إليه شمشون الجبار مصراعي باب المدينة والقائمتين اللتين قلعهما مع العارضة. عليه بضعة قبور، ومقام لولي يقال أنه (علي المنطار). ويقال إن الوثنيين كانوا يعبدون ربهم (مارنا) هناك.

وقد اختلفت الآراء في أسباب تسميته بالمنطار: فمن قائل (وهم المسلمون) أن أصل

هذه الكلمة (من) وهو اسم شيخ و (طار) بمعناه المعروف. أي أن الشيخ (من) قد طار. ومن رأي هذا القائل أن (من) كان شيخاً جليلاً، وأنه طار بعد موته.

ومن قائل (وهم المسيحيون) أن أصل هذه الكلمة (المطران)، وأنه كان يعيش فوق ذلك التل في سالف الأزمان أسقف جليل القدر. ولما مات هذا الأسقف دفن هناك. فجاء المسلمون وحرّفوا الكلمة فجعلوها (منطار) بدلاً من مطران.

ومن قائل: لا هذا ولا ذاك. بل أن أصل هذه الكلمة (مينوتور). ومينوتور هذا هو الملك الخرافي لجزيرة كريت الذي جاء ذكره في الأساطير القديمة. ويقال أن الفلسطينيين عندما أتوا من كريت أتوا معهم بهذا الاسم.

والرأي عندي أن لا هذا مصيب في رأيه ولا ذاك، وأن كلمة المنطار كلمة اعتيادية جاءت من (نطر). والمنطار هو المكان الذي يجلس فيه الناطور لينطر المكان، ويرى ما حوله من السهول والأودية. ذلك لأن تل المنطار أعلى تل في ذلك المكان. وليس أصلح منه للنظر والرصد في جميع السهول والتلال الواقعة حول المدينة. ومنه تستطيع أن ترى من بعد جبال الخليل والبحر الأبيض المتوسط ومدينة غزة والسهول الشاسعة التي تحيط به من كل جانب. وهو أحسن موقع للتحصن وللدفاع عن غزة إذا ما هاجمها عدو من الجنوب أو الجنوب الشرقي. كما جرى لها في أيام الحروب الكبرى. إذ نشبت في السهل الكائن في جنوب التل وشرقه معارك هائلة شاب من هولها الولدان.

يستقبل الغزيون عيد المنطار بالترحاب في الربيع من كل عام، ويسمونه (موسم المنطار). وهم يحتفلون به احتفالاً شعبياً رائعاً على النمط الذي وصفناه لك في الأسطر المتقدمة. وما حل هذا العيد مرة أو سمعت به إلا وتذكرت معه ما كان عليه الغزيون في عهد الوثنية، يوم كانوا يعبدون الرب الأكبر (مارنا) فوق هذا التل. وفوق كل ذي علم عليم.

◆ ◆ ◆

جوامع غزة ومساجدها

في غزة عدد كبير من الجوامع والمساجد. فقد تكون أغنى المدن العربية الإسلامية في الشرق بجوامعها ومساجدها. بعضها قديم جاء ذكره في كتب التاريخ، والبعض الآخر حديث العهد. بعضها كبير: له مئذنة، وفيه منبر، وتقام فيه (صلاة الجمعة) والصلوات الخمس. والبعض الآخر صغير: ليست له مئذنة، ولا تقام فيه صلاة الجمعة، بل تصلى فيه الصلوات الخمس فقط.

أما الجوامع الكبيرة التي تقام فيها صلاة الجمعة والصلوات الخمس فهي:

الجامع	الموقع
1 . الجامع العمري الكبير	في حي الدرج
2 . جامع السيد هاشم	
3 . جامع الشيخ زكريا	
4 . جامع كاتب الولاية	في حي الزيتون
5 . جامع الشمعة	
6 . جامع الشيخ عبد الله الأيبكي	في حي التفاح
7 . جامع علي بن مروان	
8 . جامع ابن عثمان	في حي الشجاعية
9 . جامع المحكمة	

وإليك ما اتصل بي من تاريخ الجوامع التسعة المتقدم ذكرها سواء أكان ذلك عن طريق الكتب والأسفار، أم عن طريق الروايات والأخبار، أم عن طريق الكتابات المنقوشة على الأبواب والجدران:

1 . الجامع الكبير

إنه جامع كبير للغاية. بل هو أكبر جامع في غزة على الإطلاق. يدرّس فيه المدرسون، وتقام به صلاة الجمعة والصلوات الخمس. وبجانبه مكتبة عامرة، وردهة واسعة. وهو واقع في منتصف المدينة القديمة. والمعتقد أنه بني في نفس المكان الذي كانت فيه الكنيسة التي بنتها الإمبراطورة إفدوكسية، أو قد يكون هو الكنيسة نفسها . وقد بنيت الكنيسة المذكورة حيث كان معبد (مارنيون) في عهد الوثنية. والحجارة التي استعملت في بنائه قديمة جداً.

كانت جدران البناء في عهد الكنيسة مزينة بالفسيفساء، والصور. ولكنها اليوم وبعد أن أصبح البناء مسجداً لا صور فيه ولا فسيفساء. بل تراها ممسوحة بالكلس مسحاً بسيطاً للغاية.

إن الباب الغربي جميل للغاية وقد أنشئ على الطراز القوطي الذي كان معروفاً في إيطاليا خلال القرون الوسطى، ذلك الطراز الذي كثيراً ما تراه في الكنائس التي أنشئت في فلسطين خلال القرن الثاني عشر.

وهناك من يدحض هذا الرأي ويقول غير هذا القول. ومن هؤلاء الارشمندريت (ميلاتيوس ميتا كسا كيس) فإنه ذكر في مقال نشره عام 1907م وبحث فيه الخارطة الموجودة في مادبا والمصنوعة من الفسيفساء الذين يزعمون أن الجامع الكبير بني حيث كانت كنيسة افدوكسية يتمسكون بزعمهم هذا على اعتبار أن الكنيسة مبنية في وسط المدينة. فإذا كان يترتب علينا الأخذ بقولهم هذا وألقينا نظرة على خارطة مأدبا وجدنا أن الموجود في وسط المدينة هي كنيسة الروم الأرثوذكس الحالية، تلك الكنيسة التي بنيت عام 1856م في زمن كيريللوس الثاني (1845 ـ 1872) وعلى نفقة أخوية القبر المقدس.

وأما الجامع فإنه، على قول ميلاتيوس هذا، قد يكون أحد الكنائس التي بناها مارقيانوس. إذ أن أعمدة هذه الكنيسة كانت في كنيس لليهود. وقد يكون هذا هو كنيس قيسارية بدليل أنه منقوش على أحد هذه الأعمدة الشمعدان ذو السبعة فروع الآتي ذكره، وليست لهذه الأعمدة أية صلة بالأعمدة التي أرسلت من القسطنطينية لبناء كنيسة افدوكسية.

وأما الأستاذ (كليرمان غانو) فإنه يقول إن الجامع الكبير كان في الأصل كنيسة صليبية أضاف إليها المسلمون إضافات كثيرة حتى غيروا كثيراً من شكلها الأصلي. وأن الصليبيين عندما بنوها استعملوا في بنائها كثيراً من الحجارة ومواد البناء والأعمدة الرخامية القديمة إلى أن قال:

«بعد أن احتل الصليبيون غزة وأعادوا بناءها عام 1149 هاجمها صلاح الدين عام 1170 ثم استرجعها منهم نهائياً بعد موقعة حطين عام 1187 ويظهر أن البناء بني بين 1149 و1170 وأن الذين بنوه هم في الغالب فرسان الهيكل الذين عهد إليهم بلدوين الثالث بحراسة غزة».

وقد نقش على أحد الأعمدة العلوية القائمة في وسط المسجد، صورة شمعدان ذي سبعة أكواع يحيط به تاج كأنه مصنوع من الغصون وأوراق الشجر. وفوق التاج صورة جوهرة بحجم البيضة، وتحته بلاطة منقوش عليها ثلاثة سطور: السطر الأول منها مكتوب باللغة العبرية والسطران الآخران باللغة اليونانية. وبجانب الشمعدان من اليمين بوق وعلى يساره سكين. أما الكلمات العبرية فهي חנניה בן יעקב (أي حنانيا بن يعقوب). والكلمات اليونانية يعتقد أنها كتبت بالأحرف اليونانية التي كانت تستعمل في القرن الثاني أو الثالث بعد الميلاد، ومعناها: «إلى أنانياس ابن ياكو (ب)».

ويقول الأستاذ (كليرمان غانو) الذي زار غزة عام 1870م أن العمود الذي نقشت

عليه هذه الصورة إما أن يكون قد نقل من كنيس كان لليهود في قيسارية أو من رواق كان مشيداً في أحد الأبنية اليهودية بغزة أو أنه أحد الأعمدة الثلاثين التي أرسلتها الإمبراطورة افدوكسية لبناء الكنيسة في أوائل القرن الخامس للميلاد.

وهو (أي الأستاذ كليرمان غانو) لا يعتقد أن هذا العمود أخذ من كنيس يهودي كان في غزة. إذ أن اليهود لم يوطدوا أقدامهم في غزة طويلاً. وليس من المعقول أن يمنحوا حق بناء كنيس لهم في غزة في وقت توطدت فيه أركان النصرانية.

ومهما كانت حقيقة الحال فيما يتعلق بهذه الكنيسة أو تلك، ومن الذي بناها ومن بناها؟ فإنه مما لاشك فيه أن الجامع العمري الكبير كان يوم الفتح الإسلامي كنيسة. ولما كان سواد المسيحيين الأعظم قد دخلوا يومئذ في دين الإسلام، فقد جاءوا إلى فاتح غزة القائد العربي الكبير عمرو بن العاص وطلبوا إليه أن يقضي بينهم وبين إخوانهم الذين بقوا على دين النصرانية قائلين إنهم ورثوا عن آبائهم وأجدادهم (من عرب ويونان) تلك المعابد والكنائس ليقيموا فيها صلواتهم وطقوسهم الدينية. والآن وقد دخلوا في الدين الإسلامي وهم المالكون لتلك المعابد وليست لهم مقدرة على تركها والاستغناء عنها، فقد طلبوا تقسيم المعابد بينهم وبين إخوانهم الذين بقوا على دينهم لأنهم ورثوها عن الآباء والأجداد.

قبل عمرو بن العاص دعواهم، وجمع بين الفريقين، وطلب إليهما أن ينتخبا حكماً عدلاً ليجري التقسيم. فأخذ المسلمون المعبد الكبير لأنهم الأكثرية. وأخذ النصارى المعبد الصغير لكونهم الأقلية. وقد تمت هذه القسمة بطريقة التحكيم المتقدم ذكرها.

ولقد عمر هذا الجامع مراراً عديدة من قبل عدد كبير من الملوك والوزراء والمصلحين، كما تشهد بذلك الكتابات المنقوشة على أبوابه وجدرانه. ومن ذلك أن الداخل إلى الجامع الكبير من بابه الشرقي ويرى فوقه بلاطة كتبت عليها الكلمات الآتية:

«بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَك خَيْرًا مِنْ ذَٰلِكَ جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَار وَيَجْعَل لَك قُصُورًا﴾[103]. أمر بإنشاء هذا الباب المبارك والمئذنة المباركة مولانا وسيدنا السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين أبو الفتح لاجين المنصوري[104] ادام الله أيامه ونشر في الخافقين بالنصر الويته وأعلامه، وأعز أنصاره

---

[103] - سورة الفرقان، الآية 10.

[104] - كان من مماليك السلطان ايبك ثم صار إلى السلطان قلاوون فاعتقه واخذ يتدرج في معارج الرقي حتى اصبح اميراً ثم والياً على سورية وقد بويع له بالسلطنة سنة 696 هـ (1296م) وتوفي بعد ذلك بثلاثة اعوام تزوج ابنة

وأعوانه ووزراءه وأمراءه وحكامه وجنده وخدامه، حكم في محز المشركين سهامه وسنانه وحسامه، وأوزع شكر ما أنعمت عليه وأحسن في الدنيا والآخرة إليه. وتولى عمارتها العبد الفقير إلى ربه الراجي عفوه سنقر السلحدار العلائي المنصور بنظره في أيام ولايته. وكان الفراغ منها في شهر شعبان في سنة 697 هـ سبع وتسعين وستمائة غفر الله له ولجميع المسلمين».

وعلى الباب القبلي للجامع تقرأ هذه الكلمات:

«بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾[105]. أمر بإنشاء هذه الزيارة المباركة بالجامع المعمور بذكر الله تعالى مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد[106] بن مولانا السلطان الشهيد الملك المنصور قلاوون خلد الله تعالى ملكه بإشارة المقر الأشرف العالي المولوي الأميري الأجلي الكبيري العضدي النصيري المحترمي المخدومي المجاهدي المرابط الشاعري المؤيدي الناصري المنصور السيفي مولانا ملك الأمراء تنكيز[107] الناصري كافل الممالك الشريفة بالشام المحروسة أعز الله أنصاره وكان الفراغ منه في شهر محرم سنة ثلاثين وسبعمائة» (25 أكتوبر 1329م).

وعلى أحد شبابيك الإيوان القبلي تقرأ الكلمات الآتية:

«بسم الله الرحمن الرحيم: في أيام مولانا السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين لاجين المنصوري أدام الله أيامه. فتح هذا شباك النور المبارك في ولاية العبد الفقير إلى ربه سنقر السلحدار العلائي في شهر ربيع الأول سنة سبع وتسعين وستمائة أثابه الله وغفر له ولجميع المسلمين».

وعلى أسطوانة بالجهة القبلية من ساحة الجامع الكتابة الآتية:

«جدد هذه المنارة وتم للمسجد بها شعاره ولأم هذا الصهريج وأتى بهذا الحوض

السلطان الظاهر بيبرس وكان نموذجاً حسناً للمسلم الكامل، فقد ابتعد عن الخمر والميسر وكان يصوم الأشهر الثلاثة قال إنه من اصل يوناني

[105] - سورة التوبة، الآية 18.

[106] - تولى الملك وهو صغير (693 . 741 هـ /1293 . 1341م) وقد خلع مرتين وفي مدته بلغ فن المباني والنقوش العربية القصاه كان ضئيل الجسم، اعرج، اعور. إلا انه كان قوي البأس، شديد البطش، ذا راي سديد وعزيمة من حديد.

[107] مملوك اشتراه اسلاف الناصر. وظل في خدمة الناصر 28 عاماً. ناب عنه في دمشق وغامر بحياته من اجله في ميادين الحروب وبعد أن كان الناصر يحبه ويستشيره في جلائل الأمور (حتى انه تزوج ابنته كما عقد على اثنتين من بناته لولدي تنكيز) انقلب عليه بدسائس الدساسين فأرسل تنكيز إلى مصر مكبلاً بالسلاسل وهناك قتل بعد ان اذيق الواناً من العذاب

البهيج ابتغاء مرضاة السلام أمير الأمراء الكرام درويش حسين باشا متصرف غزة بلغه الله ما يشاء عام ثلاثة ومائتين وألف».

وأما الباب الخارجي الكائن في الناحية الشمالية فقد أنشأه السيد كمال الدين البكري، كما أنشأه في تلك الناحية أربع غرف خصصها لطلاب العلم من أبناء غزة. وكان ذلك قبل مئة سنة بالوجه التقريبي.

وفي زمن رؤوف باشا متصرف القدس عمر الجامع المذكورة مرة أخرى (1929 هـ). وقد تولى عمارته البكباشي الكنج أحمد. كان هذا قد انتدب لجمع العسكر من غزة لينخرطوا في الجيش التركي ويحاربوا المسكوب. وكان من العفة والزهد والاستقامة على جانب عظيم، حتى أن رؤوف باشا انتدبه لأجل إدارة أموال الوقف. فأحسن إدارتها، وقام بتعمير الجامع العمري الكبير. فقد رصف صحن الجامع بالبلاط من النوع المتين. وكذلك فعل في ساحته الكبرى، كما قصر جدرانه ومدّ السطح مدأ يحول دون وكفه، وأنشأ بجانبه المراحيض والحنفيات بشكل يسهل للمصلين سبيل الوضوء والصلاة، ومسح الأعمدة ودهنها. ورمم المئذنة التي كان أصابها العطب على أثر زلزال سابق.

وقد أصاب هذا الجامع[108] خراب كبير أثناء الحرب المنصرمة (1914 ـ 1917) بسبب القنابل التي كانت تتساقط على غزة من البر والبحر والهواء فسقطت مئذنته، وتهدمت جوانبه. وظل في حالة من الخراب تفتت الأكباد حتى عام 1345 للهجرة حيث قام المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى الذي يرأسه سماحة مفتي فلسطين الأكبر الحاج أمين أفندي الحسيني فعمره.

وإنك إذا نظرت إلى الباب الواقع قبلي الحائط الغربي وجدت مكتوباً عليه هذه الكلمات:

«جدد عمارة هذا الجامع المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى سنة 1345 للهجرة». ونستطيع القول إن العمارة التي أحدثها المجلس الإسلامي عبارة عن إقامة جامع جديد بني على أسس الجامع القديم وبعض أعمدته وجدرانه لأن الخراب الذي ألم به أثناء الحرب كان عظيماً للغاية. وقد أعاد المجلس الإسلامي بناء المئذنة بشكل فاق شكلها السابق بدرجات.

---

(108) ـ يقال إن الأتراك استعملوه يومئذ لخزن أسلحتهم وعتادهم

2 . جامع السيد هاشم

من أكبر جوامع غزة وأتقنها بناءً. واقع في حي الدرج، والمعتقد أن السيد هاشم جد الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام مدفون فيه. وهناك من يقول: إنه مدفون في قبة الشيخ رضوان وليس في هذا المكان، بدليل ما جاء في قول أحد أصحابه الأعراب الذين كانوا يرافقونه في رحلاته التجارية بين مكة وغزة، إذ قال:

وهاشم في ضريح وسط بلقعة تسفو الرياح عليه بين غزات

ومن يدري؟ لعل رفاته نقلت من موقع الشيخ رضوان إلى حيث هي الآن.

يعتقد المرحوم السيد كامل المباشر أحد أعيان غزة الذين توفوا فيها عام 1941 «أن هذا الجامع بني في أواخر القرن الثالث عشر للهجرة (1268 هـ) من قبل السلطان العثماني عبد المجيد[110] بطلب من الحاج أحمد بن محيي الدين بن عبد الحي الحسيني مفتي الأحناف بغزة، وأنهم عندما بنوه استعملوا الحجارة الباقية من أنقاض جامع الجاولي والبيمارستان وغيرهما. وقد تبرع سكان المدينة بمبالغ وفيرة من أموالهم لهذه الغاية. وأمرت الحكومة التركية بتحويل أوقاف جامع البيمارستان إلى جامع سيدنا هاشم لتقام فيه الشعائر الدينية».

وقد صدرت الإرادة السنية بأن يتولى هو (أي المفتي) صلاة الجمعة في الجامع المذكورة والخطبة. وتم تدشينه يومئذ باحتفالات شعبية رائعة. وهاهم أولاء آل الحسيني يحتفلون بذكرى هذا التدشين مرة في كل عام. وتدوم الاحتفالات ثمانية أيام آخرها يوم المولد النبوي. وفيه مدرسة أنشأها المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى من مال الوقف. وقد أصابت الجامع قنبلة أثناء الحرب المنصرمة (1914 ـ 1917) فخربته. ولكن المجلس الإسلامي الأعلى عمره، وأرجعه إلى أحسن ما كان عليه.

3 . جامع الشيخ زكريا

واقع في حي الدرج. أنشئ في القرن الخامس، ودفن فيه الشيخ زكريا. وقد كتب على ضريحه: «هذا قبر العبد الفقير لله تعالى زكريا التدمري توفي في شهر صفر سنة 449 هـ».

---

(110) - وأما الأستاذ عبد الله مخلص مدير الأوقاف بفلسطين فإنه يعتقد انه من منشآت المماليك، وقد عمره السلطان عبد المجيد في سنة 1266 هـ 1850م

4 . جامع كاتب الولاية

وهناك من يسميه (جامع كاتب الأوليا). وهو جامع قديم واقع في حي الزيتون وبالقرب من كنيسة الروم الأرثوذكس. ومئذنته قريبة من جرس الكنيسة، ليس بينهما سوى بضعة أمتار. على باب هذا الجامع بلاطة قرأت عليها هذه الكلمات: «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله. أمر بإنشاء هذا المسجد المبارك العبد الفقير أحمد بك كاتب الولاية في أوائل ذي القعدة سنة 995 هـ». وأحمد بك هذا كان على ما يظهر كاتباً للولاية في أيام السلطان مراد بن السلطان سليم الثاني.

وهناك من يعتقد أن الذي أمر ببناء هذا الجامع هو عمرو بن العاص، وذلك عند فتحه غزة. وقد بناه قريباً من الكنيسة عملاً بوصية الخليفة عمر بن الخطاب الذي أوصاه ببناء جامع في القرب من الكنيسة كلما أمكن ذلك. وعلى قول أن أصله دير، وأنه كان يسمى (دير كاتب سلم الفضائل).

5 . جامع الشمعة

إنه من الجوامع المشهورة بغزة. وهو قائم في ناحية من حي النجارين (حارة الزيتون). لا يدري أحد من سكان غزة لماذا أطلق عليه هذا الاسم. غير أنه يوجد فوق بابه الخارجي بلاطة من الرخام محطمة من ناحيتها اليسرى، نقش عليها الكلمات بالنسخ الذي كان معروفاً في عهد المماليك:

«بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ[111]﴾. أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك ابتغاء مرضاة الله واتباع سنة رسول الله العبد الفقير إلى الله تعالى سنجر بن عبد الله الجاولي (الملكي الناصري) نائب السلطنة الشريفة بالأعمال الساحلية والجبلية بغزة المحروسة أعز الله أنصاره بتاريخ ذي الحجة سنة أربع.....».

يقول الأستاذ ماير: «سنجر بنى أبنية عديدة في غزة، فأيهما هو هذا؟ وسنجر كان نائباً في غزة من 711 إلى 720 أولاً. ثم في المرة الثانية في زمن الملك الصالح إسماعيل في 740» وهو يعتقد أن التاريخ الذي كتبت فيه تلك الكتابة كان 714.

---

[111] - سورة التوبة، الآية 18.

وأما أنا فإني عند حد الاعتقاد أن جامع الشمعة لم يبن من قبل الأمير علم الدين سنجر الجاولي. وأما البلاطة الرخامية الموجودة فوق بابه والتي تقول إن الجاولي هو الذي بناه فإنها مأخوذة من بقايا جامع الجاولي عندما هدم ذلك الجامع واندثر، وأخذ الناس ينقلون حجارته من مكان إلى مكان. ولقد ذكرنا في الأسطر المتقدمة أن قسماً من الحجارة التي استعملت في بناء جامع السيد هاشم كان من بقايا جامع الجاولي. ويفهم من الكتابات الأخرى الموجودة في جامع الشمعة أنه عمر مراراً عديدة خلال المدة الواقعة بين القرن الرابع عشر والقرن التاسع عشر.

6 . جامع الشيخ عبد الله الأيبكي

إنه جامع قديم واقع في حي التفاح. وهو عامر إلى يومنا هذا. ومدفون بجانبه الشيخ عبد الله الأيبكي من مماليك عز الدين أيبك المشهور، ومن رجال القرن السابع.

كان للشيخ عبد الله هذا ولدان: إحداهما وهو الشيخ عياد مدفون بالقرب من السيد هاشم، والثاني وهو الشيخ أحمد له مزار باسم الشيخ أيبك.

7 . جامع علي بن مروان

إنه من جوامع غزة المشهورة. وهو عامر تقام الصلاة فيه. له مئذنة، وأمامه مقبرة، وفيه ضريح يقولون إنه لولي الله الشيخ علي بن مروان. يعتقد الناس به، ويزورونه، ويتبركون به. ويقال إنه حسني جاء من بلاد المغرب واستوطن غزة. وكانت وفاته فيها في يوم الاثنين السابع عشر من شهر ذي القعدة سنة 715 هـ. على باب المئذنة كتبت الكلمات الآتية:

«بسم الله الرحمن الرحيم. جدد عمارة هذه المنارة المباركة وإيوان القاعة والمنبر والمحراب الشريف في جامع ابن مروان ﷺ الفقير إلى الله تعالى محمد بن عبد الله سنة 725 هـ». وعلى باب الجامع تقرأ الكلمات الآتية:

لولا المحبة في القلوب وإنها ... رحب لضاق الكون بالأكوان

هي سر فرقان الإله وجمعه ... هي منة في جنة الرحمن

بجود وحلم ساد يحيى على الملا ... أمير غزة هاشم الجزران

بنى بناء خالصاً في صنعه ... جزاه خيراً خالق الإنسان

يحيــى حبــاه الله كــل فــضيلة	ببنــاء مــسجد علــي بــن مــروان
حــصنته بالهــاشمي محمــد	وبالخليــل مــبرد الــنيران
صــلى الإلــه عليــه بعــد نبينــا	والآل والأصــحاب والأقــران
مــا دام خــير الــدين يرجــو رحمــة	مــن منــزل الزابــور والفرقــان

حبر وحرر في عشرة من شعبان المبارك سنة 1217 هـ.

ومما هو جدير بالذكر عن هذا الجامع أنه الجامع الوحيد في غزة الذي يصلي فيه النساء صلاة الجمعة. وهناك في صحن الجامع قاطع خشبي يفصل مصلى النساء عن مصلى الرجال.

8. جامع ابن عثمان

إنه من الجوامع الكبيرة والمشهورة في غزة. يأتي بعد الجامع العمري الكبير من حيث الحجم ومتانة البناء. واقع في حي الشجاعية. والمعروف عنه أن الذي بناه هو (أحمد بن عثمان) من رجال القرن الثامن، وفيه قبر لرجل لا يعرف الناس عنه شيئاً سوى أنه من الصالحين[112].

ولقد قضيت بعض الوقت في بهو هذا الجامع، وبين ردهاته. وأخذت له صوراً عديدة هي التي تراها في غير هذا المكان. واستعنت بالكراس الذي أصدره الأستاذ ماير[113] على قراءة بعض الكتابات المنقوشة على أبوابه وجدرانه. وها أنا ذا أنقلها إليك في الأسطر التالية:

هناك بلاطة وضعت فوق الباب الشرقي نقشت عليها في سنة 797[114] للهجرة الكلمات التالية:

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أوقف العبد الفقير إلى الله تعالى السيفي

---

(112) - يقول الأستاذ مصطفى افندي الدباغ أنه قبر يلخجا من مماليك الملك الظاهر برقوق اشتراه مع ابواه وأنعم بهم على ولده عبد العزيز الملقب بالمنصور. وتنقلت به الأيام إلى أن عين نائباً على غزة سنة 849 وفيها توفي ودفن بجامع ابن عثمان بظاهر غزة (850 هـ) وكان هذا النائب تركياً شجاعاً مقداماً كريماً جميلاً (إلى آخر ما جاء عنه في الضوء اللامع).

(113) - L.A.Mayer, Arabic Inscription of Gaza III in Journal of the Palestine Oriental Society, Vol. IX, 1929)

(114) - 1395 بعد الميلاد

ارزمك الملكي الظاهري أعزه الله تعالى جميع القيسارية والأربع حوانيت مجاورة الشيخ ابن مروان والدار سكن الواقف جميع ذلك وقفاً على مصالح المدرسة والسبيل وكتّاب الأيتام وخبز والصدقة والمسجد المجاور سكنه وما فضل من ذلك يكون للجامع بتاريخ شهر شوال سنة سبع وتسعين وسبعمائة.

ومن الأملاك المذكورة قيراط ونصف للنبي ﷺ ومثله للخليل عليه السلام أنفده (؟) عنه».

وهناك بلاطة من الرخام في وسط قوس تعلو الباب الشمالي، نقش عليها الكلمات التالية: «بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾[115]. أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك المقر الأشرف العالي المولوي السيدي المالكي المخدومي العلاي أقبغا الطولوتمري الملكي الناصري أعز الله أنصاره بتاريخ شهر رجب الفرد سنة اثنين وثمانمائة هجرية»[116].

ويقول الأستاذ ماير: «كان علاء الدين أقبغا الطولوتمري الملقب باللقاش عبد من عبيد السلطان برقوق. ولذلك لقبه ابن تغريبردي: (الظاهري). ولا يعرف عن ماضيه شيء سوى أنه صار من جملة أمراء الألوف (راجع كتاب النجوم الزاهرة). وقد عينه السلطان برقوق حاكماً على غزة. ويقول ابن إياس أنه وصل إليها في يوم الأربعاء 8 صفر 792. وقد اشترك في مؤامرة ضد فرج. فألقي القبض عليه، وشنق بأمر منه».

وهناك فوق المحراب الكائن في صحن الجامع بلاطة نقشت عليها الكلمات التالية:

«فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير. أمر بعمارة هذا الجامع المبارك بعد الهدم والخراب مولانا السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ أعز الله انصاره بمباشرة المقر الكريم العالي السيفي أبو بكر اليغموري حاجب الحجاب بمدينة غزة المحروسة بتاريخ شهر شعبان سنة إحدى وعشرين وثمانمائة[117]»

وهناك فوق المحراب في داخل المسجد بلاطة من رخام نقشت عليها الكلمات التالية: «بسم الله الرحمن الرحيم: وﷺ. ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾[118]. والمحراب أشرف مكان من

---

[115] – سورة التوبة، الآية 18.

[116] – 1398 بعد الميلاد

[117] – 1418 بعد الميلاد

[118] – سورة التوبة، الآية 18.

المسجد. عمر هذا المحراب وكذلك الفسقية والقبة أعلاه بصحن الجامع ابتغاء لوجه الله العبد الفقير إلى الله تعالى الصدر الأجل الكبير الحاج علم الدين سنجر المعامل بغزة أعزه الله بعزه وجعله في كنفه وحرزه. وذلك في مدة آخرها العشر الأخير من شهر رجب سنة أربع وثلاثين وثمانمائة (834 هـ) . 13 أبريل 1431م». ويقول الأستاذ ماير: «إن هذا لم يكن حاكماً في غزة، بل كان يشغل منصباً أقل أهمية من ذلك؛ وأنه في عام 834 هـ كان حاكم غزة اينال العلائي (الذي صار فيما بعد الملك الأشرف) وظل في هذا المنصب من 18 شوال 831 (31 تموز 1428) إلى 836 هـ. ثم إن الوالي أو الحاكم في غزة كان منذ نهاية القرن الثامن يلقب؛ (الكافل) وهو أعلى لقب يطلق على الحكام في عهد المماليك».

وعلى بلاطة من رخام وضعت بين البابين في المدخل كتبت هذه الكلمات:

«بسم الله الرحمن الرحيم: رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الظاهري السيفي أعلاه الله تعالى وشرفه وأنفذه وصرفه أن يبطل ما على الملح المجلوب إلى مدينة غزة المحروسة من المكس الذي كان يؤخذ عند بيع الملح المذكور استجلاباً للأدعية الصالحة لهذه الدولة العادلة خلد الله ملك سلطانها بتاريخ خاتمة عام ثلاثة وخمسين وثمانمائة». (31 فبراير 1450).

9 . جامع المحكمة البرديكية

جامع قديم أنشئ في القرن التاسع، وله مئذنة جميلة. كان مدرسة ثم محكمة للقضاة. وكانت تقيم فيه مدرسة الشجاعية الأميرية (1938م). المدرسة أسسها الأمير برديك الدودار سنة 859 هـ أيام الأشرف أبو النصر اينال العلائي. وعلى بابه الشمالي توجد الكتابة الآتية:

«بسم الله الرحمن الرحيم: إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله». بنى هذه المدرسة المباركة ابتغاء لوجه الله تعالى المقر الأشرف العالي السيدي المالكي المخدومي السيفي برديك الدوادار الملكي الأشرف أعز الله أنصار بتاريخ ذي الحجة الحرام سنة 859 هـ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه تسليماً أبداً».

◆ ◆ ◆

وهناك مساجد يصلي الناس فيها صلواتهم الخمس فقط، ولا تقام فيها صلاة الجمعة، وهي:

1 ـ مسجد المغربي	في حي الدرج
2 ـ مسجد الشيخ فرج	
3 ـ مسجد الشيخ خالد	
4 ـ مسجد الزاوية الأحمدية	
5 ـ مسجد زاوية الهنود	
6 ـ مسجد الهجاني	
7 ـ مسجد العجمي	في حي الزيتون
8 ـ مسجد الشسيخ القشقار	
9 ـ مسجد السدرة	في حي التفاح
10 ـ مسجد الغزالي	في حي الشجاعية
11 ـ مسجد السيدة رقية	
12 ـ مسجد الظفر دمري	
13 ـ مسجد الطواشي	
14 ـ مسجد الهواشي	

وإليك ما نعرفه عن هذه المساجد:

1 ـ مسجد المغربي ويسمونه أيضاً (مسجد الشيخ المغربي). واقع في حي الدرج. وهناك على العتبة العليا للباب المخصص للدخول بلاطة من رخام نقش عليها بالخط النسخي الذي كان معروفاً في عهد المماليك الكلمات التالية:

«بسم الله الرحمن الرحيم: أمر بإنشاء هذا المكان المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى شاهين بن عبد الله الكجكي مقدم القصر الشريف. إنه أوقف جميع البيت والقاعتين جوار المدرسة وجميع الحوش ظاهره وباطنه المعروف بالجوباني وجميع الحاكورة وما فيها المجاورة للمدرسة وقفاً صحيحاً شرعياً في سنة تسعة وثمانين وسبع مائة». (24 فبراير 1384).

2 ـ مسجد الشيخ فرج: لا نعرف عنه شيئاً سوى أنه مسجد صغير، واقع في حي الدرج. ولم يستطع أحد أن يقول لنا من الذي بناه، ومتى؟ وكل ما نعرفه أن الشيخ فرج

كان عبداً للسيد محمد خطاب في أواخر القرن العاشر، وظهر له منه بعض كرامات، فأجله. ولما مات دفنه في ذلك الموقع واتخذ عنده مسجداً ثم دفن بجانبه. وقد جعل بعدئذ مدفناً لذرية أسرة خطاب. تلك الأسرة التي انقرضت في القرن الرابع عشر.

3 ـ مسجد الشيخ خالد: أسس في القرن الثامن، وفيه قبر كتب عليه هذه الكلمات:

«جدد هذا المكان المحتوي على ضريح ولي الله تعالى سيدنا الشيخ خالد المتوفى سنة 749 هـ ناظره الشيخ شهاب الدين أحمد بن إبراهيم المقدسي الأنصاري في أوائل جمادى الأولى سنة 955 هـ» ودفن فيه أيضاً الشيخ جماق جد أسرة جماق المنقرضة وإليه تنسب ساقية الجماقية.

4 ـ مسجد الزاوية الأحمدية: واقع في حي الدرج. وهو عامر حتى يومنا هذا. وقد أنشأ الزاوية التي بجانبه المنتمون إلى الطريقة البدوية في أوائل القرن الثامن للهجرة. وذلك انتساباً إلى السيد أحمد البدوي المتوفى بطنطا عام 675 هـ.

وإذا ما دخلت الزاوية المذكورة رأيت عن يمينك غرفة، ووجدت فوق باب الغرفة بلاطة من رخام كتبت عليها الكلمات الآتية:

«بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[120]. أنشأ هذا المكان المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى طرنطاي الجوكنداري». ذكر ذلك ابن حجر العسقلاني فقال إن حسام الدين طرنطاي الجوكندار كان والياً في غزة في أيام تنكيز. وجاء في (صبح الأعشى) للقلقشندي أن تاريخ تعيينه إليها كان بتاريخ 15 رمضان 736 هـ وقد خلف سنجر الجاولي في الحكم.

5 ـ مسجد زاوية الهنود: واقع في حي الدرج. لا نعلم عنه شيئاً سوى أن الهنود هم الذين أنشؤوه. ويظهر أنه كان يعيش في غزة في زمن من الأزمنة الغابرة عدد غير قليل من الجالية الهندية لوقوعها على درب الحج وطرق التجارة.

6 ـ مسجد الهجاني: واقع في حي الدرج وهو مسجد صغير. ليس له إمام ولا مدرس ولا خادم.

7 ـ مسجد العجمي: واقع في حي الزيتون. تقام فيه الصلوات الخمس. وهنالك مسجدان آخران بهذا الاسم: واحد في حي العجمي، وآخر في حي المباشر لكنهما في حالة من الخراب شديدة.

---

(120) ـ سورة التوبة، الآية 18.

8 ـ مسجد القشقار: واقع في حي الزيتون. ويسمونه (مسجد الشيخ عثمان القشقار). والمظنون أن الذي بناه رجل بهاذ الاسم ألباني الأصل.

9 ـ مسجد السدرة: واقع في حي التفاح، بجانب بئر الأجمقية. سمي كذلك لوجود سدرة بالقرب منه.

10 ـ مسجد الغزالي: واقع في حي الشجاعية. ليس ثمة ما يدل على بانيه. غير أن الكثيرين يظنون أن الذي بناه هو الأمير جان بردي الغزالي الذي كان نائباً في غزة في أوائل سلطنة عثمان.

11 ـ مسجد السيدة: رقية واقع في حي الشجاعية. ويقال أن امرأة تدعى رقية هي التي أنشأته، وقد كانت زوجة لأحد الحكام الذين تولوا الحكم في غزة في العهد العثماني.

12 ـ مسجد الظفر دمري: هذا أيضاً في الشجاعية. انشئ في القرن الثامن من قبل شهاب الدين أحمد ازفير بن الظفر دمري في سنة 762 هـ نسبة إلى ظفر دمر من بلاد المغرب. ثم اشتهر بالقز دمري. وفيه قبره. والمسجد عامر في يومنا هذا. وقد كتبت على بابه هذه الكلمات:

«بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[121]. أنشأ هذا المكان المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى شهاب الدين أحمد ازفير بن الظفر دمري سنة 762 هـ».

13 ـ مسجد الطواشي بناه رجل من أمراء المماليك المصريين وسمي على اسمه (الطواشي). وقد اعتاد بعدئذ رجل من المغاربة يسمى (الشيخ علي) أن يصلي فيه، وظل كذلك إلى أن مات فيه، فسمي (مسجد المغربي). وبجانبه مدرسة أنشأها في أواخر القرن الثامن للهجرة المقر السيفي شاهين بن عبد الله الكجكي. وكان ذلك في زمن الملك الظاهر برقوق. وقد نقش على بابها هذه الكلمات:

«أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة المعز السيفي شاهين بن عبد الله الكجكي وكان ذلك في مدة الملك الظاهر برقوق». ذكرها الشيخ عبد الغني النابلسي في رحلته سنة 1101 هـ وهي اليوم مسجد يعرف بزاوية ومسجد المغربي. لأن الشيخ علي المغربي المتقدم ذكره دفن فيها، وكان ذلك في القرن الثالث عشر للهجرة.

---

(121) ـ سورة التوبة، الآية 18.

14 . مسجد الهواشي واقع في حي الشجاعية. لا نعرف عن ماضيه شيئاً.

◆ ◆ ◆

وهناك مساجد أخرى وجوامع كانت في سابق الأيام عامرة، إلا أنها خربت مع تقادم العهد، وأهملت؛ أو أنها اندثرت بالمرة، فلم يبق لها أثر.

أما الجوامع والمساجد التي هجرت هجراً لقلة استعمالها، أو لعدم تصليح الخراب الذي ألم بها فإليك أسماءها:

في حي الدرج: جامع المدرسة الفصينية، وجامع الشيخ ظريف، وجامع الشيخ منصور[122]، ومسجد الهليس[123]، ومسجد الشيخ شعبان أبي القرون.

في حي الزيتون: مسجد الشيخ إلياس[124]، ومسجد الشيخ عبد الله المغفري[125] ومسجد أبي الركاب، وجامع الوزيري[126]، ومسجد الشيخ عطية[127]

في حي التفاح: مسجد الشيخ بشير[128]

في حي الشجاعية: مسجد العابد.[129]

وأما الجوامع والمساجد التي اندثرت بالمرة حتى أنه لم يبق لها أثر، فمنها:

في حي الدرج: مسجد الأوزاعي[130]، ومسجد الشيخ رضوان، ومسجد الأندلسي[131]، وجامع البيمارستان[132]، وجامع أبي مدين الغوث.

---

(122) - بجوار خان الكتان

(123) - فيه دفن جد آل الهليس

(124) - امام مقبرة آل الشوا وبالقرب من زاوية الشيخ عابد.

(125) - جد النخالة، وهو واقع عند مفترق الطرق المؤدية إلى خان يونس والمحطة وشارع عمر المختار.

(126) - تحت دار البلدية الجديدة، وعلى شارع عمر المختار. هجر اخيراً لتشعث بسيط الم به

(127) - مولد الإمام الشافعي وهو الآن بيت معد للإيجار. فيه قبر بنت الإمام، وخادمه الشيخ عطية

(128) - عند مزلقان السكة الحديدية، وبالقرب من مقبرة الدمرداش

(129) - في البقعة الواقعة عند مفترق الطرق المؤدية إلى غزة وخان يونس ويافا.

(130) - بجوار جامع السيد هاشم وهو اليوم مقبرة

(131) - بني هذا في القرن الثامن وسمي كذلك لأنه مدفون فيه الشيخ علي الأندلسي، وقد كتب على قبره: «هذا قبر الفقير إلى رحمة ربه علي بن أحمد الأندلسي الأنصاري توفي في شهر رجب سنة 759 هـ ومن يدري لعله هو الذي بنى المسجد. وقد هدم قبل توسيع الشارع الجديد المسمى (شارع فهمي بك)

(132) - كان شرقي الجامع الكبير، وبه رباط انشاه الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون سنة 730 هـ وقد كانت

في حي الزيتون: جامع العجان، وجامع الجاولي[133]، وجامع المدرسة الكاملية[134] ومسجد القيدة، ومسجد العجمي، ومسجد البطل، ومسجد الشيخ رشيد (أو المنجرة)، وجامع الشهداء الواقع بالقرب من مقبرة العواميد.

في حي التفاح: جامع الجمعة[135]، ومسجد ابن سلطان[136]، ومسجد أبي العزم[137] ومسجد الشيخ الباز[138]، ومسجد جامع البطنة.

في حي الشجاعية: جامع الباسطية[139]، وجامع قايتباي[140]، ومسجد الطيار، ومسجد المقازين، ومسجد الشيخ مسافر[141]، ومسجد ركن الدين التركماني[142].

وهناك جوامع سميت لنا، ولكني لم أعثر لها على أثر، كجامع المارواني، والجامع المعلق الذي أقامه الأمير سيف الدين بلبان.



له اوقاف كثيرة تحولت، بعد هدمه، إلى جوامع اخرى وكان قسم من البيمارستان مخصصاً لتداوي امراض العقول وبقي عامراً حتى سنة 1215 إذ خرب في حرب نابليون

[133] - كان قائماً في البقعة الواقعة تجاه حاكورة الحاج حسن الهورنو ومسلخ البلدية وكانت البقعة المذكورة في وسط المدينة ذكره ابن بطوطة في رحلته وكذلك الشيخ عبد الغني النابلسي انشاه الأمير علم الدين سنجر الجاولي نائب السلطنة الشريفة بغزة المحروسة وذلك بتاريخ 708 للهجرة وهدم اثناء فتح نابليون لغزة، ثم اندثر وبعثرت حجارته هنا وهنالك وقد استعمل قسم منها في بناء جامع السيد هاشم وهنالك بلاطة من رخام فوق باب جامع الشمعة بحارة الزيتون كان في الأصل جامع الجاولي هذا.

[134] - في اول الشارع المؤدي إلى دير اللاتين من الجهة القبلية بجوار دار السيد طالب الريس وقد انشاه الملك الكامل بن الملك العادل سنة 635 للهجرة

[135] - في شمال جامع علي بن مروان ويقال إن صلاة الجمعة ما كانت تصلى إلا به

[136] - غربي مقبرة علي بن مروان وقد دفن فيه (محمد بن عبد الرحمن بن سلطان) الغزي الذي جاء ذكره في الضوء اللامع

[137] - عند مدخل مقبرة علي بن مروان من الناحية القبلية الغربية امام المدرسة الثانوية

[138] - دخل في مدرسة الأوقاف

[139] - في المكان الذي فيه مطحنة زمو الآن

[140] - وكانت بجانبه مدرسة علم راقية أنشئ في أواخر القرن التاسع للهجرة والذي انشاه هو الملك الأشرف ابو النصر قايتباي وخرب سنة 1230 هـ إنه كان في البقعة المجاورة لساقية الطوابين في مدخل الشجاعية وعند مفترق الطرق التي تربط غزة بخان يونس والمحطة

[141] - انشاه الحاج سعد الدين مسافر بن قتبغلي احد المماليك السلطانية وكان ذلك سنة 706 هجرية

[142] - بناه ركن الدين عمر بن خليل التركماني الغزي سنة 782 هـ

وهناك جامعان شرع في إنشائهما حديثاً، ولكن ظروف الحرب حالت دون إتمامهما. وهما:

1 ـ جامع البحر: وقد شرع الصيادون سكان الحي الواقع على شاطئ بحر غزة ببنائه حوالي عام 1934 ولكنهم لم يستطيعوا إتمامه بعد.

2 ـ جامع الكنز: واقع في حي الرمال. شرع ببنائه السيد عبد المجيد بن الشيخ محمود عباس الشوا، وكان ذلك حوالي سنة 1936، إلا أنه لم يتم بعد. وقد أوقف الشيخ سلامة بن سعيد، شيخ عشيرة المسعوديين المزازمة من قبائل بئر السبع أرضاً له في بئر السبع لهذه الغاية.

◆ ◆ ◆

وفي غزة مزارات لا تعد ولا تحصى، نكتفي أن نذكر منها:

1 ـ مزار الأوزاعي: وهو واقع بجوار جامع السيد هاشم. كان هذا مسجداً، ثم اندثر. وهو الآن مقبرة ومزار.

2 ـ مزار الشيخ محمد بن طريف: وهو واقع في حي الدرج. إنه قبر وقد كتب عليه هذه الكلمات: «هذا قبر العبد الفقير إليه تعالى الشيخ محمد بن طريف الراجي عفو ربه اللطيف توفاه الله يوم الخميس عشر ذي الحجة سنة 784 هـ».

3 ـ مزار الشيخ عطية: قلنا في غير هذا المكان أنه كان مسجداً، وفيه ولد الإمام الشافعي. وهو اليوم مزار. وفيه قبر بنت الإمام، وخادمه الشيخ عطية.

4 ـ مزار الشيخ عابد: هو الشيخ محمد بن الشيخ عبد الله زين العابدين. وينتهي نسبه إلى الشيخ عبد القادر الكيلاني. استوطن غزة في أوائل القرن العاشر. وإليه تنتمي أسرة أبي بكر الموجودة الآن في الرملة والتي كانت في غزة في سابق الأيام.

5 ـ مزار الشيخ بشير. هو واقع بالقرب من جامع ابن مروان. وبهذه البقعة قبور الشهداء والمجاهدين من القرن السابع. كتب على قبره: «هذا قبر الفقير إلى رحمة الله تعالى الطواشي الأجل الكبير سعد الدين بشير بن عبد الله الأشرفي رحمه الله تعالى توفي في العشر الأخير من رمضان المعظم سنة 649 هـ».

6 ـ مزار الشيخ أبي العزم: هو الشيخ محمد شمس الدين أبو العزم من أولياء المغاربة. نزل غزة في القرن التاسع. ومن ذريته الشيخ أحمد بن محمد بن يحيى الشهير

بالموقت. وهذا المزار واقع بالقرب من مدرسة الفتح الإسلامية، وشمالي المدرسة الثانوية الأميرية. وهناك من يعتقد أن أبا العزم هذا هو شمشون الجبار الذي جاء ذكره في التوراة والذي ذكرناه عند البحث عن غزة في زمن الفلسطينيين القدماء.

7 ـ مزار الدار قطون: هو قبر واقع بداخل الساقية المعروفة باسم ساقية سويد؛ قد كتب على القبر: «هذا قبر العبد الفقير إلى الله الشيخ علاء الدين الدار قطون الكمالي البدري».

8 ـ مزار تل المنطار: وقد دفن فيه ولي الله (الشيخ محمد البطاحي) من رجال القرن الخامس. وهذا يرجع بنسبه إلى علي زين العابدين بن الحسن بن فاطمة الزهراء [ﷺ]

وفيه مزار (الشيخ علي) وكنيته أبو سليمان. وعلى قول: اسمه سليمان وكنيته أبو علي. واشتهر بالمنطار. كان جامعاً واليوم مزار فقط.

9 ـ مزار الشيخ رضوان: إنه ابن الشيخ علي بن عليل، وهو عم الشيخ عجلين، ويقال أنه الشيخ إبراهيم بن عرقوب المدفون في حمامة.

وقيل إنه رضوان بن رسلان بن الشيخ محمد البطاحي المدفون بالمنطار.

10 ـ مزار الشيخ عجلين: هناك بلاطة فوق الباب، كتبت عليها الكلمات التالية: «بسم الله الرحمن الرحيم: إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله. أمر بإنشاء هذا المسجد المبارك لله وفي طاعة الله وابتغاء مرضاته ورغبة في مغفرته وثوابه العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ إلياس بن سابق بن خضر غفر الله له وأثابه في شهر صفر سنة إحدى وسبعين وستمئة رحم الله من دعا له وجميع المسلمين».

إن هذه الكتابة هي أقدم كتابة أثرية وجدت في غزة. ولكن: من هو إلياس بن سابق؟ ولماذا بنى هناك مسجداً؟ ألا يمكن أن تكون البلاطة قد وضعت لمكان آخر، فأخذت منه في زمن من الأزمان، ووضعت في هذا المكان؟

إني ميال للاعتقاد بأن الشيخ عجلين هو ابن الشيخ إبراهيم بن الشيخ علي بن عليل، وأنه لا علاقة للشيخ عجلين هذا بالشيخ إلياس الوارد اسمه فوق البلاطة، وأن البلاطة منقولة من مكان آخر. وفوق كل ذي علم عليم.

ديرة السبع في يومنا هذا
1934م

1 ـ ديرة السبع تؤلف في يومنا هذا وحدة إدارية يسمونها (قضاء بئر السبع)، وهي من أعمال (اللواء الجنوبي[143]) بفلسطين. وفلسطين تدار ـ كما تعلم ـ من قبل الحكومة البريطانية وعملاً بصك الانتداب الذي منحتها إياه (عصبة الأمم) بعد الحرب الكونية (1914 ـ 1918).

2 ـ في هذا القضاء شُعَبٌ لمصالح الحكومة كالإدارة، والقضاء النظامي، والقضاء الشرعي، والقضاء العشائري، والشرطة والسجون، والمعارف، والزراعة والبيطرة، والجمارك والمكوس، والبرق والبريد، والأراضي، والصحة والأشغال العامة.

3 ـ مساحة القضاء أحد عشر مليوناً وبضعة آلاف من الدونمات، وهي بالنسبة إلى مساحة القسم الباقي من فلسطين تقرب من النصف. ويحده من الجهة الشمالية الشرقية البحر الميت، ومن الجنوب خليج العقبة، ومن الغرب للشمال البحر المتوسط؛ وهو متاخم أيضاً لإمارة شرقي الأردن في الشرق، ولشبه جزيرة سينا في الغرب.

وعدد سكانه يقرب من السبعين ألفاً، كلهم مسلمون شوافع إلا بضع أسر مسيحية تعيش في المدينة نفسها. وجميعهم عربان رحل أو شبه رحل يسكنون بيت الشعر، إلا المدينة نفسها فإن سكانها حضر.

4 ـ قاعدة القضاء (مدينة السبع). وهي في الوقت الحاضر مدينة صغيرة وبالأحرى قرية كبيرة لا يزيد مجموع نفوسها عن ثلاثة الآلاف. ماؤها عذب لكنه قليل؛ وهواؤها عليل، غير أن الغبار يكثر فيها بدرجة تقلق راحة أهلها. وفيها مجلس بلدي ذو رئيس

---

[143] ـ هنالك ثلاثة ألوية: (اللواء الشمالي) قاعدته حيفا، وأقضيته: حيفا وعكا والناصرة وطبريا وصفد وبيسان وجنين ونابلس وطولكرم؛ و(اللواء الجنوبي) قاعدته يافا، وأقضيته: يافا والرملة وغزة وبئر السبع؛ و(لواء القدس) قاعدته القدس، وأقضيته: القدس (بما فيها أريحا وبيت لحم) ورام الله والخليل في رأس كل قضاء قائمقام وطني، وفي رأس كل لواء حاكم إنكليزي، وفوق الجميع (مندوب سام) يستعين بمجلس استشاري مؤلف من كبار رؤساء الدوائر.

وخمسة أعضاء[144] ينتخبهم الأهلون لأجل إدارة الأعمال البلدية من تنظيف، وتنوير، وتعمير طرق، وجر مياه وما إلى ذلك.

5 . وهناك مستشفى ذو ثمانية أسرة؛ وفي المستشفى طبيب وصيدلي وثلاث ممرضات وبضعة أفراد من التمارجية [الممرضين]. وفيه مستوصف للمرضى يعالج فيه ما لا يقل عن مئتي مريض في كل يوم. ومثل هذا المستوصف ثلاثة في أنحاء مختلفة كالعوجا والعمارة والجمامة يزورها الطبيب في أوقات معلومة.

وقد لا يخلو من فائدة أن نذكر هنا، والشيء بالشيء يذكر، أن صحة العريان بوجه الإجمال جيدة. وأنهم لولا الفقر المدقع وقلة الغذاء وعدم الاعتناء بالنظافة والتعرض للبرد القارس، وبالأحرى لولا اضطرارهم للتنقل من المنطقة الحارة إلى المنطقة الباردة آونة، ومن هذه إلى تلك آونة أخرى، لرأيتهم أشد الناس بأساً ونشاطاً. إذ أنني الآن . مع ما ذكرته عنهم من أسباب الضعف . استغرب كل الاستغراب عندما أرى أنهم أقوياء الأجسام، حادو البصر، ناعمو البشرة، ذوو أعضاء متناسقة، مزاجهم لمفاوي في الغالب، وأسنانهم متينة ونظيفة قل أن يشكوا ألماً فيها. لا يعرفون اللواط، ولا يعرفون المسكرات، بعيدون عن السمنة، يسيرون المسافات الطوال من غير تعب، يخافون الزنا كثيراً وقد انتشرت عادة (تعدد الزوجات) بينهم انتشارها في القرى. ولكنك على الرغم مما تقدم. تجد بينهم عدداً غير قليل مصاباً بداء الإفرنجي[145] (Syphilis) لكثرة اختلاطهم بعضهم مع بعض. وكذلك قل عن (النزلات الرئوية والشعبية) و(أمراض الجهاز الهضمي[146]) فإنها كثيراً ما تصيبهم ولكنها لا تنتج الموت إلا بين الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 1 . 5.

وأما (الأمراض الصدرية) فأهمها السل وهذا متفش في بعض المناطق دون غيرها. ولا سيما بين العريان في المنطقة الشرقية، لأنهم يتعرضون لتقلب الطقس أكثر من غيرهم بسبب رحيلهم. وأما (الأمراض التناسلية) كالعنة والتهاب الخصيتين والتهاب الأنبوب الإنتاجي وما يعترض الرحم من آلام، فإنه يغلب وجودها في المناطق الشمالية والغربية، وذلك بسبب الإفراط في اللذات من جهة، وقربهم من القرى والمدن من جهة أخرى.

ومن الغريب أن النساء في هذه المناطق أقوى بنية وأقدر على احتمال الحمل. ومدة

---

[144] - إليك أسماءهم: الرئيس تاج الدين شحشه الأعضاء الحاج عيسى بسيسو، سعيد بسيسو، الحاج يوسف الشرفا، الحاج محمد البيطار، وبترو الترزي.

[145] - إن هذا الداء منتشر بكثرة بين العريان الذين يخيمون في المنطقة الشرقية

[146] - هذه الأمراض منتشرة بين جميع العريان على حد سواء

الرضاعة هنا أطول منها في المناطق الأخرى. حتى أن الأطفال يتحملون الأمراض أكثر من غيرهم.

وأما (أمراض العين) فإنها قليلة إلا في المدينة نفسها، فإن داء الحبيبات (التراخوما) يكاد يفتك فيها. وقد لا أبالغ إذا قلت إن 80٪ من سكانها مصابون بها، ولطالما رأيناها تسبب أضراراً جسيمة فتنتهي بالحول، أو الالتهابات القرنية، وبفقدان البصر في أغلب الأحيان.

ما كان البدو ليعتقدون بالطب والأطباء إلا في السنوات الأخيرات حيث أخذوا[147] يفدون إلى المستشفى. وينتظرون مجيء الطبيب إلى منازلهم ليداويهم.

6 . الأمن مستتب[148] في جميع أنحاء القضاء. وقوة الدرك مؤلفة من مئة وأربعين جندياً منهم اثنان وسبعون هجانة أكثرهم من أبناء البدو، وأربعة وعشرون فرسان وثمانية عشر مشاة. وهناك تسعة مخافر للدرك في بئر السبع، وعصلوج، وعوجاء الحفير، وكرنب، والزويرة، والفمر، وأم رشش، والعمارة، وجمامة؛ كلها مجهزة باللاسلكي، إلا العمارة فإن فيها هاتفاً، وأما الجمامة فلا هذا ولا ذاك.

وعلى رأس هذه القوى ثلاثة ضباط من أبناء البلاد وضابطان إنكليزيان أحدهما (مساعد مدير)، وهو المسؤول مع القائمقام عن الأمن.

7 . وهناك محكمة للصلح مؤلفة من قاض مدني واحد. ومحاكم للعشائر مؤلفة من واحد وعشرين عضواً بدوياً. كل ثلاثة منهم يؤلفون محكمة. ولهذه المحاكم سلطة في حل المشاكل التي تحال إليها من لدن رئيس المحكمة المركزية أو من قائمقام القضاء وفاقاً لعادات العربان على أن لا تكون هذه منافية للعدل الطبيعي أو الآداب. وقد كانت أحكام هذه المحاكم تستأنف إلى المحكمة المركزية بالقدس، إلا أنها أصبحت تستأنف (راجع العدد 333 من الوقائع الفلسطينية بتاريخ 22 ـ 12 ـ 32) إلى محكمة الاستئناف العشائرية: وهذه مؤلفة من القائمقام رئيساً، ومن عضوين يختارهم القائمقام من بين أعضاء المحكمة الأصليين الذين لم يبدوا رأياً في أصل القضية. وأما قضايا التملك والدعاوي الجنائية فإن النظر فيها من اختصاص محكمة الأراضي والمحكمة المركزية ومحكمة الجنايات في القدس.

---

[147] ـ إن العربان المخيمين في المناطق الشمالية والغربية أكثر اعتقاداً بالطب والأطباء من العربان النازلين في المناطق الشرقية والجنوبية الذين يركنون إلى الأعشاب والكي ووصفات الخبيرات من النساء.

[148] ـ بقي السجن في بحر العام الفائت يومين كاملين من غير سجين ولم أسمع بقتل امرئ أو بأية حادثة جنائية مهمة منذ ثمانية عشر شهراً.

8 ـ ليس بمحظور حمل السلاح في النصف الجنوبي من قضاء السبع، إلا أن ذلك محظور قانوناً في النصف الشمالي منه. وهناك خط وهمي لأجل التفريق بين المنطقتين أشارت إليه الوقائع الفلسطينية بتاريخ 20 ـ 12 ـ 1929.

9 ـ قضاء السبع قضاء زراعي تكثر فيه زراعة الشعير، والحنطة، والذرة، والبطيخ؛ وقل أن يزرع فيه السمسم، والكرسنة. وقد كان زرع التبغ المعروف بالهيشي[149] محظوراً إلا في منطقة معلومة. فرفع هذا المنع وأشير إلى ذلك في العدد 390 من الوقائع الفلسطينية الصادرة بتاريخ 21 ـ 9 ـ 1933 وأصبح زرعه مباحاً في كل جهة من جهات القضاء. فكان هذا الرفع عيداً لدى البدو. إذ وفر عليهم مبالغ طائلة.

ويبيع البدو حاصلاتهم الزراعية التي تفيض عن حاجتهم في سني الخصاب إلى التجار في سوق السبع بالدرجة الأولى: وفي أسواق غزة، وخان يونس، والمجدل، والفالوجة بالدرجة الثانية. ومن هذه الأسواق نفسها يشترون ما يحتاجون إليه من سكر، وبن، وأرز، وأقمشة وما إلى ذلك.

10 ـ تغزل المرأة البدوية الصوف، وتحيك بيت الشعر، والأغطية، والفرش والغفور[150]، والفرد[151]، والخرجة[152]، والمزاود[153]، والمخالي[154]، والمرائر[155]: وذلك كله من شعر المعز أو صوف الضان أو وبر الإبل. بيد أن هذه الصنعة لا تزال في طورها الابتدائي، تحتاج إلى استكمال وتدبير كي تعود على البدو بالربح الوفير.

11 ـ لم أجد بدوياً واحداً من سكان هذا القضاء لم يكن مديناً بمبلغ من المال، قلّ أو كثر، إما إلى الحكومة أو إلى التجار. مع أن الضرائب التي يدفعونها (ضريبة العشر المستبدلة[156] وضريبة التعداد[157]) قليلة تكاد لا تذكر. إن متوسط الدين للشخص الواحد جنيه واحد. ومع ذلك فإن هذه النسبة أيضاً. بالنسبة إلى حالة البدو العامة وفقدان

---

(149) - إنه نوع رديء بالنسبة لأنواع التبغ الأخرى، ولكن البدو يرغبون في تدخينه، ويؤثرونه على جميع الأنواع الأخرى.

(150) - جمع غفرة وهو ما يغطى به الشيء.

(151) - جمع فردة وهي الواحدة ولكنا معناها الكيس الواحد.

(152) - جمع خرج وهو الوعاء المعروف يوضع على الدابة.

(153) - جمع مزودة وهو ما يوضع فيه الزاد.

(154) - جمع مخلاة وهي التي يوضع فيها العلف وتعلق في عنق الدابة.

(155) - جمع مرير والمرير من الحبال ما اشتد فتله ويقال رجل مرير اي قوي ذو عزم.

(156) - هي المعدل الوسطي للأعشار التي خمنت في اربع سنوات: 1925، 1926، 1927، 1928. ومجموعها 9000 جنيه وكسور.

(157) - 48 ملا عن كل راس من الغنم و120 ملا عن كل راس من الإبل.

العوامل الاقتصادية الأخرى بينهم، كثيرة يكادون لا يحتملونها، إنهم لا يعرفون الصكوك والسندات والعقود إلا قليلاً: وتراهم يكتفون (بالوجه)[158] وقل أن يمتنوا بألفاظ الصك أو تعيين الفائدة أو تحديد الوقت للدفع. لأنهم أميون[159]. ويسير كل واحد من التجار في تنظيم الصك وفق هواه.

12 . البدو أذكياء فطرة، ولكنهم غير متعلمين؛ وليس عندهم سوى خمس مدارس ابتدائية: الأولى عند الجراوين، والثانية عند الستوت، والثالثة عند الزريعيين، والرابعة عند الحناجرة، والخامسة عند الجبارات. في كل مدرسة معلم واحد يعلم الأولاد القراءة والكتابة وقليلاً من التاريخ والجغرافيا ومبادئ الدين والحساب.

13 . وليس في جميع أنحاء القضاء أثر للحضارة والعمران إلا في المدينة نفسها ففيها أبنية حجرية، وشوارع فسيحة، ودار للبلدية، وسبع بيارات؛ وفيها ناد للموظفين أسس عام 1933؛ ومدرستان ابتدائيتان: واحدة للذكور وفيها مدير وثمانية معلمين، وأخرى للإناث وفيها مديرة وثلاث معلمات. ولمدرسة الذكور فرع داخلي أسس في العام الفائت لإيواء خمسة وعشرين تلميذاً من أبناء البدو، يتعلمون فيه ويأكلون وينامون على نفقة الحكومة.

14 . وفي المدينة ثلاث آبار عمومية ينفق عليها المجلس البلدي، ويجر المياه منها بمضخات إلى الخزان، ومن الخزان بقساطل إلى البيوت. ولكن لا هذه الآبار ولا الآبار الخصوصية التي يملكها الأفراد بكافية لإطفاء عطش السكان الذين كانوا ولا يزالون يشكون شح الماء.

15 . وفيها مسجدان: واحد كبير بني في أواخر العهد التركي، وتبرع العريان بنفقات بنائه التي أربت على ألف جنيه. وآخر صغير أنشأه الحاج عيسى أفندي بسيسو عام 1931 وأوقفه للمصلين.

وفيها كنيستان: واحدة للروم الأرثوذكس، وأخرى إنجيلية أنشئت من لدن الإرسالية الأميركية عام 1910 للميلاد.

16 . أراضي السبع مفروزة وليست بالمشاع كما يظن بعض الناس. كل امرئ يعرف أرضه. بيد أن البدو قل أن يمتنوا بالتطويب[160].

ولقد اختلف في تعيين مساحة الأراضي القابلة للزرع والاستثمار في هذا القضاء:

---

[158] - هو ان يذكر المستدين وجه فلان من سراة القوم او اسمه ككفيل للمبلغ الذي استدانه

[159] - عدد الأميين لا يقل . على ما اعتقد . عن 95٪.

[160] - كان البدوي، عندما يقال له إنه بالطابو يؤيد حقه في الأرض، يشير إلى سيفه ويقول: بهذا لا بغيره يؤيد الحق.

فمن قائل إن هذه لا تتجاوز في حال من الأحوال المليون من الدونمات. ومن قائل إنها لا تقل عن الثلاثة ملايين. وإني لأشعر بميل لتصديق الفئة الثانية. غير أنه مما لا خلاف فيه أن القسم المزروع بالفعل في الوقت الحاضر أقل من المليون بشيء يسير.

لا يميل البدوي لبيع أرضه. وهو يعتبرها كعرضه. تراه يميل إلى رهنها بدلاً من بيعها إذا ما عضته الفاقة أو دعاه إلى ذلك مسيس الحاجة. ومن يدري؟ لعل هذه الطبيعة تتغير بتغير الأزمان، وحكم الظروف القاسية، والمحول المتواصلة.

17 ـ إن سكان هذا القضاء متجانسون من حيث الأصل والدين واللغة: كلهم ينتمون إلى أمة واحدة هي الأمة العربية، ودين واحد هو دين الإسلام، ولغة واحدة هي اللغة العربية.

18 ـ ليس في هذا القضاء الآن سوى أربعة رجال من اليهود[161]: واحد في المدينة، وثلاثة في الجمامة. ولم تنشأ هنا (مستعمرات يهودية) على الرغم من أن اليهود شرعوا في امتلاك الأراضي منذ عام 1327 [هجري] (1911م). وإليك البيان بالأراضي كافة التي يملكونها في يومنا هذا [الثلاثينيات]:.

م	اسم صاحب الأرض	الأرض التي يملكها			تاريخ الشراء
		الموقع	العشيرة	المساحة دونم	
1	يهوشع ليفين	الجمامة	النتوش	1881	1911م
2	إبراهيم حايم حبيب	الجمامة	النتوش	700	1911م
3	حزقيال دانيال	الجمامة	النتوش	1229	1911م
4	يهودا سلونيم	الجمامة	النتوش	915	1911م
5	نسيم القايم وشمعون	روس اللفق	زرية	123	1923
6	الدكتور اسحق ليفي	روس اللفق	زرية	189	1926
7	شركة تحسين الأراضي اليهودية	أم جميعان	زرية	445	1927
8	شركة الأملاك المحدودة (جوديا)	مدسوس	المسعوديون	458	1927

(161) ـ كان في بئر السبع أربع عائلات يهودية، وفي الجمامة ثلاث عائلات، عدد أفرادها كلها لا يتجاوز العشرين غادروا كلهم منازلهم على أثر الاضطرابات التي حدثت عام 1929. وقد باعوا كل ما يملكون من مال ومتاع ولم يرجعوا إليها.

م	اسم صاحب الأرض	الأرض التي يملكها			تاريخ الشراء
		الموقع	العشيرة	المساحة دونم	
9	شركة الأملاك المحدودة (جوديا)	مدسوس	السواخنة	206	1929
10	ليون بلوم	رجوم الديب	الشلاليون	775	1928
	رحابيا فانشتاين				
	موريس كالكلمان				
11	رفائيل ماني	غزالة	الملامات	146	1929
12	إيزيدور رابينوفتش	غزالة	الملامات	1872	1930
13	شركة تحسين الأراضي اليهودية	السر	السواخنة والمسعودين والفراحين	8000	1926 – 1932
14	شركة تحسين الأراضي اليهودية	السر	نجمات الصانع	3000	1926 – 1934

العرب، أصحاب الأراضي في الأصل، هم الذين لا يزالون يزرعون هذه الأراضي تلقاء حصة من الريع يدفعونها إلى أصحابها. ولم يفكر اليهود في استعمار أراضي السبع تفكيراً جدياً إلا في هذه الأيام؛ حيث أخذ خبراؤهم يجوسون، بين الفينة والفينة، خلال الديار، ويبحثون عن الجهات النافعة للزرع والاستثمار.

19 ـ ديار السبع غنية، على ما أعتقد بالمعادن: كالكبريت، والمنغنيزيوم، والنحاس، والملح والفوسفات، والنفط، والحديد. ويعتقد الكثيرون أن هذه المعادن وغيرها موجودة بكثرة في المنطقة الشرقية المتاخمة للبحر الميت، وفي الجبال المطلة على وادي العربة، ولاسيما القسم الجنوبي القريب من العقبة.

أما (الملح) فهو بلا جدال موجود في (جبل أصدم[162]) بكثرة هائلة. وأكثره جاهز للطعام لا يحتاج لأي تركيب أو مزج أو عناء. وقد منح الخواجا شكري ديب عام 1927 امتيازاً من الحكومة الفلسطينية لأجل التنجيم في الجبل المذكور لمدة خمس سنوات يجوز تجديدها عند انتهائها.

---

[162] ـ على بعد سبعين كيلومتراً من بئر السبع للشرق وهو من أراضي القديرات والظلام

وأما (الكبريت) فإنه موجود في أمكنة كثيرة أهمها (المشبة[163]). وقد منح المستر ويليامز L. L Wliams امتيازاً للتنجيم في هذا المكان. وأسس لهذه الغاية شركة ساهم فيها لفيف من أبناء البلاد.

وأما (النفط) فلم تثمر الجهود التي بذلت لاستخراجه مع أن الباحثين يعتقدون بوجوده في المنطقة الواقعة بين كرنب والبحر الميت. ولا يزال المستر سازر لاند من جهة، والخواجا الياس جلاد من جهة أخرى يواصلان البحث والتنقيب.

وقد لا يخلو من فائدة أن نذكر هنا الامتياز الذي منحته حكومتا فلسطين وشرقي الأردن إلى الخواجات نوفومسكي Novomsky وتلوك Tulloek لأجل استخراج البوتاس من البحر الميت حيث تكثر الأملاح والمعادن المعروفة بكلوريد البوتاسيوم، وكلوريد الماغنيزيوم، وبروميد الماغنيزيوم.

ولقد قيل إن (الذهب) موجود في الجبال المتاخمة لوادي العربة وفي جهات أخرى، إلا أن هذا القول لم يتحقق بعد.

20 ـ هنالك مشكلة لم تسترع الانتباه الشديد بعد، وإنما ستكون على ما أرى من أهم المشاكل التي يجب أن تعالج في هذا القضاء وهي: مشكلة (الوقود). إذ يوقد البدوي الحطب لا للاستدفاء فحسب وإنما للاستضاءة، والطبخ أيضاً. ولا أثر للمصابيح والمواقد إلا في بيوت عدد قليل من المشايخ وبعض العربان القريبين من المدن. وأما الأكثرية الساحقة فلا مناص لها من ارتياد الفلا وقطع الأشجار والأعشاب اليابسة. أضف إلى ذلك أن الأراضي المعدة للزرع قد اتسعت بازدياد العمران والسكان، وباتساعها قل الوقود وضاق المرعى. وعبثاً أحاول إقناع البدو ليكثروا من غرس الأشجار. لأن للتشجير وسائل مفقودة بينهم أهمها الاستقرار وعدم الرحيل. وما كانوا ليرحلوا لو أن المياه متوفرة والمراعي كثيرة في ديارهم.

21 ـ وأما مشكلة (المياه) فحدث عنها ولا حرج. إن البدو بوجه الإجمال يقاسون العذاب من جراء الأمطار اللازمة لزرعهم ومن جراء مياه الشرب أيضاً. ولم يبحث عن الماء بصورة جدية إلا في السنتين الأخيرتين حيث قامت الحكومة تبحث عن الماء في قعر الأرض بواسطة الماكنات الحديثة التي استحضرتها من إنكلترا خصيصاً لهذه الغاية. ولكن المحاولة الأولى في (أبي سماره) قد أخفقت على الرغم من أنهم غاصوا في قعر الأرض 350 متراً. وكذلك كانت نتيجة المحاولة الثانية بالقرب من جسر (أبي رقيق) وقد نزلوا 150

---

[163] - على بعد اربعين كيلومتراً من شمال بئر السبع للغرب وهي من املاك حسنات ابي معيلق

متراً. ويظهر أن الخبراء عدلوا، مؤقتاً، عن فكرة الحفر، وأخذوا يميلون إلى إنشاء السدود. وها هي ذي الأعمال قائمة على قدم وساق لإقامة سد في (وادي أبي سمارة) لأجل الاستفادة من مياه الأمطار التي تتجمع في ذلك الوادي وإرواء الأراضي المجاورة له. وقد تتكرر هذه الأعمال في مواضع أخرى إذا نجحت التجربة في هذا الموضع. عندئذ يمكننا أن نتفاءل بأن البدو سيتحضرون وأنهم سيحتلون المكان الذي يليق بهم تحت الشمس.

رحلة محمد ثابت إلى فلسطين عام 1940م

محمد ثابت رحالة مصري، وجغرافي متأدب من أهل القاهرة، كان معلماً في المدارس الثانوية ومراقباً للنشاط الاجتماعي بوزارة التربية المصرية وعميداً لمعهد المعلمين الابتدائي بالزيتون، ثم اختير لتدريس المواد الاجتماعية في كلية النصر بالمعادي وقد توفي فيها أثناء عمله عام 1958م.[164]

جاب محمد ثابت أثناء العطلات المدرسية أرجاء العالم فله جولات في ربوع إفريقية وأوروبة وأسيا والدنيا الجديدة وجولة في ربوع الشرق الأدنى الخ.

وصف محمد ثابت فلسطين في كتابه «جولة في ربوع الشرق الأدنى» وقد قدر الدكتور كامل جميل العسلي أن الزيارة للقدس تمت حوالي سنة 1940 إذ لا يذكر الكاتب تاريخ وصوله إلى المدينة، وكذلك شأنه مع كل المدن الأخرى التي زارها، ولا تاريخ مغادرته إياها.

جاء ثابت بالقطار إلى القنطرة ثم إلى غزة فاللد، حيث محطة القطارات المركزية في فلسطين وغيّر هنا القطار واتجه إلى القدس، حيث نزل في نزل (أوليفيت). وبعد ذلك توجه الرحالة المصري إلى بيت لحم حيث زار كنيسة المهد أو الولادة وردد ما سمعه من رهبان الكنيسة عنها وقصد إثر ذلك إلى قبور الأنبياء في الخليل. ثم عاد إلى القدس، فزار جبل الزيتون ووصفه وصفاً يدل على أنه كان خالي الذهن عن مكانة هذا الجبل عند المسلمين، والمشاهد الإسلامية فيه.. وأخيراً قام محمد ثابت برحلة إلى البحر الميت ووصفه وقدم بعض الأرقام عن أملاحه الفنية ووصف ماءه وأقام يوماً كاملاً استمتع خلاله رغم شدة الحر. ولدى عودته عرج على مدفن داود في مغارة تحت الأرض لا يدخلها إلا المسلمون. وبعد أن تحدث عن أزمة المياه في القدس مرة أخرى استقل الأتوبيس قاصداً يافا..

---

[164] الأعلام 66/6

وتنتمي رحلة محمد ثابت على الرحلات التقليدية إلى فلسطين في تلك الحقبة وما قبلها، وهي تهدف بالدرجة الأولى إلى زيارة الأماكن المقدسة، ووصف بعض مظاهر الحياة فيها، دون التمعن في المصير الأسود الوشيك، الذي كان ينتظر هذا القطر العربي، المنكوب بالمطامع الصهيونية.

جولة في ربوع الشرق الأدنى

للرحالة محمد ثابت

القاهرة 1952 (ط3)

إلى فلسطين الأرض المقدسة

كنا في القنطرة السادسة مساء وعبرنا قناة السويس في سابحة بخارية صغيرة أعدتها الشركة ليعبر الناس عليها القناة إلى أرض طور سيناء، وفي القنطرة الشرقية اقلنا القطار في منتصف الليل وأوغل بنا في الصحراء، وفي باكورة الصباح تفتحت عيوننا على:

غزة: مولد الإمام الشافعي وهي بلدة صغيرة قامت حولها بعض المزارع الفقيرة، ثم أخذ الزرع يتزايد في بقع متناثرة في الصحراء حيث تكثر العيون وخصوصاً على المنحدرات التي كان يكسوها شجر الفاكهة في صفوف منسقة بديعة تمر خلالها مجاري الإسمنت للري، وقد كانت كثرة الشجر خير مؤيد لما نعرفه من شهرة المكان بالفاكهة. وفي هذه القرية الصغيرة زرنا مدفن شمشون الجبار تحت قبة مهملة لا تشعر بجبروت من فيها. ثم وصلنا محطة:

اللد: وكان الشجر حولها وفيراً وهنا غيرنا القطار الذي قام بنا صوب القدس فأخذنا نوغل في أودية ملتوية معقدة آخرها بالغ الامتداد غير ذي زرع، وكان القطار يجد صاعداً خلال كل أولئك في جهد كبير، وقد زود بقاطرتين معاً. وفي منتصف العاشرة دخلنا:

بيت المقدس: فآويت إلى نزل (أوليفيت) الجميل يديره صاحبه الوطني الذي شراه من الإنجليز ويقوم عليه خير قيام. أما القدس فبلد كأنه أقيم على مجموعة تلال في ارتفاع 2400 قدم، طرقه تسير في ليات عجيبة وتهوي آناً وتصعد آناً في منحدر وعر، وقد يرتقي الواحد من طريق إلى آخر بدرج مرتفع يناهز الخمسين سلماً. والمدينة جد نظيفة وساعد على ذلك أن تربتها صخرية مجدبة لا تكاد تجد أثراً للتراب في أرضها وبيوتها من

صخر الجير يبدو في ألوان طبيعية أبيض وأحمر وأخضر. وللقوم مهارة خاصة في نحته وإقامته بحيث يبدو فخماً جذاباً على الرغم من أنه لا يغشاه في ظاهره ملاط، وغالب المساكن من طابقين إلا بعض المنشآت الحديثة. وكم كان يدهشني اختلاف الأزياء والأجناس بكثرة لم أعهدها في أي بلد آخر مما أيد أن ذلك المكان المقدس أضحى بلداً عالمياً. فالناس من مذاهب شتى وديانات مختلفة ولكل زيه الخاص، فالعربي القح يلبس الصوف وعلى رأسه العقال وسواد الناس يلبسون الطربوش وسراويل تحبط حول الساق وتنتفخ حول العجز، والبعض يلبس القفطان وعليه الحزام المموج الجذاب نساء ورجالاً. ولعل أعجب الأزياء تبدو في طائفة من اليهود الرجعيين فتراهم يرسلون لحاهم وشعور رؤوسهم ويدلون منه ذؤابتين طويلتين أمام الأذنين في شكل يسترعي الأنظار، والنساء يخرجن وعلى وجوههن قناع أسود ثقيل. ومن أخص ما ترى فتيانهم الذين يحملون وراء ظهورهم سلالاً كبيرة تكاد تخفي قامة الغلام منهم ويسيرون على غير هدى كلهم يجدون مرتزقاً في حمل متع الغير في تلك السلال، ونغمة الحديث عجيبة قد تثير الضحك إذ يميلون الحروف ويمدونها. ويتصرفون في حروف الجر تصرفاً مدهشاً. ولاحظت أنهم لا يميلون إلى النزاع أو المشاكسة، وهم كرام النفوس وديعون مؤدبون فما سألت أحدهم شيئاً إلا وحاول أن يهديني في رغبة وبشاشة فإن قلت (متشكر) أسرع قائلاً (أستغفر الله). وهم يودون المصريين ويذكرونهم بخفة الروح.

وفلسطين اليوم قسمان: شرقي الأردن وعاصمته عمان وهي فيلدلفيا القديمة، ويحكمها الأمير عبدالله. وفلسطين ويحكمها مندوب سام، وعاصمتها القدس التي يبلغ سكانها نحو الخمسة والستين ألفاً. ومجموع سكان البلاد كلها دون المليون، منهم 670 ألفاً من المسلمين، و175 ألفاً من اليهود، و90 ألفاً من المسيحيين. أما سكان شرقي الأردن فدون ثلث المليون، على الرغم من أن مساحتها ضعف مساحة فلسطين وأغلبيتهم الساحقة من المسلمين.

وفي القدس: بدأت زيارتي بباب الخليل وهو أجمل أبواب أسوار القدس. وسمي كذلك لأن الطريق إلى الخليل يبدأ منه، وقد كتب على مدخله (لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله). وكان يسمى قديماً: باب المحراب، أي محراب داود. ويعتقد الكثير أن المسيح الدجال سيهزم ويذبح تحت هذا الباب. وبعد أن جزت الباب سرت في دهليز حجري منحدر كثير الليات يسمونه (سوق البازار) ويحكي أسواق الغورية عندنا إلا في أرضه الحجرية المدرجة ومنه عرجنا على:

طريق الآلام: وفيه حمل المسيح الصليب الكبير وقطع به الطريق كله وقد أعياه ثقله فوقف اثنتي عشرة مرة متوجعاً، وقد عرف القوم تلك النقط ووضعوا علامات تميزها، وفي الموقف الرابع قابلت العذراء ابنها المسيح وهو يسير إلى القتل، وفيها أقام الأرمن كنيسة، وفي المحطة السادسة تقدمت القديسة فيرنوشيا (Veronica) فمسحت عرق المسيح وفازت بطابع وجهه المقدس على منديلها، وفي الثامنة خاطب المسيح بنات القدس قائلاً: لا تبكوا على بل ابكو ضحايا القدس من الشباب. وفي الحادية عشرة أمر المسيح أن يخلع ثيابه قبل الصلب، ثم قيل إنه وثق إلى الصليب ودقت فيه أطرافه، وفي الثانية عشرة رفع الصليب وثبت في الحائط بثقوب رأيناها واضحة وإلى يسارها شق طويل ملئ بالنحاس ويقولون إنه من أثر الزلزال الذي هز العالم عند ذاك. وفي الثالثة عشرة أنزل الصليب وتسلمت مريم جثة ابنها وآخر النقط وهي الرابعة عشرة في قلب كنيسة القيامة حيث دفن المسيح، ومدخلها ناعم زلق من كثرة ما لمسها من أرجل الحجاج على كر السنين. وحارس الأبواب مسلم بيده مفاتيحها ليحسم النزاع بين الطوائف المسيحية المختلفة التي تنازعت الأمر طويلاً. وقد شاهدنا داخل الكنيسة الصخر المقدس الذي غسلت عليه جثة المسيح، وفي مقصورة إلى جواره يضيئها خمسة عشر مصباحاً من فضة حجر الرخام الذي كان يغطي القبر فدفعته الملائكة إلى مكانه هذا. وإلى يمين المقبرة يغطيها حجر يستخدم الآن مذبحاً للقرابين، وثم هيكل النشور الذي تجلى فيه المسيح. ومما راعنا منظر مغارة غائرة يسمونها سجن المسيح قيل إنه سجن فيها وأجلس فوق صخرة بها ثقبان أدخل الفخذان منهما ووثقا، ثم شحذ الذراع إلى ثقبين رأيناهما وراء. ويمد تلك المغارة مغارات عدة سجن فيها أتباعه وكلها رطوبة رهيبة. وهناك هيكل السخرية، سخر الجند عنده من المسيح وتوجوه بتاج من شوك تهكماً وتقريعاً. ويزين المدينة:

الحرم الشريف: المسجد في متسع ذرعه 145 ألف متر مربع على جبل (موريا). ولما حلّ عمر القدس كان موضع المعبد أطلالاً مطمورة، فأزاحها وأقام مسجداً مؤقتاً للعبادة أعقبه مسجد الصخرة. وللحرم الشريف سور يطوقه (1601 قدم في 1530 في 1024 في 922)، وفي داخله رأينا ثلاثة أبنية رئيسة: قبة الصخرة وقبة السلسة والمسجد الأقصى، وهناك كثير من الأسبلة والمصاطب والمحاريب والقباب منثورة في غير نظام.

قبة الصخرة: تقام على مثمن قطره 177 قدماً ولها سبعة أبواب تولى شطر الجهات الأربع. والغربي منها يسمى باب الجنة ويصلى على الأموات فيه عادة. بناها

مروان خليفة دمشق ليظهر على خلفاء مكة منافسيه سنة 691. وقيل إنها كلفته سبعة أضعاف خراج مصر. أما صفحات ذاك المثمن من الخارج فيكسي نصفها الأسفل بالرخام المجزع والنصف الأعلى بالقيشاني في ألوان عدة أظهرها الأزرق والأخضر في إبداع دونه كل وصف، وتزين الأعلى آيات الذكر الحكيم بالخط الكبير وبخاصة سورة (يس)، وقد جمل ذلك القيشاني سليمان القانوني. وأقام القبة نفسها الحاكم بأمر الله سنة 1022 من خشب مرصع علوه 96 قدماً وقطره 75. وتكسى من خارجها بالرصاص وترفعها من داخلها أعمدة تيجانها ورؤوسها بيزنطية ونوافذها مخرمة في أشكال هندسية جذابة يغشاها الزجاج بألوان تبهر النظر تتجلى من الظلام الرهيب الذي يسود داخلها، وفي جانب منها كتب بالخط الكوفي أن مؤسسها هو هارون الرشيد سنة 72 هجرية، مع أنه حكم بين سنتي 197 و218 ولذلك ظن أنه محا اسم مروان بانيها الأصلي ونقش اسمه وغفل عن التاريخ.

والصخرة المقدسة ذات شكل غير منتظم طولها 58 قدماً وعرضها 44. ويقال إن النبي لما عرج إلى السماء على البراق من فوق تلك الصخرة التصقت بحوافر جواده وأخذت تصعد معه حتى جاء جبريل ودفعها إلى الوراء، وقد أشار الدليل إلى موضع اصبع جبريل واضحاً هناك وإلى جوارها صخرة عليها طابع قدم الرسول وفوقها شعرتان من لحيته، وبجوار ذلك سيفه وعلمه وعلم من أعلام عمر. نزلنا تلك الصخرة فبدا جوفها كأنه مغارة مظلمة في تجويف وسط الصخر يرن عالياً إذا ضرب باليد . ويخال القوم أن ذاك المكان ملتقى لأرواح بعد الموت ومن ثم أسموه بئر الأرواح.

وبناء قبة الصخرة فوق مرتفع من الصخر نعلوه بدرج محيط بها من جميع نواحيها، وفي أعلى كل درج أقواس الموازين. ويقولون إنه في اليوم الآخر ستعلق الموازين فيها لتزن أعمال الناس جميعاً، فمن رجحت موازينه فهو في عيشة راضية.

أما قبة السلسلة فتجاور قبة الصخرة بناها مروان كأنموذج للقبة الكبرى وهي تقوم على سبعة عشر عموداً رتّبت في دائرتين متحدتي المركز بحيث يمكن أن ترى كل الأعمدة في وقت واحد . ويقولون إن سليمان الحكيم علق في هذا المكان سلسلة لكشف شهود الزور الكاذبين، فالصادق يستطيع أن يمسك بها . أما المزور فلم يكن يمكنه ذلك. ومن ثم سميت قبة السلسلة.

المسجد الأقصى: إلى جنوب قبة الصخرة زرنا قبة أخرى دخلناها في بهو من أعمدة عظيمة الامتداد أدى بنا إلى قبة الصخرة مزركشة تحتها محراب هو آية فنية،

ويسمونها المسجد الأقصى لأنه أقصى مكان وصله الرسول بالبراق، وصعد إلى السماء وافداً من مكة إلى الأراضي المقدسة ليلاً. وذاك المحراب مطعّم بالعاج ترصعه اللآلئ أقامه السلطان نور الدين سنة 1168 وجمّله صلاح الدين وإلى جانب من المنبر قبلتان: واحد للمسيح ويظهر فيها أثر قدمه، والثانية لموسى عليهما السلام، وعلى كل جانب من مدخل المنبر عمودان قريبان كان يعتقد الناس أن من يمر بينهما يدخل الجنة وإلا فهو من أهل الجحيم. وحدث مرة أن جاء رجل بدن كبير الجثة وحاول المرور من بين العمودين فحشر ومات، ومن ثم سُدَّ ما بين الأعمدة ليمتنع وقوع ذلك.

وإلى جوار السوار في الجنوب الشرقي اسطبل سليمان نزلناه بدرج تحت أرض الحرم. وإذا به مجموعة من أبهاء وأقبية تقوم على أعمدة كان سليمان يربط خيله فيها، وقلده الصليبيون ففعلوا ذلك فيما بعد. ويخال البعض أن البناء من عهد هيرود الأكبر. وفي غرفة مجاورة مهد المسيح قيل إن مريم عرضت ابنها في المعبد عليه. وعلى جانب الاصطبل فيما جاور قبة الصخرة: الباب الذهبي أو محبس الجن، كان يحبس سليمان فيه الجن متى شاء، ويظن أنه أقيم في مكان باب شوشان الذي بناه هيرود، ولقد سده المسلمون لأن هناك خرافة تقول بأن النصارى سيغزون الحرم يوماً ويدخلون من ذلك الباب. ويجاور ذلك عرش سليمان الذي كان يجلس عليه، وقبالته من الخلف جبل الزيتون الذي كان يأوي إليه المسيح للتعبد بين أشجار الزيتون. ويقول الناس إن السراط سيمتد يوم القيامة بين هذا المكان وبين قبة الصعود قبالته فوق جبل الزيتون. وسيمسك النبي بطرف السراط من فوق صخرة رأيناها بارزة على سور الحرم، والطرف الثاني للسراط سيمسكه المسيح ثم يمر الناس جميعاً من فوقه فمن جازه نجا وإلا فالويل لمن هوى.

مبكى اليهود: ويسمونه أحياناً البراق، حائط هائل خارج الباب الأوسط للحرم الشريف، وأقيم من كتل الصخر الكبيرة، ينبت العشب خلال شقوقها، وهو الحائط الوحيد الذي بقي من معبد داود القديم، لذلك يتخذه اليهود مبكى لهم يأوون إليه، وبخاصة يوم السبت والجمعة عند الغروب، وكذلك في أعيادهم. ويقف الرجال في ركن والنساء في الآخر، وهم يبكون ويرتلون ويندبون ملكهم القديم الزائل، ويسألون الله أن يعيده إلى مجده السالف، ومنظرهم وهم خشوع رهيب، ويزيدهم رهبة أن غالب القوم يلبسون قبعات من وبر أسود فاحم كأنها حلقات غليظة، وتتدلى شعورهم من رؤوسهم ولحاهم في جدائل تسترعي النظر. ويقف جندي البوليس هناك ولا يبرح المكان لا ليلاً ولا نهاراً لأن الحائط مبعث نزاع متواصل بين المسلمين واليهود، إذ كل فريق يدعيه لمذهبه ويقدسه.

بيت لحم: قمت إليها في سيارة لأرى قرية المسيح التي ولد فيها هو وسيدنا داود، أهلها جلّهم من النصارى الذين يفاخرون بأنهم يمتون بصلة القرابة إلى المسيح نفسه. وبيت لحم قرية صغيرة وسط الجبال، تقوم بيوتها من حجارة بعضها فوق بعض، وأقدس مكان بها كنيسة مريم أقدم كنائس الدنيا مدخلها وطئ لا يكاد يسمح بالدخول إلا في انحناء شديد وذلك اتقاء هجمات العرب والأتراك الذين طالما دخلوها بخيلهم ودوابهم. وفي قلبها مغارة بجانبها صخرة مثقوبة في شكل نجم كبير وتضيء من فوقها المصابيح أبداً وهو مكان ميلاد المسيح عليه السلام. ويراقب هذا الموضع حارس مسلم ليمنع تعدي الطوائف المسيحية بعضها على بعض إذا كثيراً ما يشجر النزاع بينهم. هنا عطّرنا القسيس بماء الورد المقدس الذي تبركنا به وأنعشنا في ذلك الحر اللافح، وإلى جانب المكان بئر كانت تستقي منها العائلة المقدسة. ويقولون إن النجم الذي هدى مريم إلى هذا المكان هوى إلى تلك البئر! وإلى اليمين رأينا درجاً نزلناه إلى هيكل الأبرياء حيث ذبح هيرود أطفال بيت لحم جميعاً. وإلى اليسار الغرفة التي تلقى فيها يوسف الوحي ليهرب بالمسيح إلى ديار مصر.

وفي طريقنا إلى بيت لحم زرنا مقبرة راحيل أم سيدنا يوسف الصديق التي شراها اليهود من المسلمين وهي المكان المقدس الوحيد الذي ظل في أيدي اليهود إلى اليوم.

وعلى بعد عشرين كيلو متراً من بيت لحم بلدة الخليل، وفيها مدفن إبراهيم الخليل وزوجه وأولاده ويوسف الصديق وكثير غيرهم من الأطهار، على أن البلدة ألفيناها قذرة متربة. ومدفن إبراهيم داخل المسجد الذي لم يكن يدخله غير المسلمين إلى أمد قريب. لكنهم اليوم أباحوا للنصارى الدخول مقابل رسم يدفعه الزائر قدره نصف جنيه.

جبل الزيتون: أحد الجبال التي تحيط بالقدس، ويقع شرقها ويبلغ علوه 2680 قدماً. كان المسيح يتريض فيه ويخلو بنفسه ليتعبّد ويناجي ربه، ومنه دخل بيت المقدس يمتطي حماره فانتصر وتوّج ملكاً. وفي حدائق الجبل خرج عليه تابعه (يهوذا) ودل اليهود على المسيح سيده. ومن ذروة هذا الجبل صعد المسيح إلى السماء. سرنا إلى ذاك الجبل المقدس صعداً على أقدامنا، وفي طريقنا إليه زرنا مقبرة مريم أم المسيح في مغارة سحيقة نزلنا إليها بدرج عظيم رهيب، وقد أقيمت فوقها كنيسة، وقد شربنا هناك من مياه بئر مريم الطاهرة، ثم مررنا بعدها بمقابر لثلاثة آلاف جندي بريطاني ماتوا في الحرب الكبرى، وبعدها زرنا كنيسة ألمانية فاخرة حديثة البنيان، وفي ذروة الجبل وصلنا إلى مسجد صغير إلى جواره قبة تحتها موطئ قدم المسيح يوم صعد إلى السماء من هذا

المكان. وتُصفّ خارج القبة مذابح متعددة للطوائف المسيحية المختلفة يتسلم مفاتيحها حراس مسلمون خشية النزاع الطائفي. وفي هذا المكان يقيم النصارى شعائر (تقديسهم) وينصبون خيامهم في الموسم ويقيمون فيها حول القبة أياماً ولن أنسى مشهد مدينة القدس كلها من خارج تلك القبة، ومن قمة مئذنة المسجد إذ تجلت في رواء وروعة، دونها كل وصف. وفي أسفل القبة على منحدر الجبل بستان ناجى فيه المسيح ربه وتعبّد بينما كان صحبه نياماً، وهنا قبض عليه اليهود. وتكاد تكسو الجبل غابة من شجر الزيتون العتيق المتفرق. وقد وقفنا تحت شجرة منه يقولون عنها إن عمرها يزيد على تسعمائة سنة وتسمى شجرة الآلام. وفوق الجبل عدة كنائس فاخرة لم يتح لي الوقت زيارتها.

إلى البحر الميت، أو بحر لوط. أقلتنا إليه سيارة الأمنيبوس فأخذنا نسير في طرق ملتوية تعلو وتهبط في مهاوي مخيفة، وكانت تحوطنا الربى المجدبة إلى الآفاق. وبعد أكثر من ساعة ونصف بدأ البحر الميت على بعد تحده من شرقه جبال (مواب) المقدسة. تجلى في بساط أملس من الماء الأزرق القاتم، وكان الإغريق والرومان يسمونه بحر الإسفلت لكثرة ما أمدهم من تلك المادة. امتداده 48 ميلاً وعرضه عشرة بحيث يعادل في مساحته بحيرة جنيف. ومستوى مائه دون مستوى البحر بمقدار 1300 قدم، فهو بذلك أحط منخفضات العالم أجمع. وأعماقه سحيقة تبلغ في بعض جهاته 2310 قدم. ويصب فيه من شماله نهر الأردن ويسميه الناس (نهر الشريعة الكبرى). ورغم أنه يغذيه بنحو ستة ملايين ونصف المليون طن من الماء في اليوم فإن أملاحه آخذة في الزيادة السريعة لشدة البخر حوله حتى بلغت نسبة الملح في مائه 25٪. ومن هذه الأملاح 34٪ من ملح الطعام، و6٪ كلورور البوتاسا، و1٪ بروميد المغنزيوم. وقد حسب مقدار ما يحوى من أملاح وقدّر بنحو ثلاثين ألف مليون طن منها 1500 مليون طن من البوتاسا، ومن ثم عدت فلسطين من أغنى بقاع الدنيا بتلك المادة. ولما ذقت ماءه كنت وكأني وضعت في فمي حفنة من ملح، وملمس الماء لبك. ولقد أخذت امتياز استغلاله شركة من يهود الإنجليز، وقد مهدت إليه بالأوتوبيس وأقامت هناك مقصفين ومسبحين، وهي تعد نزلاً فاخراً. نزلت البحر لأسبح قليلاً فكان يضايقني ملح الماء جداً، غذ كان مادة كاوية في العين والفم، وكلما حاولت الغوص لم أستطع بل كان يدفعني الماء إلى سطحه، ولما شحذت جسدي لبثت طافياً فوقه زمناً طويلاً. وكلما حاولت السباحة مالت رأسي إلى الغوص وظل الجسد طافياً، وهذا خطر السباحة فيه ويحقه يهم تسميته بالبحر الميت لأن الحياة لا تكاد توجد به قط، فمجرد دخول السمك من نهر الشريعة إليه يموت ويجده القوم طافياً. ونهر الشريعة ينبع

من جبال لبنان ويدخل في طريقه بحيرة جليل ثم يخرج منها ليصب في البحر الميت. وفي هذا النهر عمد يوحنا المعمدان المسيح عليه السلام، ويوحنا هذا هو المعروف عندنا باسم يحيى بن زكريا عليهما السلام.

وماؤه كدر اللون مبيض حتى بعد ترشيحه. وطعمه لا بأس به. سقانا غلام المقصف منه ماء مثلوجاً. وقد أقمت على ضفاف ذاك البحر، وفي جوار نهر الشريعة نهاراً كاملاً، استمتعت خلاله رغم شدة القيظ ووهج ضوء الشمس المحرقة حوله فهو من أشد بقاع الدنيا حرارة في الصيف.

ومن أعجب ما أذكره للقدس شحّ مائها وندرته. فأهم مستمد للماء هناك أحواض يستقبل فيها مطر الشتاء لإمداد البلدة، فإذا ما أقبل الصيف نضبت تلك الأحواض، فكان المستمد الوحيد (برك سليمان)، إلى جانب بيت لحم تطلق منها المياه مرتين في اليوم لتسير في أنابيب تؤدي إلى صنابير الطرق في القدس. وكنت أدهش لتزاحم القوم حولها قبل ميعاد فتحها بساعات وبيد كل منهم (تنكة) ينتظر ليملأها بثمن يكاد يفوق ثمن النبيذ الرخيص هناك، وكثيراً ما سمعتهم يقولون إن النبيذ أرخص لديهم من الماء العذب. وفي كل بيت تجد موضعاً لادخار ماء المطر شتاء. وفي البيوت الكبيرة يبتاعون الماء بسعر المتر المكعب ثمانية قروش. لذلك اعتاد القوم الشح الشديد في الماء وعدم الإسراف فيه.

رحلة بشير كعدان إلى فلسطين
والمستوطنات الصهيونية فيها
1945م

تعد رحلة الصحفي والكاتب السوري المعروف بشير كعدان، آخر رحلة إلى فلسطين قبل احتلالها، من الرحلات التي استطعنا جمعها، ولذلك فهي تمثل أهمية كبيرة بالنسبة لنا للوقوف على حقيقة الوعي العربي، غير الرسمي لمأساة فلسطين، التي كانت قد أخذت جميع أبعادها في تلك الفترة من منتصف الأربعينيات من القرن العشرين.

ولد بشير كعدان في دمشق سنة، 1913 وتوفي: 1980/5/18. وقد تلقى تعليمه في دمشق، وعمل صحفياً و(مستشارٌ صحفياً) في ملاك القصر الجمهوري في دمشق، كما أسس عام 1953 جريدة يومية في دمشق باسم (الجمهور) وكان صاحبها ورئيس تحريرها حتى عام 1958. مؤلفاته: (مبدأ ايزنهاور- دراسة)، و(عبد الناصر في ذمة التاريخ- دراسة) و(خنجر إسرائيل – دراسة مترجمة)، و(التبرئة قضية سياسية- دراسة)، وهي عن محاولات تبرئة اليهود من دم المسيح. اما رحلته التي بين أيدينا فقد نشرها عام 1946م باسم (هؤلاء الصهيونيون) وعليها اسم مؤلف ثان يدعى شفيق شالاتي، الذي لم نعثر على شيء من ترجمته عند أحد في دمشق، ولذلك يبدو لنا أنه رفيق رحلة لكعدان ليس إلاّ، إضافة إلى أن أسلوب صياغة الرحلة ولغتها هو أسلوب بشير كعدان في كتبه الأخرى.

وعلى الرغم من أن هذه الرحلة لم تكن رحلة تقليدية، بمعنى أنها تمثل مشاهدات الرحالة، إلا أنها تضم هذا العنصر، أي التجربة الشخصية، إضافة إلى كمية كبيرة من المراجع المتعلقة بالقضية مقتبسة من مصادر كثيرة، ومنسوبة إلى شخصيات حقيقية أو متخيلة. وهو ما أوضحه كعدان في مقدمته بتفصيل، محاولاً تبرير خطوته هذه بمختلف التبريرات الممكنة.

ولذلك نطالع في متن هذه الرحلة بعض المشاهدات الشخصية، ومقاطع كما هي

من آراء زعماء الصهيونية، وأوصاف المستوطنات والمعامل والمرافق الاستيطانية، وكأنها مأخوذة من أدلة مكتوبة.

كما لاحظنا أنه استفاد من كتابات بعض الكتاب العرب السابقين المتعلقة بوصف الأماكن المقدسة، مثل نص جرجي زيدان حول فلسطين المنشور في مجلة الهلال عام 1913و 1914م.

ومهما يكن من أمر فإن محاولة كمدان نقل هذه الصورة (المضطربة) حيناً، والواضحة حيناً آخر، لأوضاع فلسطين في منتصف الأربعينات، هي محاولة جديرة بالانتباه، وتستحق تحليلاً ومراجعة لعناصرها، كونها تنبئ بشكل أو بآخر عن مستوى الوعي العربي لأبعاد القضية الفلسطينية، وهو وعي كانت تشوبه الكثير من النقائص ويحيط به التشويش.

ومع ذلك نرى أن كمدان وضع يده على مكمن المشكلة في بعض المواضع، ولمس حقيقة القضية، غير أنه ونتيجة رغبته في حصول كتابه على عدد كبير من القراء أغرق في وصف الحياة المتحررة (الماجنة) للصهاينة في مستوطناتهم وفي مدينة تل أبيب، وبالغ في ذكر محاسنهم، بدعوى (معرفة العدو)، ما أوقعه في التناقض حيناً وضعف الحجة حيناً آخر. مثل انتقاده المستمر للحياة العربية، ثم تبشيره في نهاية الرحلة بحدوث صحوة عربية إسلامية. وحديثه عن التخطيط والتنظيم في صفوف الحركة الصهيونية في فلسطين، واعتباره أنها لن تحقق غاياتها نتيجة صحوة العرب القادمة!. وفي ظننا أن هذه الخاتمة وضعت نتيجة مخاوف من قبل كمدان بأن يعتبر كتابه ترويجاً للصهيونية، وتحسيناً لصورتها لدى الجمهور العربي.

لقد نشرنا معظم نص الرحلة، وحذفنا، فقط، بعض الاستطرادات الخارجة عن السياق، والتي قال هو إنه وضعها لأسباب لا علاقة لها بأهداف الكتاب بل بهدف جذب القراء!.

دار اليقظة العربية

للتاليف والترجمة والنشر

هؤلاء الصهيونيون

تاليف

بشير كعدان - شفيق شالاتي

المقدّمة

هـؤلاء الـصهيونيون... لـيس في الواقـع كتاباً أدبيـاً، ولا علميـاً، وإنمـا هـو ريبورتـاج صحفي مطول، دفعنا إلى أن نخرجه على هذه الصورة معرفة تامة بنفسية الجماهير، وإرادة غلاّبة لأن يقرأ من قبل أكبر مجموعة عربية في الوطن والمهجر...

ولعلك ـ سيدي القـارئ ـ ستلمس فيه أدباً مكشوفاً، أو فكاهـة مترامية الأطـراف، فاعتبر ذلك من (المقبلات) واغضض الطرف عنها إن كانت تثيرك.!

إن هـذا الكتـاب عملـي قبـل كل شـيء، سيريك قسماً مـن المستعمرات الـصهيونية، فتلمس حياة القوم، ونشاطهم وإنتاجهم، ونظامهم في القرى والمخازن والأعياد والشوارع ودور اللهو...

نحـن نعتقـد أن رحلتنـا إلى القطـر الشقيق، بعـد دراسـة وافيـة لـه، هـي الأولى مـن نوعها لدى العرب. ولم يكن نتاجها نظريات ومقررات وتاريخاً، بل هو وصف صادق لحياة عدوة ماكرة يجب الاستعداد لها بكل جد..!

لقـد أخذنا أحاديث هامـة مـن شخصيات صهيونية لهـا تفكيرهـا الخـاص ورأيهـا الحازم في القضية دون أن نذكر مأربنا أو طرفاً من مهمتنا...

ولعلنا آثرنا أن نرتب هذه الأحاديث وننظمها ونربطها بما له صلة بها من معلومات خاصة وعامة عن الصهيونية، على أن نبقيها جافة خاماً بين يدي القارئ...

لقـد آثرنـا ألا ننـافق العـرب فـنحط مـن قـدر الـصهيونية، ونرفـع العـرب إلى درجـة التخدير، فإن هذا النحو الذي ينحـوه كثير مـن مؤلفينا وصحفيينا طريق ضالة رديئة...

لأننا نؤمن بأن معرفة قوة العدو ودخيلته بصدق وحياد، تهيئ للعرب مصدراً للدفاع هاماً وسلاحاً مرهفاً حاداً...

ابدأ لم نترك مصدراً ولا رأياً قيل عن فلسطين إلا ونهلنا منه لنسعف كتابنا مفضلين عدم ذكر ذلك بسبب أسلوب الكتاب وطريقة البحث...

أيها العربي...

إن فلسطين هذه ملكك، يجب ألا ينازعك فيها أحد...

ولقد أراد الصهيونيون الاستيلاء عليها، لأنها أعظم بقعة مقدسة في الأرض، فلم يستطيعوا حتى الساعة ولن يستطيعوا... لأنها ملكك. ولأنها يجب أن تحفظ من أجلك... لقد تلقتها الأجيال العربية كابراً عن كابر، حتى صارت إليك، كما تنتقل الشعلة المتألقة من يد إلى أخرى، ويجب أن تسلمها أنت أيضاً بدورك إلى من يخلفك من الأعقاب سالمة دون أذى...

لقد كافح عنها أسلافك ضد الصليبيين، واليوم آن أوان كفاحك ضد الصهيونية والانتداب المرير...

لقد قضى أسلافك رافعي الجبين، وستعيش أنت رافع الجبين ثم تقضي... ولكنك ستخلف فلسطين وحدها عربية... وهي وحدها التي تبقى عربية خالدة....

أيها العربي...

إننا نعتقد مخلصين أنك لن تنتهي من كتابنا هذا حتى تكون لديك فكرة تحفزك إلى العمل.. العمل الذي ينقذ فلسطين من هذا الأخطبوط الصهيوني الخبيث... فلا تتجدد مأساة الأندلس ثانية...

دمشق في 6 نيسان 1946

بشير كعدان وشفيق شالاتي

أول الرقص...

لم يكد صاحبي الشهم يطمئن إلى نفسه في عربة القطار، حتى أبصر من النافذة سحابة سوداء تهرع نحوه. ولم تكن هذه السحابة السوداء، سوى جماعة من نسوة الحارة، وعلى رأسهن والدته. أقبلن يودعنه وداعاً يليق بأمثاله... فهو يسافر اليوم إلى فلسطين، كما رحل بالأمس كولومبس إلى أمريكا وفاسفو دوغاما إلى جزائر الهند، والسندباد إلى بلاد الواق واق...

ولقد كان قلبه الكبير وحده، هو الذي دفعه إلى هذه الرحلة الجبارة... فليكافأ إذن بوداع الأم الرؤوم، والجارات (الحنابن)، وهو بكل هذا التقدير حقيق جدير!

ثم أحاط الوفد الكريم بمقطورته، وقد رفعت كل واحدة منهن طرف نقابها، عن عين واحدة، وأبرزت أرنبة أنفها، كما تفعل تماماً بعض النسوة البلديات، عندما يختلسن النظر إلى الجمال الصارخ، أو الأزياء الجديدة، على قامات بنيات (الذوات) المتمايلات في دروب الشام..!

ودنت منه والدته، ودست في جيبه تعويذة، قوامها كيس صغير من الملح، لا يتجاوز حجم البندقة، ليدفع عنه غائلة العين، وأولاد الحرام، ومواجهة الحكام!!

ولعل الصبي المدلل، لجأ إليها في أول طعام تناوله، ليرش بعض ملحها على البيض المسلوق والجبن... أو لعله لاذبها، لدى أول صراخ سمعه في الحجرة المجاورة فأطل فضولاً وسرعان ما رأى شيخاً متقاعداً، يتشاجر مع شاب، وقف يودع ذويه مع أتراب له قبل أن يهيم بهم القطار. وكأن نظراته العابرة، وقعت على بدر الدجى، وست الحسن والجمال، زوج الشيخ المصون، فاستشاط غضباً، وصاح بالشباب كما صاح في سالف الزمان، الدون كيشوت، بالطواحين والشياطين، ومنعهم من الوقوف أمام حجرة (الحريم) منعاً لا استئناف فيه ولا تمييز... لكن ناقوس المحطة خف إلى نجدة الشاب، فقرع ودندن، إيذاناً بالرحيل، فانسلوا يتعثرون بخطاهم، كجرو مبلل مهزوم، وانتهت المعركة بانسحاب المتخاصمين!..

وعاد صاحبنا بقامته الضخمة يلقي النظرات الأخيرة، على من جشمت نفسها عناء

الحضور، مع سربها الكريم المتهادي، كالأوز والبط، ثم وضع على وجهه تلك البسمة، التي اعتاد أن يلصقها به كل حين، ولوح بيد تحمل منديلاً مطرزاً مهدى إليه من إحدى بنات الحلال، دون أن يأبه للونه الأحمر الفاضح، أو يحسب لتفسيرات أمه، وظنونها أي حساب..!

وانحنى يحتضن النافذة، غارقاً في تأملات طويلة، لعلها كانت قصائد عصماء يرثي بها شبابه الذاوي، وقد حمله القطار إلى بلاد حبيبة إلى نفسه، طالما درس تاريخها وخطط مصوراتها، وسأل عن كل شاردة وواردة فيها، وهي لا زالت مجهولة منه، بعيدة عنه، يخشى أن تقع فيها حوادث إرهابية، يذهب ضحية لها وقرباناً رخيصاً على مذبح المغامرات... بيد أن الفضول، وحب الاستطلاع هما وحدهما اللذان دفعاه وزميله الكريم، إلى دراسة الحال في فلسطين، وجس النبض عن طريق العمل، لا الصحف والخطابة، لعل كليهما يفهمان الداء والدواء، فيسردا لبني قومهما، السادة النجب كما تقول - أم كلثوم - نواحي الضعف والقوة عند أبناء صهيون، فينتبه لها العرب، ويلتهموها دراسة وقناعة بعد أن تقدم إليهم على شكل دجاجة مطهية شهية...

حوران العابسة

وقطع سلسلة تأملاته تلك الأراضي المترعة بالأحجار السوداء، المسماة حوران: أنبار الرومان وأهراء إمبراطوريتهم..! حوران ذات الأرض الخصبة والتربة المنبتة..!

حوران ذات الأمجاد السالفة.. يراها بأم عينه مهملة معطلة، نعم! هو يعتقد مخلصاً بأنه لولا السماء وخيراتها، والأرض وبركاتها، لما انبتت هذه البقاع حبوباً ذهبية سدت حاجة القاصي والداني... وهاهو ذا يتساءل الآن: أهذه هي حوران حقاً، ونحن في القرن العشرين؟!... ولم هذه الصخور والأحجار في أراضيها بعد آلاف السنين؟.. ولمن هذه الأكواخ السوداء التي يعافها النظر ويمجُها الذوق..؟ أهي للحوراني الكادح العامل، أم لمواشيه وأطياره..؟

يالله! أين آثار العمران..؟ أين يد المدنية.؟ أين المشاريع الزراعية، بل أين طرق المواصلات الحديثة، يملؤها سكان الأرض، بخيلهم ورجلهم ومنتجاتهم...؟

أبعد ملايين السنين تكر وتمر، وحوران باقية كما خلقها الله! ثابتة على المبدأ لا تحيد عنه قيد شعره...؟ إن الجاهل يتعلم.. والمريض يشفى.. ومواكب الحضارات تجري.. والاختراعات والاكتشافات تقلب الدنيا، وفي كل يوم نبأ وأحداث، توقظ الغافل، وتنبه الوسنان، وتحيي الجامد والموات، وحوران ما زالت كما يراها الآن، في خمود وفتور وعبوس..؟!

وفرك عنيه قليلاً، وكرر النظر ليرى هل هو يقظان أم حالم؟

نعم هذه هي حوران...! هي ذاتها منذ آلاف السنين. وداؤها الأول والأخير الجهل، الجهل الذي أرداها هذه الهاوية السحيقة من التأخر والانحطاط.

فالحوراني محافظ لا يروم تبديلاً ولا تغييراً، وإنه لأيسر للإنسان أن يقوض عرشاً متين البناء من أن يهدم تقليداً مضحكاً ألفه الناس، وتواضعوا عليه، فهو يرى أن الله خلق الأرض، فهو إذن يكفل إنتاجها . والآلات الحديثة تذبح التربة وتقتلها، والأسمدة تسممها وتميتها، والأساليب الزراعية رجس من عمل الشيطان...! فلم الآبار الارتوازية ومحركات ديزيل، وماء السماء من صنع الإله، وجل الباري. فيما صنع.!؟

وصفر القطار، وتأفف صاحبي، وراح (ينقر) على طرف النافذة، شأنه عندما يرتبك أو يعجز. غير أني سألته برصانة وحذلقة: ومن هو يا ترى المسؤول عن هذا التأخر والانحطاط.؟ هل يستطيع الفلاح الجاهل الفقير بوسائله المحدودة الابتدائية، أن يتحمل تبعات العمل الإنشائي وينهض بحوران إلى مراقي الفلاح.. وهل هو مسؤول عن إسعاف قراه بإنشاء المصارف الزراعية، لتقوم بأوده، فتقرضه وتساعده وتحنو عليه.؟ وهل هو ممن يستطيعون بناء المستشفيات، وبث المدارس وإنشاء المزارع الفنية؟

فأجاب والأسى يحز فؤاده: كلنا يا صاح مسؤول ولئن كانت التبعة تقع في الدرجة الأولى على عاتق الحكومة، فعلى كل طبقة من طبقات الأمة أن تتحمل قسطها من هذه التبعة. ولن يكفي اهتمامنا بتحسين العاصمة، وبعض المدن، مع إهمال القسم الأكبر من الوطن. وإلا فكم جلسة عقدتها لجنة الدستور، لتقرّر أن السوريين أمام القانون سواء، وإذا كان النائب لا يمثل منطقته الانتخابية وحدها، بل يمثل الأمة بأسرها، فليكن دفاعه عن كل بقعة من البلاد لإصلاحها وازدهارها، لا لشخصه ومطامعه ومنطقته، ولينظر إلى ذلك التفاوت في التعمير والإصلاح، بين البلدان المختلفة وبين المناطق في المدينة الواحدة، وليذكر أن سورية، هي وحدها التي تخلد، أما الأشخاص فزائلون.!

ثم صمت وقلب شفتيه، وارتسمت على وجهه إشارة تعجب أطول من أنف سيرانو دي برجراك[165]، وعاد إلى مقعده يتسلى بازدراد بضع تينات رطبة، تنسيه وطنيته وفورة حماسته إلى حين...

---

[165] - الشاعر او سيرانو دي برجراك: رواية للشاعر الفرنسي :إدمون روستان، ترجمها مصطفى لطفي المنفلوطي، وهي تتحدث عن الشاعر سيرانو دي برجراك الذي عاش في القرن السابع عشر، وكان أنفه يسبب له الشقاء لأنه وقف عقبة بينه وبين غرامه، وكان موضع سخرية من الآخرين، فكان النزاع بينه وبينهم لا ينتهي إلا بمبارزة يخرج منها منتصراً ولكن كثير الخصوم والأعداء

وعجب صاحبنا من ترددي على الطعام، فمد رقبته القصيرة إلى جعبتي، يجول فيها بعينيه السوداوين، وخياشيمه تتراقص كأذني أرنب، واستطاع بذكائه النادر أن يكتشف ألوان الطعام. وكان لحماً (مدللاً) شهياً، تناول منه قرصاً، وطفق يتأمله بعيني خبير، وعهدي به من (النباتيين) أتباع المعري و [برنارد] (شو)، ولولا خشيتي من (موضة) تبديل المذاهب والمبادئ، لتركت بين يديه جعبتي، ينعم بما فيها من طعام فاخر لذيذ.

وألحَّ علي مشفقاً بأن لا استعمل اللحم كثيراً، لأنه متعب للمعدة، ومورث مرض الملوك، وخاصة عقب شهر الصوم والبركة؛ ونصحني بأن أترك هذا الطعام يتصرف به في أحد الوجوه الخيرية، كإطعام المساكين من أبناء القطار، وأن أخضع في سفري هذا، إلى (ريجيم) خاص يهديني إليه. ورحم الله (إيزوب)[166] وسقى قبره ماء الورد، فما زالت قصته: ثعلب العنب، محترمة وصحيحة!

كنوز الفحم الأبيض

ولم يكد القطار يغادر (درعا) بعد نوم عميق على قضبانه الحديدية، حتى راح يعدو ويلهث، ليدرك ما فاته من الوقت الضائع في (الروتين) الحكومي. وعندما اجتاز قرية تل شهاب، تلمظ صاحبنا، وسال لعابه لمناظر الشلالات. كما يسيل لعاب صهيوني جشع، أمام مشروع زراعي أو صناعي يدر عليه المال والمال... بيد أنه شتان ما بين الاثنين؛ فقد كان صاحبنا يتملظ لعطش أصابه، أما الصهيوني فيتلمظ لامتلاك أرض الغير، ولربما يأسف على ضياعها كما نأسف نحن. وقد يتمنى امتلاكها ليصيرها جناناً عوض البوادي، وليجري في هذه السهول الجرداء، أنهاراً من الذهب والوهاج؛ وهل هذا السيل المتدفق من ارتفاع عشرات ومئات الأمتار، سوى ماء غزير ينطوي على معدن كريم، هو الفحم الأبيض، الذي يجعل من حوران، لو أحسن استغلاله حدائق وجنات مكسوة بالأزهار والأثمار، منارة بالكهرباء، وشموس العلم الحديث، لا كما هي عليه اليوم كأنك تجري في واد غير ذي زرع. فلا مشروع صناعي، ولا زراعي، ينعش قلب البلاد الذائب على المشاريع التي يحلم بها، وما زالت في حيز الخيال. إنه ماء ينحدر منذ الأزل، وأكبر الظن أنه سيظل ينحدر إلى الأزل ولن ننتفع منه إلا بالتحسر والنظر، فمتى يطل وجه المشاريع الحالم، على حوران، ليغتسل بأمواه هذه الشلالات، ويتلألأ بقطراتها؟.

---

[166] - إيزوب أو إيسوب: بطل مسرحية العنب الحامض للكاتب البرازيلي جو ليرم فيجو يردو

وغرق صاحبي يفكر بفكر شيلوخ البندقية[167]، يفكر بألف مشروع ومشروع، كما فكرت في القديم شهرزاد، بقضاء ألف ليلة وليلة...

لم يفكر بفكره البلدي علة تأخرنا وجمود ذلك الفكر الذي يزور أولاد الحي، وشباب (الزكرت)، حينما يشاهدون الماء، والخضرة والشكل الحسن، فيتشوقون إلى نفس أركيلة، أو كاس (عرءْ) [عرق] أو قضاء ساعة مع (خانم) محترمة، تذهب عن النفس الشجن.

لا لا! لم يفكر بكل ذلك.! فكما إنه من العار أن تغازل محبوبك وبيتك يحترق، فمن الجريمة أيضاً أن تترك هذه الثروة الطبيعية الهائلة تبيد سدى، لتجلس تندب صروف الدهر، وتتهم الأقدار أو تستسلم إلى نوم هادئ لذيذ...

ولقد كنا نسمع دوماً شنشنة تأليف اللجان، لدراسة موارد الري وطرقه، ثم نسمع عن التقارير في هذا الشأن الشيء الكثير. غير أننا لم نلمس في الدوائر الخاصة والعامة سوى سلة المهملات لقضاء الحاجات. فهي تسع كل ما يراد بحثه من قيم الأمور إذا لم يكن صاحب الفكرة، من المحسوبين أو المقربين أو؛ فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر...

إن مشروعاً واحداً.. مشروعاً واحداً، نستغل به جزءاً من قوى هذه الشلالات، حقيق بأن يجعل من حوران، زمردة كريمة، لا تقدر بثمن، خالدة على مر الدهر. وتلك لعمر الله أجل خدمة تسدى للوطن: ذلك الوطن الذي كثر عاشقوه وقل منصفوه.

وجلس صاحبي ينفخ ويزفر، وقد هاجمه شيطان شعره، فانشد معلقاته المشهورة - عديدة البحور والقوافي -، يهجو بها الزمن، ويشتم الأجيال النائمة الخاملة، منذ آلاف السنين، حتى الأجنة في البطون.

نعم! إن الأرض يرثها عباد الله الصالحون، الصالحون لهذه الحياة، الذين يزينون الدنيا بأعمالهم وعمرانهم ومنشآتهم. ومعاذ الهوى أن يسلم الله دنياه، وهي صنيعة يديه وعزيزة عليه، معاذ الهوى أن يسلمها للجهلاء المتنابذين المتأخرين، فالصالحون في الإدارة، والسياسة، والحكم، والصناعة، والزراعة، والأخلاق، هم الذين يرثون الأرض ومن عليها، أما الفقراء في عقولهم، الضعفاء في سواعدهم، راكبو الحمير والبغال ونحن في عصر القنبلة الذرية، والقذائف الصاروخية، فقد أصدر الدهر عليهم حكمه وما أقساه..!

وبدا صاحبنا في حماسه، مسلياً في هجماته، لذيذاً في ثورته، وعهدي به ضفدعي الدم، لا تزعجه رياح الخماسين، ولا عواصف القطب. ولقد كان كلما أبصر قطرة ماء

---

[167] - يقصد شخصية المرابي اليهودي شايلوك في مسرحية تاجر البندقة لوليم شكسبير.

تنثر من أعالي الشلالات فتداعب وجهه مع النسمات، هاج وماج وانتفخت منه الأوداج، وطرق حافة المقعد بكلتا يديه، وأقسم أغلظ الأيمان الغموسة، بأن الناس في بلادنا - إلا من رحم ربك - لا زالوا يفكرون بفكر حاجي بابا أصفهاني[168] ويقيسون قيمة الأشخاص ببراعتهم في (بلف) الجماهير، أو الجولات الخطابية المسرحية. فمن اخضرّ عود المنبر تحت قدميه كان السيد المطاع، والأمر المحبوب، وكفى الله المؤمنين القتال.!

وبعد فإننا نريد أفعالاً لا أقوالاً. نريد برامج مفصلة مدروسة، تكفل بالتطبيق والعمل؛ لا أن تقوم حكومة، فتفكر وتؤلف اللجان، وقبل أن تنتهي من مهمتها تستقيل الوزارة، وتأتي أخرى لتكرر المأساة نفسها .! إن الوقت لأضيق من أن يتسع لهذه الترهات، فلم يعد فن الحكم خطباً تلقى، وهتافات تسمع، وتصفيقاً يدوي، بل أصبح درساً وبحثاً وعملاً وإنتاجاً!.

ذكريات اليرموك

ولما كان صاحبنا من رواد المعرفة، وقد شدا من كل علم خبراً، ولم يذعن يوماً لترهات الزاعمين بأن ذكاءه موضع مناقشة قديمة منذ حياته الأولى، فقد راح يلقي المحاضرات على زبائن القطار، عن هذا النهر الذي يجتازه الآن، بين أشجار الرمان والدفل والقصب، وقد تداخلت ألوانها، وتشابكت فروعها، وتعانقت أغصانها بين أنامل النسيم العليل.

ومن ذا الذي يمر باليرموك، ولا تكتسح فكره آلاف الذكريات والعبر؟

فعلى ضفافه جرت إحدى معارك التاريخ الحاسمة، وتقرر مصير الإمبراطورية الرومانية أمام جيوش العرب:

هنا انتصرت جيوش خالد على جيوش هرقل، وكانت جولة واحدة، فانهارت الإمبراطورية كبيوت من ورق. وإذا أبواب الشام تفتح أمام الغر الميامين.

ومن ذا الذي يرى اليرموك، ولا تهيجه الذكريات؟ ومن ذا الذي يشاهد هذه البطاح، ولا يخر ساجداً لله، وتقديساً لأمجاد أجداده واحتراماً؟

فإلى اليرموك وجه الفكر والقلب، فهو صحيفة مكتوبة بالنجيع، سطرتها يد البطولة والتكاتف والاتحاد إرثاً محفزاً للعمل والجد.

---

(168) - حاجي بابا اصفهاني: للقنصل الانكليزي جيمس موريه، وهي رواية انتقادية لأوضاع إيران في عهد فتح علي شاه قاجار؛ عام 1812م

هاهي ذي مناظر الأكام الصخرية القائمة، والبراري المهملة المقفرة تنقضي، إلا من بعض أكواخ موحشة، على رواب صخرية، منبسطة حيناً، شاهقة أحياناً، تشمخ بأنفها إلى العلاء، وتتعاقب فوقها أشعة الشمس، وقزعات الغيم من السحب السارية...

وهانحن أولاء نشم روائح الكبريت، تتصاعد من الحمة، وندنو من سمخ، وقد نشاهد عن بعد طبريا فنقلب الأعين ونمتع النظر بأول مناظر فلسطين، وقد وجدت كل حواسنا نصيبها من اللذة: فثمة الزهر المشتعل في خمائله، والورد الناعس في غلائله ينسيانا تلك المناظر الرهيبة في حوران وما تلاها، فرحنا نعب الهواء بملء رئاتنا، حتى خلنا أنا توردنا عافية وصحة، ولمعت أعيننا اطمئناناً وجرأة ومغامرة، كما لو كنا جنديين من أبطال وادي الكنال، أو جزر سليمان[169]، عادا إلى وطنهما بعد طول جهاد.

---

[169] - جزر سليمان (Solomon Islands) هي دولة تقع في جنوب المحيط الهادي .تتألف من أكثر من 990 جزيرة، أكبر جزرها جزيرة وادي الكنال

طبريا تحلم

وبدت (سمخ) تقبع على ساحل طبريا، هاجعة على الحصباء، كعروس حالمة.. وكنت أؤمن بأننا نعيش بجسمنا وروحنا في القرن العشرين، قرن السرعة وسباق الزمن... ولذا فلم استغرب سرعة صاحبنا الفائقة مثلما استغربها المسافرون، عندما تدحرج من القطار، كمظليٍّ هابطٍ.. وكأنما كان من أتباع تلك النظرية القائلة: إن الطبيعة ترهب الخلاء. فهو أيضاً يخشى الفراغ، ويرهب البطالة والمطالة، ويعاديهما ويهجوهما دوماً وأبداً، لاسيما وأن دقائقه محسوبة عليه، فعليه أن يسدد الحساب بأمانة وإخلاص..

فلم يكد يودع أمتعته في أفخم وأقرب فندق في (طبريا) حتى استدعى الخادم يسألها عن مكان فيه راحة للنفس، ومتعة للقلب من وعثاء السفر، ووعورة الطريق فهدته إلى (الليدو)..

مفاجأة غير منتظرة

والليدو مرقص صهيوني، وحديقة وحمام للسباحة، على شاطئ البحيرة. فالقوم هنالك يرقصون دوماً وأبداً، يرقصون في البارات والصالات، ويسمرون في ظلال الشجر، وتحت أشعة القمر، دون أن يحدث الواحد منهم قلبه، بدقات طويلة عريضة تنبئه: انتبه. افتح عينيك، على مخاصر ابنتك أو أختك أو زوجك. فكلهم في الحب سواء! على مذاهب (مزدك) المقدّس[170].!

وكانت الأنغام تصعد وتهبط، فترفعنا معها، وتنزلنا كذلك، وثمة موائد (البنج بونج)، ومقاعد نضّدت مثنى مثنى، لأمر في نفس يعقوب.! وهنالك الأدراج والأحواض والبحيرة، فاختر لنفسك ما يحلو..

---

[170] - المزدكية منسوبة لمزدك المولود عام 487 م في نيابور. قال الشهرستاني في الملل والنحل: أحل النساء - أي مزدك - وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيها.

وكانت أشجار الصنوبر والورد على الشاطئ تحييه (وتناغشه) من بعيد لبعيد دون أن يكترث لها، لأنه يعتقد أن أبا الطيب المتنبي كان يعنيه ولا شك ساعة تحدث عن ذلك الأسد الذي كان إذا ورد البحيرة شارباً، ورد الفرات زئيره والنيلا؛ ومن كان موضوعاً لأناشيد أبي الطيب، فلن تستهويه شجيرات الصنوبر ولا الدفل قرب البحيرة...

وما كاد صاحبنا يخرج من الليدو، ويلج غرفته في الفندق، حتى استلقى على سريره ينتقم لجهاده وتعبه في مصارعة الأمواه، فأطبق جفنيه كما تغلق (الجوارير) باطمئنان وعناد، واستسلم إلى نوم عميق. ولسوف يتحدث الفقير الصابر رفيقه زمناً طويلاً عما أصابه من هذا النوم، وحسبه أن غطيطه العالي الصارخ أيقظه قبيل الفجر بساعات!

فجر باسم

مددت بصري من النافذة أستمتع بالفجر يبزغ في أرض الجدود، وبالبحيرة الزرقاء الداكنة. وكانت السماء ذات لون بنفسجي تزينها في الأفق البعيد، رقعات من الغيوم ولسان من الجبال، يحيط بالبحيرة الهادئة ويحتضنها، وقد يتألق سطح الماء أحياناً بنور خافت تعترض النظر إليه بضع شجيرات من النخيل المياس على وقع النسمات، وعلى الشاطئ دور هاجعة انبعثت من نوافذها الأضواء الباهتة، وكأنها في ظلمة الليل، نجوم تهتز في الأرض اليابسة دون السماء.

وهنالك في ذلك المكان الصامت، وفي هداة الفجر لم أكن أسمع نأمة أو حركة سوى صوت باشق يصئي على شجيرة مُصطكى، وحيدة بين أشجار الأوكاليبتوس [الكينا] التي تملأ المكان بأدواحها وأفنانها وهي رابضة قبالة الفندق.

وكان كوكب الزهرة يتألق في سماء الفجر كالجوهرة فيبعث بي لذة نفسية صوفية تغمرني على إثرها طمأنينة ساجية. أما الجامع الكبير في المدينة فكان مضاء الفناء بالكهرباء مؤذناً بصلاة الصبح، وقد بدت أقواسه وأعمدته إلى جانب المئذنة، وكأنها صرح أندلسي يهمس في سكون الكون بخشوع وإكبار: حي على الصلاة، حي على الفلاح. حي على العمل. أبداً لن تكون أرض العرب لإسرائيل.!

وكان غضب صاحبنا شديداً لوقوعه في ورطة فندق عظيم فخم. لأنه لم يعتد ذلك أولاً: لأنه مقيد باللوائح والقوانين، والبروتوكول والإتيكيت ثانياً: ولأنه يأبى أن يعترف بكل هذه الترهات. فقد ولدَ الناس أحراراً، وسيعيشون أحراراً وإن المدنية الزائفة لن تسترها

هذه المظاهر البراقة؛ ويكفي العالم حريان طاحنتان في غضون خمسة وعشرين عاماً ليحكم على نفسه بأنه لم يختلف كثيراً عما كان أيام سكناه المغاور والكهوف.!

ما رأته العيون

لك أن تسمي صاحبنا ذا الفك الحديدي، فهو يتحدث دون ملل أو ضجر عن كل ما يراه، أو يعلق عليه بشتى الأفكار والملاحظات فيصل المعلوم بالمجهول، والحاضر بالماضي، بالمستقبل. كان رأسه - كما تعلم - يعصف بألف مشروع ومشروع، منذ أن غادر دمشق. فهو يريد أن يدرس حالة العرب في فلسطين ويشاهد أبناء عمومتهم اليهود، ثم يستخلص من كل ذلك دروساً يأمل مخلصاً أن ينتفع بها أصحاب العقول...

وهكذا شرع يطوف أنحاء طبريا، ويتجول في أسواقها، ويسأل عن مرافقها وأوضاعها.

ولقد عاد مطرقاً بعد جولة قصيرة وفي وجهه عاصفة شديدة من الغضب.

فسكت، وسكت دون أن ينبس، فكأن ما شاهده حبس لسانه عن الكلام؛ وأخيراً تضرج وجهه وانفجر قائلاً:

ما بال هؤلاء القوم، أبناء الأخوة، هؤلاء العرب، أبناء شياطين البر والبحر التواقين إلى الأمجاد تحت كل خافق، الذين حالفوا الزمان وصارعوا الخطوب؛ ما باله يراهم يتثاءبون مللاً، ويتمطون ضجراً؟ بيوتهم يتهالك بعضها على بعض، وأسواقهم وسخة، والإهمال صفتهم البارزة...! ولم يتسكع هؤلاء الشباب الأقوياء في مقاهي البلدة، يقتلون الوقت (ببايخ) الأحاديث، وشرب النارجيلة، ولعب الورقة...؟ أليس في ميدان العمل متسع للجميع؟.

أبداً لن ينسى صاحبنا سوق الخضر مثلاً... فهل هو (هال) أم دكاكين من أخشاب وقصدير صدئ..؟ فلقد كانت فوق الوصف، لما تحتوي عليه من وسخ وتفسخ ونوم وخمول: ثياب مهلهلة وسخة يعلوها الزفت، ولحى طويلة وأظافر محشوة بأقذار الشهور والليالي، وبائعات لبن خاثر لم يشهد مثلهن وسخاً، ولم تحظ عيناه ولله الحمد، بأشباه تلك الأواني النحاسية اللهم إلا في بعض دروب الشام النائية القديمة، أو قراها المهملة على الفطرة الأولى..

ولم يبصر يوماً فواكه متفسخة كالتي رآها. فهل يقول إنه رأى بائع تين يحرس كوماً من الزنابير، وعندما يضطر إلى بيع بضاعته يطرد هذا السرب الثقيل الظل، فتعلو في

الطريق أمامه سحابة شقراء لها طنين ورنين، فيرفع ما شاء من تينه المتفسخ، حتى إذا انتهى من مهمته أو كاد، عادت الزنابير إلى قواعدها آمنة، كما تعود القلاع الطائرة إلى حظائرها إثر غارة جوية موفقة...!

كل ذلك جعله يترك هذه المناظر المؤذية، ويحوقل ثلاثاً، ويسلم أمره إلى الله فيما رآه، وييمم وجهه كرة أخرى شطر (الليدو) ليمتع باصرتيه بأمواه البحيرة، ويسر قلبه ونفسه بروائع المناظر، فليس للحياة كما يعلم سوى ربيع واحد، فلينعم بربيعه، قبل أن يداهمه الفصل المخيف برعوده...

عشاء فاخر

وخرج الدون جوان من البحيرة، فهدته غريزته إلى أن يقصد مقهى العكاوي ذا الشهرة الواسعة في طبقة السياح الدمشقين: (أصحاب الدممة) وأولاد الحلال. فلكم حدثوه عن أسماكه التي تصاد من البحيرة، ثم تلقى في لمحة الطرف، فتراها جاثمة أمامك، تحمد الله وتشكره، وحولها أطباق المقبلات.

ولما كان صاحبنا خبيراً في فنون الأكال، ومكتبته عامرة بأنفس التآليف عن الطهي وألوان الطعام من: نعيم البطون، إلى مرشد الجائعين، ودليل الحائرين.. فقد طلب سمكاً.

فأقبل النادل يرتب الأطباق، كصفوف العسكر في العرض البديع؛ ثم وضع أمامه سمكة زعم صاحبنا وهو يهشمها أنها من أمهر الأحياء المائية.. وأنها لم تكن تحسن السباحة فقط، بل تجيد الألعاب البهلوانية، وتقاوم التيار بمثل البساطة التي يلبي بها صاحبنا الدعوة إلى الطعام.

وكانت مصيبة المصائب، أنه اضطر إلى تناول السمك بالشوكة، والسكين، وهي بدعة قلما اقترفها في حياته، إلا لحادث جلل.

فلاذ بالصبر، وأفرغ على نفسه قليلاً من إكسير: كن جميلاً تر الوجود جميلاً.! وتذكر قول القائل: أيها الأشقياء من بني الإنسان! التمسوا الضحك كلما أحسستم بالرغبة في البكاء، التمسوا الضحك كلما شعرتم بدبيب اليأس بين ضلوعكم، فإن اليأس لا يلبث أن يذوب تحت نوره الساطع...

وهكذا فقد التمس الضحك أمام هذه السمكة الفقيرة لوجهه تعالى، وتذرع بالصبر، وأغمض عينيه وهو يدفع ثمن الطعام رغم أنفه، مما جعله يمرج طوال طريقه من أثر اللطمة الاقتصادية التي أصيب بها جيبه.

وكان من أشد ما عجب له صاحبنا، واستفهم عنه بإلحاح، رؤيته بعض الفتيات الصهيونيات يتجولن في أكناف المقهى، أو يجلسن حول مناضد أفرغ من فؤاد أم موسى، جلسة الانتظار والترقب، دون أن يدري سراً لتلك الجولات والجلسات. فهل تلك النظرات المريبة، وحركات الإغراء والفتنة، أمور دبرت في ليل، لاصطياد العرب، وقلوب العرب.. أم أنها نزهات بريئة للقاء الأحبة، والعشاق المعاميد من أبناء صهيون.؟ أبداً.! لم يجد لهذه الأحاجي جواباً..

لغة مقدسة

ولقد أبصر صاحبنا في طبريا، صنفاً من مخلوقات الله، لهم عمائم غريبة، وطراطير عجيبة، مصنوعة من جلد ماعز لم يجز صوفه، ولها إطار بارز، تلوح تحت (سوالف) تتأرجح في الهواء؛ ولحى مسترسلة هائمة، وألبسة شرقية قاتمة يتأبطون أنى ساروا، كتباً ضخمة.

فأرشده حدسه، وخياله الواسع، إلى أنهم من رجال الدين. فدنا من أحدهم، على حساب شجاعته المترامية الأطراف، وقال له هاشاً باشاً: شالوم آدوني، شالوم (سلاماً سيدي، سلاماً..) وأمسكه بكلتا يديه، بجرأة يحسد عليها، بل وصافحه بحرارة، وهو يردد شالوم.. فسمر الرجل في مكانه، وقد اتسعت حدقتاه، واضطرمتا بالغضب، وخاطبه بالعبرية. فلم يفهم صاحبنا شيئاً من ذلك غير أنه أنقذ الموقف بالفرنسية قائلاً: إني سعيد إذ أقف بحضرة أول (أشكنازي) في حياتي؛ وكاد يقبل ذقنه تبركاً؛ فأجابه الرجل بالفرنسية أيضاً، وقد عادت إليه أساريره: لتحل بركتنا عليك، فإن فلسطين ترحب بعودة أبنائها؛ فهز صاحبنا رأسه قائلاً: لقد جئت من دمشق، وأنا شرقي، (سيفاراد)؛ فطرب الكاهن جزلاً، ودعاه للكنيس لينال البركات الكهنوتية؛ غير أنه اعتذر لارتباطه بموعد سابق، مع شخصية ناتئة.. فودعه عندئذ، وهو يربت على كتفه قائلاً: أنصحك أن لا تجهل لغتك العبرية، لسانك المقدس..

لا أجهل لغتي العبرية..؟؟ لقد صدق الرجل فيما قال؛ فإنك لا تسمع اليوم في تل أبيب، والمستعمرات، وسائر الأمكنة التي يرتادها الصهيونيون، سوى العبرية؛ نعم، قد تسمع الألمانية، أو الإنكليزية، وألف لغة أخرى من لغات برج بابل، ولكن المقام الأول للغة العبرية، فهي لغتهم الدينية، والقومية الرسمية؛ وإذا كان الرجل ينصح صاحبنا بتعلمها، فلأنه موقن كل اليقين، أنها حفظت كيان اليهود، على ممر العصور، وأنهم يحملون مفاتيح

خلاصهم، ما داموا يتكلمونها فهي رمز الوحدة، والألم، والنضال لأنها تجمع ذكرياتهم، وأمجادهم، ونبوءات أنبيائهم، وهي أعظم رابطة روحية ليهود العالم. ولست تدرك كم بذلوا من جهود وأموال في سبيل نشرها، حتى غدت اليوم لغتهم في البيت والمدرسة والجامعة، والحقل والمصنع...

فهلا سمع إخواننا المغرورون بكل جديد، الذين يرطنون بلغة أجنبية مقيتة، في بيوتهم وشوارعهم، ويتناسون الفصحى التي حفظت نتاج الفكر العربي طيلة القرون..!!
وهل أدركوا ـ حفظهم الله ـ أنهم معاول هدامة في صرحنا الاجتماعي، وأن قلوبهم طابور خامس للأجنبي، ما دامت بديهيات علم النفس تقرر أن الإنسان الضعيف يحتفظ في قرارة نفسه، ـ شاء الجهر أو أبى ـ بحب كامن للأمة القومية التي يتكلم لغتها؟

فن الحياة

وطوى صاحبنا صحيفة جديدة من ثورته، وراح يتأمل طبريا، التي شاء سوء الطالع أن تكون في عيد ..! وعندما أقول: عيد .. فمعنى ذلك أن الحياة الاقتصادية مشلولة تماماً. فلن تجد بائعاً، ولا صرافاً، ولا سيارة، ولن ترى الصهيونيين يهيمون على وجوههم في الطرقات والشوارع، كما يفعل كثير من عباد الله في أعيادنا، عندما يتسكعون في سوق الحميدية والسنجقدار والمرجة..! إنهم هنا، لا يعيدون ليتصفحوا وجوه الناس، بل ليريحوا الجسم والعقل من وعثاء العمل. فتراهم يقضون أيام العيد بين ذويهم وأصحابهم في البيوت، أو مع أطفالهم في الحدائق والمسابح، أو يقصدون الجبال والأرياف، أو يذهبون إلى الملاعب والبيع، حتى إذا جاء المساء، قصدوا المسارح والملاهي، ليغسلوا أتعاب الأسبوع، وهموم الدنيا، وليستقبلوا أيامهم بنشاط وقوة ومرح...

وعجب صاحبنا كيف يترك هؤلاء القوم أعمالهم، لينتشروا في كل مكان، يضحكون، ويلعبون ويرقصون، ويمرحون، ويضيعون الوقت سدى، مع أن علماء بلده الأفاضل، تناقشوا طويلاً في حكم البطالة يوم الجمعة، وهل هي حلال أم حرام، أم واجب أم مكروه..؟ إلى آخر أفعال المكلفين الستة... لأن الشغل عبادة، كما يزعمون..!

وهو عرف كثيرين من كبار التجار في بلده، يصلون ليلهم بنهارهم في إجهاد لا ينقطع، بين البيت والعمل.. فلا يرون ذويهم إلا في المآتم، حتى غدت زوجاتهم أرامل، وأولادهم يتامى، وهم على قيد الحياة.. أما راحة البدن والفكر، فأمور لا يقترفها إلا ذو عقل سقيم، أمثال من يراهم صاحبنا اليوم في طبريا .. من العفاريت النفاريت.. الذين

أدركوا فن الحياة، فأدوا أعمالهم على الوجه الأكمل، ولم ينسوا واجباتهم نحو أجسامهم وعقولهم وذويهم، وأعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله.!

◆ ◆ ◆

وبعد فهذه طبريا، في أيام معدودات من الصيف...

فاقرأ أيها العربي، وفكر بعقلك، واستوح نبضات قلبك.. واعلم أن المرح والنشاط والتنظيم أمور يتقنها عدوك فحاول أن تحاربه بسلاحه، واعدد له ما استطعت من قوة مادية وروحية، ولك الغلبة، ما دام الله معك، وإيمانك عامراً، والأمم العربية من ورائك، والضمير الإنساني يعطف على قضيتك ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[171].

---

[171] - سورة آل عمران، 139.

هيا إلى حيفا

مشروع روتمبرغ

لم نكد نغادر طبريا، حتى لفتت أنظار صاحبنا تلك الأعمدة الكهربائية التي لا نهاية لها، تدخل أسلاكها المحطات، وتخرج منها مزودة بالطاقة والقدرة، لتنشر النور في أرجاء فلسطين..

ولقد كان يتمنى من صميم فؤاده، أن يكون هذا المشروع عربياً صرفاً، ففي ذلك عزاء للنفس وتشجيع... فسأل أحد (الأفندية) عما يعرف عن مشروع (روتنبرغ) وهل هو إنكليزي، أم صهيوني، أم عربي...؟ فصمت، ولم ينبس ببنت شفة؛ وكأن صاحبنا لم يكن ينتظر أكثر من هذه الفرصة، فانبرى يتحدث بعد أن تحرك في مقعده متململاً قائلاً:

إن هذه الشركة صهيونية، دماً، ولحماً... فمنذ أن وطئت أقدام هؤلاء القوم فلسطين، بذلوا النفس والنفيس، بكل وسائلهم الخاصة لامتلاك الأرض، ووضع أيديهم على منابع الثروة فيها. وكان في طليعة الأعمال الجبارة التي قاموا بها، ثلاثة مشاريع هامة جداً هي: مشروع روتنبرغ الكهربائي - وأشار بيده إلى الأعمدة المنبثة على طرف الطريق - ومشروع استثمار البحر الميت، ومشروع الحولة...!

ثم سكت مزهواً... فهز العربي رأسه متعجباً، ورحت أربت على كتفه مستحسناً، أسأله: ولكن كيف كان ذلك يا (شترية)[172]، فقهقه، وقال: دعنا من كليلة ودمنة الآن، واستمع إلي: لقد عقد وكلاء التاج البريطاني بالنيابة عن (السير هربرت صموئيل) المندوب السامي في فلسطين عام 1921، مع (بنحاس روتنبرغ) الروسي، اتفاقاً على تأسيس شركة في فلسطين رأسمالها مليون جنيه فلسطيني، لمدة سبعين سنة، للاستفادة من مياه الأردن، واليرموك، وفروعهما وأحواضهما، في أرض الانتداب الإنكليزي، أو الواقعة في منطقة الانتداب الفرنسي أي في بلادنا...! وذلك في سبيل توليد القوى

---

[172] - شترية: إحدى شخصيات (كليلة ودمنة) لابن المقفع

الكهربائية وغيرها ... وبعدئذ رخص له أيضاً في أن يبني على جسر المجامع، محطة كهربائية، وأن يستعمل بحيرة طبريا خزاناً للمياه التي يريدها لمصلحته، فيبني السدود، ويمد الأقنية، كما أنهم سمحوا له ببناء كل ما هو ضروري لعمله من المحطات، فيغير مجرى اليرموك وروافده إلى طبريا، ويستملك ما يراه ضرورياً لمشروعه، كما منحوه استثمار نهر العوجا قرب يافا ...

وبدت أمارات الدهشة والإصغاء الشديد على العربي. فكأنه لم يسمع بشيء من ذلك في سابق حياته، وليس الذنب ذنبه؛ فأين النوادي، وأين المحاضرات، وأين المجالس الشعبية التي توقظ موات النفوس، وتعلم الغافلين ما ينفعهم ويؤجج حماسهم..؟

ولقد قاطع العرب هذا المشروع، بادئ الأمر، فأبوا الاشتراك في أربعين بالمئة من أسهمه، فاشتراها الإنكليز... وإن مركز الشركة في تل أبيب، واسمها: شركة كهرباء فلسطين م.ض؛ ورغم أن العرب يستهلكون مقداراً عظيماً من القوة الكهربائية، حتى لكأنهم يسهمون رغم أنفهم - في إثراء الصهيونية وتقويتها، فإن الشركة لم تستخدم عربياً واحداً في أعمالها أبداً...

وسكت بعد ما أتعبه خطابه، وأثار أعصابه، وعاد إلى نافذته يمتع بصره بالقرى التي لم تثر شيئاً من حماسه، ولم تعصف فيه رغبة النزول للاطمئنان على صحتها الغالية، لأنه لم يجد فيها جديداً، ولأنها نسخة طبق الأصل عن قرى الشام البعيدة، المتأخرة، ويكفيها أنها في (إنتر أكت) [Inter act] بين الحياة والموت...

على هامش الناصرة

وأشار الزميل الفلسطيني إلى الناصرة، يدلنا عليها من بعيد ... وعندما وصلنا إليها، أغمض صاحبنا عينيه قليلاً، وهو يزدرد قطعة من الشاطر والمشطور وبينهما لا أدري، على قول المتحذلقين، واستسلم إلى تفكير عميق... ثم هز رأسه وفتح عينيه، متأسفاً كفيلسوف حائر، وقال: ألا تدرون أن في هذه الربوع ذكريات خالدة، وأن كل ذرة من رمالها لها تاريخ مجيد، عظيم...؟ إنها مدينة السيد المسيح، يسوع الناصري، له المجد؛ هذه المدينة التي أنجبت من علم الناس الحب والتسامح والمودات، ومن سن شريعة الإخاء والصفاء بين البشر...

ولكن ويا للأسف. فقد جاء من بعده أناس أضاعوا التعاليم وفرطوا بالرسالة، فكانوا ذئاباً دونها ذئاب طوروس أو سيبريا ... جعلوا من الحب استعماراً، ومن المودات

انتداباً، ومن الإخاء تقتيلاً وتعذيباً، ومن الرسالة السامية حرباً ظالمة لا تبقي ولا تذر..!
ولكن، هيهات للغرب المادي الجشع، أن يفهم تعاليم الشرق، وصوفية الشرق... ولن يسود العالم السلام، ولن يحل الإخاء مكان الجفاء، ولن يهدأ للأمهات وللأطفال بال، أو تنتزع من هذه الدنيا بذور الشر والعدوان، إلا بعودة الغرب إلى تعاليم الشرق، ورسالات الشرق، وفلسفات الشرق...

وهاهو ذا التاريخ حكم بيننا، وهاهي ذي فلسطين أمثولة أمامنا، ألم تمش دهوراً وأحقاباً هادئة مطمئنة حتى جاءها الغرب بانتدابه وصهيونيته..؟!

وهل مرت عليها أيام سوداء أسوأ من أيام الصليبيين قديماً وعهد الانتداب والصهيونية حديثاً.؟!

لقد ذكرته هذه الناصرة السيد المسيح وخطيب أمه النجار[173]، فكادت تسيل عيناه مدراراً على مأساة المصلوب، كما سالت عينا الفلسطيني دموعاً تلقفها منديله الملون كقوس قزح.. ولولا مشاكستي لرسم صاحبنا الصليب على صدره، ولنسي أنه حنبلي مسلم تقي نقي...!

وشرعت السيارة تتحرك بنا نحو حيفا فبدت على هوامش الطريق مستعمرات صهيون ويطلق عليها المستعمرون اسم (كيبوتس) ومن المستغرب أن هذه (الكيبوتسات) متقاربة جداً فهل يعني ذلك أن اليهود يملكون كل تلك الأراضي؟ وإذا كانت كلها لهم فأين ذهب العرب..؟

ولقد ظهر ذلك النظام الذي كنا نسمع ترديده على ألسنة الناس، ماثلاً أمامنا فالبيوت مكعبات منثورة بترتيب هنا وهناك، والأحواض خزانات عالية متشابهة، والحدائق محوطة بالصنوبر والزيتون على نسق واحد متماثل؛ وكذا النوافر اللولبية تدور وتسقي برشاشها الخضر، والأشجار، والثمار..!

ولم أر (بيارة) واحدة أو كما يدعوها الصهيونيون (بارديس) إلا ومحاطة بالسرو، ومترعة بأشجار البرتقال والليمون على مسافات واحدة وأبعاد متساوية...!

وعندما تجلت أمامنا معامل تكرير البترول وتصفيته، ومعامل الإسمنت حمدنا الله على السلامة، فقد حطت رحالنا في حيفا ...

---

[173] - يوسف النجار: خطيب مريم العذراء ولم يدخل بها، وقد نسبت الأناجيل الأربعة عيسى المسيح له وهو من رباه وقد ورد خطأ في النص خال أمه بدل خطيب أمه

نحن في حيفا

عالم الهادار

استيقظ صاحبنا باكراً رغم أنفه. فقد أجبرني على سهرة، بل سهرات في مقاهي البلدة الفاصة.. تلك المقاهي المشحونة بأكثر (أرتيستات) الحرب احتراماً، وأشدهن نجاحاً في دنيا الفن الرخيص..!

كان يدخل بين السراديب ليخرجني في صالة. ولا مؤاخذة. أو يخرجني من صالة ليدخلني في سرداب.. على العمياء.. دون أن أخالف له رغبة أو مأرباً فهو رجل يحب البلدي.! ويموت في البلدي.! و... مالو البلدي..؟ حيث هز البطون والذقون، والعري الوضيع، تتجلى فيه بنت حواء بأحط ما خلق الله من طبيمة وسخة...

ولعلني لا أنسى فراري منه أخيراً، فأسرع يقفو أثري بعد أن هاجمته إحدى الطيور الشاطئية، من أضخم البجعات في حلبة الرقص البلدي تود مغازلته لأنه بدا في عينيها - كما يقول - ولداً طيباً من الصنف الممتاز...!

استيقظ وشهوته لحي الهادار تأخذ عليه لبه وفؤاده فما زال هذا الاسم مسطراً في قائمة حسابه منذ مغادرته دمشق.. فجعل يقيم الغرفة ويقعدها، ويقلب أعاليها أسافلها، باسم الاستعداد للرحلة (الهادارية) العظيمة، لا باسم إيقاظي وإزعاجي.! وأخيراً سلمت أمري إلى الله، وركضنا معاً مهرولين على سلالم الفندق، صاعدين في الحي (لنبحلق) في عباد الله من بني صهيون..!

وكان القوم في عيد (روشّاشّانا)[174] وقد أغلقت المتاجر، وشلت الحركة، وأقفلت الشوارع الرئيسية، وقبع أناسها في بيوتهم على قمة (الهادار)...

والهدار، حي يهودي، بل أحياء صهيونية قبل كل شيء، وأوروبية بكل معنى الكلمة.

---

[174] - روش هاشاناه او راس السنة: عيد راس السنة العبرية ويصادف شهر تشريه العبري، والذي يوافق بدوره ايلول او مطلع تشرين الأول، يعطل فيه اليهود بمناسبة بداية السنة اليهودية الجديدة وموعد إكمال الخلق حسب التراث اليهودي

ولكلمة (هادار) وقع وموسيقا في نفس بطلنا، أكثر مما تفعله زجاجتان من الوسكي؛ فكان يلفظها ويتشدق بها على جميع الألحان والأنغام، ويؤكد لي أنها شطيرة من العربية.! فالهادار هو المنحدر أو الانحدار، لأنه يقع في سفح (الكرمل) ومنحدره. وبعد، أفليست العبرية جدة العربية أو ابنة عمها..؟!

لن تجد هنالك ناطحات السحاب، ولكنك تجد مغاني الشعب طيباً في المغاني، فها نحن أمام أولاء حديقة عامة، نثرت فيها المقاعد بانتظام، وليست هي مقاعد محطمة كما هو الأمر في شارع بغداد، الشارع الوحيد الذي يشتمل على خمسة أو ستة مقاعد هرمة كسيحة؛ ولكنها مقاعد تحسن أن تكون في (صالون) الضيوف في منزلك: مدهونة، موضوعة تحت الأفياء الظليلة، وبين الزهور الملونة التي ذكرتنا بحديقة الصوفانية، والمرحومة المنشية، والمشتل الزراعي...

ولقد جذب نظرنا، عناية القوم بأطفالهم؛ فتراهم في عربات صغيرة مكشوفة تتعرض أجسامهم إلى الشمس والهواء، لا يلبسون سوى سروال قصير جداً... أما أمهاتهم وآباؤهم، فينتقلون بهم هادئين ساكتين من مكان إلى مكان، ومن ظل إلى ظل، بينما لا يتنازل عندنا الأب أن يعنى بطفله وحده، ولعله إذا سار مع زوجته وهما يدفعان ابنهما أمامهما لمدّ (بوزاً) بطول شبر لئلا يخجل أمام الناس من مساعدة أنثاه وكأن ذلك جرم مبين...

فهذه أم تشدو بصوت رخيم فيه عذوبة وفيه دلال... وذاك أب يؤرجح العربة ذات اليمين وذات الشمال ليغفو صغيره... وهناك طفلة تدحرج كرة وهذا طفل يشد حبلاً صغيراً...

وكان الهدوء شاملاً، والنظافة تغري المرء أن يتوسد الثرى... وهكذا فإن القوم يقضون عطلتهم في العناية بأطفالهم أو في الصلاة أو الموسيقا أو الرياضة أو القراءة، في الشرفات أمام فناجين القهوة، أو كؤوس (الأسيس)[175]...

ولعل العناية بالأطفال هي فكرة عملية قومية، يقومون بها كيما يتعادل النسل الصهيوني على قلة اليهود، مع النسل العربي على كثرة هؤلاء... فإن الوفيات عند اليهود المستعمرين قليلة جداً بالنسبة لوفيات أطفال العرب. فلو عني العرب بنسلهم تمام العناية كما يفعل خصومهم، لما استطاعت الهجرة تغيير النسبة بين عدد السكان اليهود والعرب، بل لباءت بالفشل الذريع.! ومن هنا يمكننا أن نفهم قيمة المؤسسات الصحية القليلة في أرض العرب، وضرورة الاهتمام بها...

---

[175] - الأسيس: شراب المياه الغازية، الكازوز.

وسرنا فلم نر شارعاً وسخاً ولا طريقاً قذرة؛ فكل فرد يعتقد مخلصاً أن له حقاً ونصيباً في الطريق، والحديقة والشجرة، وعليه حراسة كل ذلك والعناية به. فلا بصاق ولا ورق ولا تهشيم أشجار.. فعلى كل امرئ أن يصون ملكه ويهتم به ويرعاه. وهذا نوع من الحياة القومية الواعية التي يحياها هؤلاء الأعداء الأقوياء...

وكان لكل بناية مستودع من الصلب أسطواني الشكل، جميل المنظر، مزركش مدهون بما يمنع عنه الصدأ؛ يضعون فيه الفضلات، والأقذار فلا ضرر ولا ضرار... وقد لفت نظر صاحبنا إعلانات القوم ودعاياتهم فكانت صغيرة الحجم غالباً، مرتبة في إلصاقها على لوحات خشبية خاصة، مدهونة، لا تتعداها إلى الجدران أبداً، وكلها بالعبرية وقليلاً ما تكون بالإنكليزية؛ ولم نر إعلاناً واحداً بالعربية، وكأننا بالهادار بقمة يهودية صرفة، يريدون جعلها نموذجاً للمدينة الصهيونية أو للبناء اليهودي الحديث ونظامه...

لم يقع بصرنا طيلة جولتنا على امرأة مهملة الهندام، عابثة أو خليعة، أو مزينة الوجه، كما تبدو بعض النسوة في شوارعنا؛ يختلن بأثمن الأجواخ والأقمشة وأثمن الأبيض والأحمر حتى ليستطيع الزوج أو الأخ - لو أراد - أن يكشطه كشطاً... فنحن في الصباح وكل منهن تخرج لعمل أو حاجة، وليس لإظهار الطلاء و(التواليت). فثمة فرق بين النظافة وحسن الهندام، وبين التبرج والخلاعة.. ولا يحسبن أحد أن أعداءنا الصهيونيين نبذوا متع الحياة وزخرفها ..!! لا ..!! أبداً.. ولكن لكل شيء عندهم وقته وساعته، فلو رأيتهن في المساء، لنسيت بتي غرابل وهيدي لامار وفيفان لي، ودورتي لامور... و...

كان لكل بناء حديقته، مهما وضع وصغر؛ وعلى رصيفي الشارع تنتشر أشجار الزيتون على مسافات غير متساوية للضرورة. فقد افتتح الطريق وجزت أشجاره وأبقي منها ما يمكن أن تتقارب مسافته من الآخر على حاله؛ ولذا فهي إما نابية عن الاستقامة المطلوبة، أو ناتئة من صلب الجدار الملتف حولها في الطريق... ولقد كان ذلك يهتف بنا أننا في جبل الزيتون وعلى سنام الكرمل.

وإنها لعمري أشجار جميلة رغم كل شيء، بسيطة وقورة مهابة، حتى أنك لتراها في حدائق البيوت للسبب نفسه المذكور، وعلى أطراف (الفيلات) والقصور.

ولقد أعجب صاحبي رتل من الناس كباراً وصغاراً، إناثاً وذكوراً وقفوا سلسلة طويلة على طريقة الـ(كو) أو ما يسمونه بالذيل.. وقفوا يبتاعون جليداً.. ولم يكن بينهم صياح ولا خصام أو زحام، وإنما يقتطع البائع قطعة الجمد المنّضد في سيارته البخارية، بمخرز في يده يثقب به اللوح عدة ثقوب، ثم يلطمه بقبضته فتنفصل القطعة عن اللوح بانتظام

واتساق. وارتسمت على وجه صاحبنا إشارة تعجب هائلة، فحوقل واستعاذ، وأقسم يميناً بأن أهل بلده لو تعلموا هذه الطريقة الدورية في الانتظار، وانتظموا في سلك (الذيل)، لما حصلت بينهم تلك المشاجرات والمذابح في سبيل الجليد، وأمام دور السينما، وخاصة في شهر الصوم والبركة.

كان كل واحد من القوم يحمل قطعته في شبكة أو جعبة جلدية، فلا ترى منشفة وسخة ولا منديلاً مطرزاً ولا يتناولها بيده لينقلها بين حين وآخر، كالحارس الأمين من يد إلى يد، والمياه تملأ أكمامه وثيابه.. ولقد كان البيع يبدأ بكلمة (تفضل) وينتهي بكلمة (شكراً) فلا هرج ولا مرج، ولا محاباة أو التماسات وخواطر أبي فلان أو شوارب علان...

في مغاني الكرمل

وتردعك الزهور الكثيفة المتنوعة في كل مكان عما يشين بقدرك. وهل مثل الزهور ما يهذب الذوق، ويرهف الحس، وينمي الشعور بالجمال.؟

ورغم أننا لا نعرف كل أسمائها وأنواعها، فنحن نستطيع أن نقول إنها من أجمل ما خلق الله، وأبدعت الطبيعة، وهذّب الإنسان...! فهي تحيط بالأبنية، والدور، وتستر أكناف الشوارع جميعاً، فتمتع العين، وتريح النفس، فكأنك تسير بين الرياض. وأكد لي صاحبنا وجزم، بأن الأشجار والأغصان هي حائل منيع دون الغبار والرياح، التي لا تزور هذه الأماكن أبداً، ولا تعصف بالبيوت فتعمي الأبصار وتصيب السكان بأفانين (التراخوما) وأمراض العين...

وكيف ينفذ الغبار أو تتسخ الشوارع وهناك أرض الإسفلت تكنس بمكانس ناعمة دقيقة من الشعر، لا أثر للأشواك الجبلية فيها، أو العواسج، ولا تطرق أرضها الجمال والحمير والطنابر.!؟ فعلى رأس كل طريق، علامة ترمز إلى إقفالها في وجه الدواب والعجلات. وهو ما يضايق صاحبنا ويزعجه كثيراً فقد اعتاد - والعادة محكمة - أن يري في بلده أصحاب الخيول الأصيلة، يتسابقون في الشوارع، وتعود سمعه أن يختلط بقرقعة الطنابر وهدير الجمال ونهيق الحمير والبغال، ولكل امرئ من دهره ما تعوده!. أما السيارات فتصل إلى قمة الجبل، دون أن تثير عجاجاً أو تحدث ضجيجاً. فالمكان هادئ ساكن حيثما سرت وأنى ذهبت، ولعل الأهلين يعملون بعقولهم وألبابهم أكثر مما يعملون بقلوبهم وعواطفهم، ويقول أرباب الفلسفة والأدب بأن الضجيج أعدى أعداء أصحاب التفكير.! فهل هذا صحيح.؟ لست أدري..!

وكان للطريق الواحدة منافذ عدة؛ على أن أجمل ما فيها تلك الممرات الجبلية الخاصة بأبناء آدم وحواء المكرمين.. فهي مؤلفة من سلالم حجرية، تحيط بها أفنان وأدواح. وتؤرجها أزهار ورياحين، تتعانق فتشكل أقواساً من الزمرد، تكلل هامة المرء حينما يمر من تحتها، وتشيع فيه الطمأنينة والسعادة...

ولقد ثار صاحبنا على بيته وحارته وأهله وخلانه. ثار على كل ذلك لدى رؤيته هذه المناهج المدنيّة الراقية؛ لأنه ظل سنين متواصلة يطلب رصف حارته التي لا تتسع لمرور ثلاثة رجال سمان معاً؛ فما استطاع.. ولم يجد من يجيبه ولو بكلمة رفض.!

ومكث يغرق شتاء في الوحل فيلبس في رجليه القبقاب حتى يخرج منها، ثم ينتعل حذاءه ويرسل قبقابه مع أخيه. وفي الصيف يثور الغبار فيجبر على دهن حذائه كل يوم مرتين، يخسر في سبيله نصف ليرة سورية وهو أمر يحسب له اليوم ألف حساب.

وأغضبه أيضاً من كل ذلك أن هذه الحدائق والجنان والغياض والرياض لا حارس عليها ولا رقيب.! ولكم نازعته نفسه أن يغتصب شتله، يرصع بها منزله أو يختلس وردة يزين بها صدره، كما يفعل بعض الشباب الهايلايف..

وعندما أبصر هاتيك المقاعد الشهية الجبلية دعا ربه أن يلهم البلدية إلى وضع أمثالها في شوارعنا وحدائقنا ليكون لها جزيل الفضل وحسن الثواب. وكانت تلك المقاعد بسيطة جداً، اجتزأتها اليد العاملة أغصاناً طبيعية من أشجار الصنوبر، وجعلتها على حالها دونما تهذيب أو تشذيب...

ولعمري إنها مقاعد مريحة ماتعة، على قمم الكرمل، تحت الأفياء والظلال فتشرف منها على البحر وميناء حيفا، وأراضي الهادار ومصافي البترول، حتى لتكاد تلمسها لمساً من مكانها السحيق..

في ربوع الجزار

هل يحق للسائحين الكريمين أن يزورا فلسطين، دون أن يشاهدا ثغراً من ثغورها الخالدة ومعقلاً من معاقلها المجيدة...

إن (عكا) هي ستالينغراد القرن التاسع عشر.. وعكا هي مدينة الجزار وقاهرة قاهر الشعوب نابليون بونابارت... وهي المدينة التي ارتد عنها مدحوراً ميئوساً كما ارتد

(روميل) شيطان الصحراء بالأمس، عن العلمين، فإذا بالدنيا غير دنيا، وإذا بالمجد تغرب شموسه، ويتقلص العز والنصر، بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى.

تلك هي عكا..! عكا التي صمدت في وجه سيد الفاتحين، وكانت إيذاناً بغروب انتصاراته، كما كانت ستالينغراد مقبرة الجيوش التي زعموا يوماً أنها لا تقهر.. وما أشبه الأمس بالبارحة...

ولئن كانت الرجال تخلق أمة، فإن هنالك مدناً تخلق شعوباً. وإن عكا لمن هاتيك المدن..

لقد كان صاحبي يبرر زيارتنا (عكا) بمثل هذه المقدمات الخلابة، والإلحاح المستمر كطفل مدلل؛ وعهدي به خراسانياً[176] أصيلاً، يتخذ مبدأ لبس الجوارب السوداء صيفاً، اقتصاداً في نفقات الغسيل، ويخلط النبيذ بالماء، كيلا يسرف في الشراب..! فما باله اليوم ينثر أمواله دون حساب.؟ هل أثقلت القطع الفضية جيوبه، وخشي أن تثقبها فالتجأ إلى صرفها... وأخيراً.. سلمت أمري إلى الله وقبلت منه الدلال، وأنا أخوف ما أكون كمن يعطي الصبي واحدة.. وكنت أقرأ في وجهه آيات الإعياء والسهر، وهو شيء لم يتعوده لعشرين سبباً، أقلها أنه ينام في بلده من الثامنة حتى السادسة صباحاً؛ فكيف به وسهرات الأمس السالفة، وضياع الدراهم في غراميات مع اللقالق من بنات حواء؛ سلام هي حتى مطلع الفجر...؟

شيوخ تمشي على الماء - وممتلكات صهيونية

وشاء حسن الطالع أن يرافقنا في الرحلة شيخ من شيوخ الصوفية والطرق المبجلة، ممن يسمونهم: شيوخ السيارات ودق الطبول، وبلع الحديد وأكل الأفاعي..! وكانت عمامته خضراء قاتمة، وشعره كثاً طويلاً ملمعاً بالزيوت والعطور الخانقة، وعلى عينيه كحلة تسمى بجدارة واستحقاق «مبطنة» عريضة، كانت تهبه نظرات بليدة، يحاول ما استطاع أن يجعلها نفاذة ذكية، فيخفق ملايين المرات في الدقيقة. وكانت ثيابه وسخة جداً تغطيها جبة ربما قيل يوماً إنها ذات لون أسود؛ ولعل العين تقتحمه لأوساخه المتراكمة تحت أظافره الطويلة، وعلى وجهه وذقنه اللامعين بدهن (اللوز) والعطور المختلفة..! وعندما أردت الجلوس تنحيت عنه إلى آخر السيارة، وتركت محلي طائعاً مختاراً خيفة أن تلحق بي (غريبة) وهي في لغة البلد (القملة).. أما صاحبي فلم يجرؤ على الفرار، بعد أن ابتسم له الشيخ الأسمر الصالح واضطره إلى الجلوس بجانبه ليباركه ولا غير.!

---

(176) - نسبة إلى إقليم في بلاد فارس كان يشتهر بالبخل، كثير من ابطال بخلاء الجاحظ من هنالك

ومن حسن تصاريف الأقدار أن (الغريبة) التي كان يخشاها صاحبنا كما أخشاها، لم تجسر على ما يظهر أن تغادر الدسم والزيتوت من جسم الرجل وأسماله، لتستوطن رفيقي فتصحبه. والوطن قتال.. ورحم الله أهل الأمثال...

ولم يكد صاحبنا يجلس بجانب الشيخ حتى راح يلحف عليه بالسؤال عن معامل البترول وتكريره، والأسمنت وصنعه، والمصانع الحربية الممتدة على طول الطريق، وأبنية الفيوم الصناعية لتضليل الطائرات، وهي تتباعد عن بعضها بمسافات متساوية على طرفي الطريق، وعن المستعمرات الصهيونية، والثكنات العسكرية وعن ألف سؤال وسؤال دون أن يقنع بجهل الشيخ وتهربه من الجواب، أو تخبطه فيه وإيجازه الكلام كالبرقيات. وأخيراً تطوع لنجدة الشيخ، أحد الركاب العرب، ولعله ممن يهتمون بقضية بلاده فقال:

إن هذه الأراضي - من حيفا إلى عكا - التي تمتد أمامكم يا سيدي، هي جميعها لأبناء إسرائيل..! فقد اشترت (الكيرين كايمت) تلك المؤسسة اليهودية المعهودة (35) ألف دونم بين حيفا وعكا تلافياً لأخطاء سابقة... فقد أقسم اليهود ألا يقعوا في خطيئة إهمال شراء الأرض مرة أخرى؛ لأن مؤسسي (تل أبيب) اشتروا في السابق (140) دونماً فقط للمدينة الحالية، ولو أنهم اشتروا أكثر من ذلك لربحوا ملايين الجنيهات، ولتغير وجه (تل أبيب). كما أن شركات أخرى هنا اشترت من هذه الأراضي الجرداء ما يعادل (20) ألف دونم أيضاً...!

ثم ابتسم بجفاء وتابع: أفلا ترون معي، كيف سيكون مستقبل حيفا ذات المرفأ العظيم والسكك الحديدية، ومصافي البترول، والمعامل..؟ إن كل ما أذكره سيسهم في غلاء هذه الأراضي - وهي اليوم ملك العدو - ويجعلها مطمئنة إلى مستقبل غلاّب هائل، ليس في فلسطين وحدها بل في الشرق الأدنى كله.. لأن هذه المناطق الصحراوية ستكون - كما ينوي الصهيونيون أن يعملوا - نواة لمدن صناعية ومعامل مختلفة، يبذل فيها اليهود جهدهم لاستعمار فلسطين، والشرق العربي أجمع..!

ولنذكر أيها الأصدقاء العرب دائماً، بأن لليهود رأياً يقول: لا فائدة من نمو الصناعة والتجارة، إذا لم تزدهر قبلهما الزراعة.. إن الآلام لم تصب اليهود طيلة القرون والعصور إلا لإهمالهم الزراعية وعدم تعلقهم بالأرض.. فالأرض نواة لمحبة الوطن والاتصال به...

وهنا تدخّل الشيخ في الحديث فتغيّر مجراه.. فالتفت إليه صاحبنا مشاكساً وقال

له بلهجة خاصة: (حبُوب.. شو هالسيّارة يلّي مرّت البارحة في ساحة الحناتير..؟ الله يكتّر من أمثالكم ويباركْ فيكم)... ثم تنفس وتابع:

«الله يعزّ الدين... شفْناهم بيلعبوا بالسيوفْ وبيّاكلو النيران، وشعورهم منفوشة، ودْقونهم طايرة بالهواء».. «والله شيء بحمّس، وبنومس».

فابتسم الرجل ابتسامة الخبير المتكتم، ثم هزّ رأسه ولعب بسبحته وقال بعد صمت طويل:

«إي ما هُوّ أنا شيخ السيارة..؟! مخْسوبكم، وداعيكم..! وعلى إثر ذلك اعتدل في جلسته مزهواً وانتفخت أوداجه، وشرع يسبح الله... وهنا تابع صاحبنا قوله بعد أن انحنى على ذقن الشيخ، وراح يقبلها برؤوس أنامله تحبّباً وخبثاً؛ ولولا خيفته من الجرائيم المفرخة المستوطنة في تلك الغابة العطرة، لعانقه على مذهب إخوان الصفا، وخلان الوفا... (ما شاء الله.. حوّطْك بالله واولياؤه... انتو يا شيخَ بركتنا، والله يرحم الأوادل الأودما شو علمونا)... وما كاد يلفظ هذه الجمل، حتى طار الرجل فرحاً وسروراً، وناوله ملفاً من الورق هو إجازة ضمن خرقة خضراء، بدأ ينشرها أمامه، وكانت طويلة جداً كفرمان همايوني، لا تقل طولاً عن عشرة أمتار..! وقد بدأت بالبسملة، وانطوت على الآيات القرآنية وأسماء الله الحسنى، والأحاديث النبوية الضعيفة، والموضوعة عن الصوفية، وإجازات المشايخ بلثّ النار، ودخول الفرن، وطعن الخناجر، وأكل الزجاج والعقارب وما إلى ذلك..!

ولقد حاول صاحبي أن يطوي الإجازة خلاصاً من أرجل الذباب الكتابية، فأبى الشيخ عليه ذلك حتى يتممها... فكان يقرأ من كل سطر الكلمة الأولى، يدمدم ويهمهم بالباقي إلى آخرها... ثم طواها بتؤدة يضرب بها المثال، وسلمها إلى الشيخ الراحل إلى بلد آخر، لتصديقها وختمها من شيخ مشايخ الصوفية، العالم العلأمة والحبر الفهامة... كما يرحل الروّاد والمكتشفون من قارة إلى قارة، ومن أرض إلى أخرى، في طلب العلم وخدمة الإنسانية والحقيقة..! وأخيراً قال صاحبنا (الحشري): والله يا حضرة الشيخ (لازم تكتب هلبراءة بماء الذهب على آماق البصر..!) فاستحسن الشيخ منه هذا التعبير الغريب. وربت على ظهره يرجو له حسن الخاتمة والمصير والثبات على الإيمان...

وسأله الشيخ عن (الطرائق) في الشام وأنواعها ورواج بضاعتها، فأسرع صاحبنا كلص بغداد، ينثرها أمامه كما يفعل الحاوي بأصدافه وأخشابه، ليكشف الألعاب والألغاز وقال:

ومن جملة الطرائق التي تزيد عن السبعين عندنا الطريقة الكمدانية، والشالاتية..!
فعجب الشيخ من ذلك وهو لم يسمع بهما في حياته.. وابتسم الصديق مفتخراً ومدّ يديه إلى الشيخ، كمن يتحف إنساناً بهدية ثمينة وتابع: إن هذه الطريقة الكمدانية، يا حضرة الأستاذ، منتشرة انتشاراً واسعاً في بر الشام، وهي كالطريقة الشالاتية حتماً من حيث المبدأ والهدف...

فقد اشتهر أصحابها بأكل الدجاج واللحوم، وتصوير العقارب والحيات، حتى لقد روى الناس أنهم يطيرون عند الامتحان في الهواء، ويحومون حول المآذن كالخفافيش.! ثم همس بأذن الشيخ: وإنك لو شرفت دمشق يا سيدي، لسروا بلقائك، وتباركوا بمقدمك؛ فللقوم عندنا عناية واهتمام بكل طريف من (الانتيكات)..! فلم ينتبه الشيخ إلى هذه النكتة، التي تخدش ولا تدمي...

وكنت أختلس النظر إلى وجه صاحبنا المراوغ الثعلبي، دون أن أسبر غوره، ولن يستطيع ذلك أحد، حتى ولو كان أقوى كاشف كيميائي، (كمباد الشمس) مثلاً، وأترابه في السراء والضراء...

وهنا أدركت السيارة عكا... فنزل المسافرون، وتفرق الجميع...

في حصن الجزار

كان من أولى واجباتنا[177]، أن نزور قلعة عكا؛ ولكن هل إلى ذلك سبيل..؟ فالقلعة اليوم سجن ترتعد لهوله الفرائص، وتقشعر لذكره الأبدان... ويكفي أنه لم يحدث قط أن عاد إليه ثانية، من سجن به أول مرة..! وتلك لعمري غاية السجون القصوى؛ فهي مانعة رادعة، مهذبة معلمة، تعيد إلى العالم أناساً صالحين مقلمي الأظفار، كما تخرج المستشفيات أناساً معافين... فلتمت عناصر الجرائم والشقاوة داخل السجون، كما تقتل جراثيم الأمراض بين جدران المصحات والمشافي...

ودخلنا القلعة بعد إجراءات طويلة، ومعاملات عريضة، فشاهدنا الخنادق السحيقة، يجوبها المساجين بألبستهم الزرقاء، ورأينا تلك الأسوار الضخمة الشاهقة التي استطاعت الصمود في وجه الجيوش الغازية فردتها على أعقابها؛ وهنا وهناك كنا نشاهد المدافع القديمة، التي تملأ من أفواهها بالبارود والمتفجرات؛ وتكاد تنطق بالغزو الفرنسي للجزار، وصراع العتاة. ولقد دخلنا غرف المساجين المختلفة فمنها السجن المنفرد (الخلية - سيلول)، ومنها الغرف الواسعة، فوق الأرض وتحتها، هذه الغرف التي شهدت في عهد الجزار أفظع وحشية يصليها الإنسان لأخيه الإنسان؛ هذه الغرف التي كانت مترعة بآلات التعذيب والصلب والقتل؛ حتى وقت قريب... ومن ثمة فوق برج عال أشرفنا على عكا، والبحر، والسهول الفسيحة... فكنا نبصر من هناك سور المدينة المزدوج، وجدرانه القائمة على قناطر متينة وعقودها المقفلة من الخارج، المفتوحة من الداخل، وكان للسور باب واحد في الشرق، ففتحوا له باباً آخر من الغرب أو طريقاً... ولقد قيل إن العمال عثروا على هياكل بشرية مدفونة بين جداري السور، حينما كانوا ينقبون لفتح الطريق، مما يثبت شدة وطأة الجزار على المجرمين، وذلك أنه كان يضعهم وهم أحياء في السور، ويبني فوقهم..

---

[177] - في النص وجالبنا.

غادرنا القلعة وقصدنا جامع الجزار، وهو رحب الساحة، جميل التكوين، طليت جدرانه الداخلية بالقاشاني، وأحيط صحنه بغرف المطالعة الموقوفة على طلبة العلم؛ وبجانب الجامع غرفة فيها قبر الجزار، عليه ضريح فيه نقوش كتابية تقول: (هذا قبر المرحوم، المحتاج إلى غفران الواحد القهار، الحاج أحمد باشا الجزار، عليه رحمة العزيز الغفار 1219هـ).

ومما لفت نظر صاحبنا، أبيات من الشعر، منقوشة على مدخل المسجد، تخليداً لذكرى بانيه. ما زال يذكر أحد أبياتها وهو:

ذاك الوزير الشهم أحمد من غدا   جزار أعناق العباد كما يجب

وما فتئ صاحبنا حتى اليوم، يدعو الله سراً وجهراً، أن يفتح عليه باب الفهم ليدرك السبب الذي حدا بالشاعر اللوذعي النحرير لوضع: كما يجب!!

وبجوار الجامع، حمام من الطراز التركي، بناه الجزار ليكون له ولحاشيته. وإذا كان اليوم يلفظ أنفاسه الأخيرة، فإنه يدل على سابق إتقان وبناء مزخرف جميل. فإنك ترى فيه آثار القيشاني ترصع جدرانه، ومصطبته الوسطى التي يستلقي عليها الناس للدفء. أما مداخله وردهاته، فإنها تدل على تفرده في عصره بالروعة والجمال، وكانت كل آياته الناطقة والصامتة، تذكرك بعهد السلاطين والباشوات والحريم والجواري، وذلك الجو السحري المفعم بالنساء، وقصص ألف ليلة وليلة..

وخرجنا نجوب أرجاء المدينة، نرتقي أسوارها وأبراجها تارة، ونهبط إلى سراديبها وأنفاقها أخرى، وفي كل خطوة نرى شبح الجزار، (جزار أعناق العباد كما يجب)، ونعود بالذاكرة إلى تلك العهود التي لم يكن فيها انتداب، ولا صهيونيون وإنما حياة سعيدة مستقلة كلها تفاؤل وبركة رغم وطأة الجزار...

وفوجئنا ببغل، اقتطع جفنه بشريط شائك، وظل معلقاً من طرفه ينزف دماً، وقد وقف صاحبه مع بيطار، يستفهم منه عن الجرح، وصحة البغل الغالية، وكيف يمكن شفاؤه، وما هي الإسعاف الضرورية اللازمة له...؟ ويبدو على الرجل أنه من أصحاب الأراضي الزراعية؛ فقد كان شديد الاضطراب على دابته، بينما كان البيطار يتهرب من الإجابة، جهلاً وقلة خبرة أو دربة..! وأخيراً، تنهد الرجل قائلاً بأسف: آه... إنه لا يوجد عندنا في عكا بيطار واحد، يسعف حيواناتنا، أما عند اليهود فحدث ولا حرج..! غير أن نقل البغل الجريح، إلى مستعمرة يهودية لمداواته، أمر مزعج لا يمكن أن أقدم عليه... وكأن البيطار وجد منفذاً في هذا القول للدفاع عن كرامته، فغضب وصاح قائلاً: (يا بيه..

ما عليش.. ما عليش ما عادشّ ينفعشْ العرب اليوم.. كل شيء علّ الفنّ يا روحي..! روح داويةْ عند الكفار هلليّ ما بسمّوا بالله... ما عليش يا أخي... أنقلب الزمان وْتغيروا الناس)...

ثم أدار منكبيه، وترك الرجل وبغله مترددين حائرين، وعاد إلى زاويته يصفح السنابك، ويجتر شتى الشتائم والسباب..!

في باث كاليم

هل نغادر حيفا ولا نتمتع بسباحة في (باث كاليم)..؟ إن كنا بالأمس سبحنا على الشواطئ الحرة، دون قيد أو شرط، فلنزر اليوم مسبحاً، تحدث عنه الأجيال والمغامرون، من كل صنف ولون، حتى ذهب مثلاً..!

وعرج أخيراً على جناح الرجال؛ وهنالك رأى الحجرات لا أبواب لها.. فأين العفاف.. وأين الشرف والحياء.؟ وهل كتب عليه أن يخلع عذاره أمام عباد الله اجمعين؟ ولكنه صبر، والتفت بمطرف الحزم والتجمل. فجارهم ما دمت في دارهم. وسلم ثيابه إلى المحافظ الأمين، وراح إلى المسبح...

وكان طول المسبح اربعين متراً وعرضه عشرين. اما قاعه، فينحدر تدريجاً حتى يصل إلى عمق مترين أو ثلاثة. وفيه منارة للقفز ذات ثلاث طبقات، يصعد عليها بسلم. وقد ألصق بالجدار إنذار بلغات ثلاث، تعني أن المسؤولية تقع على القافز وحده، وقد أعذر من أنذر.. وعلى جانبي البركة مدارج خشبية يستفاد منها في حفلات السباحة لجلوس المتفرجين. وفي مقدم البركة مقهى لطلب الراحة، والتمتع بأشعة الشمس. ولا تظنن أن الماء حلو سلسبيل.. بل هو ماء من البحر وإلى البحر تدفعه محركات ضخمة.. وهنالك مشرفون على البحيرة، ومعلمون لمن يريد التعلم وفي قسم آخر من المسبح بركة صغرى للأطفال، قليلة العمق، تراهم فيها يلعبون ويمرحون كأفراخ البط...

وكان النهار مشرقاً ضاحكاً وقد انتشر السابحون والسابحات، والمستحمون والمستحمات كباراً وصغاراً عدد الرمل والحصى والتراب.

ورحنا نمتع البصر هذه المخلوقات السابحة اللاهية، ونتأمل العذارى وأنصاف العذارى يمرغن أجسادهن بماء البحيرة. فأنى نظرت وأنى التفت، وقعت عيناك على جمال وفتنة وجلال...

وفي هذا المسبح بدا لنا تعصب القوم لبني جلدتهم سافراً.. فعندما تعلم إحداهن أنك يهودي، تقبل عليك بالابتسامات والسلامات، أما إذا شعرت بأجنبيتك فيا للهول..!

فهي تعبس وتقطب بل تولي الأدبار. اللهم إلا إذا التجأت إلى نبي الله إدريس، وهززت الكيس، فدراهمك خير صلة وشيجة لربط القلوب والشفاه والأجسام...

ولقد كن يخطئن كثيراً فيحسبننا من أتباع (شالوم) العزيز، وأنصار الدين العتيد، في المسبح أو في لباس (الشورت) والزي الأوربي البحت. فكن يتهافتن علينا كالذباب. ولولا أن صاحبنا هادئ كتوم يحسن التظاهر بكل دين، ويلبس لكل حال لبوسها، مما أرغمني على ذلك النوع من الاحتيال على عباد الله، لما استطعنا أن نظفر بدغدغات خدود ناعمة، (وبيجامات) أرخص من رخيصة، وسهرات صافية (ومشاوير) في ظلال القمر، وخطيبات كثيرات مجانيات..!

مقعدان خاليان - في بار

لم ننس قبل مغادرتنا (حيفا) أن نسهر في مقهى على ذروة الكرمل لنفرغ لصاحبه جميع زجاجات الويسكي والبيرا. فقد كان صاحبي مولعاً بالحساء؛ وعلى طريقته، فهو يعتبر كل سائل حساء يغتسل فيه، ويفت فيه الخبز كما يفت بالثريد، ولو أدى ذلك إلى نزاع بين جيبه ونفسه. وهي ليلة في العمر نسمر فيها تحت النجوم الرجراجة، والمصابيح الملونة، وبين الزهر والورد وأنغام الجاز، أمام المتراقصين اللاهين، وبجانب الساهرات الناعسات؛ ونطل على البحر البعيد القاتم حيث المنارة تشير وتتألق شعلة من نور ونار، وتحت قدميك مدينة تهجع في نقاط من الأضواء منبثة في كل مكان؛ وهي ليلة من الأخصام اليهود، جديدة في كل شيء وجميلة في كل شيء، نظافة وترتيباً وهدوءاً وفناً.

ولقد لجمنا السكون عن الهمس والكلام؛ فكنا صامتين كأننا في حفل ديني وإذا كانت الفوضى تجر الفوضى، والشغب يلد الشغب، فإن النظام يقود حتماً إلى النظام؛ وهذا ما يشعر به المرء في هذا المقهى. فهل هذه الحال موجودة في كل مكان..! إذا فلنغادر (البار) إلى آخر ولننحدر إلى الهدار لنزور (باراته) ومقاهيه، ونطوفها واحدة فواحدة؛ فإذا بالشيء ذاته، وإذا بالسكون مخيم والهدوء شامل.. أبداً لن تسمع هناك طقطقة «الشيش بيش» ولا أصوات الخدم تلعلع (تنين شاي واحد أهوة) ولا قرقعة صحون (النارجيلة)... (بصة نار) (ثلاثة تنباك)..!

وجل ما هنالك، طاولات منثورة بنظام، وستائر ناصعة، ومجلات مجلدة مرصفة على الموائد، وجرائد على حوامل خيزرانية، تمسكها بها فلا تنثني ولا تزعجك بخشيشها؛ وخادم أنظف من طبيب الحي، يهمس بالطلب همساً، ويكلمك بأدب، لا يختلف عما

يحادث به الوزير أو الأمير؛ وسيدات نظيفات رصينات، وأنغام موسيقية علوية، تجعلك في هذا المقهى المحفوف بالورود والأشجار تسبح في عليين، وتنسى هموم الدنيا ولو إلى حين..!

ولم يرض صاحبنا عن هذا المقهى وعن هذا الوضع، ولم يعجبه القوم، وعدهم لا يفقهون الحياة والحرية؛ فأين هم من رجال الشام.؟ ونراجيل الشام.! وصياح الشام..؟ فهنالك تتكلم بحرية فتصيح، وتصرخ، وتصفق، وتبصق في أي مكان؛ وهنالك تتحادث مع من تعرف، ومن لا تعرف، بالسياسة والأدب، والأخلاق أو الدين أو المجتمع أو السوق التجارية السوداء والبيضاء.. وهلم جرا...

وهنالك الشراويل الفضفاضة، والقفاطين المريحة، والكراسي القش، والطرابيش والعمائم، واللحى، والشوارب..! أبداً لم يعجبه كل ذلك، عده سماجة، وبلادة وخموداً...

فصاحبنا يحبذ كل قديم في بلده حتى لكأنه سجل في حزب المحافظين قبل أن يولد؛ فهو من ألد أعداء تغيير المبادئ على طريقة تغيير الأحذية..!

كل ما في بلده جميل وطبيعي، يحبذه ويشمئز من غيره، فهو مولع بالشرق، ويرتعد عندما يتجه في طريقه نحو الغرب، حتى أنه أغلق جميع نوافذ بيته وأبوابه الغربية، وأن جملاً يسير الهوينا بخطواته الرتيبة على رصيف الشارع، لخير عنده ألف مرة من سيارة ملعونة تثير الغبار، وتحرم عليه لذة التمتع بجمال الطبيعة.!

فهل هو جالس في مقهى أم مقبرة ليصمت هذا الصمت الرهيب.؟ وهل هو في حاجة إلى القراءة والمطالعة في هذا المكان؟.. إن أصحاب العقول بخير..!

لقد كان يرى في بلده، جميع من درسوا في أوربا وغيرها، وتأبطوا شهادات الدكتوراه والليسانس، لا يقرؤون بعد عودتهم، ولا يطالعون إلا قليلاً؛ حتى أصبحوا بعد سنين معدودة، كالأميين عقلاً وتفكيراً؛ ولكنهم ما زالوا كجندي قديم يعتز بأوسمته، ويرقد على حساب بطولاته فيتيهون فخراً لحملهم الشهادات والألقاب الجامعية؛ حتى لقد غدا هؤلاء المثقفون علماء يشار إليهم بالأصابع الخمس أو الشعر في المحافل والمجامع، في الشرق والغرب... وأصيبت مطابعنا بتخمة علمية، وعجزت عن طبع المؤلفات وبنات الأفكار التي غمرت الخافقين...

فلم الدراسة آناء الليل وأطراف النهار.؟ ولم تعب الفكر والبال.؟ فالدنيا أضيق من أن نضيعها بالحرث والبحث، والتأليف والتصنيف؛ واليوم عمر، وغداً قبر..!

لا . لا! لم يطرب صاحبنا لهدوء القوم، ونظامهم ومرحهم، وتذكر موطنه وشارع

بغداد، وبائعي الكازوز والذرة المسلوقة والصبّير، فكان ينفجر حيناً إلى هاتيك الربوع، لولا أن تماسك بجلد معلم ابتدائي، وصبر مدير بين معلمين مشاكسين مهضومين...

ثم قام يتحامل على نفسه، بعد أن دفع الأجر، وظل يحسب ما يعادله بالقروش السورية وأنصافها، خشية تدهور ميزانيته، وانقطاعه في هذا البلد، كما ينقطع حجاج بيت الله الحرام في مكة، والحجاز ونجد، وما وراء الرياض؛ مع الفارق بأن هؤلاء الأتقياء الصالحين تساعدهم حكومتنا لنيل المقصد، وشرف العمل، أما نحن فقد نموت جوعاً، ولا من يسأل.. ولكن الله أراف بعباده المخلصين، فلقد أيقن صاحبنا أن التوازن قائم في ميزانيته، وأنه لن يهزم ولو دخل مئة مقهى وزار جميع ملاهي المدينة...

في طريق زمارين

ثاب صاحبنا إلى رشده، وآلى على نفسه أن يقلع عن غيه وغرامه، ليشد رحاله إلى المستعمرات الصهيونية، كما رحل السندباد بالأمس، إلى مدينة النحاس على فرسه المسحور..!

وعاد إلى مصوراته وكتبه وملاحظاته، يستمد منها العلم والهمة والإلهام، ويدرس التفاصيل، وما في الزوايا والخبايا، كقائد حربي على أبواب معركة..

وكان من تباشير الرحلة أن التقى بشاب يعرفه، كان تلميذاً له في سابقات الأيام، وهو الآن من طلاب (شفيا)، القرية التي نقصدها عن طريق (زمارين)[178].

ومن الاعتراف بالحق، نسجل للطالب أنه أبدى ضروب الإخلاص والنجابة والتفاني، في تقديم الخدمات، ولو كانت صغيرة؛ مما جعل الأستاذ ينسى أتعابه الماضية في تعليم طلابه، ويجد في ذلك خير الجزاء.. ولن يكون هذا الموقف، الأول والأخير، بينه وبين طلابه، فكلهم بالفضل معترف مقر، وهذا لعمري وفاء تضرب به الأمثال...

فلكم عنينا وعلمنا الكثيرين، دون أن (يتنازلوا) ويسلموا أحياناً على أولئك الصنف من البشر الذين يقال لهم: معلمون.. أولئك الذين يهذبون النفوس، ويخلقون النفوس؛ فقليلاً من المودّات أيها الجاحدون.!

---

[178] - زمارين وشفيا من اقدم القرى العربية التي جرى تمليكها لليهود في فلسطين نتيجة احتيال الولاة والمتصرفين في اواخر القرن التاسع عشر. فقرية شفيا العربية، كانت عامرة في العهد العثماني وفي عام 1922م كانت تضم 81 فلسطينياً وفي عام 1931م 208 اشخاص ولهم 18 بيتاً. وفي عام 1945م كان بها 330 مستوطناً يهودياً. وفي عام 1892م اقيمت بجانب شفيا العربية مستعمرة يهودية صغيرة على بعد ثلاثة كيلومترات من (زمّارين) القرية العربية المندثرة والقائم مكانها مستوطنة (زكرون يعقوب) ولما اخذ «ميئر روتشيلد» راس عائلة روتشيلد ينفق عليها عام 1904م حملت اسمه (ميئر شفيا) .Meir Shefeiya وفي عام 1923م اقيم فيها معهد علمي اخذ يتقدم شيئاً فشيئاً حتى اصبحت المستعمرة وكأنها خاصة بالطلاب وهكذا، اخذت شفيا العربية في العهد البريطاني، بالتقلص والانكماش إلى ان اندثرت بعد عام1931 م

وأخيراً قدم له التلميذ كل التعاليم والشروح الكافية الوافية لرحلته، ولم يودعه، إلا والسيارة تتحرك، لتغادر حيفا .

كانت الطريق جميلة، تتلوى في أسفل جبل الكرمل، وتحاذي الشاطئ اللازوردي، وهي مفروشة بالإسفلت، كأغلب الطرق في فلسطين؛ مما جعل المواصلات سهلة مؤمنة منظمة، ولعل الفضل الأكبر في ذلك يعود إلى شركة السيارات الصهيونية الكبرى (إيجد) - بالجيم المصرية - فسياراتها تعمل على كل طريق، إلا في اتجاهي خليل الرحمن، ونابلس العربيتين...

ولن ترى في الطريق سوى أرتال السيارات، بعضها في إثر بعض؛ ويستطيع صاحبنا أن يجزم بأن كثافتها بين حيفا وتل أبيب، أكثر بكثير من كثافتها في أعظم ساحات مدينة دمشق..!

كنا بإزاء بحرين بحر أزرق، لا تدرك نهايته، وبحر أخضر من الحقول الزمردية ليس لها آخر.. وكلها من صنع الصهيونيين، لعشرين سنة خلت. ويقرر القوم بأنهم سيجعلون هذا الشاطئ عامراً بالمزارع والحدائق، زاخراً بالمصانع والمعامل، آهلاً بالسكان المستعمرين! وذلك جزء من برنامجهم الواسع...

ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان :

كان أمام كل محطة من محطات السيارات، باعة للصحف والمجلات والكتب. وكما يتزود المسافر إلى القطب، بطعامه ولباسه ووقوده، كذلك يتزود المسافرون الصهيونيون، بما يقرؤون ويدرسون فكل يلتهم جريدته، أو مجلته، أو كتابه؛ ولا حاجة إلى تطبيق النظريات الأمريكية في الإعارة والتأجير، كما يفعل الكثيرون ممن يعرفهم صاحبنا...

وإذا كانت المعرفة سيادة، وهل يستوي الذين يعلمون والذي لا يعلمون، فمن العجز ألا نعتقد أن القوم وضعوا يدهم على سر من أسرار القوة، سهل نواله، عظيمة نتائجه؛ ولقد تجد مع الشخص الواحد صحفاً بلغات متعددة، حتى أن أطفالهم يقرؤون صحفهم الخاصة، وكتبهم وفي ذلك غذاء للنفس، وثقاف للعقل!

فأين القوم منا ونحن نسافر في سيارة أو قطار.؟ حين نضيع الوقت الثمين في التفرج على الطريق من الأبواب والنوافذ، أو في الأحاديث التافهة الرخيصة، أو في (الأكل) وخاصة أكل (البزر) اللعين.؟!

وسأل صاحبنا أحد المسافرين العبريين بالفرنسية عن عدد الجرائد العبرية،

فأجابه: إنها كثيرة، وفي ازدياد دائم؛ وهي صباحية ومسائية، ومنها ما يطبع مرتين في اليوم، وعندنا مجلات دورية؛ أدبية وعلمية وفنية وفلسفية.. وقد ثبت في إحصاء رسمي أن لدينا في فلسطين (92) جريدة ومجلة عبرية..! وهنا التفت إليّ صاحبي وقال: بينما لا يوجد لدى العرب أكثر من تسع جرائد أو عشر.!

وتابع الصهيوني قوله: وتصدر بعضها بالعبرية كجريدة: (دافار) لسان حال العمال و(هابوكر) و(هائريتس) وبعضها بالإنكليزية (كالبالستين بوست) وبعضها بالعربية (كحقيقة الأمر) التي تصدرها في تل أبيب النقابة العامة للعمال اليهود في فلسطين والمدعوة (بالهستدروت)؛ وهي جريدة أسبوعية مصورة، لنشر مبدأ الإخاء بين الشعبين اليهودي والعربي، كما جاء في الإعلان عنها - على ذمة الراوي الواهية - الذي شكره صاحبي وعاد يحدثني...

ألا ترى هذا البون الشاسع بيننا وبينهم..؟ إذا كانت الصحافة هي السلطة الرابعة في الدولة، وهي ذات الأثر المبين في التوجيه، ونشر الدعوة، وبث الشكوى والتحريض على العمل وتنوير الأذهان، وتثقيف الشعب، فما أحرى إخواننا عرب فلسطين، بمضاعفة الجهد في هذا المضمار. نعم، إن مجلاتنا وجرائدنا في ازدياد، وتبشر بمستقبل زاهر، ولكن خير البر عاجله! وهل ينكر أحد ما أسدته جرائد فلسطين الكبرى: فلسطين، والدفاع، والحرية، إلى القضية العربية وتلك المجلات الطبية، والتجارية، والرياضية والسينمائية والأدبية، فهي كلها أزاهير فواحة تحمل رسالات طيبة إلى العالم العربي.

إننا بحاجة إلى عمل في جميع آفاق المعرفة، كما يفعل هؤلاء الصهيونيون، الذين لا يكتفون بنشر آثارهم، بل راحوا يترجمون أرقى الأدب العالمي، والآثار الخالدة إلى لغتهم. وهم في جهاد مستمر. ويكفي أن أذكر - ولو كان المثال قديماً - أن عدد الكتب العبرية التي صدرت سنة 1933 - 1934 كان 349 كتاباً، والإنكليزية 11 كتاباً والبولونية كتابين والأرمنية 4 كتب، والألمانية كتابين، أما العربية فكانت 32 كتاباً فقط..!

ووقفت السيارة ونزل بعض الركاب فلفت نظر صاحبنا لوحة في مخرج السيارة كتبت بالعبرية والإنكليزية فقط وترجمها: هل نسيت شيئاً داخل السيارة؟ نعم هل نسيت شيئاً داخل السيارة؟ فذكرته هذه الجملة بإنذارات توضع في وسائل المواصلات في بعض أقطارنا الحبيبة: احترس من النشالين.! انتبه إلى دراهمك.! فكأن الإنسان مهدد بلصوص شيكاغو، كل حين...

وعلى ذكر الإعلانات، يذكر صاحبنا أن بعضها كان مضحكاً مهشماً. فترى سيارة

كتب داخلها : (دخون محذور) أي: التدخين محظور (ممنوع). وأخرى كتب فيها : ممنوع مد الرأس من الشباق... والمقصود الشباك ولا شك؛ وهنالك يافطة جاء فيها : طبيب أيون.. أي طبيب عيون.. ورحم الله القائلين: العلمو نورن، والسلامو عليكمو..

وكانت السيارة (باصاً) صهيونياً، وقد امتطاها العرب واليهود معاً.. بيد أن ما يشاهده المرء، والأسى يحز فؤاده، أنه لا يكاد يصعد العربي ليأخذ مكانه، حتى يرمقه الراكبون الصهيونيون شزراً، وكل منهم يتمنى أن لا يجلس بجانبه.. وقد أدرك صاحبنا أن كثيرين من العرب يشعرون بذلك، فيتحاشون الدنو من اليهود وقد يظلون واقفين في الممر دون حراك..! أما النساء اليهوديات فيبرمن بالعرب أكثر مما يتخيل الإنسان، لأنهم يزعجون خصلات شعرهن بألبستهم الفضفاضة فتنتثر على الجبين وتقلب حينئذ الشفاه اشمئزازاً...

زمارين تفرد

هان نحن أولاء في زمارين، أو (زخرون ياقوب) كما يسمونها أيضاً، ولزخرون هذه تاريخ مجيد في سجل الصهيونية..! ففيها عقدوا أول مؤتمر في فلسطين عام 1905، لبحث القضية الاستعمارية الصهيونية..

وبينما كانت أيام الأتراك محطة للقطار، على هامش الطريق، مهملة منسية، تراها اليوم قرية عصرية، ذات شوارع واسعة مفروشة بالإسفلت، وقد غرست الأشجار على جانبيها، وملأت رحابها غابات الصنوبر. وفيها حديقة عامة، تتمنى كثير من بلداننا أن تحظى بمثلها؛ وهي منارة بالكهرباء، ككل قرية صهيونية!

وليس معنى القرية عندهم الابتعاد عن المدينة، وبناء الدور بين حظائر الدواب، والشرب من المياه الآسنة التي ترتادها جميع حيوانات الله.! لا، لا، فكل بيت في هذه القرية مستقل عن أخيه؛ فله حديقته وأزهاره وأطياره. وله نوره وماؤه وسماؤه... وفي القرية دار للسينما، لأنها كما علمنا، من ضرورات الحياة لديهم، كالماء والهواء.. وغفر الله لمن لا زالوا يتناقشون هل الشريعة تحظر أو تبيح مشاهدة السينما، أم لا..؟ وهم عن أعنف الفرائض معرضون..!

ولقد تمر بأحد الأقضية في بلادنا، ولا تجد لنفسك فندقاً تأوي إليه، مهما عظم شأن القضاء، لأن هنالك كرماً عربياً محموداً، وضيافات لا نزال نتغنى بها؛ دون أن نتذكر بأن العصر انقلب، وأصبحنا بحاجة إلى أساليب عملية أكثر من ارتياد المضافات ودور

المخاتير، ليكون الإنسان حراً موفور النشاط والحركة؛ فهنالك في هذه القرية، مصرف وفنادق وبارات ومقاه ومحطة للسيارات ومخازن تجارية كبرى، وفيها كل ما تشاء وتهوى...

وهل ننسى تلك الأشجار العالية، من صنوبر وأوكاليبتوس وسرو، أسبغت على القرية جمالاً، ولطفت هواء ومناخاً، دونه لبنان وعرنة ويبرود[179]، حتى غدت القرية مغاني وجواسق... وانتشر الأهلون من شباب إسرائيل بسراويل (الشورت) والقمصان الرياضية، أما النساء فظهرن (بمايوهاتهن) وأثوابهن القصيرة، عراة من كل عائق ساتر.. جلسوا حول موائد الإفطار، زرافات ووحداناً، ذكوراً وإناثاً في حدائقهم، وفي ذلك الجو الساحر، يشملهم هدوء عميق، وطمأنينة منعشة، يسبغان عليهم السعادة والنشاط..!

وإذاً... كانت السعادة قوة، والمرح قدرة، والسرور استطاعة، فهل تتخيل أيها القارئ، كيف يعمل هؤلاء القوم وكيف يتضاعف إنتاجهم.؟ وهل ستكون حصالة عمل هذا الصهيوني في حقله، كمحصلة ذلك العربي اليائس القانط الكئيب..؟

إن المدينة استغلت كل ينابيع الثروة في الطبيعة.. وإذا علمت أن المرح في النفس ثروة دونها مناجم الذهب، وأن من أحسن استغلالها وضع يده على مفاتيح كنوز لا تنضب ولا تغيض، أدركت عندئذ سراً من أسرار تفوق الصهيونيين..!

فأي عامل أو زارع يتناول طعام صاحبه تحت أنغام الراديو، وابتسامات الساحرات وأحاديث المتحضرين الشهية، وفي هذا الهواء الطلق والنور الوضاح وفي ظلال هذه الأشجار، التي غرسها بيده، وتعهدها بقلبه، وسقاها من عرق جبينه... أي عامل أو زارع يتناول طعامه هنا، ولا يعود إلى معمله أو حقله، عامر القلب، ثابت القدم، يستقبل الأيام بالسرور ويودعها بالحبور، ويبذل من ذات نفسه كل ما يستطيع، في سبيل القضية التي كرس حياته من أجلها، وبذل نفيسه في سبيلها...؟!

وقف صاحبنا يتأمل هذه المناظر، بل هذه (السيمفونية) الريفية الزاخرة بالحيوية والنشاط وقال: أنا أعتقد بإيمان راسخ أن هذه القرية لم تخلق بين عشية وضحاها؛ بل بالعمل المتواصل والسعي المستمر الواعي، ووضوح الهدف، وروح التضحية؛ وما ضر إخواننا العرب لو سلكوا نفس المسلك في قراهم، ليصلوا إلى النتيجة نفسها؛ نعم، لن تقوم لنا قائمة إلا بالاتحاد والإخلاص، ويد الله مع الجماعة؛ وإن بيتاً يليق بالكرامة الإنسانية، يأوي إليه فلاحنا العربي وعائلته، لن يجشمه كبير عناء إذا حاول بناءه كبيت جاره

(179) - عرنة: قرية في أعلى جبل الشيخ جنوبي غرب دمشق، ويبرود: في جبل القلمون شمالي غرب دمشق وهما مشهورتان بهوائهما العليل.

اليهودي، وحبذا لو تألفت الشركات التعاونية لهذا الفرض؛ وهي التي أثبتت كفاءتها في شتى الميادين.

وهل تحسبن الصهيونيين يستطيعون بناء أمثال هذه القرى لو عشش الجهل في أفكارهم وباض وفرخ. لا، ثم ألف لا ... ما دام العلم رائدهم وشعارهم، وهم الذين أخضعوا جوانب حياتهم لآخر ما وصل إليه العلم الحديث. فطريقنا واضحة، ومن سار على الدرب وصل.. أما أن يحيا بنو قومنا عراة الأقدام، حفاة العقول، فهذا ما لم نسمع به في زاوية من زوايا الأرض..!

فيا زعماء العرب، ويا أغنياء العرب، ويا مفكري العرب، إلى البذل والعمل والتنظيم، الآن وقت النضال والكفاح؛ ووضع مائدة خير من ألف قول: تفضل، والدهر لا يرحم، وفلسطين وديعة الآباء والأجداد في أعناقنا، فلنسلم الوديعة كاملة إلى أحفادنا، وحذار أن تتكرر مأساة الأندلس كرة أخرى..!

تلك هي إرادة الحياة، والوعي الوثاب لمجاراة قافلة الأحياء، وويل لشعب لا يتحرك، فيفوته القطار، في عصر كل شيء فيه قد تحرك حتى الجماد ...

وصمت صاحبنا؛ وهاهو ذا يقصد مخزناً يبتاع منه السكاكر والشوكولا، لقدماء تلميذاته وتلاميذه وأترابهم في (شفيا).. وإذا كانوا هنالك واجدين كل ما يشتهون، فمن البر بأولئك المغتربين، أن يقدم إليهم هدية بسيطة في مبناها، عظيمة في معناها.. وهي فوق ذلك خير عون له على استقاء الأخبار والترحاب، والمثل يقول: (طعمي الفم تستحي العين)، وهي رمز لطيف لعهد قديم رسخت أصوله بين معلم وتلاميذه، ولئن قالوا قديماً: (إن كبر ابنك خاويه..) فإني قائل: إن كبر تلميذك أو تلميذتك، فصاحبه، وإنك لواجد في ذلك صداقات بريئات خالدات..

وما ضر صاحبنا لو استغل هذه القلوب النقية المخلصة، في صالح قومه؛ فيتفهم الأسرار من ينابيعها، ويعمر صدر كتابه ويملؤه مادة وفكراً، عله بذلك يسعف إخوانه العرب، أو يقوم - على الأقل - بقسط بسيط في سبيل خدمة قضيتهم.!

شفيا ـ معقل صهيوني

من روابي (زخرون)ـ تشاهد مباني (شفيا) وسقوفها الحمراء، وهي جاثمة وراء الأشجار والأدغال، والهضاب المكسوة بالأعشاب كالزمرد ...

وكلا القريتين يقوم على رابية، وبينهما واد سحيق خصيب، لا ترى فيه العين أبداً أرضاً جرداء، أو قفراً بلقعاً ...

وأما الطريق فطويلة، مرتفعة ومنخفضة، تسترها طبقة الإسفلت حيناً، والأحجار المرصوفة أحياناً، وكانت الأشجار تكتنفها ؛ فلا تغادر ظلاً إلا لتنتقل إلى آخر، وتهمس على طرفيها تحت الأعشاب والأزهار مياه ثرارة، بألحان لا يدركها إلا عشاق الطبيعة المعاميد ...

وهنالك في تلك البقاع النائية، مررنا بمعمل للمشروبات الروحية، علمنا فيما بعد، أنه أكبر مصنع للخمور في الشرق الأدنى، وأن منتوجاته تكفي فلسطين وتؤمن مطالب الجيش البريطاني؛ ويصدر ما فاض عن الحاجة إلى خارج البلاد ..

وهذا المعمل واحد من عشرات عشرات المعامل الصهيونية التي حازت قصب السبق في إنتاجها، وهي موزعة في أرجاء فلسطين.!

فهل جاءك نبأ معمل (نكيف) قرب طبريا، ذاك الذي يسد حاجيات فلسطين بمصنوعاته الخشبية، ويغمر الأسواق في البلاد المجاورة..؟ وهل تذكر معامل تكرير البترول، والإسمنت، والمنسوجات، والعقاقير الطبية والكونسروة ومئات المصانع المختلفة، التي تتسلح بها حياة الصهيونية الاقتصادية؛ فلا سبيل إلى قهرهم إلا بمثل هذا السلاح..؟!

أجل! هنا يذكر الإنسان سلاح المقاطعة الرهيب، الذي ترتعد لوطأته فرائص الصهيونية، فيقض مضجعها، وتجد فيه معولاً هداماً لأمانيها وأحلامها ؛ ولئن استطعنا استعمال هذا السلاح الناجع، بثبات واستمرار، في سائر أقطارنا العربية ـ وهو أمر في مقدرتنا ـ فسنهزم العدو الغاشم، دون أن تسيل الدماء، أو نفقد الضحايا ؛ وخلاصك في يدك يا إسرائيل..!

كان الجو حاراً قائظاً، والعرق يرشح بغزارة من أجسامنا، وكان يحمل أمتعتنا حمار هزيل، يقوده عربي من أبناء جلدتنا، لم يستطع هضم زيارتنا الصهيونيين، ونحن ننطق مثله، بلسان عربي؛ فعبس وتجهم وجهه حتى كاد أن يكشر عن الأنياب...!

فهل ساءه ذهابنا، حتى أريد وجهه وأرعد، أم سرته تلك القروش التي سيتناولها بعد قليل من سابق إصرار على كثرتها ومضاعفتها..؟!

لم ينس أن يحدثنا عن بطولات العرب في الثورة الفلسطينية، وكيف أنهم كادوا يلقون أعداءهم في البحر، لولا.. لولا نشوب الحرب العامة الثانية... و(خاطر) تدخل الدول العربية، لنصرة القضية الديمقراطية.!

وعندما حدثنا عن مغامراته، وأنه جندل لوحده ثلاثة من أعدائه، في هذا الوادي الذي نحن فيه، خامرنا الحذر، وخشينا أن يحسبنا بقية باقية من ضحاياه، فأسلمنا أمرنا إلى الله، وجعلنا نردد على مسامعه آي الذكر الحكيم، وأحاديث الجهاد وأشعار العرب في القتال والنضال... وأننا الآن في هدنة مؤقتة مع هؤلاء (الصهاينة) وما زلنا به حتى زال عبوسه، وعاد إلى وجهه اطمئنانه، فرجعت حينئذ قلوبنا إلى قواعدها بعد أن هبطت إلى أسفل الحذاء..

وعندما بصر بنا أول سكان (شفيًا) ودوى صوته من وراء الأشجار: أهلاً وسهلاً بالأستاذ... وميت أهلاً وميت مرحباً.! حمدنا الله على السلامة وتنفسنا الصعداء..!

وإذا كنت ملامح الوجه، وحركات الجسم، ونبرات الصوت، تعبر بأجلى بيان عن كنونات الفؤاد، وخفايا النفس، فإن في الانشراح والرضاء، والابتسام الكاسح، والمرح الشديد، الذي تفجر على وجه ذلك الشاب، التلميذ السابق، لما يثلج الصدر، ويملأ رحاب النفس سروراً، ويجعل من أشد المعلمين تشاؤماً ومتفائلاً من الطراز الأول..

كان الشاب ماضياً لعمل ندب إليه، ولكنه ما كاد يرانا حتى منح نفسه إجازة مؤقتة، ليكون لنا لجنة استقبال وتكريم، تليق بقدومنا المفاجئ الميمون... فسار معنا دليلاً ومرشداً، يحدثنا، وكأنه يود في لحظات قلائل، أن يفرغ أمامنا كل ما اكتسبه من خبرة ومعلومات، في سنواته الخالية... وللمرة الأولى التقينا بفتيات المستعمرات وقد لبسن القمصان (الخاكي)، التي تكشف عن سواعد مفتولة... ولعل العمل في الحقل والمصانع، خلق من هؤلاء الفتيات أجساماً رشيقة، (اسبور) بكل معنى الكلمة، ربما كانت مقبلات ومرفهات للعاملين في تلك الأماكن النائية...

ومما يلفت النظر، تلك الوجوه الضاحكة المستبشرة، التي ما كدنا نسأل عن سرها

حتى قيل لنا: لكل إنسان في الحياة شعاره، وشعارنا جميعاً: اضحك يضحك لك العالم؛ فلا سحب من الكآبة تغشى وجوههن؛ ولا قنوط، ولا يأس، بل أمل وثاب، يحفزهن إلى الواجب المقدس، الذي آلين على تحقيقه مهما بذلن من نفوس غالية في سبيله...

ذكريات حبيبة

لم نكد نجلس في ردهة الاستقبال الكبرى، حتى وافتنا وفود قدماء تلاميذ صاحبنا، وتلميذاته، وأترابهم؛ وكلها وجوه يعرفها، وأجهلها... أقبلوا يحيون أستاذهم، ويهنئونه بسلامة الوصول، بألفاظ بريئة ساذجة، بعدت عن الزخرف والطلاء - الذي يتقنه الكثير من ربوعنا - لأنها صدرت من صميم الطبيعة التي يحيون فيها...!

وغمر الجميع جو عائلي من الفرح والسرور، فليس هنالك معلم وتلاميذ، بل إخوان وأخوات..! وانهالت التحايا، وضروب الترحيب البريء، وراحوا (يتساقون التذكر) كما يقول الشريف الرضي؛ فذكر الجميع أهليهم وحيهم المرموق، ومدينتهم المحبوبة دمشق... ذكروا مغانيها، واستعرضوا صيفها وشتاءها، وعاودهم الحنين إلى الوطن - رغم تصهينهم - حيث الخلان والأهلون، وحيث تقف الواحدة أو الواحد منهم، أمام (الفيجة) فيعب منها بيديه ماءً قراحاً سلسبيلاً، يتمنى رشفة منه الآن، في هذا الحر الشديد..!

وأديرت السكاكر والشكولاه، وغرق الحاضرون في لجة من الذكريات العذبة، ذكريات التلمذة والطفولة، وهي عزيزة على النفس، مفرحة للقلب... فأين أهلوهم الآن؟ أفي الربوة، أم شارع بغداد أو في شارع السير إيلي خضوري[180] أم في حارات الحي الضيقة المظلمة..؟ وأين هي المعلمة فلانة والمدير علان..؟ وكيف حال المدرسة، هل ستبقى مغلقة، أم سيعود رفاقهم إليها، بعد حوادث أيار المشؤومة..؟!

غداء شاذ

وفيما نحن كذلك، قرع المنبه الكهربائي؛ فلم نفهم لقرعه معنى؛ حتى دعانا الجميع إلى الغداء، دعوة بسيطة لا أيمان فيها ولا أقسام. فذهبنا إلى حجرة الطعام يواكبنا فتيات وفتيان يغمرهم مرح شديد...

وكان المطعم جناحاً خاصاً من المدرسة، تقع في مستهله حجرة لتنظيف اليدين

---

(180) - إيلي خضوري: ثري يهودي بريطاني من أصل عراقي كان يتبرع لبناء المدارس لليهود في فلسطين وكان في حي اليهود بدمشق شارع باسمه

بالصابون والماء البارد والحار عند اللزوم. أما بهوه فواسع الأرجاء. أبيض، يغمره النور من نوافذه العالية الواسعة العريضة، ويتجدد الهواء منها دوماً، حيث ينفذ إليه من خلال (المناخل) التي تسترها جميعاً ... وفيه مقاعد تكفي جميع سكان الميتم أو (المفرخة) كما أراد أن يسميها صاحبنا، كبيرهم وصغيرهم، أساتذتهم وإناثهم، يجلسون معاً دون تفريق يوجب الحقد والضغينة، بل على العكس، فإن ذلك يوحي بالمساواة والديمقراطية الحقة.

وكانت الموائد كبيرة نظيفة جداً، تتسع لستة أشخاص على الطرف الواحد؛ ويجلس على رأسها أحد العمال أو كبار الطلاب أو الطالبات، ليشرف على النظام وتوزيع الطعام...!

أبداً لم نثر فضول أحد، وقلما حدق فينا تلميذ أو رقص حواجبه وجفونه عامل أو أستاذ، ولقد أسرع صاحبي مع تلاميذه إلى مقعد، كاد موزع الأطعمة أن يدنو منه، ولحقت به خيفة أن أبقى وحيداً غريباً ...

وما إن توسطنا الجمع على المائدة المستطيلة، حتى وقعت أبصارنا على معروضاتها الشهية بالنسبة إلى مسافرين، قطعا مسافات واسعة مشياً على الأقدام، ولم يذوقا طعاماً منذ الصباح الباكر. (حلَّ) صاحبنا حزامه، ونظر إلى اللحوم تطل مع الخضر من صحونها، نظرة ذلك الإسباني الجائع، الذي قيل في إحدى القصص: إن فخذ الضأن كانت تتكمش لنصف حجمها الطبيعي لمجرد النظر إليها.!

وكان سكان المؤسسة يخدم بعضهم بعضاً بالتناوب، فها هو ذا أحد العمال يوزع الصحاف، فخذ منه ما تشاء دون حساب؛ ولكن إذا علمت أن كل فرد من الجالسين، يعتبر هذا الطعام ملكه، فلا إسراف ولا تقتير، أدركت السبب في اقتصاد القوم المنظم، واهتمامهم بعدم التبذير.!!

ولعل الطعام كان منافياً لأذواقنا في بادئ الأمر، غير أننا كنا كالذئاب الضارية جوعاً، فهجمنا عليه، تغوص أناملنا في الخبز، وملاعقنا في الطهي حتى استسغناه. لأنهم يقدمون الطعام دوماً بعد دراسة علمية، حسب حاجة الفرد (للفيتامين) والمواد الضرورية على الطريقة الحديثة في التغذية..!

وقبل الشروع في الطعام، وقف تلميذ صغير فصلى صلاة قصيرة بالعبرية ـ طبعاً ـ أنصت لها الجالسون ثم بدؤوا بالطعام بإشارة من المشرف العام... وكانت الصلاة كما ترجمها بعضهم شكراً للمولى على ما أنعم به عليهم من خير وبركة في الأرض المقدسة...

ثم أكل القوم بهدوء وأدب وصمت. أما الماء فتخلو منه الموائد، وعندما افتقده ابن

الشام والفيجة، جلبوا له ما شاء، وأعلمونا أنهم اعتادوا إهماله، والاستعاضة عنه بالشاي أو عصير البرتقال...

وقام الصبي ثانية فصلى وشكر الله بالعبرية؛ وانتهى الطعام وهممنا بالانصراف لولا أن قدمنا التلاميذ لأحد الأساتيذ - الدكاترة الفلاسفة - وعرفوه بنا فسر كفرحة الغريب بالغريب ثم اعتذر عن ضيق وقته، ودعانا إلى منزله في الساعة الرابعة لزيارة خاصة...

ميتم لصنع الشباب الصهيوني

أو تدري بماذا تذكرك كلمة (شفيا)..؟ ألا ترى أيها القارئ أنها لفظة مشابهة لكلمة شفاء بالعربية..؟ وهي كذلك حقاً بالعبرية.! وتلك لعمري تسمية صحيحة لها، لأن هذه القرية جديرة بأن تكون مصحاً، لعذوبة هوائها ومناخها، ولعل ساكنيها، لا يشكون مرضاً رغم جهادهم الطويل، في التعمير والتحسين..!

وأصل المؤسسة، ميتم لأبناء الطائفة الإسرائيلية، ممن فقدوا ذويهم ومعيليهم في الشرق أو الغرب. ولكن خشية تشرد بعض الأطفال الفقراء، والحاجة إلى خلق جيل واع من المواطنين المخلصين للقضية الصهيونية، حمل القائمين على إدارتها أن يختاروا أبناءها من غير الأيتام، ومن شتى الأقاليم، وخاصة أبناء المتطوعين في المستعمرات..!

وإن صاحبنا ليذكر بعثات علمية صهيونية كانت تؤم دمشق بين الحين والحين لتختار أنجب الطلاب، ومن يؤمل فيهم الخير، ليرسلوا إلى هذه المدرسة وإلى غيرها، حيث يعيشون مجاناً، ويزودون بثقافة عصرية وعلمية قبل كل شيء، وبصنعة أو صناعات يمتازون بها، ليكونوا في الغد صهيونيين أقحاحاً، يستعمرون الأرض ويذودون عنها..!

وتنفق على المؤسسة جمعية يهودية تدعى: (لوشكاسوسياليست) وهي جمعية إسعافية خيرية، لأبناء اليهود المرزوئين أو المتوفين. وقد تمد هذه الجمعية أيضاً بعض العائلات المستورة، فتجهزها أحياناً بأدوات البيت أو المال اللازم للعمل..! فمن شعار الجميع: لا تسول، ولا تشرد ..! ومن العار أن يتسول يهودي، أو يعيش لينسل أولاداً أشقياء جاهلين هم عبء على الجميع...!

فكفاح المستنقعات واجب مقدس في الأرض والفكر؛ وإذا كانت مستنقعات الأرض تولد الجراثيم والحشرات، وتنقل الأمراض إلى الأصحاء والسليمين، فإن مستنقعات الفكر أيضاً، هي حقول خصبة لتوليد الجرائم وتفريخ جراثيم الشقاء..!

وترفد هذه المؤسسة أيضاً جماعة (الهاداسة).. والهاداسة هذه كما حدثنا بعضهم: إما كبيرة، أو صغيرة.. فالكبيرة تعنى بالمستشفيات، والصغيرة ترسل الأموال وتجمع التبرعات لإسعاف اليهود..

ولعل اسمها وحده يوحي بالأمل، فقد ذكر ذلك أحد الطلاب النجباء، وهو على قدر وافر من الثقافة والإطلاع، فقال: ربما كان الاسم مشتقاً من الآس، المشهورَ بخضرته الدائمة، فكأنهم يتفاءلون بأن تكون أيام الجماعة كلها خضراء زبرجدية، لا تصوح ولا تذوي، بل توحي بالأمل والرجاء. واستطرد بقول الشاعر:

لا يكـــــن عهـــــدك ورداً   إن عهـــــدي لـــــك آس

وابتسم وشاعت في وجهه إمارات الرضا ثم تابع:

أو لعل كلمة (هداسة) مشتقة من اسم قديم (لأستير)، الوارد في الكتاب المقدس والتلمود. وهي: هاداسة، بنت عم (مردخاي)، والتي اتخذها ابنة له بعد موت أبويها، وقصتها طريفة مشهورة؛ فقد قيل إن (هامان) وزير (احشويروش) ملك الهند و(كوش)، كان يفتش عن شجرة، يجعلها (خازوقاً) ليصلب عليه مردخاي، الذي أبى أن يسجد له؛ فأخذ يسأل الأشجار واحدة فواحدة، دون أن تتنازل إحداها لتقوم بالواجب، أو ترضى عن طلبه، غير أن شوكة ضخمة - تمثل الشر والأذى - قبلت بهذه المهمة السامية، فأعدها (هامان)، وطولها خمسون ذراعاً؛ لكن (استير) أنبأت زوجها (احشويروش)، بمراد (هامان) من تعذيب اليهود وتشريدهم دونما سبب، فصفح عن مردخاي، وقربه، وعفا عن اليهود، وصلب هامان، وأبناءه العشرة.. لذلك يعيد اليهود كل عام عيد (الفور) [البوريم] أي الفوز، ويذكرون فيه مخلصتهم الحسناء (استير) ويرددون مثلهم المشهور: (هامان طرأ خازوء، هامان وئع فيه).

❖ ❖ ❖

هذه هي «شفيا» وأكثر طلابها من أبناء الشرق..! فهل يخطر في بال سيدي القارئ أن فيها ما لا يقل عن ثلاثمئة يماني ويمانية..!

لا لا.. لا تعجب أيها القارئ العزيز، فالصهيونية ذات أهداف مركزة مدروسة لها أثرها البعيد، في حياة اليهود الروحية والأدبية اليوم. فالتعليم هو غرضها الرئيسي؛ حتى أنها أسست الجامعة العبرية، وخلقت أمثال هذه المدرسة أو القرية أو المصنع اليهودي - إن شئت - لإنتاج الشباب الصهيونيين الأقحاح..!

والمدارس عندهم متنوعة الفرض وإن اتحد الهدف: فمنها الزراعي، ومنها الصناعي ومنها العلمي.. غير أنها جميعاً ذات غاية واحدة، وهي خلق الناشئة لتكون مصبوغة بصبغة الصهيونية، فلا معارض في المستقبل الصهيوني ولا خلاف.

وتتعاقد مدارسهم. كافة في جميع أنحاء العالم على الاحتفاظ بالشعور القومي، وتعزيز الآداب اليهودية واللغة العبرية...! ومن يشك في ذلك، فليدرس وضع جمعية (كاديما) - إلى الأمام - أي تقدم..! وإلى أين التقدم؟ إلى الشرق..! ليعرف الأهداف والغايات المستورة المقررة! وهذا عين ما تفعله جمعياتنا في الشرق العربي، في سبيل توحيد الثقافة والآداب والروح وتعزيز القوى وتهيئتها لمستقبل قريب.

ولفت نظر صاحبنا كثرة الأجانب والأغراب في «شفيا» دون أن يعجب أبداً. فلئن كانت هناك هجرات مشروعة، فإن هنالك سيولاً من اللاجئين، لم يخضعوا لقيد أو لشرط. فاليمانيون والسوريون والبغداديون واللبنانيون والأوروبيون اليهود يملؤون رحاب فلسطين. وكاد صاحبنا ألا يدخل بيتاً في تل أبيب إلا ووجد فيه خادماً يمانية..! وقد لاقى القائمون على إدارة (شفيا) الصعاب، في تهذيب هؤلاء اليمانيين. فترى بعضهم حتى الآن، لا يحسن الاحتذاء، فيسير حافياً ...! ولقد أعطوهم أحذية في بادئ الأمر، فاحتذوا يمينها في شمالها، وشمالها في يمينها .. وألبسوهم الأثواب فارتدوها مقلوبة على قفاها! غير أن الإيمان ما زال في تعليمهم عظيماً، لأن ذكاءهم الفطري، بدأت تنحسر عنه غشاوات الجهل القاتمة.

هذا هو الواقع

ولعل من الطرفة بمكان أن تعلم كيف يقضي سكان المستعمرة نهارهم:

فمنذ الساعة السادسة صباحاً قبيل شروق الشمس، تبدأ الأنغام الموسيقية، تعزف ألحاناً خفيفة عذبة تتصل بكل جناح، من مصدر خاص بالإذاعة في نفس المؤسسة، يتصل بمحطة الراديو؛ وعندهم كذلك مالا يقل عن ثلاثمئة أسطوانة غنائية أو تعليمية وكلها بالعبرية. لأن إذاعة الأغاني العربية أمر ممنوع، ولذا فإن الطالب المختص بإدارة المحطة وهو دمشقي - على حبته - يرسل على موجات الأثير بعض القطع العربية بصوت خافت إلى زملائه العرب في جناحهم؛ إذ أن لكل بناء مكبراً للصوت خاصاً به.

ثم يرتفع اللحن رويداً رويداً، فكأن النائمين يسبحون في أحلام علوية، تداعب مخيلاتهم آلهة الموسيقا، حتى إذا أزفت الساعة السابعة أصبح الصوت عالياً.!

وهنا، ينهض الجميع؛ ويجب على كل فرد منهم، أن يغتسل صباحاً قبل العمل، وأن يغتسل مساء بعد العمل...! فالنظافة أساس كل شيء، حتى إذا أتموا ذلك، وارتدوا ملابسهم، ذهبوا إلى حجرات الطعام. وبعدئذ ينتشرون في رحاب المستعمرة، فيعمل الطلاب أربع ساعات متوالية قبل الظهر في علوم نظرية بحتة، وأما بعد الظهر، فيعملون أربع ساعات أخرى في دروس عملية صناعية، فيجب على كل طالب أن يتقن مهنة خاصة على الأقل كما تقتضي الشريعة الموسوية....!

وخرج شاب لقبه صاحبنا بالفيلسوف ليجلب لنا (ناياً) يسلينا بأنغامه؛ وأقبلت عقب خروجه إحدى التلميذات القديمات لصاحبنا، وكانت غائبة في المطبخ تقوم بالطهي حسب دورها. فهنأها أستاذها على طهيها الممتاز، وتمنى لها مستقبلاً يليق بفتاة جميلة نجلاء العيون....! وهنا أردت أن أنبهه إلى مستقبل عذارى صهيون، فسعلت... من دون أن يأبه لي، بل ثابر على ترهاته، وكانت الفتاة تصيخ إليه وفي عينيها خفر ودلال لذيذان..!

وعندما رجع الشاب الفيلسوف مع (نايه) وقف يعزف بقامته الممشوقة، ونظارتاه الواسعتان تشع وراءهما عينان ذكيتان يقظتان..! ولا غرابة في ذلك، فقد تنبأ له صاحبي مذ كان تلميذاً بمستقبل أديب فيلسوف، وهاهي ذي الأيام تحقق بعض نبوءته. فقد شرع الشاب بتآليفه الأدبية، وترجماته من العبرية إلى العربية وبالعكس وغداً سيتقن ثلاث لغات..! وهو يتهيأ اليوم للجامعة العبرية كيما يستفاد من نبوغه ونشاطه، فقد أنهى دراسته في (شفيا)، فكافأته المؤسسة، بمنحه حجرة منزوية ينكب فيها على دراساته، من دون أن يكلف بعمل..! ولكنه يأبى البقاء طفيلياً من دون جدّ وكد. ولقد قال لنا قبل أن يضع الناي على شفتيه، وهو يبتسم معتذراً لتأخره كنت أطبق شعارنا: ازرع تحصد اعمل تنل..!

وكان الناي من خشب الزيتون صنيعة أيدي الطلاب، الذين يصدرون أمثاله وغيره من الأدوات الخشبية إلى حيفا وما إليها، باسم مصنوعات شرقية..

وعزف العازف قطعاً مدرسية لطيفة، فأعاد للأذهان، روابي الغوطة، وظلال الأدواح وهمس السواقي، وانطلق الفتيان والفتيات يغنون نشيداً عبرياً لم أسمعه قط في حياتي غير أن صاحبي همس في أذني: إنه النشيد القومي الصهيوني (هاتيكفا) أو.. الأمل..

وما إن انتهوا من الغناء حتى سأله صاحبنا، أن يترجم لنا هذا النشيد.. فابتسم راضياً، وجلس على كرسيه ساهماً في عالم الخيال، يردد جمل النشيد العبرية محاولاً أن يعيدها موزونة بالعربية قدر ما يستطيع... وأخيراً قال:

«لم تزل قلوبنا تخفق، وأعيننا تتخيل وطننا القديم، وأنفسنا تهيم به..

أجل..! لم تزل تهطل الدموع من مآقينا، كتسكاب المزن

ولم يزل أملنا .. أمل ألفي سنة، قوياً شديداً

وسنرجع إلى أرض الآباء، أرض إسرائيل، وأورشليم..

ثم تنهد المترجم وقال:

أجل..! لم نزل نذكر بيت مقدسنا، وانهياره وانهدامه..

لا لا.. لن نبكي بعد الآن...!

فاستمعوا - إخوتي - إليّ: إن صوت أحد أنبيائنا يقول:

لن يزول أملنا حتى يرافق آخر يهودي يلج أرض الميعاد..

هوذا صوت أرضنا المقدسة يسأل الله ويقول:

أين وجوه أبنائي..؟!»

وهنا دمعت عيون الفتية، فكأن نشيدهم أضرم فيهم العاطفة، فران علينا صمت عميق، وكل في واديه يهيم..!

هكذا تعلم الصناعة (التعليم الجامع)

وانقضت فترة الاستراحة، وأقبل وقت العمل فنهض كل فرد يلبي نداء الواجب، وبقي بضعة أفراد برفقتنا، ليكونوا أدلاء لنا في هذه المؤسسة.

ومررنا في بادئ الأمر بمعمل النجارة: فكانت أدواته وآلاته كلها تدار بالكهرباء.. فثمة مسحجة، ومثقبة، ومنشرة، ومخرطة.. و.. وقد انتشر الطلاب في كل مكان يعملون تحت إرشاد المعلم. وعلى كل طالب في المؤسسة أن يمر بهذا المصنع لتعلم المهنة قبل الاختصاص، كما يمر ببقية المهن مدة كافية لا تقل عن أربعة أشهر لكل واحدة منها.. حتى إذا آنس في نفسه ميلاً لإحداها، انتقاها صنعة له دائمة.

وينتج هذا المعمل كل ما تحتاجه المؤسسة، من موائد ومقاعد وأدوات موسيقية وتزيينية.. ويصنع بعضها من خشب الزيتون، وبعضها من أخشاب الأحراج الخاصة بالمؤسسة، وما تفتقده الحاجة يشرى من الخارج..

ثم انتقلنا إلى حديقة المؤسسة، للاستجمام بضع دقائق، فإذا بها منسقة أتم تنسيق؛ فالأشجار العالية تحفها من كل مكان، والأحواض الهندسية البديعة تزينها وتملؤها أزهاراً وزنابق متنوعة. ويروي كل ذلك نافورات لولبية تدور من كل جانب..! ولقد

اخبرنا القوم بأن السكان يسمرون في الليالي القمراء فوق هذه المقاعد المريحة، فيتمتعون بما تصنعه أيديهم وجهودهم، وينسون أشجان الدنيا وما فيها ...!

وطاب لصاحبنا الجلوس، ينعم بالجمال والطبيعة التي هذبتها يد الإنسان، التي لم تكتحل عيناه قبل الآن بمثلها .. وهنا شرعت إحدى الفتيات تحدثنا مع زميلها عن المستعمرات في فلسطين ونشأتها، حديثاً مقتضباً، لا يروي ظمأ، ولا يشفي قلباً، كما اعترفت بذلك، ولكنها مع ذلك تشجعت وقالت:

إن المستعمرات في فلسطين على نوعين: شيوعية بحتة وهي نادرة جداً، واشتراكية أو تعاونية وهي الأكثر عدداً. أما الشيوعيون فيرومون العيش مع العرب إخواناً من دون هدف قومي معين، ودون أن يفكروا بمنازعة العرب لإخراجهم من البلاد. وأما سكان المستعمرات الاشتراكية، فإنهم يؤلفون عائلة واحدة ضخمة، يبذل الفرد منهم ما يستطيع، ويأخذ قدر حاجته؛ ولهم رأيهم السياسي الخاص إذ أنهم يبذلون الجهد لإنشاء الوطن القومي الصهيوني وذلك بإخراج العرب من البلاد ... وأما التعاونيون فهم عائلات تقيم في المستعمرة، لكل منها أرضها تزرعها على حسابها وتتعاون في سبيل تصريف المحصول مع الآخرين، ولا يختلفون في سياستهم عن الاشتراكيين منا ...!

وهنا احمر وجه الفتاة وأدركت أن معلوماتها ضئيلة، وقد تكون مغلوطة، فاعتذرت عن متابعة الحديث وانتقلت منه إلى قولها:

وتتشكل المزرعة بادئ الأمر من خيام ومخشبات. ويختار لها المستعمرون بقعة بوراً (بملاً)... فكلهم يبذل الطاقة والرأي لتصير جنة غناء..! وإن جميع يهود العالم وخاصة في فلسطين، يتبرعون للمستعمرة الحديثة لإنعاشها، فكأنها طفل رضيع يحتاج كل عناية.

أما العيش فيها فالطعام والسكنى واللباس تبذل مجاناً، ولكل فرد عطلة سنوية لا تتجاوز الثلاثين يوماً... وله أن يتناول المال اللازم لحله وترحاله..! وأما أطفال المستعمرة، فيربون في حدائق خاصة بكل مستعمرة حيث تشرف عليهم مربيات أخصائيات..! ولا يغرب عن البال أن الطفل الواحد يكلف ثلاثة جنيهات فلسطينية شهرياً؛ فيطعمونه ويسقونه ويمرضونه.. وإلى جانب الحديقة دار حضانة خاصة مع معلمة ومربية وليس على الأم بعد نقاهتها من الولادة أو بعد مجيئها من العمل سوى أن تأخذ طفلها ليقضي الليل بجانبها.

سمعنا هذه المعلومات التي لا ترتيب فيها ولا تنسيق، وشكرنا الفتاة على حديثها وتابعنا مسيرنا معاً..! وسألناها عن عملها في المؤسسة، فقالت:

من المهم أن تعلم بأن أعمال البنات ليست مرهقة شاقة كأعمال الذكور. فهي لا تتجاوز تربية البقر والدجاج، والأعمال الزراعية البسيطة، والطهي وفن التمريض والخياطة والموسيقا والرقص والفسيل والكي وجميع ما يتعلق بتدبير المنزل..!

ولو ألقيت نظرة خاطفة على هذه المعلومات، لدلتك على أنهم يجهزون الفتاة لتكون عاملة في المجتمع، وسيدة في البيت تدير أموره، وتشرف على تربية أولادها وتكون نعم الزوج.. ولا يعني هذا حرمان الذكور مما يختص به الإناث؛ ولكنهم قلما يقدمون على هذه الأعمال.

أما الدروس النظرية فيشترك فيها الذكور والإناث، ويدرسون منها الزراعة والتاريخ الطبيعي وتاريخ اليهود والجغرافيا واللغة العبرية والإنكليزية ثم الرياضيات ولعلهم يهتمون بتدريس التاريخ جل الاهتمام..! فمن لا يعرف أمسه، لا يدرك حاضره ولا مستقبله! بل يظل في طفولة مستمرة...

وصلنا إلى جناح (الخياطة) وترميم الألبسة؛ فوجدنا الطالبات (اليمانيات) يقمن بهذا العمل خير قيام، ويشرفن على ترتيب ألبسة الجميع من سكان المؤسسة. فلكل طالب أو طالبة رقم وجارور خاصان بثياب الصيف والشتاء وثياب العمل وثياب الراحة... أما الألبسة فتكوى على الكهرباء.

وكانت رائحة (النفتالين) لقتل الحشرات (والعث) تتصاعد من ثناياها. ولقد مسحت رفوف الخزائن وجميع الأخشاب بالنفط ورشت بمسحوق (د .د .ت) للفتك بالصراصير والهوام؛ كما أسدل على كل خزانة سجف ذات حلقات تنزلق على شريط من المعدن..!

وبجانب هذه الحجرة غرفة كبيرة لغسل الثياب. فترى الملابس و(البياض) قد كومت صرراً على رفوف خاصة عريضة استعداداً لغسلها. وهناك آلة كهربائية لعصر الثياب وبرميل مترع بالماء وأنابيب تصل بين مختلف الأوعية والصهاريج... أما الملابس الرقيقة التي لا تحتمل ضغط الهصر بالآلة، فتغسل فوق أداة معدنية خاصة..! وإذا سألتني كيف لا تختلط هذه الملابس المختلفة العديدة لأكثر من خمسمئة طالب وأستاذ ومعلم..؟ فأقول: إن كل قطعة من هذه القطع رسم على طرفها رقم صاحبها بالخيوط الملونة المغايرة للقطعة.. وإن كل ما يحتاج إلى رفء وتصليح يحال إلى جهته المختصة.

أما النظافة فهي المظهر البارز في هذه الغرف المترعة بالملابس والثياب... ولا تنس أن كل فتاة عليها أن تقضي فترة في هذه الحال، لتتزود بما يصلح من شأنها في حياتها المستقلة.

هذا وليس كل الفتيات في المستعمرة فقيرات يتيمات، فثمة الفنيات، وبنات الذوات أيضاً.! وهل تحسب أنهن يشمأززن من العمل.؟ كلا.! فهو واجب عليهن..!

وما قيمة المرأة التي لا تحسن تدبير المنزل؟. ولئن كانت بعض فتياتنا (النبيلات) يتهن فخراً بأنهن لم يدخلن المطبخ يوماً، وأنهن لا يحسنّ الطهي ولا الغسيل ولا الكيّ، وأن هذه الأعمال من شيم الخدم والعبيد، فإنهن يجهلن رسالتهن في الحياة، وبئس الجيل هنّ أمهاته... وما أشبه الأمة التي تظل نساؤها جاهلات عاطلات - إلا للثرثرة والأزياء والتبرج - كطائر ذي جناح واحد، لا يستطيع مهما عظمت قوته أن يطير، بل يبقى ما بقي محرّمة عليه الأجواء الطلقة والسماوات الفساح..! وإذا كان النسوة يشكلن مالا يقل عن نصف الأمة في الإقليم، فويل لأمة نصفها عاطل وعبء على النصف الثاني..!

ولعل الإنتاج الصهيوني لم يبلغ ما بلغه اليوم لو لم تشترك في سبيله الأيدي النسائية!. وإن النساء المتعلمات الشرقيات اللائي يطالبن بالمساواة، والحقوق السياسية، فيعقدن المؤتمرات، وكلهن هدف واحد ومبدأ واحد وكتله واحدة، لو اندفعن هذا الاندفاع نحو بعضهن بعضاً ليتفهمن الرسالة السامية التي تقع على عاتق المرأة، في العصر الحاضر، لكان عملهن أجدى فائدة وأنبل غاية.. لأن المرأة عندما تصبح عضواً نافعاً في المجتمع سوف تنال تلك الحقوق التي تنشدها دون ضرورة لمؤتمرات وحفلات تسلية تضيع فيها الأوقات بين استعراض أبهج الأزياء والأثواب وأعنف المسابقات لإظهار الجمال وضروب اللهو.! ولو أن نساءنا تفهمن رسالتهن حق الفهم، واقتصدن في جهلهن وخداعهن، لما كان في الإمكان أبدع مما كان..

ثم انتقلنا إلى معمل صغير (للكونسروة) يؤمن حاجات القرية على أتم شكل. ففيه تحضر المربيات والفواكه المجففة والأثمار المكبوسة من زيتون و(مخلل)؛ وفيه تصنع أنواع الشرابات، ورب البندورة والخمور والزيوت كما تخزن فيه الأجبان والبيض والزيدة..!

فأرشدوني مغفوراً لكم، على قرية واحدة في طول البلاد وعرضها، فكر أهلوها بإنشاء مصنع واحد يتيم، يضم شتات ما ذكر..! - صدق الله العظيم - ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [181].

وهناك شاهدنا معملاً واحداً للحدادة فذكرني بالحدادة والصناعة في مدارسنا الفنية الصناعية. تلك التي تنفق عليها الدولة القناطير المقنطرة، ثم تكون نتيجتها، أن

---

[181] - سورة النحل: الآية 118.

يخرج طلابها ليفتشوا عن وظيفة كاتب أو معلم في قرية في المرتبة (12) تحت الصفر.. لأنهم لا يحسنون شيئاً يعملونه قط..!

فأين التوجيه العلمي الصحيح؟. وأين وضع الأمور في مواضعها؟. وقديماً قيل: لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم..! وكان في القسم المقابل لذلك بناء خاص للفنون الجميلة. وهو ما تندر به بعضهم قائلاً: هذه هي الأوبرا الخاصة بنا!. ففيها جميع أنواع الآلات الموسيقية من (كمنجات) و(ماندولينات) وأبواق وبيان و(أراغن).. وقد حليت الجدران بصور كبار مشاهير الموسيقيين أمثال: بيتهوفن، وشوبير، وفاجنير.. وما يجدر ذكره أنهم يفرضون على كل طالب وطالبه أن يحسن العزف على آلة ما، لأن الفنون ترهف الذوق والحس كما يقولون.. ولن يغيب عن ذهننا ساعة وقف مرافقونا وعزفوا لنا قطعة مرتجلة جعلتنا نندب حظنا العاثر، وأيامنا المفقودة؛ حيث لم نتعلم في حياتنا المحترمة سوى طقطوقة الوحوي.. الوحوي..

وهنالك بجانب هذه الحجرة غرفة الإذاعة.. وفيها مذياع وآلة للبث وأسطوانات تتصل بسائر حجرات القرية. ولقد خلنا أن القائم على شؤونها مهندس عظيم، قضى ثلثي حياته في الجامعات والدراسات العلمية الفنية؛ وإذا به طالب لم يتجاوز الخامسة عشرة من سني حياته، وقد تلقى كل معلوماته في القرية..

وبجانب هذه الجناح، مستشفى المؤسسة ومستوصفها ودار طبابتها؛ فيه ممرضات من الطالبات الرعابيب المرفهات . وفيه سرر نظيفة أنيقة؛ لكنها خالية من المرضى، فهل القوم لا يمرضون في تلك البقعة، أم أن المرض يخشاهم، ولا يخترق خطوطهم الدفاعية الحصينة، لحاجتهم الشديدة إلى النفوس والأيدي..؟ لست أدري!؟

وأخيراً وصلنا إلى رحبة واسعة تحت الأفياء. فوجدنا آلات زراعية بينها آلة ضخمة للحصاد والتذرية والتنقية، لم يصل مسامعنا بعد أن في غوطتنا المزيزة الواسعة، أو في سهول حوران الفسيحة العابسة، آلة مثلها؛ ولعلها رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه..!

رياضة تقهر الضعف وفصول مدرسية

هل تخيلت يوماً مدرسة تقوم بين أحضان الطبيعة، في الهواء الطلق، والنور المتألق تحت الظلال؟ وهل تخيلت مدرسة تحيط بها من كل جانب الأشجار الباسقات، فلا تسمع إلا حفيف الأوراق ووسوسة النوافر ترش الزروع..؟ إذن؛ فاعلم أن هذا موجود في (شفيا) وكل ما تخيلته هو حقيقة واقعة..! فثمة في ظلال الصنوبر ساحات للرياضة الحديثة كما

يقولون ويزعمون.. وهي حقاً رياضة غريبة جديدة فليس فيها تمرينات (أسوج) ولا أنظمة عسكرية ولا قيود مدرسية..! فانظر إلى هذا العمود الخشبي المعلق في الهواء..، ففي كل صباح يمر عليه سائر الطلاب والطالبات ليتعلموا حفظ التوازن والاعتماد على النفس..! وانظر إلى ذلك المتوازي والثابت والكرات فهي لألعاب بهلوانية خلاف ما يظنه كل قارئ... وهذه هي الحبال المعلقة بالهواء للطيران بواسطتها بين الأشجار كما يفعل طرزان في أجمته حتماً!. ولقد رأيناهم يقفزون كالقردة من مكان إلى مكان. ويتسلقون الأشجار والأعمدة كالكوماندوس أو كأنهم يتدربون ويستعدون لحرب الأدغال مع اليابان في بورما..!

وقرب المدرسة حوض للسباحة. طوله خمسون متراً وعرضه خمسة وعشرون.. وفيه مكان للقفز خاص، وقد عريت من حوله الأشجار ليكون معرضاً للشمس والهواء، تدفع إليه الماء محركات خاصة من البئر..!

وأخيراً دخلنا فصول التدريس: فهذا فصل للدرس كغيره من فصول المدرسة وليس فيه على سعته مقاعد لأكثر من ثلاثين تلميذاً. فهي ثلاثة صفوف، وكل صف منها يحتوي على خمسة مقاعد، وفي كل مقعد تلميذان..! وهذه المقاعد مجلوّة (مبردخة) جيداً. وفي صدر الفصل لوح يفتح ويطوي، طوله بطول الجدار تماماً. وهنا وكزني صاحبي هامساً: رحم الله أيام (زمان) في مدارسنا، حيث تكتظ الفصول ببني آدم واللحوم البشرية، كعلب الكونسروة أو السردين وحيث تملأ الجو زفرات الطلاب الخانقة وغازاتهم الفحمية التي تمنع أضخم المعلمين وجدانا مسلكياً أن يبلغوا منتهى الصف..!

وهذا هو المختبر العلمي للطبيعة والكيمياء. وهو مجهز بكل ما يحتاج إليه الطالب من أدوات ومواد. فهنالك لوحات خشبية ملونة لجسم الإنسان، ولأنواع الحيوان والنبت والحشرات. وإلى جانب ذلك توجد أنواع عديدة لكافة الأخشاب في العالم، مقطوعة على أوضاع مختلفة. وثمة خزائن لحفظ المواد الكيميائية، ووسائل التحليل، والأنابيب المترعة بصنوف البذور الزراعية. وفيها مجاهر، وحيوانات صغيرة، وزواحف، ومعادن مختلفة، محفوظة في الأوعية الخاصة البلورية.. ويوجد أيضاً جسم الإنسان وأجزاؤه، ثم الأفاعي العديدة السامة وغير السامة. وأنواع العظام للحيوان والإنسان، وخزائن الكتب العلمية والآلات المتنوعة، لتطبيق الدروس وللتجربة..!

وليست هذه الأدوات والأجهزة برسم خداع المفتشين ورؤساء التعليم، أو لتزيين الفصول وغرف الإدارة أحياناً، ولكنها وضعت ووجدت للعمل والتجربة والتطبيق...

وبعد فلا تحسبن أنك في معهد من المعاهد أو جامعة من الجامعات.. لا. بل نحن أمام دار حضانة ومدرسة ابتدائية صناعية للمؤسسة!. وإذا علمت أن للصهيونيين لجاناً ثقافية خاصة بالتوجيه العلمي القومي الملائم، لزال عجبك من وجود هذه المخابر والمتاحف المملوءة بالأجهزة والوسائل التي يتمنى كثير من مدارسنا على اختلافها أن تملك مثلها ..! وإن العمل المنظم الدائب، كفيل وحده أن يخلق ألف متحف وألف مخبر. ولعمري إن قطرات الماء تذيب الصخر..! أما أن ننادي طول الحياة بأن لا استقرار بلا استقلال، ثم نختبئ وراء هذه الأحجية، ونجعلها سبيلاً للتكاسل وحجة للراحة، فهذا ما تأباه الأمم الوثابة، طالبة المعالي..!

وهكذا كان يثور صاحبنا لكرامته وقوميته، كلما شاهد ما يهيج غيرته وفضوله. وكنت أصب على غضبه (دوشاً) من الآمال والتفاؤل حتى يلين ويبتسم..!

وكانت الساعة تشارف الرابعة حينما وصلنا إلى مغنى تحت أشجار الصنوبر، وكأنه صومعة ناسك أو جوسق راهب؛ يقف على بابه الدكتور الفيلسوف مضيفنا منذ الغداء..

وفي خارج المنزل سرير أبيض تغمره كلّة هفهافة بيضاء ناصعة، وترقد تحتها طفلة صاحب الدار، وهي الخلاء حيث النور والهواء والطبيعة. ولما سألنا عن وجودها منفردة هنا.. أجبنا: إنما نقصد بذلك تعويدها حياة الحرية والاعتماد على النفس، ولتترك أمها تقوم بأعباء المنزل وتدبير شؤونه..!

قبضة الصهيونية نزعة نازية ماكرة

كان الأستاذ يقف عن كثب من طفلته يبسم لمقدمنا، فأقبلنا محيين. ثم قدمنا إلى زوجه، وهي ألمانية شقراء، ناضجة حلوة، تظهر من سيمائها علائم الأسى والصبر تجللها مسحة من الرضاء المصطنع خلقتها يد الوحدة والعزلة!. وللوهلة الأولى يبدو على الزوجين الانسجام التام والتلاؤم؛ فمن جانبه هدوء ودعة، ومن جانبها إطاعة ونظام. ولعمرو الله لو كانت عند أحدنا هذه الغادة الأملود، بجمالها وسنها وهندامها، لدلت على زوجها الهرم، ولأصلته جحيماً لا يطاق.. ولربما نشزت عنه في هذا المكان النائي عن العالم وأقلقت المحاكم الشرعية بصراخها وشكواها .. ومن يشك في ذلك فليزر هذه المحاكم ليظفر بأحسن جواب ويقين..! ولكن يبدو أن حسن الاختيار، وتقارب الطباع مع الصبر والحزم، هو ما جعل الزوجين، ينعمان بالهدوء والحياة العائلية المنظمة!.

جلسنا إلى مائدة أعدت لنا، مثقلة بالأواني الخزفية الفاخرة والزبدة والعسل

المصفى والمربى والقهوة والحليب.. وهي مائدة أنيقة سال لها لعاب الرفيق الصالح فشرع يبدي هيامه بها على طريقته الخاصة دون أن يثير حوله الشكوك!.

وقضينا ساعة أو بعض الساعة، نتحادث عن الفلسفة أولاً وهي اختصاص المضيف، ثم عن الفن والجمال.. ثم جرنا الحديث إلى السياسة، وما يتصل بذلك من أحاديث الصهيونية وفلسطين...

ولقد ظهرت آراء الأستاذ شبيهة بآراء تلامذته في (شفيا) صورة طبق الأصل؛ فكأن الطلاب يلقنون أفكار أساتيذهم بالحرف الواحد، وليس هذا غريباً عنهم، فهم يتلقونها علماً وعملاً، بفهم ووعي..! وطفق الأستاذ يبرر قدوم اليهود إلى فلسطين بما قاسوه من عذاب في بقاع العالم، بل حاول كما حاول غيره منذ سنين، أن يثبت بأن الصهيونيين، لن يضروا العرب شيئاً بل سيكونون خير عون لهم.. ثم استشهد بقول (بن غوريون) وتصريحه، بعدم طرد العرب من أرضهم، أو سلبهم حقوقهم، أو مس أرض الفلاح بسوء.. فلقد قال وقرر (بن غوريون) منذ عام 924 بأن مصير العامل العربي لن يختلف عن مصير زميله اليهودي... أما الدكتور وايزمن - كما يروي الأستاذ وعلى ذمته - فقد قال عام 929 بأنه يأمل عند تحقيق الصهيونية ألا يطرد عربي واحد من أرضه..؟ وكذلك الأمر في مبادئ وأقوال (جابوتنسكي).. فهذا يرى أن يحافظ الصهيونيون على المساواة في الحقوق بين كافة المواطنين، بغض النظر عن الدين واللغة والطبقة..! ويرى أيضاً بأن يكون نائب الرئيس في الوزارة الفلسطينية - عند الاستقلال طبعاً - عربياً وعكس الأمر إذا كان الرئيس عربياً فنائبه يهودي..!!

ولقد كنا نعرف أنا وصديقي، بأن هذه الخيالات ليست أكثر من ألفاظ، لك أن تدعوها بالألفاظ المذوقة المعسولة... ولعلهم يطبخون ويركزون القضايا كما يفعل لاعب الشطرنج على رقعته، دون أن يفكروا مرة واحدة، بقبول العرب لهذه الحلول، أو بالحري بوجود يهودي واحد في أرض فلسطين..! ولعل الأستاذ المخدث عرف من وجهينا، صورة التحدي وعدم الاقتناع، فطفق يضرب على وتر آخر تعود أن يعزف عليه كافة يهود العالم فقال، بينما كانت زوجته تصب لنا القهوة والحليب: كيف يستطيع اليهود الحياة في أوربا، في جحيم الاضطهاد والتعذيب، والغضب والتشريد ..؟

إن اليهود كغيرهم من البشر لهم حق الحياة، وإن فلسطين وحدها بلاد واسعة تتسع لمليون يهودي آخر.. وإن في منطقة بئر السبع مليوناً ونصف المليون من الدونمات، صالحة للزراعة والسكنى تنتظر من يعمل!. وهي حل موفق للمتشردين المضطهدين!. إن خمسة

عشر مليوناً من اليهود، يحيون في كل زاوية من زوايا العالم، لن يأتوا فلسطين كلهم، وما دامت حقوقهم محفوظة، بل على العكس فهم سيمدونها بثرواتهم وأموالهم عن بعد .. أما إذا نزلت بهم نازلة، فليس لهم ملجأ سواها، وما من أحد يستطيع أن ينكر استفادة عرب فلسطين والبلاد المجاورة، من الأموال الصهيونية والمشاريع التي نفذت في هذه البقاع.

تخيلوا فلسطين قبل قدوم اليهود إليها، وقيامهم بمشاريعهم الصناعية والزراعية الكبرى.. فقد كانت فلسطين عالة على البلدان المجاورة، تستمد منها الغذاء والكساء والدواء.. أما اليوم.. وفي هذه الحرب الطاحنة.. بعد أن أغلقت أسواق العالم في وجه بلادنا؛ فإن فلسطين وحدها هي التي أمنت قسطاً كبيراً من حاجات البلاد المتاخمة لها!. فنحن نعمل لأنفسنا، ولأبناء عمومتنا العرب، فليعمل العرب معنا .. وليضعوا أيديهم في أيدينا، ولديهم الطريق معبدة، والقدوة الحسنة.. أما المواقف السلبية، فلن تجديهم شيئاً ..

وهنا انبرى صاحبي، كالحصان في حلبة السباق، وضحك ضحكة خشنة، كادت تزعج الزوج المصون، التي احمرت خجلاً، ثم قال بلغته الفرنسية العالية، ناقلاً نظراته بين الأستاذ، والزهرة الفواحة، يستمد من سناها عوناً ومدداً:

على رسلك يا أستاذي.. إن العامل والفلاح العربيين، لم يجنيا مما ذكرته شيئاً، لأن الصناعة والزراعة لديهما ما زالت ابتدائية يدوية.. وإن من يعمل من العرب في هذه الصناعات لا يتجاوز (18000) عامل؛ وليس ثمة مشروع واحد ضخم يضم أكثر من (100) عامل؛ أما رأس مال المشاريع بصورة وسطية فهو بين الـ (500) جنية والـ(600)، بينما نرى أن الصناعة اليهودية، يعمل فيها أكثر من مئة ألف عامل يهودي! فأين هي المساعدة إذن؟.

إن (14) مصلحة حكومية شغلت عام 1942: (103411) عاملاً كان بينهم (90000) عامل عربي مع (30000) عربي في الجيش؛ أما اليهود فلم يستخدموا العرب فقط، حتى لدى ندرة اليد العاملة؛ ويحرم تحريماً قطعياً على كل من يتناول المساعدات من المصارف المالية (كيرين كايمت وكيرين هايسود) أن يستعمل عاملاً عربياً واحداً؛ حتى أن (الهستدروت) لم تستخدم في مشاريعها الصناعية والعمالية واحداً من العرب. وليس في التعاونيات المرتبطة بها عضو عربي.. وعند الضرورة القصوى، في تنفيذ عقودها العسكرية أو الحكومية أو البلدية المستعجلة، تتكرم بدعوة العرب: ولكنها لا تدفع للعامل منهم إلا ثلث أجرة العامل اليهودي، أو نصفها ..

فأين ادعاءاتكم المزعومة عن التعاون مع العرب؟ وهل التعاون يكون بإجلاء أهالي

البلاد الأصليين عن موطنهم لتحلوا محلهم؟. وهل التعاون يكون بتدبير المؤامرات، والكيد للعرب، واحتقارهم وازدرائهم؟.

وهنا أدار الأستاذ دفة الحديث، وعاد إلى نغمة الاستعطاف القديمة فقال:

لم يغتصب اليهود أراضي العرب، بل اشتروها من أثريائهم وأغنيائهم مختارين طائعين.. وكانت جل هذه الأراضي صحارى وبقاعاً قاحلة بوراً، صيرها اليهود حدائق وجناناً.. إن عصا موسى لا زالت في أيدينا، فلئن شق كليم الله البحر لقومه، فنحن نحيي الأرضين لليهود أينما كانوا، في المهجر أو الوطن..

أنظر إلى (شفيا) هذه... وما إن بدأ يتحدث، حتى استأذنه بالكلام تلميذ قدم منذ هنيهة، فقال:

شفيا.. كانت هذه الجنة مستنقعات آسنة، فجاء قبلنا شباب مؤمنون، غرسوا الأوكاليبتوس في أرجائها، وبنوا الأدراج الجبلية، وحفظوا الينابيع، وشجروا الجبال، وسمدوا الأرض، وقلبوها ظهراً لبطن، ونسفوا الصخور، وطردوا الحيوانات المتوحشة؛ لقد مات منهم الكثيرون في هذه البقعة، مات منهم شباب غض، متحمس مثقف.. لقد ماتوا بالحميات، ولدغات الأفاعي، ليخلقوا لنا أرضاً وملاذاً.. لقد أدوا الرسالة، وإنا على آثارهم لمقتدون...

وعاد الأستاذ إلى حديثه قائلاً: أذكر أن قرية (الأعناب) قرب القدس، كانت أرضاً ملحية، لا يعيش فوقها حيوان ولا ينبت فيها نبات؛ غير أن الجهد المتواصل، غسل التراب بالماء مرات عديدة، حتى ذابت الأملاح، ورسبت في الأغوار، ثم أصلحت الأرض وأحييت، وغدت مستعمرة نعتز بها، وقد تحررت من كل ديونها منذ حين.!

وإن تاريخ كل مستعمرة، هو صورة طبق الأصل عن قرية (الأعناب)[182]. ولا تعجب من عملنا الجبار في سبيل الأرض، فلن أذيع سراً إذا قلت: إن كيان الصهيونية برمته قائم على امتلاك الأرض وإحيائها، فالأرض قبل كل شيء هي أملنا وهدفنا الأسمى.. ولا وطن لنا بدونها.. وإن يوماً تمنع عنا الأرض ستصيبنا الكارثة الكبرى، سنعود إلى حياة (الجيتو) والجحيم الأبدي...

إنا نشتري الأرض، ثم نحييها، وسندنا في ذلك معهدان للأبحاث العلمية والتوجيه الفني، أحدهما: معهد الدكتور (وايزمن) في قرية (رحابوت) المحطة الزراعية الكبرى في الطريق بين يافا والقدس، والثاني هو في الجامعة العبرية في القدس.. وتدرس فيهما تربة الأراضي، وخير ما يلائمها من المزروعات والأسمدة.

---

(182) - مستوطنة الأعناب: قريبة من تل أبيب وفيها الآن مفاعلات نووية سرية

ثم استأذن الطالب بالكلام فقال:

أبداً لن نترك هذه الجنان لتعود بوراً.. لقد أسسناها على جثث الأبطال، وسقيناها بدماء النساء والرجال، ونحن فخورون بعملنا؛ فالحياة جهاد متواصل، والبقاء للأصلح..

أجل، كان أولئك المستعمرون الأولون، يحملون أرقى الشهادات العلمية، والدرجات الجامعية، ومع ذلك لم يأنفوا من أي عمل طلب إليهم تنفيذه. لأن هدفهم مقرر واضح وهو إنشاء وطن قومي.. ولن تجد صهيونياً واحداً يتوانى عن خدمة القضية المقدسة التي لم يبصر النور إلا لتحقيقها؛ وإذا كان لا شيء أدعى للاتحاد كالآلام، وتحمل الأوصاب، فإن اليهود أعظم من اتحد في التاريخ لكثرة ما انتابهم من اضطهاد وعذاب، في كل طور من أطوار التاريخ وتحت كل كوكب..

واليوم؛ وقد عاد الأبناء إلى أحضان أمهاتهم، عاد شعب إسرائيل إلى أرضه المقدسة، (باروخ لآدوناي): (الشكر لله)، ليبرهن على حقه وجدارته بالحياة.. وإذا كان شعار اليسوعيين: لمجد الله الأعظم، فإن شعار كل يهودي، تحت كل خافق: لمجد الصهيونية الأكبر..

وزفر صاحبي لضيق صدره، ولسماعه هذه القنابل المدمرة، وزفر الأستاذ وتنهد، واندفع كرة أخرى يزمجر:

أليس جناية ترك هذه البقاع المقدسة، بوراً لا تنفع إنساناً ولا حيواناً؟ هل تعلم أن تل أبيب لم تكن قبل خمس وعشرين سنة شيئاً مذكوراً؟ لقد كانت صخوراً جرداء، لا ماء فيها، ولا نبات، ولا إنسان.. فإذا بها اليوم، مدينة المدائن وعاصمة العواصم.. نعم، ذلك هو العمل المخلص الواعي؛ فانظر إلى أبنائنا كيف يعملون في كل مكان.. هنا، وفي بيسان، والخضيرة، وزخرون.. يجففون المستنقعات، ويفجرون الينابيع، ويزرعون الكينا والصنوبر والسرو، ليخلقوا طبقة أرضية، زراعية، فازرع ولا تقطع، وابن ولا تهدم!.

وعندما كنت أسمعه يندفع في حديثه المؤمن به كل الإيمان، كنت أهيم في عالم الخيال.. فأبصر اليهودي التائه يجوب الآفاق، عقب غضبة الديكتاتور الجرماني، ليحط الرحال في فلسطين، يندب حظه العاثر أمام جدران المبكى،.. ولا يخرجني من خيالي سوى قدح الحليب مع القهوة، تقدمه لي يد فضية بيضاء، ألمح وجه صاحبتها، فأرى فيه خطوط الهم والأسى، تحت قناع الصبر والتجلد، فابتسم، واشكرها بفرنسية مهمشة كفرنسيتها..

◆ ◆ ◆

أيها العربي: هذا حديث من أحاديث كثيرة، تركناها بدون تعليق، لتتفهم عقلية عدوك وحججه وأهدافه ومآربه، وكلها مدمرة...

ولن يسعفك في أزمتك، ولن ينتشلك من هوتك، سوى أمرين اثنين هما تعمير الأرض وتعمير العقل.

فالأول يعمر بالتضحية، والجلد والوعي الصحيح، والثاني يعمر بالعلم والتثقيف والإطلاع.

لا رجعية بعد اليوم، ولا خيال، ولا أوهام. بل صفوف متحدة، وقلوب متآلفة تعمل للعرب، وللأجيال المقبلة.

فعلى المثقفين، والرأسماليين، والمتنفذين، في طول البلاد العربية وعرضها أن يجعلوا خلاص فلسطين من التنين الصهيوني والأخطبوط اليهودي هدفهم الأسمى، وشغلهم الشاغل، وخير لنا أن ننسف الجوامع والكنائس، وأن تزول آثارنا المقدسة، من أن تبقى أثراً يذكر الأجيال بأنه كان يوجد في هذه البلاد شعب عربي، لم يعرف كيف يحتفظ بها...



تحت ظلال الصنوبر

ما كدنا نغادر المغنى، حتى التقينا بلفيف من التلميذات والتلاميذ الدمشقيين، ويرفقتهم بعض اليمانيين والعراقيين واللبنانيين.. وكانوا قد انتهوا من عملهم، فتحلقوا حولنا حلقات، وجعلوا يمرحون ويرقصون ويهزجون؛ وراحت إحداهن تنشد أنشودة لم نفقه منها شيئاً سوى ذلك الصوت الجميل، يتهادى تحت ظلال الصنوبر.

ووقفت شابة لبنانية، كزهرة في أكمامها، لم يفح عبيرها بعد، وتبرعت بترجمة الأنشودة، التي زعمت أنها لشاعرهم الأكبر (بياليك) وقد استخفها الطرب فقالت:

لئن كانت كلمتكم متحدة قوية،
في كل بلد، وفي كل مكان،
فإن البرقع الأسود سينحسر ويسقط،
وسيرتفع بديله حجاب نير أبيض...
وهناك، حينما يحين الحين، وتقع الواقعة،
سيلبي النداء كل فتاة وفتى قائلين:
نحن من يبني دنيا جديدة...

ثم جلست فانيرت شابة قائلة: أستاذ، إنها لم تترجم المقطع الأخير؛ اسمعوا:

ولتنسني يميني إذا نسيتك يا أورشليم...

وما دام العالم أجمع ينتظر فرج الرب لإعادة شعبه إلى جبله المقدس،

فإن شعب إسرائيل حي.. إن شعب إسرائيل لا يموت...

وكانت الوجوه الباسمة تتحدى التشاؤم، وتصغي بهدوء إلى الأنشودة الممتلئة أملاً وتوثباً، وما كادت تنتهي، حتى عاد الجميع إلى المرح، وعبق الضحكات الرنانة، مما ينسي متاعب العمل، ومشاق النهار الكادح، ويضفي على النفس أملاً بمستقبل رحب رغيد.

وليس أبهج لأنفسهم من أن يدنو أحدهم من حرج الصنوبر، فيومئ إلى شجرة ويقول: هذه شجرتي.. لقد غرستها بيدي، وتعهدتها بنفسي، وهي رمز عملي ونضالي. ثم يشرحون لنا كيف ينظفون الأرض من أحجارها، وكيف يقلعون صخورها بإحدى ثلاث طرق: بنسفها بالديناميت، أو قلعها بجرارات ضخمة أو بربطها بالثيران، أو بطريقة الأقسام المجزأة، على فترات زمنية..

ووصلنا إلى ناحية منعزلة عن القرية، وكان أول ما صادفناه حجرة الألبان، وكانت جدرانها من البورسلين النظيف الأبيض، وأخشابها مطلية بالدهان الأبيض أيضاً؛ وعلى النوافذ (مناخل)، وفيها مفرزة يدوية لفصل الزبدة عن اللبن؛ وكانت الألبان موضوعة في أوان من الألمنيوم محكمة الغطاء، وترى أكياساً ملأى باللبن لصنع الجبن، معلقة فوق حوض خزفي أبيض، تتجمع فيه البقايا من اللبن الخفيف، والأمواه المنسابة، التي تؤخذ طعاماً للدجاج بعد مزجها بالنخالة.

وقال أحد الطلاب: وغداً.. عندما نغادر شفيا آسفين، نحمل العلم والمعرفة والخبرة.. سوف نؤسس مستعمرة، ننقل إليها كل ما اقتبسناه في هذه الربوع، وسننشئ حجرات خاصة للألبان والأجبان كما ترون، وللزبدة أيضاً.. الزبدة الشهية المعقمة.. التي لن تكون عرضة للجراثيم، وبؤرة للأمراض..

فلم نعره اهتماماً، شأن كل عربي يضايقه نجاح خصمه...

أبقار يحسدها الإنسان

ووقف الجميع مستبشرين أمام إسطبل البقر؛ وهو إسطبل فني كالذي قرأنا عنه في كتبنا، وشاهدناه في قواميسنا، والشهادة لله...

فسطحه شاهق، تنير ظلماته نوافذ عالية، واسعة، تسترها (المناخل) وأبوابه واسعة

أيضاً، وأرضه من الإسمنت المائل، فيها مجار متساوية الأبعاد، ينساب فيها بول الحيوانات إلى ساقية صغيرة جانبية.. والإسطبل مقسم إلى أجزاء متساوية، في كل قسم بقرة بين حاجزين من الحديد، وهي مربوطة من رقبتها بسلسلة لا تعوقها عن الأكل.. وهذه السلسلة مربوطة بعمود حديدي أفقي عالٍ.. وفي كل قسم لوحة كتب عليها اسم البقرة المحترمة..

وكان الطلاب ساعتئذ منهمكين في الاستحلاب، وقد أمسك كل واحد بين رجليه سطلاً، وجلس على كرسي من الخشب، وراح يحلب البقرة، لينقل اللبن بعد فترة إلى المحال الخاصة، وكان بعض الطلبة ينظفون الحجرات التي انتهوا من الحلب فيها، فيفرشون التبن، ويوزعون الماء والغذاء، على البقرات العزيزات..

ووقف صاحبنا مطرقاً خاشعاً أمام هذه الإسطبل، ينظر إلى الأرض مرة، وإلى البقر ثانية، ويقول: ألا يتمنى كثير ممن نعرفهم أن يناموا هنا في هذا الإسطبل؟.

أليس هذا الإسطبل مرتباً ونظيفاً وصحياً أكثر بكثير من ألوف البيوت في قرانا التعسة؟ ألم يشاهد هو في حوران أكواماً من الأحجار، قيل له إنها بيوت الفلاحين، وملاذ الحورانيين!. فهل يقول إن بعض فلاحينا لن يصلوا إلى مرتبة. البقرات التي يراها الآن بعد عشرات السنين.. وإذا كانت البقرة محترمة ونظيفة أكثر من الفلاح، فأي قيمة للكرامة البشرية، وما عمل وزارات الزراعة من أقصى (أصوان) إلى أقصى (منقار البطة)[183] إذا ما ظل الفلاح جاهلاً عارياً حافياً، نطلب منه الواجبات، وننئي عنه الحقوق؟ وهل تنجح أمة تسعة أعشارها يكدح لعشرها.. وهي لا ترتفع إلى مرتبة البقر؟ أليس هذا مما يثير النفس، ويدعوا إلى الكفاح والنضال في سبيل رفع هذه المواشي البشرية إلى مرتبة الناس العائشين في القرن العشرين..!؟.

ثم كاد يخرج عن جلده من الغيظ، وتابع قائلاً: لا.. لا، يا قوم! لا نجاح لنا بالخطب الرنانة، والمقالات الزائفة، والاجتماعات والمؤتمرات التي لا تنتهي إلا إلى نتيجة واحدة، هي اتفاقنا على أن نبقى متفقين أمام هذا الفلاح الكادح، في صبارة الشتاء، وحمارة القيظ، نستغل تعبه، ونمتهن كرامته؛ ونستعبد زوجه وولده، ونشيح عنه بوجوهنا، لئلا يوسخنا بنظراته، ثم نعلم أولادنا: احترموا الفلاح... شيء بيفلق..

ولنترك هذه البقرات المثيرات للشجون، ولننظر إلى دار التوليد.. وحذار أن تحسب

---

(183) - يقصد مدينة أسوان المصرية وكانت حسب رأيه آخر بلاد العرب جنوباً، وشمالاً العراق وعربستان التي شبهها بمنقار البطة بالنسبة لخارطة الوطن العربي

أنها لتوليد البشر.. لا، لا! بل هي خاصة بالبقر.. وهي مكان واسع غطيت جدرانه بالبورسلين الأبيض الناصع، مقسم إلى حجرات مستقلات، تتسع كل حجرة لبقرة واحدة حامل، ويجانبها جناح خاص لإرضاع العجول الصغيرة؛ ريثما يشتد عضدها.. وفي الجدار الخارجي لدار الولادة السعيدة، أحواض تردها البقر يتدفق ماؤها نقياً، من صنابير ضخمة، يحيط بها حواجز حديدية قوية.

وهنالك إسطبل لثور هائل ضخم، أنسانا ثيران غوطتنا التي نعتز بها، ونحسبها مكتنزة شحماً ولحماً.. أما هذا فجسمه مكسو حقاً باللحم، لا تري له عظماً بارزا، ولا ذباباً يتطاير حوله من كل جانب، ولا يطين جلده روثه، بل تراه نظيفاً، مرعرعاً، مستعداً لكل طلب.. ولعله (ثور إنسان) فهو يفهم الكلام والإشارات.. وما عليك إلا أن تقرع له الحديد مرة واحدة حتى يخرج رأسه، ويطل عليك، ومرتين فيخرج ليزور خليلاته البقرات، ومحظياته المحبوبات، وثلاثاً ليرد الماء، وأربعاً ليعود إلى قاعدته بعد طول جهاد..

وكان بجانب مملكة البقر، إسطبلات الماعز، ثم الضأن؛ فثمة ترى الأوعية الخشبية مثبتة إلى الجدران، مترعة (بالنخالة) مع قطع (الخرنوب) الذي تكثر أشجاره هنالك، ويوجد كذلك آلة يدوية (لجرش) الخرنوب، وعرانيس (أمطار) الذرة.. وفي أقصى القرية، منارة عالية، بشكل متوازي المستطيلات، وهي أنبار معدة للحبوب المعقمة بأبخرة (الهيدروسيانيك) حفظاً لها من الحشرات والعفن..

وعن كثب من كل ذلك خمَمة الدجاج. وهي (أقفاص) ثلاثة واسعة جداً، مرتفعة عن الأرض، صنعت من الأسلاك الشبكية الحديدية، فيها آلاف الدجاج الأبيض الصحيح، لا سوداء واحدة بينها... وعلى جوانبها علب صغيرة، لينحدر إليها البيض. وتسقى من بركة، في وسطها نافورة، يتجدد ماؤها دون انقطاع.. والبركة نفسها ذات أسلاك، ابتعدت عن بعضها بصورة متساوية، حيث تجتمع في القمة، وكل دجاجة تدخل رأسها من شق بين سلكين، لئلا تتعدى واحدة على أخرى.. أما الديكة، ففي جناح خاص، ينظرن الدجاجات ويرددن قول القائل: يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام...

وانبرى الطالب المكلف بتربية الطيور والدواجن، يحدثنا عن أولاده الدجاجات، وأفلاذ كبده الديكة، بحماسة شديدة.. فحدثنا عن حياتها الميمونة، وصحتها الغالية، وعدائها وأمراضها، وإنتاجها المتفوق، وكيف إن الدجاجة استطاعت أن تبيض عنده مئتي بيضة تقريباً في السنة؛ وهي سليمة من كل مرض. ثم ذكرنا ببنات آوى التي تهاجم أطفاله

بالليل، وصوتها كمواء آلاف الهررة ولكنها لم تستطع حتى الآن أن تقتنص واحدة منها، لمتانة الدفاع... ولن تستطيع!.

مشتل ومطبخ

وقادنا الطلاب بعدئذ إلى مشتل القرية... فرأينا الأستاذ المكلف بإدارته يعمل بنفسه؛ وهو قدوة حسنة لطلابه، وحبذا لو سمع بذلك إخواننا المعلمون.

والمشتل عبارة عن بهو زجاجي كبير، ذي نوافذ متحركة، وفيه آلة نفاثة للبخار في أنابيب موزعة داخل المشتل، لتعدل الحرارة في الشتاء؛ وفيه ما شئت من الشتل والزهر والعشب، وهو حقل خاص بالتجارب وتحسين الأنواع، أتت بأبهر النتائج..

ولا يغربن عن بال القارئ أن كل مستعمرة، أو مؤسسة صهيونية، تسعى جاهدة لاكتشاف طرائق جديدة زراعية أو صناعية، لتعممها على سائر المستعمرات؛ ورحم الله زماناً كان العلم فيه محتكراً عند طائفة من الناس، حتى إذا لقوا وجه ربهم رافقهم علمهم واندرس بموتهم!. وتلك لعمري وصمة عار في جبين الأمانة العلمية، ونحمد الله على أنها في طريق الزوال..

وأقبلت تلميذة مغناجة تمشي على استحياء وتقول: ألا تريدون أن تزوروا مملكتنا الصغيرة.؟ فتساءلنا عم تكون تلك المملكة التي تديرها فتيات يستسلم لهن كل جبار عنيد..! وأخيراً، علمنا أنها تقصد دنيا المطبخ، وعالم الطهي..! وليس ألذ لصاحبي وأمتع من هذه المشاهد المقبلة... فما كاد يدخل المطبخ حتى بدأت خياشيمه ترقص (الرومبا) وتتحرك لتستنشق عبير الأكال والأطعمة المختلفة. وكان المكان نظيفاً جداً، تدار أعماله بالكهرباء. أما أوانيه فهي من الألمنيوم بلا استثناء. وتشرف على أموره امرأة بدينة قصيرة وسيمة؛ تساعدها تلميذتان تتعلمان الطهي والتدبير المنزلي، حسب دورهما في الدراسة. ولقد شاهدنا في أرجاء المطبخ، قدوراً لطهي اللحم وأخرى لتسخين الماء، فترتفع حرارتها، حسب الحاجة إلى نوع الطعام ودرجة نضوجه، وذلك بمساعدة أرقام موضوعة على قرص يشير إليها سهم يدار بلولب. وثمة مقلاة كبيرة جداً تسخن بالكهرباء، وأدوات لطهي الأطعمة القليلة، وبراد كبير لحفظ الفواكه والأكال وتثليج الماء، ومكان خاص لتسخين الأطعمة الباردة على الغاز. وهنالك بيت مؤنة تستند إلى جداره صناديق خشبية مطلية بدهان أبيض، وقد خصص كل قسم منها لنوع من الحبوب والأملاح والتوابل. ويوجد إلى جانب ذلك أخصاص على شكل مكعب ذات رفوف مثقوبة لحفظ البيض، وخزائن لحفظ

أدوات المطبخ وصحافه وزجاجه، وأمكنة أخرى لوضع الخلاقين اليدوية والقدور، ذات رفوف من المعدن.. بجانبها أحواض مختلفة تصب عليها صنابير ماء فاتر وبارد حسب الحاجة، وذلك لأنواع الأدوات المتباينة عند غسلها.. فهذا حوض تغسل فيه الأدوات الخزفية فقط، وذاك للزجاج والبلور، وتلك الأحواض للأواني المعدنية الملطخة بالدسم، وغيرها للملاعق والسكاكين والشوكات..!

وهنا تحسر صاحبي وتأوه، وهو يقضم (خيارة مكبوسة) قدمتها له المرأة الطاهية، ولعلها أعجبت ببطنه المنتفخ وعينيه الجشعتين إلى الطعام، أكثر من الأفكار التي يحملها في رأسه... ولعله هو آسف أيضاً على أنه لم ير في مدارسنا الثانوية ولا جامعتنا المبجلة حتى الآن، مطبخاً مثل هذا المطبخ، على الرغم من أن الحكومة بوزارة معارفها لا تعجز عن خلق مثله، ومثل موظفيه، ومثل أدواته المكهربة، وطهاته النظيفين...! ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه... والصبر طيب...

وكان بجانب المطبخ مخبز (فرن) على الفن الحديث؛ يحمى بمحركات نفاثة للهب (المازوت) بمعايير تبين درجة الحرارة والضبط وشدة النار، خلاف ما نشاهده في مدينتنا المحبوبة.. وقد أحيطت جدرانه وأطرافه بالخزف الناصع؛ وفيه معجن فني يدار بالكهرباء، وآلة لقطع العجين، وخزائن يبيت فيها الخبز ليلة، ليجف ماؤه ويصلح للمعدة. ولقد حسبنا هذه الخزائن النظيفة الأنيقة للثياب، لولا أن تنبهنا إلى وجودها في بهو (الفرن)..!

وكانت الساعات تمر مر السحاب، من دون أن نشعر بالوقت الآفل..! وفجأة وقفنا أمام بناء حديث جميل الهندسة والتركيب، حسبناه لأول وهلة إحدى بنايات هوليود الهارية، أو القصر المسحور للست بدور الذي حدثنا عنه قمر الزمان وولده شركان في ألف ليلة وليلة...

وسألنا عن البناء وساكنيه، فإذا بصديقتينا تضحكان وتجران بيدينا إليه، وإذا به خدر الإناث الخاص وقصرهن المنيف.. وكان قصراً برتقالي اللون تطل شرفاته الفسيحة، على أشجار الصنوبر والسرو، وحديقة المؤسسة العامة المترعة بالزهور..! وعندما ولجناه فوجئنا بحجرات واسعة، وأسرة نظيفة، تنافس ما للذكور وتكتسحها نظاماً وترتيباً وتأنقاً، ولا غرابة في ذلك، فنحن في حمى الإناث، ولعل الأناقة البادية على الأثاث ونظافته، يعود الفضل فيها إلى يد المرأة السحرية قبل كل شيء..!

وطفقن يريننا بعض الأشغال النسائية... وكان أدهشها تلك السلال والأكياس

والحشايا، المصنوعة من بقايا الأثواب، ومزع القماش المقصوص، حتى لا تضيع سدى دونما فائدة. وشاهدنا خزائن الأحذية الخاصة بكل حجرة، وكأنها خزائن (التواليت) في غرف الغانيات، حتى لقد همس صاحبي في أذني: وما رأيك في هذه الخزائن..؟ ألا ترى أنها أنظف وأجمل من خزائن ربات البيوت في منازلنا ...! قلت بلا ريب، وفي فمي ماء.. أما خزائن الثياب، فقد رصت على رفوفها وفي جواريرها الملابس التحتية وغير المكواة؛ وإلى جانبها تلك الأكياس الأنفة الذكر، ليضمن فيها أدوات الزينة والصابون وفراشي الأسنان..! وعندما خرج صاحبنا من زيارة الحمام المفروش (بالبورسلين) سألهن ممازحاً: هل يردن العودة إلى الشام..؟ فأجبن كما أجابنا الذكور، بصوت واحد، فيه إغراء وفيه فتون: لا ..لا .. أبداً، لن نعود إلى حياة الكسل والخمول.. لن نعود أرقاء عبيداً في دورنا ... ومن الوفاء لهذه الجمعية التي خلقتنا خلقاً جديداً، وبعثت فينا روح العمل والكفاح أن نؤدي الرسالة التي حملتنا إياها ..!

لقد مضى عشرون عاماً على هذه المدرسة الريفية، وهي تخرج الشبان والشابات فكانوا نعم العناصر الطيبة العاملة الواعية في بناء المستعمرات المختلفة، وإنا على آثارهم مقتدون...

قل كلمتك وامش

لم نر في طول هذه المدرسة أو المستعمرة الصناعية الزراعية الكبرى، ناظراً أو معيداً، أو مراقباً ..! فكأن كل واحد من الطلاب والشباب والمعلمين رقيب على نفسه.. ورحم الله امرأ عرف حده فوقف عنده..!

أبداً... لم نسمع ضجيجاً ولا هياجات ولا حركات؛ فكأن النظام الحازم، يقص أذناب البشر المتوحشين الجهلاء، ويبتر أظفارهم بتراً. فلا احتجاجات ولا تظاهرات تقام ثلاث مرات في الأسبوع، لتضيع على الطلاب الوقت الثمين؛ ولا اضطرابات في سبيل اللوائح والقوانين المدرسية.. بل هنالك: عمل وعلم ونظام. وإن يوماً يستتب فيه النظام في مدارسنا، ويدخل في عقل الطالب، إن مهمته في الحياة، هي الدرس والبحث، وترك السياسات لأربابها، وأنه يسدي أجل خدمة لوطنه على مقاعد الدرس، لا في الشوارع صارخاً صائحاً: ليعش فلان وليسقط فلان.

إن هذا اليوم هو رجاؤنا وأملنا المكين، لأن نجاحنا ونجاح أوطاننا في طيه. وإنا لنعتقد مخلصين بأنه سيخلق ساعتئذ جيل واع هو مناط الأمل ومعقد الرجاء. إن الطالب

في المدرسة الابتدائية أو الثانوية أو الجامعة هو إنسان (بكر) عزيز النفس أبيها، فمن الجرم أن يكون ألعوبة في أيدي غيره، يحركونه حسب شهواتهم ومآربهم وميولهم، قبل أن يكون له رأي شخصي، صادر عن وعي وفهم ودرس...

فليكن حراً مستقلاً، لا يفكر إلا بفكره، ولا يعمل إلا برأيه، لا برؤوس الآخرين وأفكارهم ونفوسهم، لئلا يغادر المدرسة وقد فقد أعز أمانيه وأثمنها، الا وهي: الشخصية، وتلك وربي نكبة الأوطان منذ ربع قرن حتى اليوم..!

◆ ◆ ◆

أيها العربي :

لقد بسطنا أمامك صورة جد موجزة عن (شفيا)؛ هذا الميتم الصهيوني الذي يضم شتات أبناء اليهود من سائر بلاد العالم، وأنك لم تر فيه مدرسة، بل مستعمرة كبيرة مترامية الأطراف، تهيئ فتيان صهيون وفتياتهم، للغد الحافل بجلائل الأعمال؛ وسترى في كل مستعمرة، صورة متكررة (لشفيا) لصنع الشبان والشابات، الذين يحملون رسالة الصهيونية:

وإذا كان العرب قد قاموا بإنشاء مزرعة (دير عمرو) لأيتام المجاهدين، فأكبر ما نخشاه، أن تبقى التجربة فردية، ولن تكون سلاحاً فعالاً، إلا بالكثيرات من أمثالها..

إنا نؤمن بكل جوارحنا، إن لجنة التحقيق الأنجلو - الأميركية قد تحل القضية الفلسطينية، وقد تقف الهجرة عند حدها، وقد تحظر بيع الأراضي، وقد تشل المقاطعة العربية اقتصاديات الصهيونيين، ولكن هذا لن يدوم، ولا يمكن الركون إليه، ما دام في فلسطين صهيوني واحد؛ فقليل اليهود ليس بقليل، وإن لهم أساليبهم وأحابيلهم الماكرة اللئيمة، ولن نفل سلاحهم، ونردهم على أعقابهم، إلا بسلاح العلم وإنشاء أمثال (شفيا) أو بمضاعفة نموذج مزرعة (دير عمرو)، وأن نرفع مستوى القرية العربية، ونكثر من العلم بجانب العمل، وأن يحيا الفلاح والعامل العربيان. بجسمهما وعقلهما وروحهما في القرن العشرين.

أموالهم تخدم قضيتهم . . .

أما أموالنا فـ ؟

لم يطب لنا النوم عقب العشاء، رغم أتعاب النهار؛ فجلسنا للسمر تحت أشعة القمر؛ وكان فيلسوفنا الشاب مضطجعاً على العشب، ينظر إلينا بعينين ممتلئتين فحصاً وسبراً..! لقد كان يوجس شراً من زيارتنا؛ ولولا بقية احترام لأستاذه القديم، وحب للعلم متأصل في نفسه، وميل للظهور كمحدث بارع ومطلع مثقف، لما أجابنا على سؤالنا قط..! ولعل كل يهودي في فلسطين يضن بالمعلومات القيمة عن نشاط الصهيونية وتنظيماتها، وخاصة إلى العرب..!

جلسنا وحولنا بضع فتيات ناعمات، ونفر من الفتيان الساهرين، نستمع إلى هذا الشاب العالم، ينثر علينا من معلوماته الشيء الكثير.... قال:

تسألونني.. من أين تجمع الصهيونية الأموال، وتؤمن الموارد الضخمة، لتحقيق مشاريعها الجبارة..؟ سؤال بسيط، ولكنه واسع متعب للذهن..! وقبل أن أشرح ذلك، أعيروني انتباهكم لحظة.. كيف تودون الاستقلال والخلاص من ربقة الانتداب، والجهل، والفقر، دون مال..؟ إن المال عصب العمل والإنتاج والرقي.. وهو قوام الحياة والاستقرار والاستقلال.. فأمن رفيقي على كلامه بهزة رأس.. وتابع الشاب قوله كالحالم:

أبداً.. لن يكون هناك استعمار صهيوني، دون مال وموارد مستمرة دائمة..! وإذا كانت الدول المنظمة ـ كما تعلمون ـ تعتمد في تغذية صناديقها وخزائنها، على وارداتها وضرائبها؛ فإن اليهود ليسوا دولة بعد.. بل هم أدنى من الدول المنظمة بكثير. إنهم منتشرون في سائر بقاع العالم، ولا سبيل إلى الجباية منهم، ومع ذلك، فيجب تأمين المال لاستعمار فلسطين وإنشاء الوطن، أليس كذلك..؟

فهز الجميع رؤوسهم صامتين.. ونعق بوم حينئذ من بعيد، بين أشجار (الأوكاليبتوس)، فضحك بعضنا وتشاءم الآخرون.. أما أنا فهمت في عالم غامض وكلي آذان صاغية.. ثم عاد الشاب يتمم حديثه:

ولـذا فقـد لجـأ قـادة الحركـة الـصهيونية منـذ فجـر النهـضة إلى الاشـتراكات الاختيارية. فهنالك حاجات للإنسان تتطلب نفقات مستمرة دائمـة: كالتعليم، والمساعدة الاجتماعيـة، والإسعاف الصحي والطبي.. و.. أفـلا تـرون أنـه لـولا الموارد الـوافرة، والمال الغزير لما تأمن كل ذلك؟ إن نظرة واحدة تلقى على انتشار اللغة العبريـة، وخـلاص الأهلـين نهائياً مـن الملاريا، والتراخوما، تكفـي لتقـدير النفقـات الجبـارة في هـذا السبيل. وهنالـك نفقات أخرى خاصة بالصهيونيين دون غيرهم..! ألا وهـي البذل في سبيل تهيئة المهاجرين ونقلهم إلى فلسطين، وإيجاد عمل لهم..

فـلا يمكن أن تنجح الحركة الصهيونية دونما إنفـاق وسـخاء. فالمال عصبنا - كما ذكرت - وهذا ما آمن به الرعيل الأول من زعمـاء الصهيونية في فجـر نهضتهم. فقد رأوا أن نجاح الحركة ومستقبلها، يتوقفان على درجة تضحية الشعب اليهودي؛ فأسسوا تلك المصارف الكبرى المشهورة، فكان في الطليعة: (المصرف اليهـودي الاستعماري) وغايتـه..! وهنا... زفر المحدث وكأنه يستعرض نضال إسرائيل التائه منذ آلاف السنين.. ثم قال: لقد كانت غاية هذا المصرف سياسية أكثر منها مالية؛ ولذا فقد ظهر فيما بعد عدة مصارف نحت نحو ذات الأهداف، وهي التي دعيت بمصارف: (الأنكلو بالستين).

وقد أسست هذه المصارف عام 1905 وجعلت إدارتها في (لندن) أما فروعها فكانت في القدس وحيفـا ويافـا وصـفد وطبريـا... وهـي بمثابـة إدارة الهيئـة الـصهيونية العمليـة الفعلية..!

ولست أنكر ما لهذه المصارف من امتيازات وفوائد هامة، في تقويم حركتنا؛ غير أن هنالك مؤسستين عظيمتين جداً، هما قلب الصهيونية النابض بحق، أولاهما: (البنك الملي اليهـودي)، وثانيتـهما: (الكيريـن هايـسود). وفجـأة..! زقزقـت فتـاة بغـنج ودلال..! فقـد (زغدها) فتـى كان بجانبها، فلم تحمل لذة العبث الخفـي، فانفجرت على الرغم منها، تتلوى وتتـأوه، ممـا أذهلنـا وأدهـشنا..! بيد أن الـشاب لم يتحـرك مـن موضعه وهـو يبتلـع ريقه... وهنا نظر إليّ صاحبي، ليؤكد لي ما قلته له في النهار، وهو أن الإباحية تجري في عروق (الصهاينة) وشرايينهم، كما يجري الربا في تلافيف أدمغتهم.. هـذا وقد ابتسمنا للنكتة على فرض أنها نكتة، وران على الجميع الصمت؛ ثم عاد الشاب إلى حديثه: لقد تأسس المصرف الملي اليهودي عقب اقتراح الأستاذ (شابيرا) عام 1879 في سبيل تأسيس مصرف، غايته إيجاد رأس مال دائم، يكون ملكاً للملة اليهوديـة؛ ويستخدم في الغـرض الأسمى للصهيونية وهو شراء الأراضي الفلسطينية...

ـ وتمتم المحدث بصوت وئيد: وأرجو معذرتي في هذه التصريحات، فقد تكون مؤذية للعرب، لأنها تبين مدى استعدادنا وتعاضدنا، غير أني أقرر لكم ذلك كأمر تاريخي علمي..! فابتسم صديقي ابتسامة صفراء أو خضراء، وكلت له مثلهما.. وتابع الشاب حديثه:

وبعد، فقد اشترطوا ألا يمس رأس ماله، حتى يبلغ مليون شلن أو خمسين ألف ليرة فلسطينية، وعلى أن يبقى نصف هذه القيمة في المصرف..!

غير أنه في عام 1904 سجل هذا المصرف باسم (كيرين كايمت لإسرائيل) وعهد بأمواله إلى المصرف اليهودي الاستعماري. أما أمواله فتجمع من استعمال الطوابع البريدية الخاصة الإضافية، التي تلصق برسائل الصهيونية، كما تجمع من الدعوات، والهبات الاختيارية، ومما يدفع لقيد أسماء الأفراد، والجمعيات في سفر الذهب، أو ما يدعى بالعبرية: (سفرها ذهاب) وذلك عند كل ولادة أو زواج أو ختان..! ولليهود كما تعلمون أساليبهم الخاصة..

ثم سعل الشاب، واعتذر عن التطويل الممل، وقفز مسرعاً إلى قوله:

ولعل المؤسسة المالية الثانية، أو العظمى، واسمها كما قلت آنفاً: (الكيرين هايسود) أو إن شئت فقل: شركة بناء فلسطين، هي أخطر ما يفاد منه في فلسطين!. فإن هدف هذه المؤسسة هو تأمين النفقات الاستعمارية كلها، وخاصة نفقات المستعمرات الزراعية. وقد لاحظتم أن (الكيرين كايمت) هي لشراء الأرض الفلسطينية، كيما تغدو وقفاً على الأمة اليهودية بأسرها.. بينما هذه للإنفاق العام؛ فينتهي عمل الصندوق القومي الأول حيث يبدأ عمل الصندوق الثاني...!

ولعلني لا أخطئ إذا قلت إن مصير الوطن القومي يتعلق بمقدار ما يدفعه يهود العالم إلى هذين الصندوقين، فمستقبل الشعب اليهودي، منوط بدرجة وجدانه القومي، وبفكرة التضحية المالية لديه لتأمين موازنته. وهنا همس رفيقي قائلاً: أما نحن العرب، فكل ما يقدمه المخلصون من الأموال هو: شيكات هائلة، من الخطب والنقد والمواقف المسرحية الشهيرة..! ولا حول ولا ... وتابع المحدث:

وإن هذه المؤسسة المذكورة تشترك في كل المشاريع الخاصة أو الاجتماعية ذات الصبغة الاستعمارية أو القومية: كبنك الرهونات، وبنك العمال، وجمعية الإنشاءات التعاونية؛ وشركة كهرباء روتمبرغ وغيرها..! ففي اشتراك (الكيرين هايسود) في أمثال هذه المشاريع، إنما تستهدف أهدافاً تجارية بحتة لأن جميع الأموال التي تغذيها، تدر لها ربحاً

وفيراً؛ ثم تعاد إليها..! وهذه الأرباح لا تعود إلى جيوب الأشخاص أبداً؛ بل إلى صندوق (الكيرين هايسود) ذاتها فيزداد رأسمالها، وتنمو مشاريعها الاستعمارية والقومية... وهكذا تعمل بقية صناديقنا..

وهنا تثاءبت فتاة نجلاء العينين، ناهدة الثديين، ذات عجيزة (ومدوّرات) يتلمظ عليها أضراب الرياشي التائه، وصاحبنا المفتون، من عشاق الجمال أينما وجد... ثم قامت تتمطى وتعتذر، فقد كحل النوم مقلتيها بالسحر، ولم يعجبها الحديث العلمي؛ فساحة معرفتها لا تتعدى المزرعة أو (الكيبوتس) وربما لا تتعدى لطائف ذلك العبث (والنكش) و و.. مما يحبذه أبناء صهيون..!

وما أن ابتعدت، حتى لحق بها آخر، وقد جفت شفتاه، ولعل النوم كحل مقلتيه كذلك؛ وغابا بين جذوع الصنوبر في ظلمة الظلال، تحت نسيج واهٍ من خيوط الهلال تكاد لا تبين...!

وشرع صاحبنا يتنهد ويكبت غرائزه وميوله.. بينما رحت أسأل الشاب وقد اعتدل في جلسته: وهل تجمع الأموال كلها من فلسطين أم من الخارج..؟

فأشار بيده متمهلاً وقال: لا جدل في أن منابع المال ليهود فلسطين، هي من الصناديق العامة أو من الصناديق القومية التي ذكرتها آنفاً.. غير أن هذه المنابع قد تكون من الخارج أحياناً، تصلنا مع أصحابها أو ترسل من قبلهم، بينما هم يظلون في بلادهم. وقد تكون أيضاً ناجمة عن فيض الأموال الموظفة في فلسطين، بسبب أعمال المؤسسات الآنفة..! لكنا لا نعتمد قط على ثروات المهاجرين، منهما كانت ضخمة، ولا على الملايين المكدسة، التي يرسلها من الخارج، يهود مثرون، فكلها في عالم الريب إذ من الممكن أن ينقطع واردها بين ليلة وضحاها..! فرؤوس الأموال الأجنبية تختلف عن القومية كما ترون، ولا يمكن وضعها موضع التداول إلا إذا أمن أصحابها على أرباحها في فلسطين. لأن المشاهد، هو أن اليهودي ويا للأسف، مهما تحمس لوطنه، ومهما حركه الشعور النبيل، فإن اعتماده في البذل قبل كل شيء هو على الربح..! بيد أن الأموال المستخدمة في فلسطين قد لا يرجى منها خير أحياناً، وقد يأمل الفرد منها ربحاً آجلاً، أو غير كاف أو بين بين..! وإن أشد الصهيونيين حماساً وغلواً، لا يرغب في توظيف أمواله، دون ربح أو فائدة مضمونة. ولذلك فإن الجهود ستكون هائلة في سبيل جمع المال وتوظيفه، وإرضاء الشعب المتمول وغير المتمول ليظل على منهاجه في البذل.

وعلى الرغم من أن المؤسسات تفيد كثيراً من شتى النواحي المذكورة، وتزيد مواردها لتأمين الموازنة اليهودية، فإن هنالك حاجات تبتلع هذه الموارد وتذريها؛ كالحاجات التي تشكل أساس الاستعمار الزراعي في فلسطين؛ وبكلمة أوضح، أي: إنشاء المستعمرات الزراعية...

◆ ◆ ◆

وهنا.. انفرط عقد الجمع، وتسلل واحد تلو الآخر أو الأخريات، حيث لم يبق سوانا مع صاحبنا الفيلسوف الشاب، وهو جالس على العشب لا يتحرك إلا قليلا، دون أن يغير جلسته أو يقطع حديثه الطريف.. وقال بينما كان يمضغ قشة من الكلأ الجاف:

على أن رؤوس الأموال الخاصة، لن تغريها أبداً..! ولو استندت إليها فقط، لأفلست هذه الأموال والمشاريع على السواء. بيد أنه لولا الزراعة، لما نشأ وطن قومي صهيوني، ولرجع اليهود في فلسطين إلى أسوار (الجيتو).. فالعمل الأساسي الإنشائي إذن هو شراء الأرض وتأسيس المستعمرات.. فإليها يستند كل عمل اليهود في المستقبل. ولقد نوقش عدد السكان الزراع في فلسطين، فوجدوا أنه يجب أن يكون الثلث زراعا، والثلثان تجاراً وصناعاً؛ ليقوم أساس الوطن القومي.

إن رؤوس الأموال الخاصة، لا تتقدم نحو المستعمرات الزراعية إلا نادراً؛ وعلى ذلك فهم يلجؤون إلى الأموال القومية في هذا السبيل.

ولذا كان جل اعتمادنا على صندوقي الـ(كيرين كايمت لإسرائيل) والـ(كيرين هايسود): فقد جمعت المؤسسة الأولى خلال اثنتي عشرة سنة (1920 ـ 1932) مليونين ونصف من الجنيهات، وجمعت الثانية، في الفترة نفسها ما يربو على ستة ملايين جنيه...

وكل هذه الأموال هي تبرعات يقدمها الفرد منا ليساعد أمته؛ والأمة بأجمعها توبخ بل تلعن كل عضو من أعضائها لا يؤدي واجبه هذا، وتعتبر خائناً خسيساً يود انقراض شعبه، أو دوام عذابه، ولنذكر دائماً وأبداً كلمة زعيم الصهيونية الأول (هرتسل) (إن الشعب الذي يجهل التضحيات، لا يستحق الحياة).

ثم سكت محدثنا، وكأنه مل الكلام، أو أدركه النعاس، ولقد آذانا حديثه على الرغم من حياده وسعة إطلاعه؛ لأن من أشد الألم أن ترى عدوك مجهزاً بكل عدة جديدة ضرورية، وأنت لا تملك سوى القليل من العمل، والكثير من اللعنات والصياح.

فيأيها العربي:

إن ما شاهدته اليوم، من توسع الصهيونية وازدهارها في ربوع فلسطين، وما يأمله القوم من تحقيق المشاريع الرهيبة في المستقبل القريب، لخلق وطن قومي، لا يقتصر على فلسطين وحدها، بل يشمل الأقطار العربية المجاورة، وهي مجالهم الحيوي، ولم يكن بالإمكان ظهوره، لولا التضحيات الكبرى التي يبذلها اليهود في مشارق الأرض ومغاربها.

وإن العربي الذي لا يحجم عن البذل، ولا يتقاعس عن العطاء، والذي يعلم أن فلسطين هي قلب العربية النابض، ليشعر اليوم بعبء المسؤولية، أمام الخطر الداهم. وإذا كان (صندوق الأمة العربية)، لا زال يحبو، رغم ما قام به من أعمال: من مشتريات الأراضي، ومساعدة الفلاحين، وإرشادهم وتدريبهم، فإن الآمال معقودة على أن تضاعف له الحكومات العربية يد المساعدة، وإن يهب متمولو العرب، في سائر أقطار الأرض لتغذيته؛ وليعلم كل عربي، أن كل قرش يزيد في واردات هذا الصندوق، هو طعنة موجهة في صميم الصهيونية، وإنقاذ لشبر من أرض الوطن العربي العزيز...

وإذا كان المؤرخون يجمعون على أن (نابليون) لم يهزمه أعداؤه إلا بعد أن حذقوا أساليبه، وقبسوا عنه فنه الحربي، فإن خير حافز لكفاح الصهيونية، أن نستعمل نفس أسلحتها؛ والمال هو أعظم سلاح في هذه الدنيا، وهو سلاح الصهيونية الأكبر...

وبعد فيأيها العربي:

إن المشاريع الزراعية، والصناعية، والتجارية، والأعمال الثقافية، وأمور التنظيم والدعاية، بحاجة إلى روافد لا تنضب من المال؛ وإن (صندوق الأمة العربية) لينوء عن القيام بكل هذه الشؤون. وإذا كانت الوكالة الصهيونية، تشرف على اقتصاديات صهيون، وتهيب نفوس اليهود، أينما ثقفوا، إلى مضاعفة العطاء، فإن لنا الأمل الوطيد بأن تشرف الجامعة العربية، بلجانها المختلفة، على اقتصاديات فلسطين، وتدعو العرب طراً إلى نصرة القضية المقدسة.

وبذلك نخلق فلاحاً صالحاً يحتفظ بأرضه، وعاملاً نشيطاً يخدم بلاده، وتاجراً واعياً يعمل جاهداً لرفع الكابوس الصهيوني، ويعيد إلى فلسطين رونقها وكرامتها، ويطمئن العرب جميعاً إلى أن فلسطين لن تكون (أندلس) ثانية.

فإلى البذل والعطاء، وإلى التنظيم، ومضاعفة الجهد، وإلى محاربة الصهيونية بأساليبها وأسلحتها...

في الطريق إلى تل أبيب

وداع شفيا

بعد نوم هادئ لذيذ في حجرة نظيفة أنيقة، نهضنا قبيل الفجر، نستمتع بهواء الصباح، وشروق الشمس، وأنغام الراديو، التي يستيقظ عليها القوم كل نهار.

وبدأت تباشير النهار بأشعة الشمس الذهبية تكسو البطاح والروابي؛ وشرع القوم ينهضون بحزم وعزم ويتجهون نحو الحمامات، شأنهم كل صباح. واختلط صاحبنا بهم، ليحظى (بدوش) على نفقة إسرائيل، وليبيد حشائش ذقنه المرعة... وما أن قضى وطره، حتى عاد متسائلا: كم عدد العمال والفلاحين في بلادنا الذين يغتسلون مرة في نهارهم، أو أسبوعهم أو شهرهم؟ الا تعتقد أن بعضهم يحتفظ بماء المعمودية، حتى يلاقي وجه ربه طاهراً بتولاً، وأن منهم من لا يتوضأ أو يغتسل، ولو تصاعدت من جسمه روائح هي مزيج من العرق والتراب، متناسياً الحكمة البليغة أن العقل السليم، في الجسم السليم..؟

وبعد طعام الصباح، أحاط بنا الطلبة، يزودون أستاذهم بتحياتهم لأهليهم وأترابهم في دمشق، وقد هيؤوا لنا دابة تنقل أمتعتنا إلى (زخرون) يقودها (يماني) هو ساعي البريد، لهذه المؤسسة الرابضة في شعفات الجبال.

غادرنا (شفيا) ونحن نفكر بطلابها وطالباتها، وجلهم من العرب؛ نفكر بهم وقد تناسوا قوميتهم، وغدت دماء الصهيونية تجري في عروقهم، حتى أصبحوا حرباً على بلادهم. ألم يكن بالمستطاع الاستفادة من هؤلاء الشابات والشبان في سورية ولبنان، والعراق، واليمن، ومصر، وتحت كل سماء عربية؟ إن التنظيم والعلم والتربية ضمنت خلقهم خلقاً جديداً؛ فعلام تترك هذه النفوس البريئة لقمة سائغة بين شدقي الصهيونية؟ إنا نستطيع الاستفادة منهم، لخير بلادهم، بالتوجيه الصحيح، والعلم السليم، والدعاية الحسنة، وحرام علينا أن نفرط فيهم، وبلادنا بحاجة إلى كل عنصر

نشيط، وإن جريمة هجرتهم تقع على عاتق أوليائهم، الذين رموهم طائعين مختارين في أحضان الصهيونية!

فنون التهريب الصهيوني

لم نكد نهبط زمارين أو (زخرون) حتى ركبتنا أبالسة الجحيم، تغرينا باستعمال أسلحة المكر والخداع؛ فإذا كانت القاعدة: (بين العوران اعور بعينك) فكيف بنا ونحن نتنقل من مستعمرة صهيونية إلى أخرى؟ وهل علينا حرج أن نتزيى بزي القوم، فنمكر بهم، ونحصل على أكثر مما يكون في حسابنا؟ ليس أهون من هذه الطريق... فما إن راودتنا الفكرة حتى حملتنا المردة الشياطين إلى متجر فخم في البلدة، فدخلناه من أبناء العرب، وخرجنا من أبناء خيبر أو أتباع صهيون...

نعم، فقد لبس صاحبنا القبعة، والقميص المفتوح، والسروال القصير، وثنى جواربه إلى الكعبين، وبدا شعره الوحف، - لا أراك الله مكروهاً - وبدا كمارد جبار...

وهكذا ظهرنا بألبستنا الجديدة الصهيونية... حتى أن صاحبة الحانة التي تناولنا عندها أكواب مرطب (الأسيس) وبادلناها أشواقاً بأشواق، قبل زيارتنا (شفيا) ذهلت لمرآنا، وشدهت، ونكصت على عقبيها، تتأملنا من بعيد. فمن نحن؟ وما هدفنا؟ وماذا نصنع؟ أيهود مهاجرون، أم سماسرة أم مهربون؟

ودنا منا يهودي ظننا هاربين، فقال همساً: شالوم، فرد عليه صاحبنا التحية بأحسن منها: شالوم آدوني، فسأله الرجل: هل أنتم هاربون؟ أبداً، هنا أمان، لا تخشوا شيئاً أنتم في بلادكم، وبين ذويكم، ثم جعل يهرف ويهذي بينما كانت عيناه الزائغتان تنتظران الثرثرة منا. فلما أجبناه بفرنسية عالية جداً، كالتي ينطق بها أعضاء المجمع اللغوي الفرنسي، لم يفهم شيئاً، وارتبك، وخشي العواقب..

فهؤلاء اليهود، يعلمون أن الهجرة غير الشرعية مستمرة، مهما أقيم في سبيلها من عراقيل، وإن الذين يدخلون الديار من نوافذها، أضعاف من يدخلونها من أبوابها. فقد ثبت في جميع الأدوار، أن الذين دخلوا البلاد خلسة، بصورة غير شرعية، كانوا أكثر ممن دخلوها بجوازات. وحذار أن تحسب كل الجوازات رسمية!. لا، أبداً.. فهنالك جوازات مزورة، كان يبتاعها المهاجر بعشرين جنيهاً فلسطينياً..

أما طرق التهريب (الرائجة) فكثيرة! فهي تحدث حين إقامة الحفلات الأولمبية

الرياضية، التي كانت تقام كل سنتين مرة، ولقد دخل بفضلها عدا اللاعب الأصلي، ألوف غيره، سمروا في فلسطين..

وتحدث أيضاً حين إقامة المعارض الصناعية، التي تجري كل سنتين؛ فينسل إلى فلسطين، باسم زيارة المعارض، ألوف مؤلفة من اليهود الأغراب، مع بضائع ومتاع، لا يجبى عنها رسم أو مكس، بحجة أنها معروضات. ولا شك في أن الزائر الكريم وبضاعته يظلان في فلسطين حتى قيام الساعة.

وهناك طريقة الاستيعاب، وهي سبيل علنية لهجرة اليهود! فثمة تقارير صورية تقدمها المعامل الصهيونية، وورش البناء، إلى الوكالة اليهودية، تظهر فيها الحاجة الماسة للأيدي العاملة، وهذه بدورها تقدمها إلى الحكومة، فتصادق عليها، وتصدر أمرها بإعطاء شهادات الهجرة، بحجة قوة الاستيعاب، التي عمل بها منذ عام 1922 عندما أذاعها المستر تشرشل.. وزير المستعمرات، حينذاك..

ولا تنس أن الحكومة تسمح للمهاجر بإدخال أقاربه، كالزوجة والأولاد.. ولقد تعدت هذه القرابة إلى الأعمام والأصهار والأخوال، ومن هم في الدرجة العاشرة أحياناً!

ويكفي المهاجر المهرب، والمقبوض عليه لسوء حظه، أن يضع خاتماً في إصبع ومهما أوتي الإنسان من قوة الخيال، فلن يستطيع أن يدرك كيف زحزح العرب عن أراضيهم، ليحتلها اليهود، حتى إن عشرات القرى العربية، قد اندثرت معالمها، وزالت معابدها في ظل الانتداب، وقام مقامها مستعمرات صهيونية، بعد أن أجلي عنها العرب، ليعانوا شظف العيش، ومرارة التشرد.

وهل يتخيل الإنسان ما ستكون عليه النتيجة فيما لو انتقلت الأرض، على مر السنين، رويداً رويداً من يد مالكيها الأصليين العرب، إلى اليهود الدخلاء؟ أيمكن أن تعيش أمة بدون أرض؟ ربما، نعم! واليهود أنفسهم حجة علينا. ألم يعيشوا آلاف السنين ولا أرض لهم؟ وعلى الرغم من ذلك، فإنهم ألفوا الأمة اليهودية في التاريخ.. غير أن هذه الحال تكاد تكون نادرة؛ ولو لم يتمتعوا بالثروات الضخمة، والعلم الغزير.. والتعاون الوثيق، لما قامت لهم قائمة..!

على أن العرب إذا فقدوا الأرض فقدوا كل شيء..! وهل تحسب الصهيوني الذي يشتري أرضاً يبقي ساكنيها فيها؟ كلا!. ثم كلا! إنه يشتري الأرض ليطرد أهلها العرب.. إن الهجرة طردت كثيراً من العرب الفلاحين، وهذه هي الوكالة اليهودية تعترف عام 930 أمام لجنة التحقيق، أن (688) فلاحاً عربياً، طردوا مع عائلاتهم من مزارع وادي

(الجسريل)[184] فقط! ومن البديهي أن هذا العدد هو أقل ما يمكن أن يعترف به صهيوني..

ولئن تشدق الصهيونيون بأنهم يدفعون تعويضاً سخياً للفلاح، فإننا نعلم أن هذا التعويض السخي، لم يتجاوز عن كل عائلة عربية، الواحد والأربعين جنيهاً فلسطينياً تقريباً، كما يذكر ذلك الدكتور (جرانوفسكي) مدير الخزانة الوطنية اليهودية. ولا يجب أ، ننسى أيضاً ذوبان هذا التعويض في بوتقة ديون الفلاح؛ فتسدد الديون منه قبلما يشد رحاله عن الأرض، شريداً طريداً. ولقد كانت ديون الفلاح بصورة وسطية عام 930 تعادل السبعة والثلاثين جنيهاً.

أما أثمان الأرض الباهظة، فلم ينلها إلا كبار الملاكين الإقطاعيين، وجلهم من خارج فلسطين، كآل سرسق مثلا، الذين باعوا وادي الجسريل بأجمعه، وبلغ ما تناوله اليهود منهم عشرين قرية كاملة بأرضها وسكانها، وحيواناتها..

أجل، لم يفد صغار الملاك من مبيع الأرض أبداً، لأن تسعين في المئة من الأراضي المبيعة، هي من أراضي كبار الرؤوس، عظماء الهامة، كما يقول أحد رجال الصهيونية العالميين..

◆ ◆ ◆

---

(184) - كانت ارض وادي الحوارث ومساحتها 30000 دونم تقريبا ملكا لأسرة انطوان بشارة التيان الذي كان يقيم في يافا والظاهر أن التيان كان رهن الأرض أيام العثمانيين لمواطن فرنسي يدعى هنري استراهان وعندما قرر ورثة التيان الثلاثة عشر ان يبيعوا الأرض ليفوا – فيما يبدو – دين والدهم لاستراهان اتفق ممثل الصندوق القومي اليهودي معهم في تشرين الثاني \ نوفمبر 1928 على شراء الأرض في مزاد علني وقد رتبت المحكمة مزادا علنيا عقد في 20 نيسان \ ابريل 1929. وكان ثمن الأرض في المزاد 41000 جنيه فلسطيني الا ان الثمن الفعلي الذي دفعه الصندوق القومي اليهودي الى الورثة كان يقارب 136000 جنيه مصري او نحو ثلاثة اضعاف ثمن المزاد. وقد ضمن عقد الصفقة في المحكمة إغفال ذكر ال التيان الذين ارادوا تحاشي الانتقاد العلني ومكن الصندوق القومي اليهودي من الالتفاف على المستاجرين ولما امرت المحكمة في 6 ايلول \ سبتمبر 1930 مستاجري وادي الحوارث بان يغادروا الأرض، رفض هؤلاء وقاوموا الأمر بطرق عدة وقد لجاوا الى المحاكم مرارا لكن استئنافهم لم يقبل واستنفدت الوسائل القانونية في كانون الأول / ديسمبر 1932 يوم اصدرت المحكمة العليا حكمها في مصلحة الصندوق القومي اليهودي ضد المستاجرين وفي هذه الأثناء حاول المستاجرون ان يحولوا بين اليهود وبين إقامة مستعمرة على الأرض التي اشتروها حديثا لكن بحلول سنة 1931 كان اليهود قد غرسوا 43000 غرسة وصفت في محاضر الصندوق القومي اليهودي للسنوات 1928 – 1935 بانها (جنود تحمي ارض الوطن) واستعان المستاجرون ايضا بسلطات الانتداب البريطاني التي عرضت عليهم عروضا عدة لتوطينهم في امكنة اخرى في فلسطين الا انهم لم يقبلوا تلك العروض ولجاوا بصورة مؤقتة الى بعض القرى الأخرى التي تطوعت لاستضافتهم وعملوا مع الحركة الوطنية لكن في حزيران / يونيو 1933 طرد اولئك الذين كانوا في المنطقة التي غرسها الصندوق القومي اليهودي شجرا والتي تعرف بـ(المنطقة مدار التنازع).

فيأيها العربي:

أليس مما يحز بالنفس ويملؤها أسى، أن ترى أبناءك وأطفالك ونساءك، يهيمون على وجوههم في الأرض، لا يجدون لأنفسهم ملاذاً ولا سكناً، بعد أن احتل الصهيوني أرضهم؛ وجاس خلال الديار، وطمس الآثار؟ لقد علمت أن أمل الصهيوني الأعظم، هو احتلال الأرض بأي ثمن، ولولا الأرض لما قامت له قائمة، ولولاها لعاد شريداً طريداً تحت كل كوكب؛ لولا الأرض لما استطاع الصهيونيون أن ينشئوا مزرعة، أو معملاً، أو مدينة؛ ولولاها، لما توافدوا من زوايا الدنيا الأربع؛ فخير طعنة بجلاء ترديها في صدر عدوك الأرقم الغشوم، هو حبس الأرض عنه، وحرمانه منها إلى الأبد، ليراها بعينه، ويتمزق من أجلها قلبه، ويتفطر كبده؛ فليكن شعارك دائماً وأبداً،: بيعوا اليهود كل شيء، إلا الأرض، ولا تشتروا منهم شيئاً إلا الأرض..

في تل أبيب

وكما تهفو قلوب الحجيج لرؤية البقاع المقدسة، كانت كبد صاحبنا تذوب حناناً إلى (تل أبيب)، إلى هذه المدينة الغربية، في بلادنا الشرقية!.

كان يتلهف شوقاً إلى رؤية قلب الصهيونية النابض، ودماغها المفكر، ودرة جهودها طيلة السنين..

وفي الباص، جلست إلى جانبه بحكم المصادفة فتاة صهيونية، والمصادفة كما تعلمون عمياء؛ فانتهز الفرصة السعيدة ليغازلها عن طريق العلم والجد؛ فمط رقبته نحوها، وسألها باسماً بلغة لك أن تدعوها: كوكتيل لغات.. سألها عن تلك المعامل والمزارع التي تكتنف الطريق، بعد أن تمنى لها عدم الانزعاج.. فابتسمت له، وقد أيقنت أن ليس في خلقته ما يشجع على عصيان الله؛ ثم بدأت تحدثه عن كل بناء، وعن كل بقعة نمر بها، وتشير إلى كل ما يجذب الانتباه. فهنا معامل النسيج، والأدوية وأحجار الماس، وهناك معامل السكاكر والشوكولاه والزيوت والسمن، وهذه معامل الدباغة والنجارة والحدادة، وتلك معامل الأسنان الصناعية والكيمياء والأسمدة.. معامل لا تنتهي، إلا لتبدأ من جديد..

ولعلها تمنت البقاء معنا لإرشادنا إلى ما يفيدنا، كأبناء ملة واحدة؛ ولليهودي الغريب مكان مرموق في (كادر) نساء صهيون، غير أنها اعتذرت وتلطفت بأنها لولا هدفها (هرتسليا) تلك المستعمرة القائمة في أرباض (تل أبيب)، لكانت دليلنا ورفيقتنا، وربما ملاذ لهونا ـ على رأي صاحبنا ـ ومتعتنا إلى حين..

ولم تنس قبل هبوطها من السيارة، أن تهمس في آذاننا هاشة فرحة: إن الصناعة الصهيونية تتكاثف كما رأيتم في حيفا وما حولها، وفي تل أبيب، وما جاورها.. وقد خطت خطوات هائلة في مضمار الرقي، وسنداها الرئيسيان: معهد الدكتور (وايزمن)، والجامعة العبرية، سندا الحياة الزراعية أيضاً.

وربت صاحبنا عندئذ على كتفها كالمتحبب الصدوق، وقال: إن الصهيونيين بنوا

المعامل، نعم، ورقوا الصناعة، نعمين، وغمروا الأسواق بمنتوجاتهم، ثلاث نعمات: ولكن لا تنسي يا عزيزتي تلك الخبرة الفنية التي انتقلت معهم من أوربا تامة كاملة. كما تنتقل الثياب الأمريكية من بلد إلى آخر، جاهزة مفصلة.. فأجابت وقد حملت حقيبتها تهم بالنزول: أو تريد أن تقول: إن الصناعة انتقلت من الغرب في رجولة كاملة. دون أن تنمو في فلسطين؟ فأجابها كما يقتضي المقام: طبعاً، طبعاً، وإلى اللقاء وألف شكر...

ثم التفت إلي، بعد أن شيعها بنظرات يفهمها اللبيب. وقال: لقد سها عن بالهم أن هذه الصناعة، إن تقدمت في ربوع فلسطين. فليس الفضل في ذلك للصهيونيين: بل لأسيادهم الإنكليز، الذين فرضوا حماية جمركية هائلة، على المنتوجات المستوردة، وأعفوا كثيراً من المواد الخام، والمواد المصنوعة صنعاً أولياً، والفحم، والأكياس، والآلات من كل رسم جمركي.

وإذا أدركنا أن أكثر المعامل في فلسطين، يقوم برؤوس أموال إنكليزية، أو أمريكية، تحت أسماء صهيونية مختلفة، فهمنا عندئذ سبب هذه الحماية، التي أضرت بالسكان العرب أعظم الضرر، وجعلتهم أمام أمرين: إما أن يدفعوا ضريبة جمركية هائلة عن وارداتهم، أو أن يشتروا البضائع الصهيونية!.

وإذا علمت أن الصهيونيين يضيفون على ثمن كل حاجة يصنعونها 25٪ من ثمنها الأصلي، باسم شراء شبر من فلسطين، أدركت دقة موقف العرب، من هذه الصناعة الجائرة.

وأذكر أن الحكومة لم تسلك هذا السبيل إلا تحت تأثير الصهيونيين، الذين اكتشفوا أن الأراضي بطبيعتها الزراعية، لا يمكن أن تستوعب عدداً عظيماً من المهاجرين، ولا سبيل إلى إنشاء الوطن القومي، إلا بترقية الصناعة بجانب الزراعة.. ولقد ثبت للخافقين، أن الصناعة الصهيونية، سيئة الصنع، رديئة الجنس، لا تحتمل مقاومة البضائع الأجنبية، أو مباراتها؛ ولذلك فرضت الحكومة حمايتها، لتساعد اليهود على حساب العرب، الذين انتشرت بينهم البطالة، بشكل يدعو إلى الرثاء..

محطة رائعة وشركة جبارة

وبينما كنت أتململ من حقيبتي الثقيلة، كان صاحبنا لا ينقطع عن الهمس في أذني همسات شاعر.. فجعلت ألتقط منه ما صفا، وأهمل ما كدر، سهواً ومللاً.

كان يتمتم وحده: تيلأفيف.. تل الربيع.. يقول الناس عنها: درّة غربية، في بقعة

شرقية.. وهل العرب بحاجة إلى درر في بلادهم، درر ظاهرها الرحمة، وباطنها العذاب؛ ألا إن الفقر مع الحرية والاستقلال، لخير ألف مرة من الغنى مع الرق والاستعباد ..! لقد دعا بعضهم (تل أبيب) بباريز الصغرى.. أو لا تدري يا صاحبي أن موقع البلد سابقاً كان رمالاً برمال، وأول من أسسها ستون رجلاً، رأس مالهم أربعة آلاف جنيه فلسطيني فقط!؟

هذه هي (تل أبيب).. بلد حديث وغريب في الشرق.. غريب بجدته، وأبنيته، ونظامه، ونسائه ورجاله، ووجوهه وألسنته..! فهي برج بابل القرن العشرين؛ غير أن هنالك لغة رسمية، لا يقوم مقامها لغة؛ هي اللغة العبرية، لغة المدرسة والجامعة والمعمل والمزرعة، يتكلمها القوم طراً، ويليها الألمانية أو الإنكليزية، ثم بقية اللغات.. إلا العربية..! ولم أسر بضع خطوات حتى أدركني التعب، فوقفت مع رفيقي على رصيف المحطة التي سكنت إليها السيارة، وبدأنا نتأمل دنيا تل أبيب، وما فيها من جديد..

فهذه هي شركة السيارات اليهودية التعاونية المسماة (إيجد) . بالجيم المصرية . ولا غرابة فنحن في محطتها!. وعندما نقول محطة، فلا نقولها مجازاً أو مبالغة، بل حقيقة راهنة.. ولئلا يفوت القارئ من وصفها شيء نستحسن أن ندخل من باب لها يعتبر مدخلاً، لننفذ من آخر نعتبره مخرجاً... فهي ساحة واسعة، لعلها تعادل ساحة المرجة المحترمة في دمشق أو أكبر. بنيت بالأسمنت المسلح؛ وفي واجهتها صف طويل من الحجرات الصغيرة، لها كوات، فوقها لوحات كتب عليها أسماء المدن والدساكر التي تمر بها السيارات؛ وكل كوة هي خط مواصلات خاص.. فاستمع إلي:

تقتطع تذكرتك؛ وقد يكون القائم على العمل في الكوة رجلاً أو امرأة سيان.. ولا تنس أن تقف للقطع في آخر (الذيل) بترتيب، وانتظر دورك؛ فبعد التجربة، ظهر للقوم، أن في الترتيب والنظام فائدة وكسباً للوقت. ثم تعطي تذكرة عليها رقم، وفيها دوائر، تعين اسم الشهر والنهار والساعة، فيعرف مفتش السيارة و مراقبها مثلاً، متى ركبت.. لأن الحل والترحال في أوقات معينة.

ثم تنحدر في نفق علت جدرانه أنواع الصحف والمجلات والكتب، ويكاد لا يمر مسافر إلا ويشتري صحيفته كما يشتري تذكرته.. وهنالك في بهو تحت الأرض، ترى منافذ مرقمة.. انظر إلى رقم تذكرتك، واسلك المنفذ الذي يحمل نفس الرقم، تخرج منه إلى سطح الأرض؛ فتمر فوق رصيف طويل عليه لوحات بأسماء المدن والدساكر أيضاً . لا ريب أنك تعرف القراءة، وإلا فسل بإحدى اللغات التي تتقنها، إلا العربية لأنهم يجهلونها .. أو يتجاهلونها .. وبعد، فقف حيث وجدت اسم المكان الذي تقصده، حتى إذا أزفت ساعة

الرحيل، وجدت سيارة تقف أمامك، وكأنما الأرض انشقت عنها، فانتظر دورك - من فضلك ... ثم اصعد مبرزاً بطاقتك التي تثقب في دائرة الساعات والأيام..! وإذا كانت السيارة تتسع لثلاثين راكباً . وكنت الواحد والثلاثين، فلا تفكر في الصعود، لأنه لن يسمح لك.. فيجب أن تنال راحتك، ويرتاح جارك، فهذه سيارة، وليست علبة (كونسروة)..! ولقد تحين ساعة الرحيل، فتسير السيارة، ولو كان فيها شخص واحد .

ولا تنس أن أمام كل موقف سلماً خشبياً ذا عجلات، لرفع الأمتعة وإنزالها، دون أجر أو (بقشيش يا بيك)، ودون أن يحتك دهان السيارة بالسلالم! وفي المحطة تكثر دكاكين بائعي المعجنات والمرطبات، كما أن فيها غرفاً للاستعلامات والمخابرات الهاتفية.. وإذا خرجت من باب المحطة الحديدي، فلن تستطيع الرجوع إلا من النفق، فالباب يتحرك دائماً إلى الأمام، بعناد وإصرار.. هذا ولن تعدم في المحطة باعة الشاي المتجولين، وقد وضعوه ساخناً في كؤوس مثبتة، فوق حوامل معدنية نظيفة؛ ولن تفتقد بائعي الفطائر أيضاً، وهي محفوظة في علب بلورية، وقد ارتدى صاحبها مئزراً أبيض ناصعاً، وصفف شعره، وحلق ذقنه، وشمر عن ساعديه، ولمع حذاءه، فكأنه مهندس أحد الخطوط الجوية، لما وراء البحار!. وكذلك فأنت ترى باعة السجاير والسكاكر، ينتقلون بين المسافرين بهدوء وسكون؛ ويعلنون عن سلعهم بصوت خفيض، لا كأصوات باعتنا الأكارم، الشبيهة بصفارات الإنذار، أو بأصوات بعض المغنين أيام محطة إذاعة الفرنسيين بدمشق.

ولقد أقسم صاحبنا بتربة أجداده الكرام، أنه لا يصدق أبداً أن ما يراه الآن بأم عينيه، هو من أعمال الأفراد الصهيونيين، بل هو عمل حكومي جبار..

فهذا التنظيم الدقيق، عمل تعجز عنه الدول، وتنوء به الميزانيات الكبرى، ولن يعقل أبداً، أن تقوم به شركة كيفما كان لونها، ولو هبطت من المريخ..

فقد كان يرى، ولا يزال يذكر، عندما كان موظفاً في الجزيرة والفرات، أن أصحاب السيارات في تلك المناطق النائية من بلاد الله، كانوا يملؤون سياراتهم ركاباً وأمتعة ومواشي وطيوراً، حتى ليحسبها الرائي سفينة نوح؛ فيها من كل زوجين اثنين؛ ومن فاض، أو بالحري ما فاض من الركب جعلوه في (اللوج) على ظهر السيارة، أو ربطوه بجانبيها، أو مؤخرتها كما يربط المتاع.. والحاجة أم الاختراع. وكذلك فإنه لا زال يذكر بأن أصحاب السيارات في دمشق، لم يستطيعوا حتى الآن أن يتفقوا على سعر واحد في سفرياتهم، أو أوقات منظمة في تنقلاتهم.. ولا زال الجمهور تحت رحمتهم، بين قيل وقال، ومنافسة وشجار، وإضاعة للوقت الثمين.. إذن؛ فهل هو على حق حينما يتساءل:

من أين لهؤلاء القوم، أن يقوموا بهذه الجهود الجبارة، وهم على عسكنا تماماً: ضربت عليهم الذلة والمسكنة.!؟ ذلك ما يعتقده ويعتقد به الكثيرون ممن يرتاح ضميرهم، ويتفاءلون تماماً، ساعة يرددون هذه الآية الكريمة، أو يرونها منقوشة على شاشة بيضاء في مظاهر احتجاجية، فيهمهمون ويسبحون ويصيحون: صدق الله العظيم..! والحمد لله على الإيمان، ولا شيء عندهم غير ذلك...!! أبداً، ولا شيء غير ذلك! أو ليست النظافة من الإيمان؟. ولكن لا .. وألف لا!

فلن ننال حقنا بالسباب والشتائم؛ ولن نقهر عدونا بما نضمر له من حقد وكراهية؛ فهذه الشركة الجبارة؛ هي أعظم مؤسسة من نوعها في الشرق العربي حتى لقد فاقت مثيلاتها في كبريات مدن العالم، وهي فخار الصهيونيين، وذروة ما وصلوا إليه من التعاون والتنظيم والإبداع.

هي شركة تعاونية قبل كل شيء، لها محطاتها في كل مكان، وأبنيتها الفخمة، وموظفوها، وعمالها، وهم يرتدون ألبسة رسمية جميلة متشابهة، ولها (باصاتها) تسير في كل اتجاه - اللهم إلا نابلس وخليل الرحمن - تسير في نظام دقيق، مدهش، يدعو إلى الإعجاب..

وإذا كانوا يقولون منذ أقدم العصور: لا يفل الحديد إلا الحديد .. فإن أولى وجائب [واجبات] العرب أن يضعوا يدهم على سر تقدم الصهيونيين، وفي هذه الشركة التعاونية أبرز مثال.

◆ ◆ ◆

إن الصهيونيين يسيرون في كل عمل يعملونه على سنة التعاون، ونظامه الدقيق، لأن الإنسان قليل بنفسه، كثير بأخيه. فما ضر إخواننا العرب، لا في فلسطين وحدها، بل في كل صقع عربي، أن قبسوا هذا النظام التعاوني المدهش، في سائر مشاريعهم، وعندئذ يحاربون عدوهم الماكر بسلاحه، ويدفعون عن بلادهم هذا الخطر المحدق الجارف، ويد الله مع الجماعة..!

◆ ◆ ◆

ووقف (باص) أمامنا، فأسرعنا نمتطيه، قبل أن يفوتنا، مبالغة في الحيطة وبعد النظر...

جيش صهيوني لأهداف رهيبة

أقول... ركبنا (باصاً) واتجهنا نحو أقرب صديق لصاحبنا، في (تل أبيب)، ليكون لنا دليلاً في هذا الزحام الشديد... ورغم أن (مفكرته) تحوي قائمة طويلة من أسماء الأدلاء والصديقات، فإنه لم يرَ إزعاجهن منذ وصوله، وحبذ إبقاءهن ذخراً لصروف الليالي وأنصافها..

والتقى بصديقه! وكانت المفاجأة مربكة.. فكيف يرى زميله المسلم العربي هنا في دياره، وقد تركه منذ سنوات في دمشق، خاملاً كغيره من المثقفين..؟ هذه مسألة يحسب لها كل يهودي ألف حساب؛ غير أن الرجل مع ذلك أكرم وفادتنا، ونزل بنا إلى الشارع، وكل منا ينوء بحقيبته؛ ولولا (الشورت) ولذة التعري؛ لهلكنا حراً وعرقاً.. ولانتقلنا إلى مقبرة (الدحداح) فرع تل أبيب..

وما كاد دليلنا الأستاذ الجديد، يهبط بنا الطريق ويمشي بجانبنا، حتى مرت بنا فرقة من الفتيات الناضجات المرحات، بلباس الكشفية القصير.. جداً.. والمرصوص على لحومهن الطرية الغضة، وهن يكدن يرقصن دون موسيقا! فأشار الأستاذ إليهن وهو فخور مزهو قائلاً: هؤلاء من فرق النساء الكشافات.. ثم تمتم: ولعلكم لا تعلمون شيئاً عن الحياة الرياضية في ربوعنا.. فاسمعوا باسم الزمالة حديثاً طريفاً.. قد لا أحدث به عربياً غيركم!

إن النظرية الصهيونية تقول: كما أن الشعب لا يسمى شعباً دون أرض، فإن الأمم كذلك، لا تقوم لها قائمة دونما جيش! ولعل الفرق الكشفية والرياضية خير ستار لنا لتشكيل الجيش المنشود! إن فلسطين يجب أن تحمى فقال صديقي وقد وقف ليريح ذراعه من الحقيبة بعد أن وضعها على الأرض:

وهل التفكير في هذه المنظمات، بدأ منذ تباشير الصهيونية؟ فأجاب: نعم؛ لقد عقد أقطابنا الأولون المؤتمرات، وأوصوا بالاهتمام بالجسم والعقل في كل جيل صاعد. ولن يتحقق ذلك إلا على سواعد الفرق الرياضية والكشفية! فهمس صاحبي ممازحاً: أتقصد أن ظاهرها رحمة وباطنها عذاب..؟ فهي ليست إذن، كما تزعمون، لتقوية الطفل اليهودي والطفلة اليهودية؛ بل لتنمية العضلات استعداداً لصروف الزمان..!

فضحك الأستاذ ضحكة مباهاة ومكر وقال: لك أن تظن ما تشاء، فإن هذه الجمعيات، وما زالت في نمو وازدياد، وهي تلقب عندنا بأسماء أبطالنا القدماء: كشمشون، وباركوخبا وغيرهما، لتوحي إلى الجيل الصاعد بالنشاط والمحاكاة وتقليد الأجداد، وبذا يعدونه ويهيئونه نفسياً وجسمياً للأيام العصيبة..

وثمة غير ما رأيتم من الفرق والجمعيات النسائية؛ فهنالك المنظمات الرياضية والأدبية والتهذيبية أو الاجتماعية.. كالهداسة، واليهوديت، وبنات صهيون..

فقاطعه صاحبنا وهو يعاود السير: وإلى أي الفرق يستند إذن الجيش الخفي، الذي نسمع كل يوم أخباره..! فابتسم الأستاذ وتمهل قليلاً ثم قال: بعد أن أدار لسانه عشر مرات في فمه: أعتقد بأنه يعتمد على الفرق المتطرفة كالمكابيين مثلاً.. فهي الجمعية الصهيونية الأولى التي تضم أعضاء من الشباب المتحمسين، والفتيات المتحمسات للوطن القومي.. وخاصة أرى أن شبان حزب الإصلاحيين أتباع (جابوتنسكي)، و(ترمبلدور) القتيل أثناء دفاعه عن مستعمرة (تل حي) في اضطرابات عام (921)، هم أقوى وخير من يعقد عليهم الرجاء..

أجل! لقد رأى زعماؤنا أن الزحف على فلسطين، هو أعظم حل للمسألة اليهودية، ولن ينقذ الشعب من الضغط والتشرد سوى ذلك.. ففلسطين هي الوطن الأول لنا.. وإن المثالية الدينية اليهودية، قد أنمت في نفوسنا روحاً وطنية هائلة، من جراء الاضطهادات الماضية والحاضرة، فظهرت منذ أن كنا قابعين تحت أسوار (الجيتو) وإن تكن لم تتشكل بعد بطابعها السياسي الحاضر... وعلى الرغم من الفرق الشاسع، بين الصهيونية، والحنين الديني إلى صهيون، فإن زعماءنا ومفكرينا، رأوا لزاماً عليهم، حماية فلسطين من الطوارئ في الحاضر والمستقبل، بالقوى العملية الصرفة، ولن يكون ذلك إلا بالجيش،... نعم، الجيش..!

وعاد صديقي إلى مداعبة زميله قائلاً:

أوليس عمل الفتيات في جيشكم، هو الترفيه عن المعسكر، كمرفهات الحرب؟ وغمز بعينه وابتسم، وأدرك الأستاذ المقصود، لكنه بلع ريقه، فالحقيقة مرة محزنة كجميع الحقائق، وقال: نحن في هذه الجمعيات نعلم الفنون العسكرية باسم الرياضة.. ونزيد عديدنا في الأرض المقدسة، باسم الرياضة أيضاً.. أفلم تسمع بحفلات (الأولمبياد) التي كنا نقيمها كل سنتين، والمدعوة (بالمكابي) حيث يتبارى فيها رياضيو العالم الصهيوني؟! هي باسم الرياضة ولكنها من وسائل التهريب... هدفان بحجر واحد..

وهنا، وصلنا إلى الفندق.. وهو نزل يطل على البحر، وصاحبه صديق حميم للأستاذ الدليل المحترم.. وما إن دخلنا الحجرة، حتى طلبنا ثلاثاً من (الأسيس) وجلسنا نستمع إلى المحدث؛ وعندما رشف الجرعة الأولى تابع: إن نواة المؤسسات الصهيونية العسكرية في فلسطين هي هذه الفرق المذكورة. وهي مختلفة الآن قوة وضعفاً وسلماً وثورة.. وليس أمتن ولا أبرع من فرقة (الهاجانا) بينها، ومعنى ذلك (الدفاع عن النفس).. فعندما بدأ الاستعمار الصهيوني، في عهد الأتراك، حين كان حبل الأمن ضعيفاً، كانت القرى الصهيونية، تجند فرقاً من شبابها وشاباتها، للذود عن حياضها؛ وقطع دابر اللصوص. وفي عهد الانتداب الإنكليزي، واستتباب الأمن، جمعت أسلحة (الهاجانا) كما جمعت أسلحة العرب.. غير أن فلسطين كانت تغفو فوق برميل من المتفجرات؛ فما كانت تنقضي فترة دون ثورات واضطرابات، وأصبحت مصالح الصهيونيين مهددة كل حين؛ فعولوا مرة أخرى على تشكيل فرقهم القديمة، وفرضوا على كل يهودي ويهودية الانخراط في سلكها، وأن يكون نواة لجيش المستقبل، فتسلحوا واستعدوا..!

وهنا: استرد الأستاذ أنفاسه، وجرع جرعة أخرى، فسأله صاحبنا: إذن فقد خلقتم الجيش دفاعاً عن النفس فقط.. أليس كذلك؟ فقال الأستاذ: طبعاً، ولكن.. ليس هذا كل ما في الأمر! ولعل الأستاذ (الطرطوع) ترك لسانه أكثر من اللازم، لجماعة من العرب، يحرصون على كل كلمة صهيونية، لينقلوها إلى أذن الناس، الذين أوشكوا أن يستيقظوا بعد طول رقاد - وصح النوم ... فلم يكتمنا أن للصهيونيين ثلاثة جيوش يهودية سرية - ستهدد السلم على كل حال - وأول هذه العصابات - ولا نسميها جيوشاً - هي عصابة (شتيرن) الشهيرة.. فهي كما يقول، جيش مدرب صغير، قد لا يتجاوز المئات من الأفراد! غير أنه شديد الخطر كالأفعى (الناجا)، ويعزى إليه تدبير جريمة قتل اللورد (موين). أما الثانية فهي عصابة (ايرجون زفاي لويمي) أي الهيئة الوطنية العسكرية. ولا يزيد عدد أفرادها عن (1500) نفس.. وهي تنتمي إلى الحزب الصهيوني المتطرف الذي ينادي بضم شرقي الأردن إلى الوطن القومي؛ أما أعضاؤها فليسوا مجهولين - كما يقال - من السلطات الرسمية ولو أن زعيمهم ما زال في طي الخفاء..!

ويقول الأستاذ بأن (الهاجانا) المذكورة آنفاً، هي الجيش الثالث، إذا لم نقل عصابة ثالثة، وأن عدد أفراد هذه الفرقة يقدر بـ (80) ألف مقاتل.. ولعل من أعجب العجب أن معظم أعضاء هذه العصبة، كانوا سابقاً من رجالات الانتداب، وأنهم ما زالوا حتى اليوم يحملون أسلحة شرعية حكومية باسم الدفاع ضد العرب! ولقد سألت الأستاذ: وهل

حصل اشتباك بين هذه الفرقة والعرب فيما مضى؟ قال: لا .. أبداً حتى أن (برنارد جوزيف) المدير السياسي للوكالة اليهودية، صرح بأن (الهاجانا) لم تقدم على قتل عربي واحد، فهمهم صاحبنا ساعتئذ بصوت مرتفع: لأنها لن تجرؤ على ذلك..

ولم ينتبه الأستاذ لهذا الرد الساخر، لانهماكه في الحديث قائلاً: إن أعمال الصهيونيين الإرهابية ليست موجهة ضد العرب، وإنما هي للتنبيه إلى مطالبنا، وإذا لم ننل هذه المطالب كما يقول المدير السياسي المذكور، فإن هذه الاضطرابات ستستمر وستزداد عنفاً .. نعم، ستزداد عنفاً .. فقلت مؤكداً جاداً: ولكن أيها الأستاذ لو فكرتم أن فلسطين لا يسكنها إلا العرب واليهود والإنكليز، لأدركتم أن هذه العصابات والفرق العسكرية الإرهابية، لم تؤسس وتسلح للفتك بالأصدقاء الإنكليز فقط.. بل هي سلاح مرهف أيضاً لتهديد العرب، كيما يستكينوا إلى الضعف، فلا يقوموا بمظهر عنيف ضد الصهيونية..!

◆ ◆ ◆

لقد تداول العرب منشوراً من إرهابيي اليهود جاء فيه: اعلموا أيها الجيران.. أن الحكومة العبرية المستقلة، تمنحكم المساواة في الحقوق المدنية، وتكون معاملتها لكم إنسانية راقية،وذلك بقبولكم في مراكز حكومية، وتمكين جماهيركم من العلم، فتتقدم زراعتكم وصناعتكم، وستبنون بيوتاً بدل من الخيام الحقيرة...لا تحملوا على اليهود، ولا تنهبوا أموالهم؛ لأنكم إذا رفعتم يدكم على اليهود، فسنضطر إلى قطع اليد بواسطة سلاحنا، ونظن أنكم تحققتم وجاء إلى مسامعكم ما هي عليه قوة الشباب العبري الحالي..

فهل هذا المنشور كتاب غرامي، يقدم إلى العرب أم دعوة حارة لوليمة فاخرة؟ وضحك الأستاذ قائلاً: لقد فاتكم شيء كثير من الفرص، كما فات العرب جميعهم فهمه! فاعلموا أن الصهيونيين لايريدون قتال العرب بالسلاح، لأنهم يضنون بنفوسهم وأرواحهم، فلم ينس الصهيونيون قط مواقفهم في الثورات الخالية، حيث قضى كثير منهم ضحية في سبيل بناء الوطن القومي؟ فهم يهابون العرب، إنهم يعلمون أن قتالهم سيثير عليهم سخط الأمم العربية المجاورة والمسلمة عدا أن الحرب ستكلفهم ضحايا من زهرات الشباب والشابات، الذين بذلوا في جلبهم من الخارج كل غال وثمين... وإن فقد هؤلاء الضحايا، ستنقص اليد العاملة اليهودية، ويزعزع الانتصار الصهيوني...!

ونحن نضن بسفح دمائنا وكفانا ما جرى في أوروبا! أما ملايين الجنيهات فسنبذلها في شراء الأرض؛ ندفع في المائة ألفاً وفي الألف عشرة آلاف، لنصل إلى الهدف دون قطرة دم... أفهمتم؟ قلنا: ربما.

ثم عاد إلى بحثه عن الهاجاناه فكأنه متيم بها عاشق، أو كأنه أحد أفرادها فقال: لقد بدأت فكرة هذه العصبة كما ذكرت باسم الأمن، من قوة صغيرة، للدفاع عن النفس إلى مجموعة قوية موحدة ذات قيادة عليا ... فقال رفيقي: فكان من جراء ذلك أن جرد العرب من سلاحهم، فذهبت عنهم الطمأنينة أما عدد مسلح بين ظهرانيهم... فأجاب باسماً: هذا الأمر يعود إلى الحكومة البريطانية، وتنظيم صفوف العرب، إذ أنهم يستطيعون تأليف المنظمات السرية وتهريب السلاح كما نفعل... وقد سبق لهم فعل ذلك بنظام وحزم.. فسكت كلانا على مضض وتابع الأستاذ (المتصهين): إن الحامية الانكليزية الدائمة في فلسطين تتألف من (25) ألف مسلح، بينهم (10) آلاف عربي و(4 آلاف) يهودي ضررهم أكثر من نفعهم، لأنهم من ملتنا وجماعتنا!. أما (الهاجاناه) فلا يقل عدد رجالها مع بقية أفراد العصابات الأخرى عن (100) ألف مقاتل بأحدث سلاح! فعندنا مدافع الهاون ومدافع مقاومة الطائرات الحربية، وبنادق سريعة الطلقات، والمسدسات والقنابل والرشاشات و.. و.. ثم سكت ليبلع ريقه هنيهة، وليجرع كأسه قائلاً بعد تأمل قصير في دخان سيجارته.. إنكم وبلا شك تتذكرون وصول جيوش رومل إلى العلمين، حيث أصبحت على مرأى من الإسكندرية، وحاق الخطر بوادي النيل، وتعالت الهتافات العدائية في مصر: إلى الأمام يا رومل، يارومل دربك مفتوح...!

ونشطت حركات الانهزاميين، ورجال الطابور الخامس! نعم الخامس! لقد استولى علينا - نحن اليهود - فزع وخوف عظيمين، وأيقنا أن مأساة يهود أوروبا، ستتجدد مرة أخرى في فلسطين..... فطلبنا من الحكومة ملحين أن نتسلح للدفاع عن أنفسنا، ومساعدة الجيش الانكليزي وظفرنا بما أردنا.. ثم بقيت عندنا الأسلحة حتى الآن، وانضم إلينا كثير من جنود الحلفاء والأنصار لليهود، إذ سمح لهم بالإقامة في فلسطين، عدا ما ابتعناه من الجنود الآخرين من مختلف الأسلحة المهربة، كما استطعنا استخدام بعض بدو الأقطار المجاورة في هذا السبيل...!.

وتمتم رفيقي: أجل، لقد كانت التحريات، تثبت دائماً، وجود مستودعات للذخيرة عندكم، ومعامل خفية للأسلحة، وقنابل يدوية... وربما للدبابات والطائرات والغواصات... وزاد رفيقي متهكماً: إذن، فإن الأسد الانكليزي لن يكون أمامكم سوى حمل وديع، لا يمكنه قمع اضطراباتكم بقوى جيشه وشرطته.؟

فقال الأستاذ: لوشئنا المضي في النضال.. فقلنا نعم.! وهو الواقع!. ثم قام الأستاذ مودعاً على أن يعود في المساء عند الساعة الرابعة ليرينا أشهر مشاهد (تل أبيب)... ولكنه قبل أن يغيب في فرجة الباب قال ولا تنسوا أبداً أن عندنا فرقاً للسلام أيضاً، والتفاهم مع العرب! فهنالك حزب (بريت شالوم) أي عهد السلام أسسه عام 1926 خمسون رجلا منا..! أي من أبناء الزمالة - ويقصد المدرسين - ومن المهتمين بالاستعمار، وذلك للتوفيق بين العرب واليهود.! فأغرق صاحبي بضحكة استمرت ثلاث دقائق، ثم قفز لاحقاً به وهو يقول: يجب أن تعلم بأن العرب لن ينخدعوا بنعومة الأفاعي، ولهم من تجاربهم وقواهم واتحادهم الحديث ما سيطير بالحلم الصهيوني، بعيداً عن الروابي السبع، إلى أحجار (الجيتو)..! فقال له الأستاذ: أو تمزح؟ إن للجدران آذاناً.. وستسمعك (الهاجانا)، فابتسمنا، وضاع الحديث بين ضحكات عاليات وأصوات: إلى اللقاء... إلى اللقاء..

وما إن أغلق الباب، حتى ثار صاحبنا غاضباً متألماً وقال: لقد نظم هؤلاء القوم الزراعة فأبدعوا، واهتموا بالصناعة فتوفقوا، وانكبوا على التجارة، فأتوا بالعجب العجاب، وهاهم أولاء يتسلحون، ويستبقون الحوادث، كأنهم سيقيمون في فلسطين أبد الدهر.. فأين العرب، وماذا يفعلون..؟

لقد انقضى عهد الكفاح السلبي، وأمامنا الخطر الأكبر، وإن لم نقف وقفة الرجل الواحد، فإن مستقبلنا قاتم حزين.

إنهم يتمرنون على الأسلحة واستعمالها، نساءً ورجالاً، وفي كل يوم نبأ عن نشاطهم، حتى ضجت الأرض من فعالهم والسماء.

والإنكليز بعيدون عن المقاومة لهذا النشاط الإرهابي العسكري، خشية الرأي العام الصهيوني العالمي، ففي العام الماضي اعتدت عصابة على حياة الحاكم العام (السير هارولد ماكمايكل) وفرت آمنة مطمئنة... ومنذ بضعة أشهر، قتل اللورد (موين)، وقائد سيارته؛ فأعدم القاتلون، وظل أفراد منظمتهم يرتعون آمنين.. وفي كل يوم، تنسف محطات، وجسور، ومخافر، وقطارات، ودوائر رسمية، دون خوف أو وجل؛ والإنكليزي يقف وقفة المتفرج.. حتى لقد هرف البعض بأن ثمة أوامر صدرت تمنع البوليس من استعمال السلاح ضد اليهود.

فماذا أعد العرب لليوم العصيب؟ كفانا الارتجال في سائر أعمالنا؛ ودرهم وقاية خير من قنطار علاج؛ ومن العار أن يرجف ممتد صهيوني أثيم، قائلاً، بعد أن تحدث عن

قوة الجيش الصهيوني: (على أن العرب قد أعدوا جيشاً قوامه فرقة تتألف من مئتي كشاف، سلاحهم الوحيد النشيد العربي الفلسطيني..)

لن يفل الحديد إلا الحديد، وقضيتنا في فلسطين قضية حق وعدالة، ولكن هذا الحق، لا قيمة له، إذا لم تدعمه قوة، وفي صفحات التاريخ خير مثال لقوم يعقلون....

نعم.. للصهيونيين أن يدعوا ما شاؤوا، وليلبسوا جلد الحمل متى أرادوا فلن ينخدع عربي واحد بمزاعمهم.. لأننا لن ننسى الحوادث الماضية في الثورات الخالية، وما فعله اليهود في كل مكان من تقتيل العرب، وتشويههم وتدمير بيوتهم. وإن من أهم الأسباب التي تخيف العربي على مستقبل بلاده، هو ما يراه من رغبة اليهود في العيش في هذه البلاد كيهود، لا كفلسطينيين، يعيشون في بلاد عربية، مع العرب..

وحتى يوم الناس هذا، لا يستخدم اليهودي في مصانعه أو مكاتبه أو أعماله إلا اليهودي؛ وإذا صادف أن أحد المتعهدين اليهود، استأجر أحد العمال العرب في تعهداته، قام عليه اليهود، وأخذت الحاميات اليهودية، تهجم على العمال، واضطر صاحب العمل، لطرد العمال العرب..

هذه الحاميات التي سمحت الحكومة بتشكيلها، دون أن تسن لها أي قانون أو تطبق أي تدبير لإيقاف حركتها، برهان جلي على ما يضمر اليهود للعرب..

ولعل أبلغ وصف لقوى اليهود، وجيوشهم . ونحن لا نعتقد بوجودها . ومنظماتهم ما قاله أحد الأدباء:

إن الإرهاب اليهودي في فلسطين، وقوة اليهود المزعومة، هي أشبه بلوح من (الصبارة) ظاهره أشواك تدمي، ولكنك إذا ثنيته انكسر إلى الأبد.

وبريطانيا لم تحاول حتى الآن أن تكسر لوح (الصبارة) هذا، فلم تعدم إرهابياً واحداً، ولم تنسف بيتاً يهودياً واحداً، ولم تقتل زعيماً يهودياً واحداً؛ وشتان بين تدليلها للإرهاب اليهودي اليوم في فلسطين، وبين بطشها بثورات العرب في السنين السابقة، حين أعدمت بكثرة، واعتقلت بالألوف، ونفت بالعشرات، أو نسفت قرى بكاملها!؟

ولو أن العرب تركوا الإرهاب اليهودي، مجرداً من الحراب البريطانية فستجدون بأي سهولة سينكسر لوح (الصبارة) هذا،.

ألا فلننتظر، وإن عهد (طيتس) لا زال يرن في الآذان...

◆ ◆ ◆

كان الفندق يطل على البحر من شارع فخم! وفي صالته السفلى تعزف الأنغام الموسيقية لتشنف آذان الآكلين على موائدهم الناصعة، وتهدهدهم كأنهم في عليين.. وكان الوقت ظهراً، وتل أبيب غارقة في سبات القيلولة؛ فهم يغلقون محلاتهم حباً بعيون النوم والراحة، وتلبية لنداء الروح والجسد .. ومن الخير أن تعلم، أن مرافقها كافة، من حوانيت ومخازن ومتاجر ومعامل ودوائر، تفتح الساعة الثامنة صباحاً، وتغلق الساعة والواحدة، ثم تعود إلى العمل في الساعة الثالثة لتغلق في السادسة..

وقد شك صاحبنا كثيراً، في أن لا يكون هنالك من يتذمر من هذا النظام الكسول، لأنه دليل على إهمال الكسب وهجر الربح، وهذا أمر لا يستطيع تحمله يهودي من فصيلة شيلوخ.. وصاحبنا يذكر بأن من يعرفهم من التجار في بلده يصلون ليلهم بنهارهم، فلا يرون أولادهم ولا زوجاتهم إلا في المآتم والأعياد، ولا يستريحون من العمل إلا إذا أصابتهم مصيبة غير منتظرة، لأن العمل عبادة والبطالة لهو وزينة من عمل الشيطان!

وهكذا فقد اضطجع، كل منا على سريره بعد غداء دسم، مما جعل رفيقي يضيع بين أمواج النوم العميق، منتظرين قدوم الدليل المتبرع الصهيوني..

هل تهزم تل أبيب ؟

وأقبل الرجل في تمام الخامسة، كأنه مختبئ وراء الباب؛ وهتف قائلاً: هيا بنا ..! وأسرعنا نهبط سلالم الفندق كالسناجب، فسار بنا إلى (الكورنيش)، حيث الأجسام البشرية، على رمال الشاطئ، لا عداد لها، تمرح وتسبح، وطفق يحدث كصهيوني متعصب، فخور معتز بمدينته، التي هي رمز الصهيونية، وثمرة جهادها الجبار.. فقال بعد أن زفر زفرة خرجت من أعماق قلبه: أتدرون لو أن شركة (آشوزات بايت) لم تشتر لبناء (تل أبيب) تلك المئة والأربعين (دونماً) بل اشترت عشرة آلاف (دونم)، لكسبت فروق الأسعار التي دخلت جيوب العرب فيما بعد، لأنهم رفعوا ثمن الأراضي بجنون أسطوري؟ وكذلك لو أن تلك الشركة، فعلت ما أتمناه لبنيت مدينة أوسع مما ترون الآن، وأكثر جمالاً وصحة من المدينة الحاضرة.. ولو أن صناديقنا اشترتها لربحت ألوف الجنيهات وملايينها، ملايين نحن بحاجة إلى كل مليم منها، لبناء الوطن..

والآن، دعونا من هذا؛ فهل يروق لكم أن تروا بيوت الفنانين والأدباء، ونواديهم ومقاهيهم الخاصة التي يجتمعون فيها؟ فخلناه يسخر بنا، فنحن نعرف أن الأدباء في بلادنا حليفهم الفقر، وخدينهم الإملاق، ولكنه قال: هاكم هي! وأشار بيده إلى بنايات

ومقاه كانت تملأ الرصيف وتكتظ بالزوار.. ثم تابع: إن البلدية هي التي تؤمن لهم الدور اللازمة، وهم يدفعون ثمنها بالتقسيط، على طريقة: ادفع الأجرة مع شيء من الثمن.. وكانت تلك البيوت تشبه بعضها بعضاً، أما الدور الأخرى الفخمة فهي مختلفة عن مثيلاتها اختلافاً بيناً في العظمة، والتسابق إلى التفنن في الهندسة، وكان على أبواب بعضها لوحات مستطيلة نحاسية، أو خشبية، فيها كوة كفوهة مكبر الراديو، وبجانبها أزرار مختلفة، تحت أرقام وأسماء.. وقد شرح لنا الأستاذ، تلك الطلاسم، بأن الطارق يضغط على الزر المشير إلى رقم المنزل المقصود، فيسمع صوت الخادم من المكبر، ثم يتخاطبان؛ فإذا شاء صاحب المنزل استقباله فتح له الباب، بواسطة جهاز كهربائي، وإلا رده رداً جميلاً.. وهكذا ينجو القوم من الضيوف الثقلاء، واللصوص والمفاجآت..

وانطلقنا من حي إلى آخر؛ فهنا حي المدرسين، وهناك حي الأطباء، وهذا حي التجار، وذاك حي المحامين، والموسيقيين.. وهلم جرا.. وكل بيت تحيط به حديقة، تطل منها أشجار متنوعة، غرست تحت إشراف البلدية، لأنها صاحبة الحق في تعيين البناء وتوابعه.. فهي تعين نوع النبات، والورد والزهر، والشجر، مقدرة في ذلك ارتفاع البناء، وعرض الشارع، وضخامة القصور. فبعض الأشجار طويل، وبعضها قصير، وغيرها مثمر، والآخر للزينة وهكذا..!

ولقد شاهدنا ميتماً فخماً تحيط به حديقة مكللة بالزهر المختلفة ألوانه، فذكرنا بمياتمنا وملاجئ متشردينا، - إذا كان ثمة ملاجئ - وتسلسلت بنا الأفكار، إلى فقرائنا وأيتام مجاهدينا - أصحاب العائلات الفقيرة المستورة، لا الأغنياء الأكابر - وكيف أنهم مهملون، منسيون على سطح الأرض، دون معين أو مسعف..! تذكرنا كل ذلك ونحن مشدوهون أمام الواجهات البلورية الحديثة، والطبقات المتعددة من البناء، والأشجار السامقة، والنوافذ العريضة النظيفة..!

وهبطنا نفقاً خرجنا منه إلى (ساحة لندن) وهي من أحدث الحدائق في مدينة الربيع، وربما في الشرق كله..! وهي مخصصة لنزهة الأطفال كما يظهر.. فقد رأيناهم في عرياتهم، بأجسامهم العارية، تحت شمس مشرقة، ونور مظلل بالخمائل، وأمامهم مربياتهم يتنقلن بهم من مكان إلى مكان، حيث يؤرج الجو فوح الأزاهير، ويظلل المتنزهين أفنان كثيفة.. وكانت نافورات المياه تغسل الأوراق وتصيرها زمردية لامعة فتسبغ على الحديقة رونقاً وبهاء..

ولن يستطيع الإنسان مهما أوتي من سحر الوصف، وصدق الملاحظة الدقيقة، أن

يحيط بدقائق هذه الحديقة، فهي آية من آيات الجمال؛ ولو لم يكن في (تل أبيب) سواها، لكفاها أن تسمى بحق (تل الربيع)..!

مررنا بدار (الأوبرا)، فشاهدنا ضخامة بنائها وروعته، وتمنينا لو تحظى مدننا الكبرى بأمثالها .. فليس من الحضارة، في القرن العشرين، أن تظل مدينة تحترم نفسها دون (أوبرا) أو صالة عظيمة للموسيقى والتمثيل..

ثم رأينا دور السينما، التي تنوف على العشرين داراً، ويحتوي بعضها أجهزة لتكييف الهواء وتلطيفه في الصيف..! وتسخينه وتدفئته في الشتاء.! وبذلك يظل الجو معتدلاً ملائماً للرواد والزبن في كل آن وحين..! ولقد قيل لنا بأن بعض الأفلام يستمر عرضه في صالة واحدة أكثر من ثلاثة أشهر، إذ لا يوجد رجل يحترم نفسه ولا يذهب إلى السينما، ولو مرة في الأسبوع؛ فالسينما مدرسة الشعب، ومثقفة نفسه ولا يذهب إلى السينما، ولو مرة في الأسبوع؛ فالسينما مدرسة الشعب، ومثقفة الجيل، ولو كره الجامدون.. ثم انتقلنا من شارع إلى شارع، ومن درب إلى آخر، فإذا بها كلها عريضة نظيفة، غرست على طرفيها الأشجار منذ نشأتها .. تحت إشراف البلدية، التي يقدر عدد موظفيها بموظفي دولة جبارة.

ولقد مررنا ببعض الدور، فكان الأستاذ يشير إلى وحدات منها قائلاً: هذه هدية البلدية إلى الفنانة فلانة، وهي الآن ترفه عن الجنود في الميدان الفلاني..! وتلك هدية للعلامة فلان تقديراً لجهوده العلمية، وغيرها هبة للموسيقار علان.. وهكذا ..!

ولن ترى من وسائل النقل في شوراع تل أبيب (تراموايات) ولا (طنابر) أو عربات (كارو) أو خيولاً وحميراً لتركبوها، لن تشاهد (جمالاً) تسير على الرصيف، مع المحترمين من بني آدم. بل تبصر (باصات) تتجه إلى كل أطراف المدينة. فلا يتيه الترام هنا، أو تحيد (سنكته) عن شريطه، أو تتغير أوقاته، أو يتعطل، ويتحمل الناس ثقله وسماجته وبطأه.. وجل ما هنالك حركة دائمة منظمة، تؤديها (باصات) أنيقة، ذات طبقة واحدة أو طبقتين، لم نشهد مثلها من قبل، إلا في دور السينما.

وأخيراً وصلنا إلى (حديقة الحيوانات)، أو كما يسمونها (جان لاحيوت) فأسرعنا بدخولها لمشاهدة غرائب وعجائب البر والبحر، وهي كما بدا لنا مازالت صغيرة فقيرة في دور التكوين.! فالحيوانات حبيسة في أقفاصها وحجراتها، وقد كتب على كل قفص أسماؤها باللغات الثلاث أو الأربع: العبرية، والإنكليزية، والعربية، والفرنسية.. وهنالك أقفاص الأغربة والواق، والحمام والكنار، والببغاء وطيور (جاوا)، وما إلى ذلك من صنوف

الطير وألوانه.. وعن كثب منها تشاهد الدببة الفارسية والهندية، وهي بنية اللون، أو سوداء دامسة.. وثمة سباع، ولبؤات، وأشبال، إلى جانب نمور، وفهود، تقضم جميعها لحم البقر وعظامه، كما يقضم أحدنا (كعب الغزال).. أو (حلي سنونك).. وتكثر أقفاص القردة المتنوعة المختلفة وهي تصيح وتزقزق لتلتهم كل ما يلقي إليها من الفواكه، والموالح، حتى أعقاب السكائر..! أما الأرانب، وبنات آوى، وفأر المسك والجرابيع والورل والقواضم وآكلة اللحوم، فلا يحصرها عد أو ذهن.! وليس أجمل من بقر الوحش، والوعل والبجع والطيور المائية، وهي تصول وتجول، برقابها الطويلة الرفيعة، أو بقرونها المتفرعة المتشابكة.. وتكثر العقبان والنسور، وجوارح الطير، فوق الأغصان، وهي فخورة مزهوة كملوك الطير، وسلاطين الجو.. أما السلاحف البحرية والبرية، وذلك التمساح الهائل، فإنها تقزز النفس، وتبعث فيها شيئاً من الرهبة والتعجب. وقبل أن نبارح الحديقة، شاهدنا قاعة الأسماك الصغيرة، وهي قبو واسع، أنيرت خزائنه البلورية، المحفورة في جوف الجدران، ترتع فيها الأسماك من كل صنف ولون، ويتجدد هواؤها، ويتلطف ماؤها، بواسطة نفاثات الهواء الداخلية... وتجد فيها أصغر أنواع أسماك (الشيلي) أو سيلان، أو الحرابي البحرية والسرطانات..

واخيراً أبصرنا مجموعة الأفاعي والثعابين، من أصدقاء والدتنا المرحومة حواء، ويقربها حاخام كريم، يرمقها شزراً، وكأنه يردد أمامها ما وعدها به الرب: على بطنك تسعين، وتراباً تأكلين كل أيام حياتك...

جمال في كل مكان

عاد صاحبنا إلى الفندق، وراح يفتش في دفتر مذكراته، عن صديقة أو صديق يكون له نعم الهادي، ونعم الدليل، في هذه المدينة التي لا يجوز أن يعيش فيها الإنسان بلا رفيق.. وسرعان ما عثر على ما يبتغي من صديقة وصديق، وها هو ذا يتجه معها إلى أقرب (بار - مقهى) على شاطئ البحر، في مدينة الربيع..

ولقد تحلقنا حول مائدة يوحي خوانها بالنظافة، فوقها زهرية تغص برائع الورد، بينما كانت الفرقة الموسيقية تعزف بين الحين والحين، قطعاً غنائية أو راقصة، علوية ساحرة. وإذا كنا لم نزر أوروبا، فقد حدثونا بأن ما نشاهده الآن قد لا نعثر عليه حتى في أفخم عواصمها ومدائنها..

وطفق القوم يتحدثون، والحديث ذو شجون، فيستعيدون ذكريات دمشق، ورياضها وغوطتها، ويترجمون ذلك إلى العبريات الغربيات.. ولله يا دمشق، كم تركت في قلوب عشاقك، من ذكريات لا تفنى، ومن صدى لا يذوي على ممر الدهر..! وهل يسكت السائحان المغامران في هذا الجمع الحاشد من (المتصهينين) المتطرفين الغلاة.. والخبثاء.! أم ينتهزان الفرصة لإلقاء ذرة من البارود في قلوبهم فتنتشر الأحاديث، وتقذف الأسرار، وتفك عقد اللسان؟ وهذا ما كان بل وما ينبغي أن يكون.! وفي ذلك الجو الساحر، بين الغواني والفتيان، صدرت آراء صهيون سافرة مكشوفة تلقفتها أذنا الضيفين الكريمين بكل ترحيب..

امرأة تتحدث عن العنصر الصهيوني

وتحدثت فتاة بلغة فرنسية، تضع نظارة زرقاء، لتخفي بها شيئاً من صغر تينك العينين، ولتعطيها بعض الجمال المرموق قالت: كان هتلر - ولأول مرة نسمع اسمه في فلسطين - يقول: إن اليهود في ألمانيا، ليسوا سوى ضيف كريم قدمته لي يد الديموقراطية.. ثم سكتت، فاتجهت إليها العيون والأسماع.. وتابعت: وقد كان الديكتاتور (غول) العنصر اليهودي، يعرف ما يريد من مغزى الجملة هذه، فقد سبق له أن قرر كيف يتخلص من ذلك الضيف الكريم، ما دامت فلسطين الموعودة تنتظره.! ولست أدري أية مجزرة كبرى ستحدث لو لم تكن هنا فلسطين.؟

إن كبش الفداء، الذي جعله منا هتلر، لتخفيف سخطه على الخلفاء، كما تفعل كل دولة رأسمالية، أو فاشية أحياناً، كان عنصراً فعالاً في شحذ الهمة للتشبث بأرض إسرائيل.. وإن الهمجية العنصرية المنافقة وحدها، هي التي خلقت مشكلة فلسطين. وليس مستطاعاً اليوم، أن يرجع اليهود، إلى ظلمات (الجيتو)، وليس بالمستطاع أيضاً أن يتحملوا المذابح كل حين.! لقد كان (هتلر) يؤمن بالعنصرية الجرمانية، كإله معبود، كما يؤمن الكثير منا بصفاء العرق، فلم تستطع ساعتئذ ألمانيا تحمل عنصرين صافيين.! فنحن - شعب الله المختار ... هي فكرة، أنا لا أميل إلى التمسك بها، ولكنني كصهيونية مثقفة، آمل العيش براحة في وطن تربطني به أواصر الروح والذكرى والعنصرية اليهودية...

ثم أمسكت بجريدة عبرية، ولعلها - دافار - تقلبها حيناً، وتثنيها أخرى، وتناولت سيكارة من أحد الرفاق، أشعلتها بهدوء وتؤدة، وقد ران على الجميع صمت، حتى لكأنهم

في مقبرة.. وليس ذلك السكوت بغريب، فالناس دوماً يتكلمون هنالك همساً، كما ليس غريباً، أن نسمع كثيراً لنتكلم قليلاً، فهدفنا : إملاء الجعبة قدر ما نستطيع.!

غير أن صاحبنا أحب . علم الله . أن يظهر بلاغته وثقافته، فاعتدل في جلسته وتهيأ، وكاد أن يصيح مزمجراً، لولا شيء من هيبة المكان، ولولا أن بين الجمع من الفاتنات ما يسيل لهن لعاب الزاهد، أو ترقص لسحرهن حواجب العابد ؛ فلطف من لهجته وقال: ولكن.. ولكن يا حضرة الآنسة: إن مفهوم العنصر ـ منطقياً ـ مبهم وغامض جداً، لأنه يتكيف دوماً حسب علم (الانتولوجيا) ورجاله، أو تبعاً للساسة المغرضين، كالنازيين مثلاً.! فلو قصدت بالعنصر، أولئك الناس الذين انحدروا منذ آلاف السنين إلى اليوم، وقد صفا دمهم من كل لون خليط، فهو خطأ فاحش، وتفكير مترع بالخيال، لوجود ما يسميه الفلاسفة والمثقفون، (استحالة تاريخية)؛ أما إذا شئت بذلك جماعة معينة، لهم لونهم، وشكلهم، ومزاجهم الخاص، فربما يحتمل الأمر النقاش.

وهنا أخذ يلتفت يمنة ويسرة ليتأكد من وجودي إلى جانبه أشد أزره، ولو بإيماءه رأس أو غمزة عين، فقد كنت الوحيد الذي يوافقه على بياض، في كل ما يقول، فتابع: إن الواقع والحقيقة يجعلان كلمة العنصر المتفوق أو الممتاز، كما يرتئي المغالون من رجالكم، كلمة لا وزن لها من الناحية العلمية والمنطقية، فليس هنالك عنصر منحط ولا متفوق؛ لأن العناصر لا تثبت أو تستمر مع طول الأجيال من هذه الوجهة..!

إن مدرسة (هتلر ـ ستريخر) لم تستطع إبادة ماركس، وفرويد، وآنشتاين، من صفحات التاريخ، كما أن مدرستكم المفرطة ـ المقدسة ـ بيولوجياً، لم تستطع محق الأمم الأخرى وسحق رجالها البارزين..!

ثم ازدرد ريقه وعلى اثره ـ حمداً لله ـ تقدمت (الكارسون) الناعمة بالأسيس، شرابنا المفتخر، فأسرع كل يأخذ كأسه، ليردها بيضاء من غير سوء؛ ولم ينس أحد من الجماعة، سوى الفتاة اللعوب، صاحبة العوينات؛ فقد كانت أكثر الجميع ثقافة وإطلاعاً.. وكأنها دائرة المعارف الفرنسية.. قالت: والآن نستطيع أن نتفاهم يا عزيزي.. ولكننا سنبدأ حديثاً أطرف مما بدأنا به منذ هنيهة.. سأحدثك عن نواح يهودية من اختصاصي، وذلك حينما سنخرج إلى التجول على الساحل.. وهمس ساعتئذ صاحبنا في أذن أحد الجالسين: ما هو اختصاص حضرة الآنسة.؟ فأجاب: إنها الأستاذة.. مدرسة الاجتماعيات، في مدارس تل أبيب الثانوية، ومن الأعضاء العاملات في (الهاجانا)، فسكت صاحبنا وتقلص، وقرر أن ينجو بجلده، تاركاً أمره إلى الله.. فلم يكن هو مؤرخاً ولا عالماً

اجتماعياً من رجال هذا (البازار).. فتحمل الصدمة المزلزلة وهمّ بالانصراف.. غير أني أسعفته بالمواد المشجعة من السفسطات التي يتقنها المغامرون ومن لف لفهم، فتحمس وعزم على الوقوف في وجه العاصفة مهما كلفه الأمر، وذلك خير له وأبقى.!

كانت الساعة تدق العاشرة، عندما غادرنا المقهى، وسرنا على الشاطئ مثنى مثنى، تاركين المكان يتلألأ بالأنوار، وتملأ جوه رنات الموسيقا والضحك، وأصوات الفناء، كأنما قرر زواره وسماره، أن يعيشوا ليلة لا غد لها..

سرنا على الشاطئ حيث يحلو السمر، في ذلك الوقت اللطيف من الليل، وحيث تكثر الهمسات تحت الظلال، وعند كل شجرة أو جدار أو جسر أو نفق.! وهنا، اقترب صاحبنا من الفتاة، وسألها بعد أن حاذى كتفها: نحن لا زلنا على الوعد؛ فحدثينا يا آنستي - غير مأمورة - عما تعرفينه عن النهضة العلمية اليهودية، المرافقة للصهيونية الحديثة.. ثم لمس ساعتئذ كتفها العاجي، متحسساً لحماً كان يحسبه طرياً، فإذا به من لحوم (الموضة) قد أهلكه (الريجيم) حتى تركه بشرة وعصباً وعظماً.! فابتسمت وقالت بدلال مقبول رغم كل شيء...

سؤالك واسع، وجوابه أوسع، غير أنني سألخصه، فاستمع إلي:

وهنا التفتُ إلى الوراء، فرأيت القوم وكل واحد منهم يخاصر صاحبته، فلم يبق هنالك من رواد العلم والمعرفة، سوانا نحن الثلاثة.. ولكم تحرق صاحبنا على حظه، وندب بخته، لأن الأستاذة لم تكن جميلة كما يريد حضرته؛ ولعل العلم لا يجتمع مع الجمال على صعيد واحد.. قالت:

كانت آمال اليهود، في القرن التاسع عشر، وأواخر القرن الثامن عشر تقريباً، تنحصر في التخلص من الإرهاق والضغط؛ ولقد تخلصوا مبدئياً في فرنسا عقب الثورة الكبرى من أسوار الجيتو الحقيرة، فكان من أثر ذلك فيهم، أن هاجت حميتهم الثقافية، ونمت فيهم فكرة البعث اليهودي، وهو ما نسميه نحن بالـ (هسكالا) أي ما معناه التنوير.. وكان ذلك في بولونيا وألمانيا وروسيا وغيرها؛ مما حدا بأرباب هذه النهضة، إلى فصل ثقافتهم العصرية عن الدين فمزجوها بروح علمية وعقلية، مناسبة للعصر، حتى أنها باعدت بينهم وبين الحنين إلى أرض يعقوب في فلسطين.!

وكان رائد هذه الروح مبادئ الثورة المذكورة الثلاثة، وهي الحرية والمساواة والإخاء، ذلك أنهم كانوا يعتقدون بانتهاء المسألة اليهودية، بعد انبثاق نور الحرية الفرنسية وأن كبش الفداء الأزلي سيمحق اسمه من سفر التاريخ وأدمغة الأجيال.! غير أن الواقع سفه

رأيهم، وقضى على تفاؤلهم، بعد عدة مذابح وتعديات، على ذلك اليهودي التائه اليائس نفسه، حتى تطور الأمر بعدئذ بهم نحو الصهيونية المعاصرة.!

وكانت هذه الحركة، وليدة التحول الدولي أيضاً نحو الاستعمار.! وقد طالت مدة هذا الانعكاس سنوات مديدة، فالبذور بدأت تنتج سويقاتها وجذيراتها، منذ أن لقحت في التحالف المقدس عقب الحرب (النابوليونية) فقد ظل الأوروبيون وما لبثوا، يضعون الشعب اليهودي في المؤخرة، رغم المساهمة الفعالة، التي قام بها في الحركات التحريرية حتى عام 1848. إلى أن قال أحد الألمان اليهود ولعله (موئيز هيس): إن الشعب اليهودي، سيظل غريباً، بعيداً عن الاحترام، ما دام يترك ذكرياته، في الصف الأخير أو الثاني من مطامعه.! وإذا كانت هنالك بعض الحقوق لليهود، فإنما هم توصلوا إليها، بدافع الإنسانية والرحمة لا بدافع الحق.!

ومنذئذ، والحركات تترى في سبيل خلق أرض جديدة، ووطن جديد، لنموّ العبقرية اليهودية، والنبوغ الإسرائيلي، ولا شك أنكما تعرفان نهاية هذا التطور، وانتقال الفكرة إلى حيز الواقع السياسي؛ أي من عام 914 ـ 918 وخاصة بعد وعد بلفور.!

.. وكان القمر ينزوي خلف الأبنية الشاهقة، فبتنا في ظلام دامس، وكانت الساعة تقارب الثانية عشرة، حين ودعنا الآنسة المغالية الصهيونية؛ ومن بعيد لبعيد، صاح صاحبنا بالمنزوين والمنزويات، تحت الأشجار والزوايا .. شالوم.. شالوم..

شفاييم . . . أرض الثلال . . .

لم نعدد كم ساعة نعمت فيها عيوننا بالكرى، ولكننا نعرف أننا استيقظنا كغصن رطيب، في تمام الخامسة صباحاً، فارتدينا (مايوهاتنا)، وهبطنا عراة من الفندق، كما هبط غيرنا من الرجال والنساء، وسرنا كما خلقنا الله، في شارع الكورنيش.

ها نحن أولاء بين أمواج البحر الهائج، مع جموع الأهلين، الذين أقبلوا منذ الصباح الباكر، ـ وقبل أن يؤموا مخازنهم ومحلاتهم ـ ننعم بالسباحة، وهي متعة لا تفوقها متعة عند سكان الشواطئ.. وكانت ساعة صارعت فيها جسومنا أمواه البحر وأثباجه، بين الظباء العائمة، والغواني الغائصة، وفي جو كله سحر وفتنة.!

وما إن نشطت أعصابنا وعضلاتنا، حتى عدنا مسرعين لنمتطي أول سيارة، تقصد مستعمرة (شفاييم)[185]. وهل ينسى صاحبنا أنه خرج من البحر، دون أن يغتسل بالماء العذب، فأبصره في الشارع العام، جنّان يسقي الأشجار، ويغسل أوراقها بخرطوم مائه، فدعاه إلى (دوشه) المجاني، وكانت دقائق، وقف فيها صاحبنا، تحت خرطوم غزير المياه، بين قهقهات المارات، وتوابل نكات العابرين الفكهة.؟

وهل هو في نظر الجميع، إلا صهيوني عريق في الاقتصاد والكسب.؟!

سار السائحان عاريين في الطرق، إلا من (مايوه)، أصغر من عقل الجاهل، أو رزق الفقير.. ولا تحسبن المارات والمارين، قتلوهما بالنظرات الساحرة، و(تبويزات) الوجوه، المشمئزة الثائرة، على الفضيلة والأخلاق.. أبداً، لم يلاحظا ذلك على الناس.. فلكل حريته ورأيه وعمله.. ولا تنه عن خلق وتأتي مثله.!

نشاط يبعث على الأسف

كانت الطريق إلى (شفاييم) مترعة الجانبين بمزارع الموز، وأشجار الصنوبر،

---

(185) ـ شفاييم ـ Shefaim، اقصى مستعمرة في الشمال من قضايا يافا، اقيمت عام 1935م وهي كيبوتس اقيم على اراضي قرية جريشة العربية الفلسطينية

و(بيارات) البرتقال، وأنواع الحمضيات. ومما يلفت النظر، تلك النافورات اللولبية، التي تسقي الأشجار، مهما علت، وتغسل أوراقها، فترى أوراق شجيرات الموز والبرتقال، تتلألأ خضراء نظيفة، تحت أشعة الشمس المشرقة. وعلى طول الطريق تلوح المستعمرات المثالية الصهيونية؛ دون أن تبصر قرية عربية واحدة... فهل أحدث الصهيونيون شبكة طرقهم، بعيدة عن أراضي العرب، لتصل بين مستعمراتهم، فلا تنالها أيدي أعدائهم بسوء، من قطع أو تخريب، إذا ما جد الجد وحمي الوطيس، أم أنهم أجلوا العرب عن ديارهم، في هذه الربوع، فلم يبق لهم أثر.؟ إنما نحن نعتقد بالشيئين معاً؛ فللصهيونيين تدابيرهم الجهنمية اللعينة في الاستعمار، والاطمئنان إلى مستقبل الأيام والمفاجآت.. أوليس درهم وقاية خير من قنطار علاج.؟

كانت العلامة البارزة والدالة على قيام المستعمرة، خزانات هائلة مرتفعة مدهونة بالبياض تملأ بمحركات تدفع الماء من أعمق الأغوار، إلى أعلى الطبقات، ليستطاع توزيعه على سائر أجزاء الأرض، سواء علت أو انخفضت. وهكذا فإن فقدان الأنهار لم يحل مانعاً دون قيام المستعمرات والجنان؛ فليس هنالك أنهار قط بل آبار؛ ومتى وجد الماء وجدت الحياة. فالخزانات أول عمل في المستعمرة؛ وهي الخلية الأولى في القرية المستحدثة.! وهنا تذكر صاحبنا آلاف آلاف (الدونمات) من الأراضي الزراعية الخصبة، على ضفاف الفرات والعاصي والخابور، مهملة إهمالاً زرياً، يبعث على الأسف.! فهل يقول إن ماء الخابور، لا يروي على ضفتيه، إلا مسافات يتراوح عمقها بين عشرة وعشرين متراً.. بينما المياه تسيل غزيرة تقطع السهول والقفار.؟

أيها الماء كيف تجري سراعاً	وحواليك قاحلات البوادي.!
لو سقينا بك الحبوب شتاءً	لحصدنا النضار يوم الحصاد.!

أجل، لقد تذكر صاحبنا ساعتئذ، أنه قطع في غابر الأيام، سبعمئة كيلو متر من دمشق إلى القامشلي، فنصيبين، ومن دون أن يجد في طريقه أرضاً مزروعة، تتجاوز ثلاثين كيلو متراً طولاً.! فهل هذا شأن أمة تطالب بحقها تحت الشمس..؟ وهل هذا شأن أمة تتطلب الحياة والنجاح، وشبابها يطرقون أبواب الوظائف، يتسكعون لزيد وعمر، أو يدفعون اشتراكات شهرية (آبونه) في المقاهي.؟! بينما هنالك في بطن الثرى كنوز، وكنوز عذراء، لم تمسها يد إنس ولا جان، تنتظر من يشق الأرض، ويحيي الموات..

ألا لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى.. فهل من مجيب.؟

ها هي ذي السيارة تقف في (شفاييم)، وها نحن أولاء نغادرها، إلى باحة رملة، تحفها بيوت المستعمرة البيضاء، وحدائقها الخضر. ولم نكد نخطو بضع خطوات، حتى خف العمال من كل جانب، بألبستهم الملوثة بآثار العمل، ينظرون إلى من تحملهم السيارة؛ وسرعان ما اكتشف صاحبنا قدماء طلابه وطالباته، وقد طفح البشر على وجوههم لمرآه، فأسرعوا بنا إلى حجراتهم الخاصة، لنستريح من وعثاء السفر..

كان الوقت ظهراً، وقد جلجل ناقوس ضخم يؤذن بالطعام. فدعانا الطلاب لتناوله، فسألناهم: ألا يجب الاستئذان من مدير المستعمرة.؟ فأجابوا بصوت واحد: لا، لا.. كلنا هنا مدير، وكلنا راع، ومسؤول.. وبدهي أن مستعمرتنا، ليست مفتوحة الأبواب للعاطلين المتشردين المتسولين، ولن تكون هدفاً للمحتالين (النصابين)؛ ولكننا نحترم الضيوف، ونكرم الزائرين، وخاصة من نثق بأدبهم وأخلاقهم. ولعل صديقي كادت تصم أذناه في طريقه إلى المطعم، لكثرة أسئلتهم عن أهليهم وإخوانهم ودمشقهم وأشواقهم وذكرياتهم.! إنهم يرغبون في رؤية دمشق دونما عودة، بعد أن تقرر مصيرهم هنا في هذه المستعمرة كصهيونيين مستعمرين، عن طواعية واختيار، وبعد تفكير واقتناع.!

كان المطعم قاعة واسعة، ولكنها لا تتسع دفعة واحدة، لسكان المستعمرة البالغ عددهم، أكثر من سبعمئة نفس، ولذا فهم يتناوبون على دفعتين أو ثلاث.. أما أدوات المطعم فكلها من الألمنيوم، وهي نظيفة مرتبة على الموائد بنظام. غير أن الماء - حياة الإنسان - مازال كما نعهده مفقوداً، وهم يستعيضون عنه بالشاي الساخن، مع قطع السكر التي توضع في الفم قبل ارتشافه، تطبيقاً لآخر نظريات علم الاقتصاد.! وكان الطعام مؤلفاً يومئذ من أكباد البقر وطحالها، مقلية مع البصل واللحم والدهن، وبجانبها (البرغل) وحساء الخضر. ويقدم هذا الطعام إلى كافة سكان المستعمرة السليمين دون استثناء؛ فيتناولون أربع وجبات يومياً؛ أما المرضى فيتناولون ست وجبات، أو كما يشير الطبيب..

هذا ولن ينسى صاحبنا، قطعة من اللحم البقري الصلبة، لم ترضخ لتوسلات شوكته، أو تشفق على زفراته، أو ترثي لعصافير بطنه، بل ظلت رافعة رأسها بكبرياء لا تلين، كبعض أثرياء الحرب المعروفين، أو أدعياء العلم، وأنصاف العلماء الجاهلين.. و أخيراً وبعد صولات وجولات في ميدان الصحن، وحركات التفافية بارعة، استجابت لتوسلاته، وأسلست القياد، فأسرع يدحرجها في حلقه كحبة من (الأسبرين).. وفي هذه الأثناء، أقبل أستاذ الطلاب، وهو بولوني يتكلم الفرنسية بطلاقة، فقدموه إلينا، وجلس بجانبنا،

يشاركنا الطعام، ويبدي ضروب اللطف والعطف، ويتمنى مرافقتنا في زيارة المستعمرة، لولا كثرة أشغاله وأعماله الشاقة..

غزل في معركة انتخابية

ونادى مناد يدعو فتيات (الكيبوتس) وفتيانه، لحضور الانتخابات العامة التي تجري بمناسبة دخول العام العبري الجديد، لانتخاب اللجان، والأشخاص الذين يناط بهم أمر تنظيم المستعمرة، والإشراف على شؤونها .. فدعينا كضيوف شرف.!

وكانت حجرة الاجتماع أشبه بفصل مدرسي، نضدت على أطرافه الموائد، وجلس الجميع إليها، بعضهم بلباس (المايوه) فقط، والآخرون بسراويل قصيرة جداً؛ أما الفتيات، فكن يرتدين طرأ لباس (الكيبوتسيات) التقليدي..

جلس أستاذهم البولوني إلى مائدة صغيرة، يدير الجلسات، ويوجه المناقشات، ويسجل الأصوات، وكان جدول الأعمال يتألف من: بث الشكوى، والاقتراحات الجديدة، وتوزيع الأعمال، وانتخاب اللجان..

وما قرئت أسماء الحاضرين والحاضرات، حتى احتدمت المناقشات، وعنف الصراخ بين الفتيات والفتيان. وبدأ الشغب واللعب والمزاح، حتى لقد قال لي صديقي هامساً: (قاضي الولاد شنأ حالو).!

واستمرت الجلسة بعض الساعة، وكانت النتيجة أن انتخبت فتاة، لجلب طعام المرضى، وفتى لتفتيش النظافة ومراقبة المعلولين، وأخرى لتقدير الأذون والإجازات ومحاسب وخازن وأعضاء لملاحظة الاتجاهات الثقافية والمطالعة، وفتيات لتنظم الحفلات.

البحر نشوان (بيضحك)

وما كادت الجلسة تنتهي، حتى دعينا إلى زيارة البحر، الذي يبعد كيلو مترين عن (شفاييم)، فجلبوا لنا (مايوهات)؛ وها نحن في طريقنا إلى الشاطئ، في موكب من الفتيان والفتيات..

وكان منظر البحر فريداً في نوعه، لم تقع أعيننا على مثله من قبل.!

تخيل أيها القارئ كثباناً عالية من الرمال الحمراء، بارتفاع ثلاثمئة متر تقريباً، تنحدر شاقولياً، مع بعض الصخور الرملية، نحو الشاطئ المذهب المتألق.. وليس ثمة

طريق، سوى منحدر رملي ضيق متعرج جداً، كانت تغوص فيه أرجلنا حتى الركب.! وفي أعلى التلال الشاهقة، بقرات ترعى على شفا الهاوية، قرب شجيرات التين المطلة على الجرف تماماً، إلى جانب قرية بعيدة عربية تشرف على اليم..! وأما رمال الشاطئ، فهي نظيفة ناعمة حمراء، يغسلها البحر منذ ألوف السنين.. ومن بعيد، كان الأفق يبدو مغرياً، حيث تتصل السماء بالماء الأزرق اللازوردي، ولا يفصل اليمّ عن أرجوان الرمال، سوى صخور بنية عابسة، وأثباج من الموج الناصعة تثور مع البحر، لترسم شريطاً أبيض متعرجاً فوق الرمال الرطبة.!

جلسنا على الشاطئ، وافترشنا الرمال، والموج يضرب أقفيتنا؛ ونسينا أفكارنا العلمية، ومهمتنا (الصحفية) فترة، ونحن نلهو برسم القدود، والنهود على الرمل.. فلكم كومناها تلالاً، تمثل السابحات، وكم غمرتنا نشوة علوية أنستنا الدنيا وهمومها. ولم يغط صاحبنا سوى اثنين فرّا مع اثنتين إلى مكان بعيد.. خلف الصخور.! وكأنهم يلعبون (التغمية)، وغابوا عن أبصارنا، ثم بدوا بعد مدة طويلة.!

فلمَ فرّ هؤلاء الخبثاء إلى ذلك المكان السحيق.؟ هل راحوا يلبون نداء الجسد أو القلب.. وراء الصخور.. وفي منأى عن العيون.؟ ربما.! فالغذاء الدسم، والرياضة، والشمس والعري، هي قنابل ذرية، تنسف أقوى حصون الفضيلة والطهارة في تلك الربوع.! ولا عجب إذن، إن قل المتزوجون والمتزوجات، وكثر العزب والعوازب..

عدنا وماء البحر المالح على أجسامنا لم يجف، وقصدنا لساعتنا الحمام.. والحمامات هنالك قسمان، قسم للرجال وقسم للنساء؛ وليس للرجال أن يزوروا الإناث، أما إذا شاءت أنثى، أن تغتسل في حمام الرجال، فالمفرط أولى بالخسارة..!

كتاب مفتوح تجب قراءته

عدنا بعد تعب ورياضة واستحمام، نلذ بوجبة ثالثة، ونكثر من الزبد والحلو أيما إكثار، استعداداً لجولة واسعة في أنحاء (الكيبوتس). ولقد لفت نظرنا هذه المرة دخول الكهرباء في كل شيء.. دوماً وأبداً.! فكأن الصهيونية، تريد كهربة جميع مرافق الحياة في (الكيبوتسات)؛ وما ذلك بغريب عنهم.. فإنهم ينقلون إلى فلسطين كل ما في الغرب من علم وفكر وعمل.! فالكهرباء في وجه القرن العشرين المشرق، ولعل حضارة أمة من الأمم اليوم، تقاس بمقدار تغلغل الكهرباء في حياتها ومرافقها..

هاهو ذا المطبخ، وجميع آلاته تدار وتعمل بالكهرباء، غير أنها تجري على مقياس

أوسع مما رأيناه في (شفيا) ولو كان الإتقان والنظافة هنا، أقل ظهوراً وتفشياً من هنالك، وذلك لاتساع العمل والحركة والنفوس في هذه الديار، ولأن (شفيا) ليست مستعمرة بالمعنى المفهوم، بل هي مدرسة لإنتاج الشباب العامل بصورة سريعة منظمة.! وأغلب آلات الغسيل، من صنع (تل أبيب) وكلها تدار بالكهرباء أيضاً، فتضع العاملة المختصة الماء والصودا والصابون المبشور بمقدار مقنن، ثم تدير الآلة ساعة واحدة، وهي تتسع لما يعادل (25) ك غ من الثياب. ولها دورات ثلاث باتجاه، ثم دورتان باتجاه معاكس، وثمة آلة الهصر (الفسيل) مؤلفة من وعاء أسطواني كبير مثقوب الجدران، يدور حول محور مرتبط بآلة متحركة، ويحيط بهذا الوعاء، وعاء آخر ينتهي من أسفله بصنبور؛ فإذا دار المحرك، دار الوعاء الداخلي، فانطلقت قطع القماش إلى محيط الوعاء، بتأثير القوة النابذة فيها، وعندئذ يتطاير الماء ذرات، تتجمع في الإناء الخارجي، ثم تسيل من الصنبور.!

ويلي ذلك، حجرات رفء الملابس وترميمها ورقعها وخياطتها وكيّها، فترى قسماً منها لألبسة المراهقين العرب، وقسماً للأطفال، وآخر للبنات، وغيره للغرباء من غير العرب.. وترى إلى جانب هذه الحجرات، معامل النجارة الخاصة بصنع لوازم المستعمرة الخشبية، فتؤمن مطالبها من أسرة ومقاعد، وأخشاب بناء وأبواب وغيرها على أكمل وجه..

وهنالك معمل، يصنعون فيه نوعاً خاصاً من الأحذية للزراع، لا تدق فيه المسامير الحديدية، بل تستبدل بمسامير خشبية وخيوط.. ولعل هذا النوع مما يوافق الحياة الريفية موافقة تامة فلا يفنى ولا يبلى.. وتذكر صاحبنا عندئذ، قرويات أرياض دمشق، حينما يهبطن المدينة فيخلعن أحذيتهن لئلا تتهرأ في الطريق، ولأن الطريق نفسها أنظف من دورهن، عدا أن جلودهن تتجدد دوماً بلا ثمن، أما الأحذية فجديدها يتطلب الثمن المضمون.!

ولقد كانت أعمال البناء، قائمة على قدم وساق كالعادة دوماً، ذلك أن المستعمرة في اتساع مستمر، لا تقف عند حد، فكلما استولوا على قطعة من الأرض، أصلحوها وأحيوها ثم فتشوا عن غيرها، ولذا فالبناؤون يعملون طيلة الأيام بصب القوالب الإسمنتية المفرغة، ليستطيعوا بناء حجرة في ساعات معدودات... فلقد يصل المستعمرون إلى الأرض صباحاً، فترى في المساء قرية كاملة ظهرت للوجود، أما أبنيتهم هناك فهي مريحة وصحية وعملية..

وانتقلنا في أرجاء المستعمرة، فشاهدنا خممة الدواجن وأقفاصها، فيها البط والإوز

والدجاج، وقد أنشئت أقفاصها بطريقة تمكن من أخذ (السرقين)، وذلك بجعل أرض القفص من شريط تمتد تحته ألواح واسعة متحركة، يسحبونها حينما يريدون، ويجمعون من فوقها السرقين المتراكم.. ذلك السماد الطبيعي الفني.. ثم زرنا الإسطبل، فوجدناه أقل ترتيباً مما شاهدناه في (شفيا)؛ غير أنه لا يقل نظافة. وكذلك مكان الاستحلاب، ففيه مفرزة يدوية، وأوعية معدنية نظيفة.. وهنالك مكان خاص بالعجول، ولكل عجل اسمه الذي ينادى به، وقد شاهدنا إلى جانب كل ذلك حجرة خاصة بثور ضخم يدعى (تشرشل) - كذا - أنسانا منظره ثور (شفيا)، وتلاصق حجرته ثور آخر أضخم منه يدعى (بودا).. وهما مخصصان (للأنسال) والقيام بشؤون الحريم..! ولعل خصيتي أحدهما البيضاوين، تجعل الرائي ينشط إلى ذكر أجراس الفضة المتألقة، بالنسبة لسواد جلد الثور الدامس ونظافته.! ثم سرنا لنمتع البصر بحريم الثورين: البقرات المزيزات، وكان اسم كل واحد منهن فوقها، فهذه هي (هيلانة)، وتلك هي (تيكفا)، وهذه (دينا)..

وتحلب البقرة هناك، ثلاث مرات في اليوم، وفي كل مرة تدر ما لا يقل عن سبعة ليترات أو ثمانية من الحليب. وتقسم إسطبلات البقر حسب السن والنوع... فهنالك نوع يقتنى لحليبه فقط، ونوع للحمه، ونوع للجر والأعمال.! ولبعض البقر الحلوب عندهم أنساب طويلة عريضة.! فمنها الأرستقراطي، أو البورجوازي لحق طبقة الحيوان اليوم أيضاً.!

وأعجب من كل ذلك - وليسمع سكان الأرياف - أنهم جعلوا مكاناً خاصاً للسفاد بين البقر.. فتدخل البقرة في مكان محدد بالأنابيب الحديدية الضخمة، فتحتجز فيه، وتربط من رقبتها، عدا مؤخرتها الناتئة عن المكان، مستعدة لمقدم الزوج السعيد، ولا فرق هنا بين (تشرشل) أو (بودا) إذ يجب أن لا يخيب رجاء أصحابه في عملية الإلقاح؛ غير أنه يجب أن لا ننسى أيضاً بأن مكان الزوج الطيب أوسع مما للبقرة، بالنسبة لضخامته ولمقتضيات الفن.. فكأن إطارها ضمن إطار الزوج العتيد..! وأخيراً، هاكم معاطن الإبل ولا شيء فيها يستحق الذكر والإعجاب..

وعندما وصلنا أقصى المستعمرة، وقف الجمع أمام مقبرتها خاشعين خاضعين، فهي عندهم - كم حدثونا - رمز العمل المتواصل، والكدح المخلص.! فهنا يرقد من قضوا في سبيل الواجب، ممن هجروا بلادهم، وهبطوا أرض الميعاد، وعملوا في الأرض المحبوبة، التي ضمتهم إليها في النهاية؛ واحتوتهم في جوفها آمنين.. ولقد قالوا: إن أكثر ما مات في أوائل تأسيس المستعمرة كانت ميتته بسبب فتك الحيات، ولدغات الثعابين، والتعرض للأوصاب.!

وكـان إلى جانـب المقـبرة، منحلـة فنيـة؛ وهـي أول مـا شـاهدناه مـن أمثالهـا في المستعمرات.. ففيهـا مئـة وسـتون خليـة مصنوعة مـن الخشب والتوتيـاء. بـذوق فنـان، وتوصية عالم.! وأمام المنحلة جام من البلور، فيه نماذج من الخلايا، ومقادير من العسل والشمع والنخاريب. ويصفى العسل بجـوار المنحلـة، في غـرف خاصـة مبنيـة بالإسمنـت المسلح؛ ولا يحتاجون في إخراج العسل إلى دخان أو غيره لطرد النحل، وإنما هم يضعون في أصل الخلية رفوفاً ذات شباك وأطر، يتجمع عليها العسل والشمع، ويكفي أن تسحب هذه الأطر ليجنى ما تراكم فوقها، ثم يرجع إلى أمكنتها ..!

وحـدثنا أحـدهم بقولـه: إنهـم مـستعدون لتقـديم العـسل، بمـذاق مختلـف الطعـم والنكهة، فإذا شئت عسلاً، ذا طعم وردي، أو صعتري، أو (يوسفي)، فما عليك إلا أن تضع الخلايا، أمام حديقة ذلك النوع، المرجو من الزهـر.! لأن النحل يتغذى منه، فلو امتص رحيق الزنبق، أو البنفسج، فإن عسله يصبح ذا عبق زنبقي أو بنفسجي.!

وللمرة الأولى بـدأنا نتجـول في (بيّـارة) أو (بـارديس). فقـد كانـت الأشـجار قليلـة الارتفاع، خضراء الأوراق، لا تعثر فيها، على أغصان ذابلة يابسة، أو ورقات ذاوية، وإنما هي في خطوط مستقيمة هندسية، تسقى بواسطة النوافر اللولبية حيناً، وبأنابيب ضخمة من الإسمنت المستور تحت التراب، حيناً آخر... وكان الماء ـ عندما فجروه أمامنا ـ يتدفق منها، بقدر وافر، دون أن يضيع منه شيء، في الأخاديد التي تندر هناك.!

وفي هذه (البيارة) ـ ولعل الاسم مأخوذ من بئر، نسبة إلى الآبار التي شقها إبـراهيم باشا المصري ـ من الحوامض ما يدعو إلى الإعجاب.. فعلى الرغم من أن الثمر لم ينضج بعد، فإنه كان كبير الحجم، جميل الشكل، وإنك لتجد فيها الليمون، والكريفون، واليوسـف، والفلانسيا .. وكل نوع في قسم من الأرض على حدة، للعناية به حسب خواصه..

ولم نـر في أرض (البيـارة) حـشائش طفيليـة، لأن القـوم يحرثونهـا مـع الأرض دومـاً، فتصبح أسمدة طبيعية ممتازة. ولابد لك من أن ترى حول كل بيارة، سوراً من أشجار السرو، يحدق بها، ليكسر من حدة العواصف، ويقي الأشجار من كل سوء.

أرخـى الليـل سـدوله علينـا، ونحـن بـين أشـجار البرتقـال والليمـون.. فعـدنا وفي نفوسنا جوع، لم ندر من تفسيره سوى أن نكيفه ونحوله إلى جوع البطون، لننسى قليلاً ألم الغيرة، والنقد، والشعور بالنقص..! فدخلنا المطعم.. ولاحظ مصاحبنا أن هنالك امرأة رومانية، أيأستها الحياة، في هذه المستعمرة ـ كغيرهـا مـن الرومانيـات ـ فبدا على سيمائها، شحوب وكمد وقنوط.. فكانت تشرب الشاي، الساخن الخفيف، دونما سكر،

كالعادة . ثم تمضغ معه (مر ملاذ) السفرجل، والحزن يزداد على محياها، كلما أوغلت في الشراب..

وهكذا استطاع صاحبنا أن يكتشف ثغرة جديدة، في حياة الصهيونية.. فها هي ذي واحدة من عشرات الآلاف تتجرع غصص الآلام، وتشمئز، ويبدو من محياها أنها تبتغي شيئاً.. إن سكان المستعمرة، ليسوا سواء في البهجة والانشراح، ولن يحيا الإنسان بالخبز وحده، وإنما هنالك قيم معنوية، يلتمسونها في هذه الربوع فلا يقعون لها على أثر، فهل يعني ذلك، أن بعضهم يريد العودة إلى المدن، وحياة المدن.؟ أم أنه يتمنى العودة إلى وطنه وبلاده، ولا يجد عن ذلك بديلاً.؟ سؤال عجيب، ستجيب عنه السطور..!

المستدرون قوة

. فجلرِها أيها العربي .

أخبرنا بعضهم، أنهم سيعرضون الليلة، شريطاً سينمائياً في المستعمرة، فلنستعد لحضوره.. فهنالك سينما متنقلة، جوالة، بين المستعمرات، تعرض الأفلام، دون أجر أو ثمن.. وقد تمر بهم أيضاً، فرق تمثيلية، تضم أشهر الفنانين والفنانات من بني صهيون، لترفه عن السكان، وتشيع فيهم، جواً من السرور والحبور، يستعيدون به نشاطهم وقوتهم، للنضال والعمل، في هذه الأرياف النائية..

وقد يستدعون أحياناً بعض الفرق الرياضية والبهلوانية، فلا يتركون مظهراً من مظاهر الترفيه والتسلية، مما يوجد في المدن إلا وأتوا به، لئلا يعيشوا في عزلة عن العالم، وهم بهذا العمل ينقلون آثار المدينة ومعالمها إلى المستعمرة، فلا تنقطع صلتهم بها ولا ييتئسون.!

فهل سمعت أيها القارئ، أن قرية من قرانا تزورها السينما، أو فرق التمثيل والرياضة.؟ وهل تحسب أن الأمر تافه لا قيمة له.؟ لا.. لا.! إياك وأن تظن ذلك، حتى لا أتهمك بالرجعية والتقهقر؛ فإن تأثير السينما في العصر الحديث، هو فوق الجدل، والتمثيل مدرسة الشعب، والرياضة خالقة الأبطال.!

ولقد قادنا الطلاب، أو بالحري عمال المستعمرة الشباب، من العرب الصهيونيين، إلى شخصية من شخصياتهم المسؤولة، ورجالهم العاملين، لنتحدث إليه، ريثما يحين، وقت عرض الشريط..

وكان شاباً دمث الطباع، لين الجانب، على درجة كبيرة من الثقافة والإطلاع؛ يتقن ثلاث أو أربع لغات بينها العربية.!

وجلسنا نسمر وإياه، في شرفة تطل على الحدائق والبيوت، فإذا بآرائه، صدى لآراء زملائه الآخرين، في المستعمرات، وتعبر عن الصهيونية وأهدافها بأجلى بيان..

وانتهزنا الفرصة المناسبة، وانهلنا عليه بفيض من الأسئلة عن حياة المستعمرة، وإدارة شؤونها وعلاقتها بالدولة؛ فما ضن علينا بما تحوي جعبته من المعلومات، فقال: إن لكل (كيبوتس) لجنة إدارية خاصة، تنتخب سنوياً على درجة واحدة، يشترك في ذلك الإناث والذكور. أما عدد أعضائها فيكون حسب ضرورة الأعمال المطلوب إنجازها، وبنسبة السكان؛ على أن لا يقل عمر العضو عن الثامنة عشرة، وتبدأ اللجنة أعمالها في رأس كل سنة عبرية.

إن كل (كيبوتس) ـ مستعمرة ـ هي مسجلة رسمياً لدى الحكومة، باسم (جمعية تعاونية زراعية). ولكل منها، أمين صندوق، ومأمور اشغال وتنظيم. أما المسؤول رسمياً تجاه الحكومة عن كل ما يحدث في المستعمرة، من ولادات، أو وفيات، أو حوادث.. فيدعى (مسكير) أو المختار... وهذا هو الذي يتولى دفع الضرائب إلى الحكومة، عن المجموع دفعة واحدة حسب تقدير أولي الأمر.! فكأن كل فرد منهم مسهم في إنماء المستعمرة.. والمال هو للجمعية.. فمن شاء أن يغادر (الكيبوتس) فليغادر دون أن يأخذ شيئاً، وأما من أصبح عاجزاً فتجري عليه النفقة..!

وللمستعمرة حق التملك، بصفتها شخصية معنوية؛ وعندما تؤسس تسجل في دوائر الحكومة، ويذاع أمرها في الصحف، ويعلن عمن يفوض بالتوقيع عنها، والتعاقد باسمها، فكأنه المدير المسؤول في الشركات التضامنية أو المساهمة التجارية. وإن (الهستدروت) تسعف المستعمرات بتأمين حاجاتها ومطاليبها، لأنها تملك الكثير من العناصر الفعالة في هذا السبيل.! فهي تتدخل في كل شيء ومن يشترك في الغنم يصيبه الغرم.! وعلى هذا فهي تصادق على موازنة كل مستعمرة، وتقدم لها المشورة في زيادة الحاصلات والإنتاج، وترسل من لدنها دون سابق إخبار، كل أربعة أشهر مفتشاً ليدقق حساباتها، ويراقب الدخل والخرج.! أما الإنتاج فغالباً ما يستهلك في المستعمرة ذاتها، وأما الفائض عن الحاجة، فثمة جمعيات خاصة كمؤسسة (تنوفا) مثلاً تعني ببيع المحاصيل الزراعية.. وبهذه الطريقة تمتنع المضاربات والمشاكسات، وتسهل على كل مستعمرة معاملاتها؛ ولا يبقى الفلاح تحت رحمة التاجر..

وهنا همس رفيقي بصوت مرتفع قليلاً: ليت تجار (سوق الهال) عندنا يعرفون ذلك، أو ليتنا نسعف الفلاح بعشر المؤسسات، أمثال (تنوفا) وغيرها.؟ ثم تابع المحدث:

أما ما يحتاجه (الكيبوتس) فيؤمن من شركة خاصة. ترتبط كذلك بالهستدروت، تسمى (هاماشبير).. فهي تقدم المواد الأولية، وكل ما يلزم المستعمرة من رؤوس أموال،

حتى إذا ما ربحت أرباحاً طارئة، أعادت توزيعها على المستهلكة من المستعمرات؛ وليس في ذلك إضاعة وقت ما، أو مساومات باطلة.. وحسابات لا يعلم فحواها إلا الله.! وكل ذلك تشرف عليه (الهستدروت) كما تشرف على مطالب المستعمرة الصحية، فتؤمن لها الأطباء الجوالين، وأطباء الأسنان، والبياطرة، والمهندسين.. أما واجب المستعمرة هنا، فهو أن تدفع لقاء هذه الخدمات مبلغاً معيناً من المال...

ثم سكت المحدث، والطلاب يرمقونه بإجلال واحترام. فسألناه عن هذا (الهستدروت) الذي يتدخل في كل شأن من شؤون المستعمرات، والذي تردد ذكره أكثر من مرة في حديثه، فأخرج سيجارة وأشعلها، وجعل يعب منها بصورة متواصلة، لعله يستجمع نقاط بحثه، ثم قال:

مضى على (الهستدروت) خمسة وعشرون عاماً، منذ نشأتها في (تل أبيب)، عام 1920[186]. وأنا أعتقد، بأنها أعظم منظمة اجتماعية للعمال في الشرق الأدنى كله.. ولقد كان تقدمها نتيجة لعوامل خارجية مختلفة، ولمساع مستمرة ذات هدف معين، يُعنى به الشعب اليهودي. وهي تقوم اليوم بتحقيق غايات قومية خاصة، وخدمات فلسطينية عامة، كما أنها ذات اعتبار دولي باهر باشتراكها في الاتحاد الدولي العام لنقابات العمال الكائن في لندن..!

وقد بلغ عدد أعضائها في عام 1925: (152.500) عضو أي 75٪ من جميع عمال اليهود في البلاد. وكانت خلال هذه الحرب، تشمل زيادة على ما ذكر (25000) عضو.!

إن في فلسطين (145) قرية زراعية صهيونية، ينتمي جميع من فيها إلى (الهستدروت)، ويبلغ عددهم نحو (50000) نسمة. وقد أنشأت خلال هذه الحرب أيضاً (48) قرية جديدة..! ويشتغل نحو خمسة آلاف عامل وعاملة في المشاريع الصناعية، التابعة للعمال وللهستدروت، بصورة مباشرة أو غير مباشرة. أما هذه المشاريع، فأكثرها منظم على طريقة شركات تعاونية.

هذا وقد أنشأت (الهستدروت) شركة خاصة تدعى (كور)؛ وذلك لإدارة هذه المعامل والإشراف عليها. ولأضرب لكم مثلاً عن اهتمام (الهستدروت) بالعمال ومصلحتهم.. فقد أضربت خلال الحرب نحو (500) إضراب، اشترك فيها ما لا يقل عن (25) ألف عامل وعاملة، في سبيل العمال ورفع مستواهم المعاشي. ولذا فنحن نفخر بها، وهي تفخر أيضاً بما تقوم به من المساعدات المتبادلة، وذلك بتضامن أعضائها،

---

[186] - هذه الإشارة الوحيدة في هذا الكتاب إلى تاريخ الرحلة أي عام 1945م

ضد الأمراض والبطالة وغيرهما .! حتى أنهم يدفعون لورثة العامل المتوفى خمسين جنيهاً كتعويض رسمي سنوي..

وللهستدروت.. صندوق تدعوه بصندوق المرضى، وقد اتسع كثيراً! وأسست له فروع عدة في أطراف البلاد جمعاء، حتى أصبح يمتلك اليوم ثلاثة مستشفيات كبيرة، ومصحات عديدة للنقاهة والاستراحة، وإن لمحة واحدة تلقى على مشفى (بيلينسون) التابع للصندوق المذكور، تذكرك ببنايات هوليود، وحدائق لوكسمبورج، وغابات بولونيا في باريز..!

ولكل مشترك الحق في العلاج الطبي الكامل، ولكل من بلغ الستين من العمر معاش شهري؛ يدعى معاش الشيخوخة.. ويدفع العمال ومؤسساتهم نحو 83٪ من نفقات (صندوق المرضى) أي ما يعاردل 6٪ من أجرة العامل، يدفعها اشتراكاً شهرياً؛ أما المرأة فتدفع قليلاً من أجرها لقسم النساء.! هذا وقد بلغت موازنة هذا الصندوق عام 1945 مقدار (1.37.000) جنيه فلسطيني. وكان دخل صندوق البطالة في السنة الأخيرة نحو (200.000) ج ف.! ومن جملة الأعمال ذات العلاقة بالمساعدة المتبادلة أيضاً، صناديق (الإقراض والتوفير) وعددها عشرون صندوقاً، وتضم نحو (28) ألف عضو؛ أما الرأسمال الذاتي لها فهو: (160.000) ج ف.!

وعندما رأى الرجل، أمارات الاستغراب، والانتباه الشديد تبدو على وجهينا تشجع ولذّ له الحديث فمضى قائلاً:

وقد تدهشون إذا قلت لكم، بأن بين منظمات (الهستدروت) شركة للتأمين تدعى (هَسنَّه)، وأن عدد (بوالص) أسهمها التي صدرت حتى اليوم هو: (13442) بوليصيه وقيمتها (2.807.000) ج ف.! ثم رشف سيجارته وتابع:

وتقوم (الهستدروت) بمشاريع هائلة، في سبيل إسكان العمال... إذ يستطيع العامل والموظف الحصول على مساكن صحية رخيصة كل حين. فقد أعدت شركة (شيكون) الهستدروتية، مساحة من الأرض، تكفي لإسكان (13000) عائلة..!! وستبني الشركة أيضاً في هذه السنة وما يليها (1650) منزلاً، سيكلف بناؤها مليون جنيه فلسطيني.!

أما بنك العمال، الذي يمنح القروض للمشاريع فقط، ـ لا للأفراد ـ فإن رأسماله الذاتي، يزيد على (300) ألف جنيه فلسطيني، وتتوف ودائعه على المليونين من الجنيهات. وعلى هذا يمكنني القول إن المشاريع العمالية، مدينة للبنك المذكور الآن، بما يزيد على مليون جنيه فلسطيني، منه الثلثان للقرى الزراعية العمالية، وأكثر من مئة ألف جنيه فلسطيني للشركات التعاونية، وصناديق الإقراض.. وهنالك شركة (نير). وهدفها مساعدة

القرى الزراعية، وذلك بأن تمنحها القروض، على سبيل توسيع الزراعة بشتى الوسائل. كتنظيم الري ورفع مستواه الفني، وإنشاء مخازن للغلال، ومشاريع التبريد، وأحواض السمك.! أما رأسمال هذه الشركة، فيبلغ (800) ألف جنيه فلسطيني. ومن البدهي أن الفائدة لهذه الشركة هي أقل مما تتقاضاه المصارف العادية، حتى مصرف العمال نفسه..

وهناك شركة أخرى للهستدروت، خاصة بالمقاولات الكبرى تدعى (سوليل بونيه) أنجزت في أثناء الحرب، في فلسطين والبلاد المجاورة، أعمالاً لا تقل قيمتها عن مليوني جنيه فلسطيني. أما فروعها الصناعية، فقد أنجزت أعمالاً تقدر بـ (800) ألف جنيه فلسطيني.

تعب المحدث من حديثه، وتنهد، ثم قدم لنا بضع سجائر، اعتذرنا عن تناولها لعدم اعتياد التدخين.. واستراح قليلاً، بينما قال أحد التلاميذ من العمال: إن للهستدروت دائرة خاصة بالمقاولات الزراعية فقط، وتدعى (ياخين).. لأن الحركة التعاونية (الهستدروتية) واسعة جداً وكثيرة الفروع.. فهي تشمل شركات الإنتاج، والاستهلاك، والإقراض، والنقل، وغير ذلك.. فمثلاً شركة (تنوفا) الزراعية التعاونية التي ذكرها (الرفيق) - وأشار هنا إلى الرجل - باعت من الحاصلات في السنة المنصرمة ما ثمنه خمسة ملايين جنيه فلسطيني، ولهذه الشركة مشاريع صناعية مختلفة، يشتغل فيها مئات عديدة من العمال؛ حتى لقد أسهمت فعلاً بشراء معمل (شيمن)[187] بنصف قيمته.. وهنا افتر ثغر محدثنا الأول، فكأنه سرّ لثقافة العامل الصغير، فجعل يربت على كتفه باسماً، ثم قال بعد أن أشار إلى التلميذ بالصمت:

وفي الهستدروت نحو (70) ألف عضوة، ولها دائرة خاصة للعناية بالعاملة وشؤونها، كما تعتني بالشباب العامل - حتى السن الثامنة عشرة - المنظم في نقابة تشمل (13) ألف فتى وفتاة؛ وتقوم الهستدروت بمشاريع علمية وثقافية واسعة... فلديها (207) حدائق للأطفال، و(135) مدرسة ابتدائية تضم نحو (21000) تلميذ وتلميذة، وجلها من طراز مدرسة كيبوتس (جبع) من حيث البناء والهندسة، حتى ليحسبها الرائي دار (أوبرا) تحيط بها أشجار السرو والأوكاليبتوس من كل جهة.. وثمة دار المعلمين والمعلمات الخاصة بالهستدروت أيضاً، وعدد من المدارس الثانوية والفنية من صناعية وزراعية.. كمدرسة الصناعة (ماكس فاين) للأحداث ومدرسة الزراعة لتدريب الفتيات في (تل أبيب).. وكلها تعتبر نماذج حديثة للمدارس بصورة عامة.

---

(187) - معمل شيمن: معمل السمن النباتي

وهكذا فأنتما تريان: أن من أهم نقاط القوى فينا، أننا نعمل دوماً في سبيل المستقبل، لا الحاضر فقط.. إن كل طفل عندنا، تتعهده مربيات مختصات بالحضانة، وتسليم ستة أطفال إلى امرأة تعنى بهم، خير ألف مرة من انشغال أمهاتهم الست بهم.! فنحن نرسل خمساً منهن إلى العمل، لنترك الأطفال للمرأة السادسة.. وهذا غاية الاقتصاد في الجهود البشرية واستغلالها.! وعند المساء، وبعد العمل، يستطيع الأبوان، أن يحملا أطفالها إلى العش العائلي. وإذا بلغ الطفل سنتين، أرسل إلى رياض الأطفال، ولا عمل له هنا، سوى اللعب والغناء والرقص في الهواء الطلق. ويمكث في هاته الرياض حتى الخامسة من عمره، ثم يدخل بعدئذ مدرسة (الكيبوتس) الابتدائية..! أما برامج التعليم عندنا، فهي لا تختلف عن المواد المدرسية في دور الحكومة والمعارف، غير أننا نفترق في أساليب التدريس ومناهج التعليم.. فنحن نقسم الساعات اليومية إلى مادة أو مادتين من الدروس. ذلك أننا ندرس مثلاً القراءة والحساب بصورة مستمرة، أما التاريخ والجغرافيا وغيرهما من الدروس، فنسير بها على طريقة دورية؛ فندرس التاريخ وحده، حتى تنتهي مادته المقررة، لكل فصل على حدة؛ ثم ننتقل إلى الجغرافيا، وهكذا دواليك.. ولقد أثمرت عندنا هذه الطريقة ثمرتها، وآتت أكلها، ونحن عنها راضون.؟ وأكثر المستعمرات ترسل أبناءها الموهوبين بعد إتمام دراستهم الابتدائية إلى المدارس الثانوية في (تل أبيب) فيلاحظ المشرفون على المستعمرة الطلاب، ويدرسون مواهبهم وميولهم، للإفادة منها ولو كانت تلك الموهبة لا تفيد (لكيبوتس) مباشرة، كأن يكون الميل إلى الموسيقا أو الرسم، لأننا نستفيد عندئذ من ذلك بصورة غير مباشرة.. وتتمم الدراسة في الجامعة العبرية لمن أراد وكان مستحقاً الإنفاق عليه..!

والتعليم عندنا بسيط التناول قوي الهدف.. إذ أن غايته إيجاد رأس مرتب للعمل الصناعي والزراعي فقط، ليكون أداة صالحة للتفكير والإنتاج.! فالعلوم التي تفيد الطالب في آتيات أيامه، وتجعله مواطناً نافعاً شريفاً، وهي تلك العلوم التي يهضمها ويتحملها دماغه حقاً بصورة ملائمة.! فليس القصد من المدرسة حشو ذهن الطالب بما لذ وطاب للكبار الهرمين من أنواع التفكير والثقافة.! فهمس بي صاحبي قائلاً:

لقد ظلت الحال في سورية تجري أمداً طويلاً على طريقة (حشو الذهن) الاستعمارية، ومازالت كذلك وإن اختلف العرض، وأصبح الشكل غير الشكل، والترتيب غير الترتيب.! وما ذلك الخطأ الناجم إلا عن الأعمال الارتجالية التي يتحمل مسؤولياتها رجل واحد، أو رجال غير أكفاء لكثرة ما يحملون من أعمال.. وعاد المحدث يقول:

أما الشهادات التي يتناولها الطالب، عقب انتهاء تحصيله، فهي شهادات بسيطة لا زخرف فيها ولا طلاء، حتى ولا ورق صقيل؛ ولو أسعفك الحظ وشاهدتها، لضحكت، كما ضحك بالأمس، حاجي بابا أصفهاني، حين زار (لندن) وأبصر الإنكليز.. فهي بضع كلمات تشير إلى أن الطالب قد أنهى دراسته واختصاصه، مع التوقيع والتاريخ، على الآلة الكاتبة.. فالمدرسة والعلوم لم تخلق لمنح الشهادات، بل لخلق جيل من المواطنين الواعين، جدير الحياة..

وعدا ذلك، فقد أوجدت (الهستدروت)، مدارس ليلية، لتوفير التعليم في المدن للعمال الأميين أو أنصاف المتعلمين، ممن لم يكملوا دراستهم بسبب نقص الوسائل المادية لديهم أو لسبب آخر؛ كما أنها أوجدت دائرة خاصة لتثقيف البالغين بواسطة المحاضرين الجوالين في البلاد، وبواسطة الجوقات الموسيقية والمسرحية. وقد تدعو (الهستدروت) أحياناً فريقاً من العمال للاستماع إلى محاضرات معينة طيلة يوم كامل، أو يومين أو أسبوع فأكثر. كما تصدر كراسات في شتى المواضيع، وللهستدروت جريدة يومية تدعى (دافار) وهي أكبر صحيفة في فلسطين سعة وانتشاراً ومادة؛ كما أنها تصدر مجلة أسبوعية خاصة بالأولاد. وثمة كثير من المنظمات (الهستدروتية) تقوم بإصدار نشرات ومجلات يومية وأسبوعية وشهرية.. وهنالك فرع لتعليم اللغة العبرية للمهاجرين الجدد من العمال؛ ولقد كان عدد طلابه في السنة الأخيرة (4000) تلميذ وتلميذة.

وكذلك نحاول تفهم العرب ودراسة لغتهم؛ فاللغة العربية تدرس في جميع المدارس اليهودية، والوكالة نفسها تمنح المكافآت والجوائز للمدارس التي تتفوق في تدريس العربية، ونعلم الكبار عادات العرب وتقاليدهم وقوانينهم؛ بينما لا توجد مدرسة عربية واحدة تدرس اللغة العبرية..

وهنالك دائرة تدعى (عم عوبيد) أي شعب عامل. وهي تختص بتأليف الكتب ونشر التراجم؛ وقد نشرت في السنة الأخيرة، نحو مئة كتاب اختص بعضها بالنشء الجديد.

ولعلكم سمعتم بالفرق التمثيلية للعمال المدعاة (أوهل)؟ فقد نشأت هذه الفرق بمساعدة الهستدروت، فقامت بدورها حق قيام، ولا عجب من ذلك مادامت تتمتع بمستوى رفيع في ميدان التمثيل.. أما مواضيعها فلا تخرج عن المواضيع العمالية العامة اليهودية.!

ولا تكتفي (الهستدروت) بالتربية المعنوية للشعب اليهودي، بل تعنى أيضاً بالتربية

البدنية، ولذا فقد أنشأت جمعية رياضية ذات فروع عدة في البلاد، تحت اسم (هبوعيل) أي: العامل. وهذه الجمعية توشك أن تصبح أكبر جمعية من هذا النوع في فلسطين، فتشمل فروع الأحداث، وتعنى بكافة أنواع الرياضة البدنية.!

وللهستدروت عناية خاصة بالسياحة والترفيه عن الشعب العامل اليهودي. فلها دائرة لتعضيد السياحة والنزهة في أطراف البلاد لتنشيط الحال المعنوية والجسمية لدى العمال.. وعلى الرغم من أن الحرب قد قيدت من هذه الحركة، فإن ثلاثة آلاف عامل وعاملة، اشتركوا في السنة المنصرمة، في نزهات نظمتها هذه الدائرة..

وهنا، اعتدل المحدث في جلسته، وكأنه يريد أن يبدي أمراً جللاً فقال:

إن الهستدروت تؤيد (اتحاد عمال فلسطين) في مساعيه لرفع شأن العمال العرب، بواسطة (الدائرة العربية القائمة) كأحد فروع اللجنة التنفيذية للهستدروت. وإن الاتحاد المذكور، يعد في طليعة الجمعيات، لتنظيم العمال العرب، في ميادين شتى؛ وغايته التنظيم المهني البحت..!

وتصدر الهستدروت صحيفة عربية تدعى (حقيقة الأمر) لتظهر غايتها للعرب وأعمالها.. ولكي تتكون عندكم فكرة عن نمو (الهستدروت)، ومدى قوتها التنظيمية، يكفي أن أذكر لكم مبلغ (الرسوم الموحدة) التي دفعها الأعضاء في هذه السنة، لصندوق الهستدروت.! فقد بلغت (1.265.000) ج ف.! وهنا قال صاحبنا: بيد أن الظروف السابقة لم تكشف عن نوايا الصهيونية التي تدعونها وتزعمون أنها في صالح العرب؛ كما تقول عن تأييدكم لرفع شأن العامل العربي.. فإن هذا القول يخالف الواقع تماماً.. و.. فقاطعه السيد.. في حديثه وقال:

لا، لا.. أبداً، إن هذه القوة التنظيمية العظيمة، مستعدة لمد يدها للعامل العربي وإرشاده، فقد أنشأت عام 1934 (عصبة عمال فلسطين) التي تضم بعض العمال العرب والأرمن، ولهذه العصبة تسعة فروع ضمت حوالي (2500) عامل؛ لهم حق الامتياز في العلاج المجاني، وصندوق الإخاء، وهي تحت إشراف (مجلس عمال حيفا) التابع للهستدروت.!

إن أعمالنا في الهستدروت تهدف إلى إيجاد مجتمع جديد في فلسطين، يقوم على قواعد عمالية اشتراكية، بواسطة كفاح الطبقات من جهة، ثم بواسطة المشاريع العمالية البحتة من جهة أخرى.!

هل يمحى الخلاف بين العرب واليهود..؟

قال صاحبي: ولكن.. ربما كان مستحيلاً على أي عربي، أن يعتبر (الهستدروت) مخلصة للعرب، أو تعمل لصالح العرب وعمالهم؛ فإن صكوك التعهد التي يوقعها المستعمرون الصهيونيون (للكيرين كايمت) أو (للكيرين هايسود)، بعدم تشغيل أي عامل عربي في المستعمرات الزراعية، هي حجة على سوء نية الصهيونية، كما أن الاعتداءات الكثيرة، التي تقوم بها الحاميات الصهيونية، على كل عامل عربي، يعمل عند يهودي، هي أشهر من أن ندلك عليها؛ وعلى هذا يرى العرب كافة، أن الهستدروت ليست سوى أداة استعمارية صهيونية، توجه سهامها إلى قلب العامل العربي.!

إنها ترفع العامل الصهيوني على بطالة العامل العربي، وتضحي هذا الأخير في سبيل سعادة الأول.. فسكت الرجل شارداً ذاهلاً، ثم تابع حديثه فقال:

أنا لا أعتقد بوجوب هذا العداء بيننا، بل إني أوقن بأن عدم التفاهم المؤقت بيننا، إنما هو ناشئ عن اختلاف وجهتي النظر للقضية الفلسطينية لكل من الفريقين.!

إن جهل كل منا الآخر، أورثه عدم الثقة به، ومن هنا نجمت المشاكل المستعصية خلال خمسة وعشرين عاماً.. فالعرب يعتقدون أن اليهود غرباء متطفلون.! واليهود يعتقدون أنهم أصحاب حق مستند إلى وثائق دولية، واعترافات صريحة وتاريخ..! وأنا كيهودي صهيوني، أؤمن بأنه لابد من مرور جيل كامل على فلسطين، كي يتغير التفكير عند كلا الطرفين، ليستطيع الجميع أن يعيشوا إخواناً.!

وهنا سعل سعالاً شديداً، وصمت هنيهة يستعيد راحته ثم قال:

إن إخراج اليهود أو العرب من أرض الميعاد، أمر مستحيل قطعاً، وفي اختلافهما الشديد، وتناحرهما المستمر، فائدة لقوة ثالثة، يستطيع كل إنسان إدراكها. فقاطعه صديقي قائلاً: ولكن هذه القوة الثالثة، هي صديقة الصهيونيين، وهي التي وعدتهم بالوطن القومي، وساعدتهم في هجرتهم وتسريبهم غير المشروع إلى فلسطين.!

فابتسم الرجل وتابع: إن إنكلترا هي صديقة مصلحتها دوماً، كما علمتنا وما عرف التاريخ البشري أمة، أشد أنانية من هؤلاء القوم.. فكل الحلول التي عرضتها منذ بدء المشكلة حتى اليوم، هي مسكنات مؤقتة، ولكم أن تسموها أقراص (كالمين) قوية مهدئة لأعصاب الطرفين.! ولقد مر عليها في الهند ثلاثمئة سنة وما زالت تسمى لا يجاد الحلول، تلك الحلول التي تنطوي في الغالب على خمائر الفتن، والاختلافات المستقبلية.. ثم تنهد وشرع يقول بلهجة حادة.. إن سند إنكلترا الوحيد، هو الزمن.! والزمن كما يقول (جيبون) مؤرخهم الإنكليزي المشهور: كفيل بقرض هذا العالم.!

وقهقه محدثنا بصوت عال وعالج الفكرة بقوله: فالمسألة الفلسطينية إذن ليست بين اليهود والعرب، ولو كانت بينهما فقط، لحلت منذ أمد طويل؛ وذلك بحسن التفاهم، وتقريب وجهات النظر.! غير أنها قضية بينهما معاً وبين إنكلترا.. الدولة المنتدبة الشرعية.!

فليرفع الانتداب مرة واحدة عن فلسطين ـ ولو ساءت هذه الفكرة بعض الصهيونيين الغلاة ـ ولتروا كيف نتفاهم..!!

فقلت له: ولكن العناصر الصهيونية الكبرى، لها أقوال كثيرة في تعضيد الانتداب وبقائه، وهذا أمر مشهور عنهم.! قال: إنما أنا أعبر عن رأيي الخاص الآن، وهو رأي يتبناه الكثيرون.. ثم عرج على فكرة سمعناها كثيراً من أفواه الصهيونيين، وتدل دلالة واضحة على أطماعهم المستقبلية.

إن اليهود اليوم، يؤلفون ثلث سكان فلسطين؛ وفي أوربا ما لا يقل عن مليون ونصف المليون من المشردين المضطهدين؛ وإن بذور الجرمانية والنازية، مازالت متغلغلة في قلوب الناس هناك، أفليس من الواجب الإنساني، أن نجد لهم مأوى، ولقضيتهم حلاً..؟ وهل يمكن قبول هذا العدد الضخم في فلسطين.؟ فقلنا: لا.. أبداً.. إن العرب لن يقبلوا يهودياً واحداً جديداً، وإن [في] أمريكا، وأوستراليا، وجنوب إفريقيا لمتسعاً من الأرض لهؤلاء المتشردين.! فليبتعدوا عن فلسطين والله معهم.! فضحك وقال: ولكن الأرض تتسع لكثير من عباد الله، وإن فلسطين مقدسة في أنظار اليهود لا يبغون عنها حولاً، فهي مصدر الوحي، ومنبت الدين، ومسقط رأس الأنبياء، ومستقر الهيكل.. وهي زراعية قبل كل شيء، ومناسبة لأهوائهم وغرائزهم وروحهم.!

إن اليهودي عاش قروناً في أوروبا دون أن ينجح في الزراعة واستعمار الأرض، بينما نراه متألق النجم، في فلاحة الأرض في فلسطين.! فلم ذلك.؟ إنه يعمل هنا بروحه وإيمانه، فيحرث الأرض بشغاف قلبه، وحنايا صدره، ويسقيها بدمه، إن أعوزته المياه.. وإن سهول بيسان وسارونة تكفي جميع يهود العالم، دون أن يطرد عربي واحد من أرضه.! ولكم تكثر الأراضي البور في فلسطين، وهي اليوم خالية دونما عامل أو زارع.. نحن لا نبغي سوى الأراضي المتروكة العاطلة الرديئة.. سوى تلك التي يهملها العرب، ولا ينتفعون بها، أو لا يجدون سبيلاً إلى إصلاحها، بالجهود المبعثرة التي لا تغني ولا تسمن من جوع.. فهي أراض بحاجة إلى مال وعلم وتضحية، مما لا يتوفر عندكم.! وأذكر أن أراضي بئر السبع هي خير ما يمكن اللجوء إليه في هذا السبيل، فهي ذات مساحة تبلغ نصف مساحة

فلسطين. فيها خمسة ملايين (دونم) صالحة للزراعة، بينما لا يتجاوز عدد سكانها السبعين ألف نسمة.. وهنا سألناه:

ومن أين تأتون لها بالماء.؟ فأجاب: إنما نحن مستعدون لإيجاده، فمهندسو الري عندنا، يحملون عصا سحرية، كعصا نبيهم موسى، يضربون بها الأرض، فتتفجر الينابيع.! ونحن إذا لم نعثر على المياه، فلدينا مشروع كبير جداً، قد يكلفنا الملايين من الجنيهات الفلسطينية؛ وهو أننا نود جلب المياه في سواق وقنوات من الأنهر الشمالية في فلسطين.! وهذا المشروع كفيل بأن يروي هذه الأراضي، ويقلبها إلى جنات وارفة الظلال عامرة بما لا يقل عن مليون يهودي.! وإذا علمنا أن كل فلاح، هو بحاجة إلى شخصين اثنين، يعملان من أجله في المدينة، نستطيع عندئذ أن نتخيل ازدهار المدن ونمو الحركة الصناعية التجارية في فلسطين.!

إن نصف مليون يهودي جاؤوا فلسطين في مدة ربع قرن، فخلقوا ما ترونه من نهضة، فكيف تغدو الحال لو وافاها مليون ونصف المليون أيضاً.؟!

ولكن، لنر ماذا يصيب الإنكليز من جراء ذلك؟

إن إنكلترا تخشى فقدان فلسطين من يدها إذا قويت وقدرت.. وإن استقلال فلسطين معناه ضياع نقطة (استراتيجية) هامة من حوزة بريطانيا، التي خرجت من حرب كادت تعصف بها، فراحت الآن تبذل جهد الجبابرة، لتثبت أقدامها في مراكزها السابقة؛ فلا يمكن إذن أن يفتش الإنكليز عن حل ملائم قط.! فاليوم انتداب، وغداً وصاية.. وكل ذلك باسم حماية طريق الهند، والاحتفاظ بالاستراتيجيات والمطارات والموانئ ومصافي البترول والدفاع عن قناة السويس.!

إن نظرة واحدة إلى مؤسسات إنكلترا الحربية، والتحصينات الساحلية، والمطارات الفلسطينية؛ كافية للدلالة على أنهم لن يخرجوا من فلسطين.! لأنها في نظرهم مركز للتموين ممتاز، وحصن هائل، وخط دفاعي كبير.! مع أن من يملك تِرعة السويس، لا يبني دفاعه بجانبها تماماً في عصر الطائرات والقنابل والصواريخ.. بل يبتعد عنها بقدر يسمح له بالترصد لكل مهاجم.!

وهكذا كان يتدفق الرجل في حديثه ودفاعه عن بني جلدته.. بينما كانت كل جارحة تنطق في وجهة وتهتز معلنة إخلاصه لصهيونيته واعتداده بها . ويكفي أن نذكر للقارئ بأنه نسي سيجارته بيده حتى أحرقت أصابعه دون أن يعب منها رشفة واحدة.!

ولولا أن عرض (الفيلم) السينمائي قد حان، لظل يحدثنا حتى مطلع الفجر..

نهضنا أخيراً لرؤية العرض، وقد أطل الهلال على حديقة واسعة بشكل مدرج، نضدت فيها المقاعد والكراسي، ونصبت في صدرها شاشة بيضاء مثبتة، وتراص القوم من كل زوجين اثنين على مقاعدهم، وحلا لهم السمر تحت أشعة القمر في انتظار (الشريط)..

أنا ساهر والكون نام..

كان موضوع الرواية لطيفاً جداً، بعيداً عن الخلاعة والمجون؛ وربما كان ذلك مقصوداً، لتقريبه من ذوق الشباب والفتيات، وإبعادهم عن المثيرات، من روايات الحب والمغامرات؛ فهم كما يقول المثل: (من غير دف بيرقصوا).. ولذا فإن أكثر الأفلام التي تعرض في المستعمرات هو أخلاقي بالدرجة الأولى، ليلائم الفتيان والفتيات والمراهقين على السواء، خشية النتائج السيئة، والعواقب الوخيمة.. غير أن هذا لم يمنع بعضهم من اختلاس فترات، يتوارى خلالها القمر خلف الغيوم، ليمعنوا في العناق الحاد، والقبلات الرقاق.. ولقد شاء مضيفنا أن يبرر مسلك القوم، فعزا ذلك إلى الأزواج وحدهم، لا العشاق المعاميد.!

وما كاد الشريط ينتهي، حتى شكرنا الجميع، وتمنينا لهم لذيذ الأحلام؛ وهرعنا بأنفسنا إلى النوم؛ وهنا، أقول ما قاله بشار من قبلي:

لم يطل ولكن لم أنم...

ودون أن أتمم البيت.. فإن صاحبنا المحترم، لم يكد يمتلك ناصية الوسادة ويمتطي صهوة الفراش، حتى غرق في سبات عميق، وبدأ شخيره يرتفع على جميع الأوزان والألحان.! وأقسم أنك لن تجد لغطيطه مثيلاً.! فأين هو من هدير الطائرات ذات المحركات الأربعة، وخرير الشلالات، وزفير البراكين.؟ أين هو من طلقات المدافع، ودق الطبول، وصفارات الإنذار، وجلاجل الأخطار.؟ إنها طرأ دون شخيره وغطيطه.! وسأذكر ما حييت أنني حاولت إيقاظه، لعله يقطع شخيره، فلم يستيقظ؛ وعبثاً نهرته ووخزته، فلم يسمع.. (فزعوطت) فلم يشعر.! وأخيراً جررته من قدميه، ومن يديه دون أن يفيق.! فتركته عندئذ مكرهاً.. ولله الأمر من قبل ومن بعد.. فقد خفت أن يسقط عن سريره، فتسجل مراصد العالم القريبة والبعيدة، اهتزازات تدل على حدوث زلزال مريع، أو أن يحدث له ما يزعجه ويفجعه في لذيذ أحلامه.!

أما (البق) فقد كاد يهلكني، رغم أنهم وضعونا في سرر نظيفة لا غبار عليها، وأنهم يدهنون الغرف كل شهرين مرة بالكلس والجص.. ولكن البق على ما يظهر يحب التقليد،

فقد استمر الفرش القشية والأسرة، وراح يبني فيها ممتلكاته ومزارعه، على غرار أسياده الصهيونيين، والتابع تابع.. ولا يفصل في الحكم..

وأصبح الصباح فهرع صاحبنا إلى الحمام المعهود، ثم انتقلنا إلى المطعم، لنزدرد بيضاً مسلوقاً وزبدة و(مرملاد) السفرجل، وشاياً وخبزاً..

وأخيراً، ودعنا الجميع، وعدنا إلى (تل أبيب) يرافقنا في السيارة فئة من سكان (شفاييم) نالوا إجازاتهم السنوية، وهم الآن ذاهبون، يقضونها في الساحل، أو في الجبال، أو يحيون في المدن الصاخبة، ليستعيضوا عما حرموه من متع المدينة، ومباهج الحضارة، في قراهم النائية...

بتاح تيكفا
أجمة الورد والبنفسج

هيا إلى (بتاح تيكفا) أو (ملبس) كما سماها العرب، ولو كان الاسم العبري قد غلب عليها؛ فهل بين الأسماء أيضاً (بقاء للأصلح).؟ أو أن (داروين) الطيب الذكر، حشر أنفه في هذا الصدد.؟ الله أعلم.!

وفي (بتاح تيكفا) أي ـ عتبة الأمل ـ مستعمرة من نوع جديد حقيق بالتدبير والنظر، تدعى ميشيك بو علأوت تلك التي أوصانا جميع من شاهدناهم بزيارتها، لنكون فكرة صحيحة عن حياة المستعمرات واتجاهها ومستقبلها.!

فهيا إليها .. ولو أنه كتب علينا الانتقال، من سيارة إلى أخرى، دون أن نذوق للراحة طعماً، ففي سبيل (الصحافة) التي نتعشقها دون أن ننتسب إليها، وفي سبيل خدمة العرب والعلم، يهون كل شيء.. ولا فضل لنا في ذلك، فعلى الشباب أن يضعوا ولو لبنة صغيرة في صرح أوطانهم.! وحذار أن تستحي من فعل القليل، فالحرمان والعدم أقل منه. ولو أن الشباب في إنكلترا وأميركا وروسيا، لم يركبوا الأخطار، ولم يغوصوا في البحار، ولم يطووا القفار، لما استطاعوا التغلب على عدوهم الماكر الخطر.! فالعزلة والخمول والانطواء على النفس، تعابير بالية يجب أن تطوى من سجل اللغة العربية، ويستبدل بها النشاط والمغامرة والكفاح، ويومئذ يفرح المؤمنون.!

وما إن ركبنا (باصاً) من محطة (إيجد) الكبرى، حتى سأل صاحبنا مفناجة، فيها جينة الملائكة وذكاء الشياطين، كانت بجانبه، تميل مع السيارة وتتثنى مع التواءات الطريق.. سألها عن محطة (بتاح تيكفا).. فأجابته: انظرني في أية محطة سأنزل، وانزل في المحطة التي قبلها.! ثم صمتت فأدرك بفهمه الغزير تلك الحركة الالتفافية من الغادة، وكانت قهقهة ناعمة كادت تتلاصق فيها الخدود، وتدغدغ النهود.. ولولا أنه كان يعرف حق المعرفة نكات العبريات في أمور الغزل، وأن لهن معدات عوض القلوب، وأنهن يؤثرن

رؤية عاشقهن العربي بغير ساق على أن يرَيْن محفظتهن خالية من دراهمه.. لولا كل ذلك، لغامر مغامرة أخرى مع الغادة، يضيفها إلى الألوف من غرامياته، رغم الاعتقاد الجازم ببعد القلبين الهائمين كما يبعد القطبان الأرضيان أحدهما عن الآخر..

وهبطنا أرض القرية التي تقوم عن كثب منها المستعمرة المقصودة؛ ففوجئ صاحبنا بمشاهد مزعجة؛ هتف بي مسرعاً على إثرها، وهو يدلني على علم رأيناه للمرة الأولى يتأرجح في الهواء.. وكان - كما شاء الحدس - العلم الصهيوني، وهو يتألف من خطين أزرقين جانبيين، على أرض بيضاء، في وسطها نجمة هي ترس داود أو ما يسميه العامة عندنا (خاتم سليمان).!

ولقد علمنا فيما بعد، أن هذا الترس المؤلف من مثلث مزدوج، يرمز إلى أن مدينة داود (القدس) قامت قديماً على ثلاث تلال، يحيط بها ثلاثة أودية؛ وإلى أن بني إسرائيل ينقسمون إلى أقسام ثلاثة: الشعب، واللاويين والكهنة. وقد اقترح هذا العلم، زعيمهم الأكبر (هرتسل) في أحد مؤتمراتهم السبعة عشر.

وبعد سؤالات عديدة للمارات والمارين، بلغة سمها إن شئت: كوكتيل لغات.. وهي من ابتكارات صاحبنا واختراعاته، وحقوق النشر والاقتباس محفوظة له؛ ذلك أنها تتألف من مزيج العبرية ببعض الإنكليزية والعربية، والهيروغليفية أحياناً على أكبر الظن.. يجمع كل ذلك ثوب مبرقش من الفرنسية؛ أقول بعد سؤالات جمة، ومساعدة العناية الإلهية، استطاع أن يبلغ سؤله...

وكم رضي عن الحظ، ودعا له بالخير والبركة؛ وحسن الختام، فقد كان خير عون لنا ومسعف في رحلتنا؛ فإن القوم كانوا يحسبوننا غالباً من سلالة العم شالوم.. بلباسنا الخاكي القصير، وبشرتنا السمراء؛ وقبعاتنا الفلين.. وعندما كنا نفحم بجهلنا العبرية نجيب بكل اتزان: إن ساداتنا الحاخامين في دمشق، يهتمون بتعليمنا سور الصلاة، والمزامير والتراتيل، دون أن نفقه لها معنى، ولو أنهم لقنونا لغتنا المقدسة، لما كان في الإمكان أبدع مما كان.

ولقد أخبرونا بأن هذه المستعمرة خاصة بالفتيات.. فما سر ذلك يا ترى.؟ ونحن لم نعهد في القوم الطهارة والعفاف.؟ فهل ثابوا إلى رشدهم، وراحوا يقومون بتجارب أخلاقية جديدة، شعارهم فيها لا مساس.؟ أم أنهم يسيرون اليوم على مذهب السادة الرهبان، لعل فيه خلاصاً لنفوسهم، ومناعة لأجسادهم، بعد أن باعوا الفضيلة طيلة القرون ولو بالتجزئة في مخادعهم.؟

ولكن، فلندخل حمى الأسد، ولو أن دونه خرط القتاد . فهل نحن أوهى عزيمة من ابن أبي ربيعة، وأضرابه من أجدادنا المغامرين الميامين، تغمدهم الله برحمته.؟ لا .. لا ..! نحن نستطيع اليوم ما استطاعوه بالأمس، نحن أحفادهم لحماً ودماً، نختال بشجاعة الفرسان، وكبرياء الملوك..

وراعنا سرب من المها، في جمال غانيات ألف ليلة وليلة، كاشفات السوق، بارزات النهود، مشمرات عن السواعد، مصففات الشعور، يحملن أدواتهن الزراعية، لحفر الأرض، وسقي الزرع وقطف الأزهار والورود.

وصافح أسماعنا صوت رخيم رقيق، فيه شوق وفيه حنين، يزيد في حلاوته أنه ممزوج بنغمة عذبة، هي نغمة الحياء والخجل.. وإذا بتلميذه من تلميذات صاحبنا، تقبل مسرعة لتحييه مؤهلة مرحبة، بأدب واحترام، دون أن تصدق عينيها، فيما تريان؛ فهل هي في حلم.؟ وإلا فكيف يهبط عربي من الشام هذا الحصن الحصين، بل هذا العرين الذي تتحاماه الأسود.؟ ولكنها حقاً أمام أستاذها القديم، الذي شاء أن يبرهن على وجوده، فاحتواها بين ذراعيه، وعجم عودها بقبلة.. وما أحلى اللقاء.. بعد طول افتراق..!

وراحت تنادي أترابها الشآميات: إيفون، استير، ليلى، فيفي.. فأسرعن يلبين النداء، كأن هنالك حدثاً جللاً.. وأسرع صاحبنا يضم الجميع، ويرد على أسئلة الجميع، الزاخرة بالشوق والحنين، ويمسح الغبار عن الذكريات السعيدة، وفي الوجوه إشراق وسرور..

ولقد طفنا بأرجاء المستعمرة، فإذا بها من طراز جديد، لم نسمع بمثله من قبل فهي خاصة بزراعة الورود والأزهار؛ وهذه الزراعة رابحة جداً، إذا علمنا أن الوردة الواحدة من إنتاج هذه المزرعة تباع في تل أبيب بخمسة قروش فلسطينية.. والقوم هناك يرون في الزهور حاجة ضرورية، كحاجتهم إلى الخبز الذي يبتاعونه كل نهار، ويعتقدون أنه لا يجوز أن تخلو مائدة في الدار من إناء تزينه الأزهار والرياحين..

ولقد تفننوا في شتلها وغرسها وتحويلها. فهناك أنواع لا تحصى من الزهور في أصص فخارية، تسقى بالنوافر اللولبية، تحت سقوف من أخصاص خشبية، تغطيها أغصان متسلقة لتحجب أشعة الشمس الحارة.

وثمة أحواض واسعة يغطيها البلور، لحفظ الشتل في الشتاء..

وهناك أمكنة خاصة بزراعة البذور، مغطاة بالزجاج، ريثما تنمو، حتى إذا استوت على سوقها، رفعوا الزجاج وغطوها (بالأخصاص). وبعد أن تنمو وتترعرع تنقل إلى أمكنة أخرى.

وشاهد صاحبنا بطيخاً أبيض اللون، حسبه لذيذ الطعم، يطفئ الظمأ في الحر الشديد؛ فلما علم أنه خاص بالبقر، يدر لبنهن، ويكنز لحمهن، خاب فأله، وكان كالبستاني الذي يزرع الورود فتنبت له ضفادع؛ ثم مررنا بخممة الدجاج، فكان رجاء حار من مرافقاتنا بأن لا ندنو منها، لأنها مصابة بمرض سار، هن في صدد معالجته، والطبيب البيطري يشرف عليها كل يوم. وعندهن مذود للبقر فيه خمس وثلاثون بقرة، يعتنين بها أشد العناية، ولا غرابة في ذلك، فالأنثى تتقن هذه الأعمال كما ثبت أكثر من الذكور، ولم نعثر في المستعمرة إلاّ على رجل واحد، هو مهندس زراعي.

وتتعلم البنات في المستعمرة عدا الأساليب الزراعية، فن الطهي، لمدة ثلاثة أشهر، والغسيل لثلاثة أخر، والكي ورفء الملابس، ولهن عطلة ثلاثة أيام في الشهر، وأسبوعان في السنة. أما الدراسة فهي باللغة العبرية، ومدتها سنتان ونصف، تحمل الخريجة بعدها شهادتها، وتمضي إلى مستعمرة، لتعمل فيها.

ولقد طفنا بغرف الدرس، والراحة والمهاجع، فكانت كلها تنم عن نظافة واعتناء زائدين. أما صالة الطعام فهي من أجمل ما شاهدناه حتى الآن في المستعمرات. فجدرانها من البورسلين، وموائدها أنيقة تتألق بالدهان؛ وتنار بثريات كهربائية، ولعل ذلك عائد لحداثة بنائها. فقد أفرغ فيها مهندسوها منتهى ما وصل إليه فنهم الحديث، وإبداعهم؛ ولولا أنها خصصت بالبنات فقط، لأشبهت (شفيا) بترتيبها وهدوئها. أما عمرها فلا يتجاوز العشرين عاماً...

برلمان في الخيال

كانت تلك العجوز جاثمة على ركبتيها العاريتين، في مؤسسة (ميشيك بوعلوت) مستعمرة الزهور، تشذب وردة مريضة، وتبعد عنها الأوراق الجافة ثم تجمعها على شكل كومة.. وكان إلى جانبها زائر صهيوني، لا أغالي إذا قلت إن الصهيونية المسلحة تتمثل في وجهه، و(بلطجية) عصابة (شتيرن) أعطته 75٪ من شرها الخام.! فإن فكيه العريضين، وأذنيه المتأرجحتين كأيادي السلال، وعينيه المستديرتين الصغيرتين، اللتين تنفثان المكر والذكاء، كانت تؤكد لنا أن هذا الرجل من (محاسيب) نظرية (لومبروز) في الإجرام، ومن أقحاح صهيون، وعباد الهيكل؛ ونادبي الحظ في ربوع العالم.!

ولعل الشرير خدع بزيِّ صاحبنا، وحبذ مصادقتنا، فدعانا إلى مقعده المؤلف من صعيد الأرض، وبعض العشب، قرب العجوز الهادئة الجامدة، وكأنها لم تر إنساناً يقرب منها.!

وكاد صاحبي أوكدنا أن نستر هويتنا ـ كالعادة ـ لولا أن أقبلت إحدى البنيّات من تلميذاته القديمات، فعرفت الرجل بنا، وقامت مقام المترجم الحاذق، ـ رغم إطلاع الرجل على العربية ـ فاربد وجهه لإخفاقه في فراسة الأشخاص، وقد حسبنا من أبناء عشيرته، وإذا به يرانا عرباً.. وعرباً ـ مفتحين ـ يعملون ما لا يحلم به هو وقومه، فيجوسون خلال الديار، يتفهمون الصهيونيين ويسبرون الأغوار.!

خاب فأل الرجل دون أن ينهزم؛ ولكنه فاجأنا بعربية محطمة من بضائع (تل أبيب)..

ـ كيف ترون المكان.؟ وهل يعنى العرب بالزهور.؟

فأجابه صاحبنا: إن العرب في غنى عن الزهور والرياحين، فقراهم عامرة بها منذ خلقها الله، غير أنها يعملون اليوم، في رفع مستوى القرية العربية من ناحية الزراعة والتعمير والتنظيم.. ويرون الحياة جهاداً متواصلاً؛ لأنهم مهددون في رزقهم وبيتهم وأرضهم وغدهم وذريتهم؛ إنهم يعلمون أطفالهم أنهم إذا شبوا، فقد لا يجدون لأنفسهم

ديـاراً.. ولا حـديث لهـم مـن شـبان وشـيب إلا الثبـات في الأرض، والـدفاع عـن البيـوت والحرمات،ولو أدى ذلك إلى قتال يكون من ورائه الفناء.. فأين هم من الزهور والرياحين.؟ إن همهم الوحيد ذلك الوضـع السياسـي الحاضـر العجيب الغريـب؛ وإن الأعمـال الزراعيـة والتجاريـة والـصناعية طـراً، إنمـا تـنجح بالاسـتقرار الـسياسـي وهـو مـا حرمـوه.. فأجـاب الرجل: لا.. لا.. هذا قول فيه كثير من الخطأ.! فلو فـرض أن الإنكليـز لم يتزحزحوا عـن فلسطين، ولن يتزحزحـوا، فهل يظل العـرب بعيدين عـن الحركات الاقتـصادية والزراعيـة والعلميـة.؟ . فقاطعتـه: دعنـا مـن هـذه المقارنـات والمحـاورات، فكل مـن الفـريقين يناضـل، وسيكون البقاء للأصلح. غير أنه ينبغي علـى كافـة اليهـود، مهادنـة العـرب والإخـلاص لهـم، فمهما تكاثرتم فهم يحيطون بكم كالسوار.. فاغبرّ وجهه وقال:

نحن نعرف هذه الحقيقة دون أن نيئس، ولـن نحـارب العـرب أبـداً، لأننـا بحاجـة إلى النفوس والأيدي العاملة.! أو تـدري أن الـبلاد تقـاس اليوم بإنتاجهـا الاقتـصادي، وقـدرتها الثقافية الفكرية، لا بعددها وتعدادها.؟ لم تعد يد الإنسان في الحروب الحديثة، كل شـيء في الكسب؛ ولكن المادة الأولى فيها هـي الفكـر والعلـم.. فـإذا كـان النـاس قـديماً يخـضعون لقاعدة (جاهـد لا تجـع) فثقافـة اليوم (فكـر لا تهلـك) وهـذا.! ثـم نفـخ في الهـواء، يعـني أن العرب يملكون (صفراً) من هذه البضاعة.!

فأجبت: ربما يكون في هذا القول بعض الحقيقة، لو دامت الحال على ما هـي عليه؛ غير أن فلسطين لن تبقى في وضعها السياسي الحالي، بل ستتمتع باستقلال قوي وحكومة عربية وطيدة.! وبعدئذ، يمكنكم على ما أعتقد أن تفتشوا علـى ظـلال هـذه الأفكـار تحت الحكم العربي.! إن اليهود لم يسعدوا في حياتهم وتاريخهم كما سعدوا تحت حكم العـرب.. وفي أسـبانيا المـسلمة أبـرع مثـال.. وإذا مـا اسـتقلت فلـسطين، فلـن يكـون هنالـك صـهيوني وعربي بل فرد فلسطيني فحسب..! إن بذور الصهيونية هـي التي سممت أفكاركم، مـع أنهـا مازالـت مـن حواشـي الـسراب والخيـال.! فقـال بغـضب يـشوبه ضـبط شـديد لانفعـالات الـنفس: إنـك تـتكلم عـن الاسـتقلال كمـا تحـسب دراهمـك في محفظتـك..! إن اسـتقلال فلسطين، شـاق جداً بالنـسبة لإنكلترا واليهود كافـة.. لأنـه سـينجلي عـن (برلمـان) للعـرب؛ وسيكون من أهدافه محق الصهيونية وسحق الوطن القومي من الوجود.!

وكان متحمساً جداً، يكاد يلاكم.! أما العجـوز فكانـت تـؤمن علـى قولـه بهـزة رأسـها وبالتفاتة إلينا بين الفينة والفينة، وغمزة ناعمة للبنية، توثيقاً للقول الحـق.! وكدنا ننفجـر من غلاظة الرجل وحماسته.. وأخيراً فحّ كالأفعى الظمأى وقال:

ألا ترى أن النظام الحاضر يستند إلى المادة (22) من صك جمعية الأمم، التي عهدت إلى إنكلترا بالانتداب على فلسطين، لتنهض بالشعب، وتسهل إنشاء الوطن القومي.! ولذلك فلن تنتهي إذن مهمة الدولة البريطانية، مادامت النهضة لم تتحقق، والوطن اليهودي لم يعزز بعد أو يتمّ..

ثم نطقت العجوز لأول مرة. وقد نزعت غصناً جافاً من شجيراتها.. تمتمت في جملة طويلة بالعبرية فسرتها لنا الفتاة، وضحك على إثرها الصهيوني ضحكة صفراء.. قالت:

ولذا فإن العرب، عندما يطالبون بإنشاء دولة مستقلة، وإزالة الانتداب، فطلبهم سابق لأوانه.! قال صديقي: نحن نعلم أن إنكلترا تماطل وتعد، من دون أن تفي بشيء للعرب أو للصهيونيين، وهي تعلم حق العلم، أن اتفاق العرب واليهود على الاستقلال معناه نزع يدها عن فلسطين، وهي في نظرها مركز (استراتيجي) هام، ظهرت أهميته حقاً في هذه الحرب.! إنها مع أنصارها تحاول دوماً تفسير صكوك الانتداب، ومعاهدة لوزان في صالح المستعمر.. وفحوى هذا التفسير، إن الأمة البريطانية، ستساعد على الحكم الذاتي؛ ولا يعني ذلك إنشاء البرلمان، ولكنه يعني دفع البلد إلى الازدهار والرقي وتوسيع المؤسسات القومية، ريثما تصل إلى الاستقلال.. فهل حال العرب الاقتصادية والثقافية الآن كافية لإنشاء برلمان.؟ قد تقولون ويقول رؤساكم، إن الأكثرية الساحقة من العرب، فقيرة جاهلة مغمورة بالخرافات والتعصبات الدينية والميل إلى القسوة والسلب، ولذا فهي تحتاج قبل الاستقلال إلى تهذيب مدني طويل.! ولكن هذا الرأي فيه خطأ فاحش، وتعمية ضالة.. فأي بلد لا يوجد فيه فقراء، وأي صقع لا يضم بين جدرانه وبيوته جهلاء متعصبين.؟ إن الثورات السابقة، ليست سوى أعمال دفاعية شريفة، قام بها العرب مقابلة لأعمالكم الانتقامية، ومعاملتكم الشاذة لهم؛ ولن يوجب ذلك بقاء الانتداب.! لأن هذا النظام غلّ يمنع العرب من التقدم، ويحجز مثقفيهم عن نشاطهم في رفع المستوى الاجتماعي والاقتصادي... إن بين العرب طبقة مثقفة كبيرة وغير متطرفة، وهي ناضجة سياسياً واجتماعياً، وستصل ستصل عاجلاً أو آجلاً، على الرغم من كل العقبات إلى استقلال فلسطين السياسي، وإلغاء وعد بلفور.! فأسرع الرجل يقاطع: وستصرون طبعاً على مقاطعة الصهيونية، تنفيذاً لأغراضكم السياسية.. فقلت: بكل تأكيد.. فنحن نعتقد أن هذه الوسيلة هامة جداً، إذا نفذت بحذافيرها، وخاصة إذا لم تنقطع الهجرة أو يرجع الصهيونيون إلى رشدهم، ولا أقول اليهود! لأن بين اليهود من يخالف آراء الصهيونية

بالأهداف والمبادئ والصلات مع العرب.! فأجاب الرجل وهو يكاد يتمزق غيظاً: إن إيجاد البرلمان معناه معاكسة مصالح إنكلترا ذاتها، والسير مع الميول المتطرفة في الشرق الأدنى، ونحن لا نوافق على برلمان عربي ونناهضه بكل قوانا .. فقال صديقي: ولم.؟ أوليست فلسطين مثل سورية والعراق وشرقي الأردن والحجاز.؟ وكلها مستقلة تقريباً، رغم التشابه في الثقافة والوضع الاقتصادي والاجتماعي.! فضحك قائلاً:

لا سبيل إلى المقارنة أبداً.. فهنا توجد مهمة سياسية هامة: هي إنشاء وطن قومي لليهود .! وزفر صاحبي زفرة حرى، وأراد النهوض، ولكن العجوز، دعتنا إلى البقاء بنظرة ماكرة..

قال الصهيوني العتيد: إن سكان فلسطين اليهود، لا يرضون عن إيجاد برلمان، كما أن يهود العالم يناهضونه ويعاكسونه؛ وطالما وقفنا نحن هذا الموقف، فلا مجلس هناك. ولو قرر العرب عدم الاعتداء، لجاز لنا أن نفكر بذلك، لأن البرلمان سيؤجج نار الاختلافات بيننا وبينهم؛ ولهذا فالمجلس القومي اليهودي يرفض هذه الفكرة.. فضحكت من هذا التعصب والمغالاة، وبناء الحلول على أسس تجعل التفاهم مستحيلاً.! وقد قسم المحدث أصحاب الرأي المسموع في فلسطين إلى أربع جماعات هي:

1 ـ بريطانيا العظمى، 2 ـ يهود العالم، 3 ـ يهود فلسطين، 4 ـ عرب فلسطين.. ولم يأت في بال ابن إسرائيل، عرب العالم ومسلمو العالم، في الأقطار الأخرى.! فهل سها عن خاطره ذلك، أم تغاضى عنه، لبعث الاطمئنان في نفسه، كحيلة لا شعورية على توثيق الأمل والاستبشار بالمستقبل.! وكما يقول: إن كل برلمان يرجى إنشاؤه، يجب أن يستند إلى موافقة هذه العناصر الأربعة..

وقد حدثنا الرجل أيضاً، وهو على ما يظهر متفهم حقاً لصك الانتداب، والقضية اليهودية من أولها إلى آخرها، من وجهة نظر واحدة طبعاً، كغيره من الصهيونيين المغالين.. بأن المادة الرابعة من الصك المذكور، تعترف بالحقوق الفلسطينية ليهود العالم بأجمعهم، بصورة غير مباشرة، وذلك عن طريق اعترافها بالوكالة اليهودية.!

قال: ولا يغربن عن البال، أن الوكالة تتمتع باختصاصين هامين: أولهما تعاونها مع الحكومة على كل ما يؤثر في إنشاء الوطن القومي اليهودي، فتقوم بكل تدبير يؤمن تعاون يهود العالم في سبيل إنشاء الوطن القومي المذكور.! وثانيهما أنها تتعاون مع الحكومة أيضاً على كل ما له صلة بمصالح السكان اليهود في فلسطين، وتشترك في ترقية البلاد بصورة عامة تحت إشراف الحكومة وسيطرتها.!

وهنا، قال له صاحبي: إنك تشير إلى مساهمة الوكالة بترقية البلاد الفلسطينية كافة، وتشمل بذلك العرب.. أليس كذلك.؟ ولكن هل أفاد العرب مما أسهمت به الوكالة حقاً.. أم كانت الفائدة لليهود فقط.؟

فابتسم الصهيوني وقال: نعم، لقد أفاد العرب من نشاط الوكالة في كثير من الأمور: كالصحة والتعليم والرقي التجاري والصناعي.!

فأجابه صاحبي: إن قولك هذا هو المغالطة عينها.. فأي إسهام لكم في تعليم العرب أو صحتهم.. نعم، إن نسبة التعليم ارتفعت حقاً في البلاد، غير أن هذه الظاهرة مشتركة في بلاد الشرق كافة، وذلك بمساعدة الحكومات المختلفة في هذه السبيل، وإن مساهمتكم الصحية المزعومة، أمر زائف تماماً.. ففي عام (1940) ـ كما ينص الملخص الإحصائي المنشور عام (1941) ـ تردد على مستشفيات اليهود (655.175) شخصاً لم يكن بينهم أكثر من (2038) عربياً، أي بنسبة الثلث ٪.! أما التعليم فلا يمكن أن تقبل مدارسكم جماعة العرب مطلقاً.! حتى أن السير (إيلي خضوري) اليهودي العراقي، عندما ترك في وصيته الإنسانية مبلغاً كبيراً، للتعليم الزراعي العام في فلسطين، وأنشأت الحكومة طبق رغبته مدرسة عربية إلى جانب أخرى يهودية، هجتم وملأتم الدنيا صراخاً واحتجاجاً، ولم تسكت صحيفة صهيونية عن ذلك، بل نددت بعمل الحكومة وعنفت بالقول والنقد.! فأي مساهمة هذه، وأية مساعدة أو فائدة.؟ وعاد الصهيوني المتحمس يتابع رأيه: إن الاعتراف للوكالة اليهودية، بحق التعاون مع الحكومة، والمساهمة في تقدم البلاد، هو ذو معنى عميق، يمكن تلخيصه بالاعتراف بحق مجموع الشعب اليهودي العالمي، في الاشتراك بالأعمال التشريعية والإدارية في فلسطين.. وهاكم آخر المادة الرابعة توضح اختصاص الوكالة فتقول: (..وتساعد وتشترك في ترقية البلاد) وليس ثمة ما هو أكثر مراناً من هذه الجملة وأسهل للمط والتأويل.!

إن سكان فلسطين يتألفون من 66٪ عرباً و33٪ يهوداً. وهذا يدعو لأن تكون النسبة العددية في البرلمان المنشود موافقة للعرب أكثر من موافقتها لنا.! غير أن الوكالة التي تمثل يهود العالم، تغدو على هذا التقدير مهملة، لا يعبأ بها أحد، مع أنها تمثل عشرة ملايين نسمة من اليهود.! ونحن نعتقد أن تمثيلها في البرلمان من أثمن غاياتنا وأحبها.. ولذلك وجب أن يتألف البرلمان كما يلي:

1 ـ من ممثلي الوكالة اليهودية عن العالم اليهودي

2 ـ من اليهود الساكنين حالياً في فلسطين.

3 ـ من السلطة المنتدبة

4 ـ من السكان العرب وكل من هو غير يهودي...

فإذا كان لكل (25) ألفاً من السكان نائب يمثلهم، فإن المجلس سيتشكل إذن من (24) نائباً يهودياً فلسطينياً و(48) عربياً فلسطينياً وما لا يقل عن (100) نائب يمثل الوكالة اليهودية.! ولو جعل لكل (100) ألف نسمة نائب، فإن المجلس سيتألف أيضاً من أكثرية يهودية.! وهنا، افتر ثغر العجوز عن ضحكة مرحة متفائلة، فكأنها تسبح دقيقة واحدة مع رفيقها (الحيسوب) في حلم ووهم وخيال لذيذ.. حتى لقد قال صاحبي: ولكنك ـ على طريقتك ـ نسيت عرب العالم ومسلمي العالم أيضاً، الذين يمثلهم الجامعة العربية.. كما تعلم، وفهمكم كفاية.. فعبست العجوز، وبدا اللؤم على الرجل فقال: وإذا قلتم بأنه لا يحق لغير سكان البلاد أن ينتخب نائباً فأقول:

إن وضعية البلاد ليست نهائياً من حيث السكان، فما زال هنالك يهود كثيرون في ترحال إليها.. ولذا فقد وجب أن يمثل هؤلاء ولو سلفاً، لأن وضع البلاد الشاذ، يستدعي طرازاً انتخابياً خاصاً.!

إن حق الشعب اليهودي في انتخاب ممثليه بواسطة الوكالة، أمر لا يمكن رفضه أو نبذه؛ لأن ملايين اليهود مرتبطون بها اقتصادياً وروحياً وسياسياً.! وإذا كان كل حق عام يستدعي الاعتراف بالحقوق الخاصة، الناجمة عنه، فإننا لا نتمكن من الاعتراف بالوطن القومي لليهود دون برلمان يمثل هذا الوطن.!

إن عدم وجود يهود المهجر في فلسطين، هو غيبة طبيعية، لا روحية ولا سياسية ولا مالية.! لأنهم يغدقون الأموال على صناديق الوكالة في كل عام؛ وإن أحدهم يشتري زجاجة الشمبانيا في حفلة التبرع لفلسطين، بمليون دولار أمريكي، وهو جذلان فرح بتأدية الواجب المقدس.!

إن النظام الانتخابي القانوني، يجري عادة في بلد تسود فيه المساواة الطبقية والفكرية والعنصرية.. أما هنا، فتوجد كفتان مختلفتان.. فهنالك جهل وعلم، وفقر وثراء، فثلث السكان اليهود، يدفعون مقداراً من الضرائب هو أكثر مما يدفعه الثلثان الآخران، رغم أنهم لا يستفيدون من التعليم والصحة والإسعاف الاجتماعي وما هو محتم أن يستفيده أناس لهم قدرتهم التجارية، الذين يضعون رؤوس أموالهم الهائلة، فينتعش بسببها كافة سكان فلسطين كما تنتعش خزانة الدولة. مع أن هناك قاعدة اقتصادية سياسية بسيطة، تقول: إن الذي في يده ميزانية الدولة في يده مصيرها...

أما من الوجهة العلمية، فإن إنتاج اليهود العلمي يتفوق كثيراً عما للعرب من إنتاج.. فقد صدر عام (926 ـ 927) الدراسي في فلسطين، 368 كتاباً منها 307 كتب عبرية و 17 كتاباً عربياً.. وفي عام 928 ـ 929) صدر 409 كتب منها 349 كتاباً عبرياً و 19 كتاباً عربياً.. وفي السنة نفسها، كان يوجد 43 جريدة ومجلة عبرية، وست جرائد ومجلات عربية..

أما المشاريع الزراعية الصهيونية،وتربية المواشي، والصناعة فتفوق أيضاً مشاريع العرب؛ فهنالك محاطتنا التجريبية الزراعية، ومعاهد بستور، والمدارس الزراعية والمستشفيات والجامعة والمدرسة التكنيكية في حيفا، ومدارسنا المسلكية، ومدرسة الفيزياء في (بيراليل).. كل ذلك يسهم اليهود فيه أكثر من العرب.!

ولذلك، فإننا كيهود متعلمين، نلح بأن يكون عدد النواب، لا بنسبة السكان، بل بنسبة قواهم الفكرية والمادية.! فبرلمان يضع العناصر النشيطة العاملة الفنية، تحت حكم أكثرية جاهلة، هو برلمان يخالف صكوك الانتداب، ورسالة بريطانيا المنتدبة، وإرادة الشعوب اليهودية في إنشاء الوطن القومي.!

وعلى هذا.. فنحن ـ وهنا التفتت المعجوز والفتاة، وقالتا معه بصوت واحد: نحن نرى أن يستمر الحكم البريطاني نفسه إذا لم نستطع خلق الدولة اليهودية..

لقد عرضت حكومة الانتداب، في مناسبات عدة، تأليف مجلس تشريعي في فلسطين. وكان نصيبه الرفض القاطع من الشعب العربي الأبي. لأن المجلس سيقام حتماً لتنفيذ سياسة الوطن القومي اليهودي، التي يستنكرها العرب، أما وأن الأمة لم تعترف في يوم من أيام جهادها على الانتداب، ولم تقر بوعد بلفور، وكان من مقتضيات رفض الأصل أن ترفض الفرع، فلا عجب إذا رفض كل مشروع لمجلس تشريعي..

والعرب إذا يطلبون حقهم في التشريع، لا يريدون أن يغمطوا حقوق اليهود الذين يساكنونهم؛ ولكنهم يريدون أن يتمتعوا بحقهم لأنهم أكثرية ساحقة في العدد والمصلحة، وباعتبار أنهم وعدوا وعوداً صريحة، وباعتبار أن عهد جامعة الأمم يخولهم ذلك، مع حفظ حق اليهود الوطنيين في الاشتراك معهم في الإدارة والتشريع حسب نسبتهم.

أما أن يحشر في المجلس العتيد، يهود العالم، الذي يتمتعون بحقوق عامة وخاصة في بلادهم، ولهم ممثلون في برلمان كل بلد يحيون فيه، فأمر لا يقره عقل، ولا يقول به منطق.

إن عرب فلسطين، يطلبون أن يعيشوا أحراراً في دنيا الأحرار، وهم ليسوا أقل نضجاً في السياسة والعلم والاقتصاد من إخوانهم في البلاد العربية المجاورة، ولم يقترفوا

إنما ليتحملوا تبعات تعهدات غيرهم، فليكن هدف الجميع، جلاء قوات الاحتلال عن الأراضي المقدسة وإعلان فلسطين حكومة مستقلة، وعندئذ يعود الحق إلى نصابه، وتطمئن القلوب، ويخيم السلم على الجزء العزيز من العالم.

ألبنان .. في جبعات برِه نر

ولا تحسبن (بره نر)[188] هذه، هي ذلك المضيق الجبلي الذي كان في يوم من الأيام حديث الدنيا، وشاغل الناس، لدى كل اجتماع يعقده دكتاتورا أوربا، هتلر وموسوليني.؟ لا .. بل هي مستعمرة من أرباض (تل أبيب)، تعد في طليعة كبريات المستعمرات، التي تعتز بها الصهيونية، والتي خطت خطوات فساحاً في مضمار الرقي، ومعارج التقدم.. ولقد أوصانا كل من لاقيناهم بزيارتها، لأن رؤيتها تغني عن كثير. ويمكن للقارئ أن يتصور عظمتها، إذا علم أن عدد سكانها يربو على الألف والمئتين.. وأنها بعد سبعة عشر عاماً من عمرها السعيد، غدت مركزاً زراعياً وصناعياً، يشار إليه بالبنان.

فهيا إليها لنلمس جانباً جديداً من أسرار النجاح الصهيوني.. وفي سبيل العلم وخدمة الأوطان، وفضح أسرار الأعداء، يهون كل عناء..

امتطينا (باصاً) من محطة (إيجد) الكبرى. وما كادت السيارة تتحرك، حتى شرع صاحبنا يفتش عن صيد، يكون له متعة الرحلة، فعثر على شاب يهودي مصري الإقامة، فرنسي الجنسية يحمل في جعبته دليلاً أخضر، وكتاباً مقدساً، ومصورات مختلفة، ترشده في رحلته الميمونة. وإذا كان (كل غريب للغريب نسيب)، فقد جمعتنا الغربة، وألفت بين قلوبنا غاية الإطلاع.. غير أن غاية السيد المصري، لم تكن البحث والدراسة، بل هو قانع من الغنيمة بالإياب، وبالنظر، والنظر وحده؛ فتراه يجوب أنحاء فلسطين كموظف في أحد المصارف يقضي إجازته. وعلى الرغم من مصوراته المختلفة، ودليله الأخضر، وكتابه الديني، كان كشاعرنا المتنبي في شعب بوان: غريب الوجه واليد واللسان.. فلم يبد عليه أنه يفقه شيئاً مما رآه، وكان جل اعتماده علينا، دون مناقشة أو سؤال، وعجب صاحبنا أشد

[188] - تقع هذه المستوطنة على اراضي قرية زرنوقة العربية الفلسطينية والتي تقع إلى الجنوب الغربي من الرملة وتبعد عنها 12كم، هدمت القرية عام 1948م وتم الاستيلاء على اراضيها البالغة حوالي 5500 دونم وعلى اراضيها مستوطنة (جفعات برينر)، ومستوطنة (زرنوقة)، بلغ عدد سكانها عام 1931م حوالي 1952 نسمة ارتفع إلى 3380 نسمة عام 1945م

العجب من ضخامة جثته، التي لا تتناسب مع ضآلة ثقافته التي علاها الغبار، لتطاول العهد، وعدم الاستعمال..

◆ ◆ ◆

تقوم (جبعات بره نر) على رابية عالية تشرف على البحر، وتطل على محطة (اللّد) الكبرى. ومطارها الفسيح، في رقعة رحبة، تكتنفها الحدائق والبساتين.

ولعل هذه المستعمرة تشمل كل ما رأيناه في المستعمرات الأخرى، اللهم إلا أن الكمية في كل شيء أوفر وأغزر، وذلك تبعاً لحاجة السكان، الكثيري العدد، واتساع الرقعة وازدهار المستعمرة.

وأول ما يفاجئك مشفى الأطفال، فهو مغنى يقوم على ذروة الرابية؛ تتلوى أمامه الأودية، وتتبسط في الأفق البعيد سهول لا يتبينها النظر، وهو مطلي داخلاً وخارجاً بالدهان الأبيض اللامع؛ والممرضات يتنقلن بين أرجائه، كملائكة الرحمة، وقد انتقين من أجمل الفتيات شكلاً، وأمثلهن جانباً، وهن يتشحن بالبياض، ويضمن على قبعاتهن (خاتم سليمان) بلون أزرق. وكان المشفى هادئاً لا تسمع فيه نأمة، وراء نوافذه وأبوابه الخضراء، ذات المناخل. وهنالك حمام للجنسين بخزائنه ومشاجبه العديد، وثمة المناشف والمرايا والصابون، للحلاقة أو التغسيل..

مدارس ومعلمة

وشاهدنا حديقة للرضع، وقد وضع كل منهم - أو منهن - في قفص أو إطار، يعنى به مربيات خاصات، بينما تعمل أمهاتهم في الحقل أو المعمل، أو شؤون أخرى، وكان الوقت ظهراً، حيث شرعن يقدمن إليهن الغداء؛ فطلبت المربيات منا إرجاء زيارة هؤلاء الأطفال ريثما يتناولون طعامهم، خشية أن يلتفتوا إلينا، ويشغلهم شاغل، فيلهيهم عن شأنهم، وتشرد قابليتهم المرتجاة..

وثمة حديقة أطفال، ومدرسة ابتدائية فيها إحدى عشرة شعبة، صفوفها نظيفة جداً، وفيها أحدث وسائل الإيضاح. ولعلها تفوق في ترتيبها ما شاهدناه في (شفيا)؛ ولو قارنّا بها ما نعرف من مدارسنا في دمشق، لكانت كالمقارنة بين رأس الدبوس، ورأس الرجاء الصالح..

وأخيراً رأينا للمرة الأولى في المستعمرات. مدرسة ثانوية، ولن تكون هذه المدرسة يتيمة الدهر، وفريدة العصر؛ بينما لا يوجد في سائر القرى العربية طراً في فلسطين، مدرسة واحدة ثانوية. وفي هذه المدرسة من ساحات الألعاب والأجهزة الرياضية ما يبيض لها أشد وجوه خلق الله سواداً.!

وقدمنا مرافقونا إلى أستاذة ألمانية، تتقن الفرنسية إتقاناً مدهشاً.. وهي لطيفة جذابة أكثر منها فاتنة؛ وعليها سمة المعلمات الرصينات الأنيقات؛ فلا ملابس مرصوصة تترجم عن العجيزة والمدورات، ولا نهود رافعة أنفها إلى السماء. ولا ألوان قوس (قزح) على سحنة غريبة كوجوه (الكرنفال)، بل كل ما في الأمر شعر مرجل، ووجه طبيعي، ونظافة ظاهرة تدعو التلميذات أن يقتفين أثرها.. وما أقل المعلمات اللواتي يجوز اقتفاء آثارهن.!

ولقد أعطتنا معلومات كثيرة سمعنا مثلها في المستعمرات الأخرى، وأضافت: إن على فتياتنا أن يتقن صنعة من الصنائع أو فرعاً من الزراعة، بالإضافة إلى ما يتعلمنه من فنون الطهي، والخياطة، فغاية الفتاة عندنا أن تكون أماً في البيت، وعاملة واعية في الحقل أو المصنع. ونحن نفخر بأن الأمية تكاد تكون مفقودة تماماً؛ وسيأتي يوم على فلسطين، لا ترى فيه يهودياً جاهلاً؛ فالعلم فرض على الجميع، وعلى كل طالب أن يحترف حرفة، كما يقضي بذلك ديننا، لعقيدتنا أن الإنسان لا يكون فاضلاً إلا بالعمل..

قالت ذلك من دون تكلف أو اهتمام، تماماً كما تقول لصاحبك: عم صباحاً... فهل سمعت فتياتنا ذلك، وهاجرن بعقولهن إلى منطقة فكرية طيبة المناخ، خصبة الإقليم، ليخلقن لنا جيلاً يبدلنا من بعد يأسنا أملاً، ويفتح أمامنا آفاق المستقبل بسامة.؟ وهل سمع شبابنا أن قيمة كل امرئ ما يحسنه، وأنه لا فضل لعربي على أعجمي إلاّ بالعمل المنتج الخالص لوجه الله والوطن.!

وأضافت أستاذتنا المحدثة: إن برنامجنا الدراسي في سائر المستعمرات واحد، علوم نظرية بجانبها تطبيقات عملية؛ ونحن نقبل التحاق أطفال المدن بمدارس مستعمراتنا، نظير أجور مقررة، أما من أرسلوا من قبل الجمعيات الخاصة فهم معفون من كل رسم..

ولم يسمع تاريخ فلسطين بعد، أن طفلاً يهودياً ذهب إلى مدرسة أجنبية؛ فالكل يمضون إلى مدارسنا المستقلة، السائرة على النظام الذي تقرره شعبة المعارف في الوكالة الصهيونية، فإن برامجنا تبث في أطفالنا روح الصهيونية ومبادئها وغاياتها.

وشكرنا هذه الأستاذة الفاضلة على علمها الغزير، وغادرنا حماها، ونحن نذكر

أنصاف المواطنين، الذين كانوا يزجون أبناء الأمة، طائعين مختارين في المدارس الأجنبية الإفرنسية لتخلق لنا جيلاً هو حرب على وطنه، عدو لدينه، شعوبي إزاء قوميته..

معامل وأبنية

وصلنا معملاً ضخماً هائلاً. فإذا هو معمل (الكونسروة). والحق نقول إنه عظيم فخيم، ممتلئ بالآلات والأدوات المنسقة تنسيقاً بديعاً، ففيه أجهزة لتنظيف الأوعية والزجاجات والقوارير، وأخرى لصنع الأواني القصديرية أو لحمها وإغلاقها، وآلات العصير والبخار، وبراميل ضخمة للمنتوجات من مربيات ومشروبات ومخللات وخلاقين هائلة، وقدور عديدة للطهي.. ورأينا أنبار السكر، والأقبية الفسيحة، والمواقد البخارية، كل ذلك ذكرنا بمعمل دمشق للكونسروة، زاده الله اتساعاً وازدهاراً... وفي المستعمرة، خممة تشتمل على ما ينوف على (20) ألف دجاجة منتقاة من خير الأجناس، وهي سليمة من كل مرض. وعن كثب منها، اسطبلات فيها مئة وخمسون بقرة، متعددة الأجناس والأنواع..

وكان مما لذ لنا مشاهدته، رؤيتهم يبنون أبنية حديثة، عوضاً عن القديمة، التي أصبحت لا تلائم رقي المستعمرة، ولا تفي بازدياد السكان. ومما يلفت النظر تلك السطوح المائلة المصنوعة من قرميد إسمنتي خاص. أما الغرف فكانت متلاصقة، غير أن كل دار مستقلة عن الأخرى.

ولقد زرنا بعد استئذان، مسكن امرأة هنغارية نصف، كزجاجة عطر فارغة، لم يبق منها إلا آثارها، فإذا فسحة صغيرة كالشرفة أمام المدخل، بجانبها خزانة لوضع الأحذية، وبعض المؤن التي تنشر روائح لا يستحسن انبعاثها داخل الحجرة؛ والمسكن نفسه يتألف من غرفة واحدة أنيقة، كأنها صنعت للضحك والهدوء، تجمع الشرائط الصحية؛ يزين جدرانها صورتان فنيتان، تمثل إحداهما بزوغ الفجر، وأخراهما: الطفولة البريئة؛ وكلاهما ينم عن ذوق مهذب مرهف. والغرفة ناصعة البياض، يستر أرضها سجادة صغيرة، وعلى نوافذها وقسم من بابها مناخل من شريط أخضر اللون. وأثاثها يتألف من سرير يتحول نهاراً إلى مقعد واسع مريح، بجانبه (طربيزة) يعلوها مصباح كهربائي، وفي الزاوية خزانة صغيرة وكرسي وطاولة فوقها مزهرية.

وسائر الدور على هذا الترتيب البديع، مع اختلاف في الاتساع، بحسب عدد أفراد العائلة.! وعليها كلها مسحة النضارة ومظهر النظافة والوجاهة، وقد نسقت صفوفها، ورتبت هندستها، وحباها العلم بنور الكهرباء.

وفي هذه المستعمرة الفنية صالات للموسيقا والحفلات والتمثيل، وحجرة للإذاعة.
وآذن الظهر فدعينا للغداء، فوجدنا المطعم ممتازاً يشرف على مناظر غاية في الروعة والجمال، وهو صالة فسيحة جداً؛ والطعام يوزع في عربات مطاطية العجلات ليس لها صوت؛ فيها رفوف من أنابيب حديدية، نضدت فوقها الصحاف وألوان الطعام. والطهي هنا، كما هو في سائر المستعمرات، أوربي الطريقة وموافق لتعاليم الموسوية. وقد قدموا لنا بطاطس وأرزاً حلواً، وحساءً من العجين المجفف والحبوب، وكان شراب (الأسيس) يبذل للحاضرين بكرم عجيب. ولعل وجود معمل الكونسروة يسوغ هذا التصرف الشاذ، وبالإجمال فإن الطعام كان فاخراً، بسبب ثراء المستعمرة وازدهارها، فكلما نمت واتسعت وازداد إنتاجها، ارتفع مستوى الحياة فيها .. ولما كان السكان كلهم متكافلين متضامنين في العمل، فإنهم يرون من مصلحتهم أن يضاعفوا بذل الجهود، ليرتفع مستوى المعيشة.

حدائق. وزهور. وحسان.

غادرنا المطعم. ويممنا وجهنا شطر الحدائق والحقول، لنلمس لمس اليد تقدم القوم الزراعي. فشاهدنا البركة الكبرى لتي تروي المساحات الواسعة وتؤمن مطالب المستعمرة. وكانت محركاتها الضخمة، تعمل لنضح المياه من أعماق الأرض. وكم تمنى صاحبنا أن ينعم بجولة سباحة في هذه البركة، وهو ابن بردى وتورا ويزيد. ولولا أنه تناول طعامه منذ قليل، ويحرص على تطبيق القواعد الصحية حرصه على تطبيق الوصايا المشر. وحول هذه البركة، إلى مسافات لا يحدها البصر، حدائق الخضار، وكروم الدوالي، وأشجار الفواكه والحمضيات، ومن بعيد، كانت ترن أصوات العاملات والفلاحين الذين يخدمون الأرض، فيهبونها نفوسهم الغالية. وسرنا تحت الأشجار المتشابكة، حيث حفيف الأوراق، تحت سماء صافية الأديم، وممرات شذبتها يد العمال من أعشابها الطفيلية؛ والنوافر اللولبية تدور وتدور، كالدراويش في حفلات رمضان، ولكم أصابنا من رشاشها، ورذاذ مائها المتناثر فوق الأشجار، والخضار والأزهار، فرطب وجوهنا وصدورنا، في ذلك الجو القائظ.

واجتزنا ممراً، كأنه من نماذج جنان الخلود؛ على جانبيه جدران من المرجان، شذبت بانتظام، تضم خمائل في وسطها نوافر، وعلى جوانبها أزهار، وفي زواياها مقاعد لاستراحة الزارعين والعاملين، وكما تجد في المدن الكبرى حدائق يلوذ بها الإنسان من مشاغل الحياة اليومية، كذلك تجد في هذه المستعمرة تلك الممرات وهاتيك الحدائق، التي

تقوم على تنظيمها وخدمتها فلاحات ممن تعرفهن وسبق لنا ذكرهن، كاشفات السوق، ناهدات الأثداء.

وكانت خاتمة المطاف أمام مغنى فسيح الأركان، شاهق الجدران، نوافذه البلورية واسعة، يغمرها النور والهواء، وفي داخله قليل من الشبان وكثر من الغيد الحسان، بيجامات هفهافة، وأثواب طويلة، تجر أذيالها، وأنغام الراديو تشنف الآذان. وهذا المغنى هو مصيف للنقاهة، ازدانت موائده بالورد، وجدره بالصور الفنية، وأثث بأفخر الرياش، فكان منتجعاً لطلاب الراحة،وعشاق الطبيعة، وللناقهين..

وحوله أشجار الصنوبر الظليلة، ترى خلف أغصانها، الحقول الخضراء، والأفق البعيد، والبحر الأزرق، والسماء الصافية، والنسيم العليل ينساب بين الأوراق فيسمع له وشوشات وهمسات.

ولقد زرنا لبنان، وطفنا أرجاءه، ونستطيع أن نؤكد مخلصين أن دار نقاهة (جبعات بره نر) وما يحيط بها من غابات وحقول، وما يكتنفها من جو ساحر أخاذ، لن تقل جمالاً عن لبنان الحبيب إلى القلب، وعن سويسرا التي تحدث عنها الركبان..

وجلسنا مع الجالسين في ظلال الصنوبر، فوق هاتيك الكراسي المتنقلة المتطاولة، التي يضطجع عليها الإنسان، فيتمتع بالهدوء اللامتناهي، ويسبح في أجواء من الخيال، فيداعب النوم جفنيه، ويتمنى ألا يغادر المكان..

وبعد، فأنت تستطيع أن تكره عدوك، ولك أن تفتش عن القضاء عليه، ولكنك لا تستطيع قط أن تتجاهل محاسنه ومزاياه. ذلك ما يوحيه العدل والمنطق والرأي السديد. وهؤلاء الصهيونيون أعداؤنا (رقم واحد) لا منازع، ولكن علينا ألا ننسى أنهم ما قاموا بمشروع إلا أتقنوه ووفوه حقه، بفهم ثاقب، وترتيب وتنظيم؛ وبهذه الأساليب، شقوا طريقهم في الحياة، وخلقوا الأنصار، وكانت أعمالهم خير دعاية لهم. فأين (جبعات بره نر) من مصايفنا السورية، التي لو امتدت إليها يد التنظيم، وأرصدت لها الأموال، لغدت جناناً نضرة، لما فيها من ينابيع، وأمواه، وأشجار وأطيار، وسماء صافية، وخلق شرقي جميل.. إن المال لا ينقصنا، ولكن آفتنا الكبرى خرق في التفكير، وتوزيع للجهود، و(لا مبالاة) نخشى أن نحصد عواقبها بعد حين..

ألا إن المصايف ثروات طبيعية، إن أحسن استغلالها، درت على البلاد أموالاً وفيرة، ورفعت من سمعتها، ورقت من طباع أهلها، وكانت معيناً لا ينضب من الخيرات والبركات... فتتقدم الأوطان وتقفز، بل تخطو نحو الأمجاد خطوات الفراسخ والأميال..!

الصهيونية

(هكـــذا يفهـــم الـــصهيونيون
قضيتهم، فإليك أيها العربـي حديث
يهودي قح، دون تعليق)

إن هواء فلسطين يهب الحكمة، وسكناها أفضل نعمة...

كذلك بدأ مرافقنا المصري حديثه عن الصهيونية، بعد أن استدرجناه إلى الكلام، فالتفت يقول، وقد تزود بنظرة خاطفة، مثقلة بالشهوات من وجه الحسناء:

ليست الصهيونية يا أعزائـي ديناً، ولم ينتحلها جميـع يهود العالم، ليذودوا عن حياضها.. بل هي حركة سياسية ترمي إلى عزل الشعب اليهودي عن غيره من الشعوب، وجعل فلسطين وطناً قومياً جغرافياً دولياً..

وهي وليدة البؤس والشقاء والآلام، ليس بينها وبين ديانة موسى أي سبب. فمنذ فجر التاريخ، ما برحت الأمة اليهودية تعاني الأمرين، ففراعنة مصر سخروا اليهود في بناء أهراماتهم ومعابدهم، والكلدانيون سبوهم فانتثرت أشلاؤهم في فيافي الصحراء، والرومانيون دمروا مملكتهم فسالت دماؤهم أنهاراً، وتفرقت جموعهم أيدي سبأ. وفي العصور الوسطى نعتوهم بأسفل الألقاب ونظروا إليهم شزراً، فعاشوا خلف أسوار الجيتو، في أزقة ضيقة وبيوت عشش فيها الشقاء، منبوذين محترقين، محرومين من أكثر الحقوق. فأصبح اليهودي لا تقبل شهادته على المسيحي، وحرموا مناصب الدولة، ولم يؤذن لهم بتجنب الأطعمة التي يحرم دينهم أكلها، ومنعوا من الختان تحت طائلة العذاب الشديد، وصودرت أموالهم، ومزقت كتبهم الدينية، وبذل المستطاع للتفريق بين الرجل وامرأته والسيد وعبده، وكانوا يدونون أسماءهم في سجلات، ويستعرضونهم كما تستعرض الماشية، ويتهمونهم بذبح أبناء النصارى وأكل لحوم الآدميين.! وأما حظهم من العامة فكان أدعى إلى الشفقة، لأن نجاحهم في أعمالهم التجارية، كان باعثاً على الحسد والانتقام في ظل التعصب الديني، ولم يكن أسهل على أمراء ذلك الزمان إذا احتاجوا إلى النقود من أن

يصادروا أموال اليهود المقيمين في بلادهم، ويتركوهم يشتغلون في جمع أموال أخرى، فإذا تم جمعها لديهم أعادوا الكرة فأخذوها منهم. ولقد منعهم الشرع من زيارة الكاهن، دون دعوة منه؛ لكن هذا الكاهن لم يكن يستغني عن أنسجة هذا اليهودي، ليصنع منها ثوبه الكهنوتي، ولا عن مصنوعاته ليتخذ منها آنية للكنيسة وأدواتها.!

ومضت القرون، وتلألأت تباشير العصور الحاضرة فإذا (بفولتير) الملقب بزعيم الحرية ورسول الرحمة، يرمي اليهود بنبال الطعن والامتهان، مؤكداً أن لتلك الأمة أسفل الأخلاق...! وحمل عليهم (إدوار درومون) في صحيفته (فرنسا اليهودية)؛ فهم، في زعمه، قوم لا هدف لهم سوى تكديس الأموال، يؤلفون دولة ضمن دولة، ويحنون دوماً إلى أفق وطنهم الأصلي، ويأبون الاندماج في تربة حضنتهم، ويكرهون الامتزاج بأمة ترعرعوا بين ظهرانيها. وجاء الطاغية (هتلر) بكتابه (كفاحي) فبلغ السيل الزبى، فصودرت الأموال، وأعدمت الأنفس، وأجلي السكان بالملايين، لا عن ألمانيا وحدها، بل عن كثير من الدول. فتجددت آلام اليهود، وذاقوا مرارة العري والجوع والنفي والتشريد، فارتموا في أحضان الصهيونية يتطلعون وفي القلب حرقة، إلى فلسطين، وطنهم الأول، وملجئهم الحصين.!

وهذا يهوذا الحلوي الأندلسي، صاحب القصائد الخالدة المدعوة (بالصهيونيات) والتي تعبر عن رغبة جامحة إلى أرض فلسطين، ينشج منذ شباب الدهر على الهيكل المهدوم، وعبودية اليهود، وفقدان روابي صهيون، فيقول: (إن الشعب اليهودي رغم اضطهاده، فهو حيثما حل، كاللب بالنسبة إلى البشر، يلقى الآلام ولكنه يظل حياً).

ولئن تقاعس اليهود عن النهوض منذ القديم، للعودة إلى أرض فلسطين، فلاعتقادهم بأن الآلهة ستقودهم حتماً إليها، ألم يقل الأنبياء: (هاأنذا أرد سبي خيام يعقوب، وأرحم مساكنه، وتبنى المدينة على تلها، والقصر يسكن على عادته)؛ ألم يقولوا: (.. ويبنون مدناً خربة، ويسكنون ويغرسون كروماً، ويشربون خمرها ... ولن يقلعوا من أرضهم التي أعطيتهم؟) أو (سترجعكم شعوب الأرض إلى صهيون وتعودون كالحمام إلى وكناتها ..).

تلك هي لمحة خاطفة لتاريخ اليهود، تريكم دماءهم تخضب أعتاب التاريخ، وآلامهم تستدعي الرحمة والحنان. (فاليهودي ميت بين الأحياء، غريب بين المواطنين، متشرد بين الحضر، مستجد بين الأغنياء، وطنه الغربة، ووحدته التفكك وسلاحه الخنوع). ثم زفر محدثنا الصهيوني زفرة حرى وتابع:

وهكذا قضى اليهود أجيالاً في مثل هذا الحال، مضطهدين مكروهين مظلومين؛ لكنهم حافظوا على جامعتهم الجنسية والدينية. وهذا غريب في نواميس الاجتماع. لأن

الأمة التي تقضي مئات من السنين مشتتة مضطهدة مظلومة، لا دولة تحميها، ولا جند ينصرونها، قد حكم عليها بالزوال. أما اليهود فكانوا في أثناء هذه النوائب، لا يزدادون إلا رسوخاً في الجنسية وثباتاً في الاعتقاد. وهو سر من أسرار تاريخهم حار العلماء في تعليله، إن دل على شيء فإنه يدل على قوة في عنصرهم، تساعدهم على احتمال المشاق، واستنباط طرق الكسب التي لا توجد في سواهم..

فالصهيونية إذن، ليست وليدة الأمس القريب، بل رسخت أصولها في بطون التاريخ، على أنها لم تبرز سافرة إلا في شخص الدكتور (تيودور هرتسل)، الذي ولد في هنغاريا، وترعرع في حارات لندن الضيقة الفقيرة، فطبعت نفسه بطابع البؤس، ونزعت إلى إصلاح الشعوب؛ وخدمه لسان ذرب وقلم فياض، فأودع أمانيه هذه في كتابه: (ربيع البؤس)، الذي اخترق فيه نظره الحجب، فخرّ ساجداً أمام عالم الغد، عالم الحرية والمساواة، والعدالة... ثم انتقل إلى باريس يراسل الصحف النمسوية، وفي هذه الأثناء حصلت مسألة (دريفوس)[189]، وسمع الفرنسيين يهتفون بسقوط اليهود، فقال: (أيهتف الفرنسيون بسقوط أمتي في عاصمة النور، فبادأ أسلافه بضرورة إنشاء وطن لليهود يقيهم العثرات، وتشحذ فيه هممهم، فيظهرون للملأ قوة إدراكهم وعظيم إنتاجهم)، ثم أصدر كتاباً يتقد غيرة وحماسة عنوانه: (الدولة اليهودية) بدأه بقوله: (إن الانتيسمتزم - ضد السامية - خطر لا يهدد اليهود فحسب، بل العالم بأسره، وهي في نمو مستمر، ولن يستطيع اليهود الامتزاج مع من حولهم، لأن الامتزاج لا يتحقق دون الزواج المتبادل... ومن السخف إنكار المشكلة اليهودية، فهي موجودة حيثما وجد مجتمع يهودي، وإذا فقدت من مكان، جاءته عن طريق المهاجرين اليهود... فمن الضروري استملاك أرض يقيمون فيها مجتمعاً لهم..).

---

(189) - الفريد درايفوس: هو ضابط يهودي في الجيش الفرنسي قُدِّم إلى المحاكمة العام 1894 بتهمة تسريب ونقل اسرار عسكرية عن الجيش الفرنسي إلى الجيش الألماني المعادي لفرنسا، وذلك مقابل مبالغ من الأموال التي حصل عليها من الجهات الألمانية فأصدرت المحكمة العسكرية قرارها بسجنه مدى الحياة ونفيه إلى جزيرة الجن العام 1899، ولم تتوقف القضية عند هذا الحد، بل إن السلطات الفرنسية قد كشفت فيما بعد عن الجاسوس الحقيقي، إلا انها اصرّت على ان التهم التي وُجّهت إلى درايفوس والمحاكمة صادقتين وعندها بدأ الضغط الشعبي بالازدياد وكذلك تدخل بعض الجهات الرسمية لفتح ملف القضية من جديد، ووقف على رأس المدافعين عن درايفوس والمطالبين بتبرئة ساحته من كل التهم المنسوبة إليه وإعادة الاعتبار إليه هو الكاتب والمفكر الفرنسي إميل زولا الذي استعرض في كتابه (إني اتهم) الحقيقة الكاملة، وانضم إلى المدافعين عن درايفوس السياسي الفرنسي كليمنصو. وأمام هذا الضغط انعقدت المحكمة للنظر من جديد في قضية درايفوس واصدرت قراراً جديداً يبرئ ساحته ويُعيد إليه كافة رُتبه العسكرية التي جُرِّد منها. وتقول الرواية الصهيونية إن قضية درايفوس تركت اثراً بالغاً على هرتسل الذي كان وقتها يعمل مراسلا صحافيا في باريس ورأى ما حصل بأم عينه، وهذه القضية دفعته إلى وضع كتابه (دولة اليهود).

ولذا لم يقترح هرتسل أن تكون فلسطين مهجراً لليهود.. بل اختار الجمهورية الفضية (الأرجنتين)؛ ولما كان يبغي رضاء جماهير اليهود، وخاصة رجال الكنيسة، نظراً للشعور الديني في الشعب اليهودي، فقد اقتنع أخيراً بوجوب كون فلسطين وطناً قومياً لتحصل الموافقة بالإجماع..

وفي عام 1897 عقد أول مؤتمر صهيوني، في مدينة (بال) - كما اقترح هرتسل - فتباحث كبار قادة الفكر اليهودي وأغنياء إسرائيل، واقترحوا عدة أمور تممت فيما بعد، منها:

1 - تعليم اللغة العبرية، وآدابها، وإنشاء مدرسة كبرى في يافا أو القدس.

2 - إنشاء مدارس عامة لتعليم اللغة العبرية في كل حي يهودي، وتأليف لجنة خاصة للآداب اليهودية.

3 - إنشاء صندوق توفير يهودي، لتأمين القاعدة المتفق عليها وهي إيجاد وطن للشعب اليهودي في فلسطين، مضمون ضماناً شرعياً ودولياً.

4 - تحقيق الأغراض الآتية:

آ - ترقية الزراع والتجار اليهود في فلسطين.

ب - تحالف اليهود تحالفاً محلياً أو عمومياً حسب قوانين بلادهم.

ج - تقوية الشعور اليهودي.

د - بذل المساعي الأدبية للحصول على المنح الضرورية لضمان الفرض المنشود؛ وعينوا في المؤتمر الثاني جمعية استعمارية خاصة، كان غرضها توسيع نطاق الاستعمار شريطة الحصول على رضاء الحكومة العثمانية.

وفي المؤتمرات أوضحوا معنى الثقافة، وأنها لا تغاير العقيدة اليهودية، وقد اقترح بعضهم حينئذ استعمار قبرص، فرفض الاقتراح بالأكثرية.. وبعد المؤتمر الرابع قابل هرتسل السلطان عبد الحميد، الذي ماطل وساوم وراوغ، ولقب هرتسل (سليمان عصره) وأوصى به خيراً بابه العالي. ثم قابل مع وفد يهودي إمبراطور ألمانيا (غليوم) في القدس، فأجابهم (بأن المساعي التي ترقي زراعة فلسطين، وتنفع الدولة العثمانية مع احترام سيادتها هي فائزة بارتياحه ورضاه..).

ثم فاز بمقابلة وزير الإمبراطور الروسي، فناقش وأقنع، وغالب فغلب..

وأخيراً، طلب من السلطان بعد مقابلة ثانية، أن تمنح الحكومة العثمانية اليهود مقداراً واسعاً من الحكم البلدي الذاتي؛ فيدفع اليهود مبلغاً معلوماً من المال لقاء هذا

الامتياز. وحاول أن يقنع السلطان بتمام إخلاص الصهيونيين؛ وحجته أنهم يعملون علانية وليس في الخفاء، وأنهم يقاومون كل حركة استعمارية، تعنى بإدخال اليهود تدريجياً إلى فلسطين، خلافاً لرغائب السلطة الحاكمة، لأن اليهود عنصر خاضع للقوانين مجتهد.

واستوى محدثنا في مقعده لينال بعض الراحة وقال: غير أن الدولة العثمانية شعرت بخطر الصهيونية، فمنعت مهاجري اليهود من البقاء في فلسطين أكثر من ثلاثة أشهر رغم احتجاج إيطاليا وأمريكا.!

وقد اقترح الإنكليز على (هرتسل)، استعمار العريش أو شرق أفريقيا، فأبى ذلك قائلاً: (إن شرق أفريقيا ليست صهيون، ولن تكونها). وقال ماكس نوردو: (لو اتخذنا شرقي أفريقيا وطناً، لتعذر علينا إلا أن نكون في دار غربة).

وقد أصدروا في مؤتمرهم السابع القرار الآتي: يعلن المؤتمر الصهيوني السابع، بأن الهيئة الصهيونية، ثابتة لا تتحول عن قاعدة مؤتمر (بال) الأول، وهي إحياء وطن لليهود في فلسطين، على أن يؤمن تأميناً شرعياً ويعترف به اعترافاً علنياً. يرفض كوسيلة، كل استعمار خارج فلسطين، والأراضي المجاورة.

وقد قرر كذلك، تطبيقاً للحركتين الإدارية والسياسية وتقويتهما:

1) الاكتشاف والتنقيب عن الآثار.

2) ترويج الزراعة والصناعة على خير المبادئ الديموقراطية الممكنة.

3) تحسين الحالة الاقتصادية والتربوية، وتنظيم شؤون يهود فلسطين بواسطة الحصول على نهضة فكرية جديدة..

4) الحصول على الامتيازات.

إن المؤتمر يرفض كل استعمار مجرد عن الغرض المنشود، وغير مشترك بالعواطف والبذل، وذلك بطرق مصغرة، إذا كان غير منطبق على الفقرة الأولى من برنامج مؤتمر (بال).. وعلت وجه اليهودي سحابة من الحزن، ثم قال:

وفي 3 تموز 1904 لفظ (هرتسل) أنفاسه الأخيرة، وقضى شهيد الغاية الصهيونية، وربما كان السياسي الوحيد، الذي كرس حياته لخدمة قومه، واستطاع أن يقوم بما لم يستطعه فرد أو جماعة، في سبيل إعلاء شأن الغاية وتثبيتها؛ فوحد كلمة العاملين على اختلاف مذاهبهم، ونقل المسألة اليهودية، من مسألة خيرية زراعية، إلى قضية اقتصادية سياسية. ولقد ساعده على نشر دعايته الطبيب الفيلسوف الألماني (ماكس نوردو)، وشاعر لندن (إسرائيل زنجويل)، فلا عجب إذا نظر إليه العالم اليهودي نظرة احترام،

وإجلال وتقديس، فهو الذي رفع لواء الصهيونية عالياً، وناضل في توطيد ما يدعيه حقه، فكان بيانه سحراً، أرهف ضعاف العزائم، ونداؤه إلهاماً أصاخ إليه اليهود، ففدت جملتهم المأثورة: (وغداً إلى القدس) بسملة علوية ودعاءً حاراً يحدوهم إلى الجد والعمل، لبلوغ الأمل..

وتنادوا من كل البقاع والأمصار، يمدون يد المساعدة للنازحين إلى فلسطين، ويفيضون عليهم بالعطاء دون حساب، مؤسسين الجمعيات والمصارف لابتياع الأرض على ضفاف الأردن، بأبهظ الأثمان. فبذل الأموال بسخاء الثري الكبير البارون (إدمون روتشيلد)، وساعدهم معنوياً كبار رجال السياسة والأدب كالشاعر (فيكتور هوجو)، فنمت في أرض فلسطين المستعمرات الصهيونية، وكان أولاها: بتاح تيكفا، أي عتبة الأمل.. وغدت بعض بقاعها جنات وارفة الظلال، تموج بالسكان، وتكتسي بالأشجار والأزهار، كما كست تل أبيب رمال المتوسط، حلة تمدن وازدهار قشيبة..

على أنه منذ وفاة (هرتسل)، حتى نشوب الحرب الكبرى، كانت القضية في دور التقهقر، لفقدان الزعيم الكفء، حتى ظهر (وايزمن)، الأستاذ في جامعة مانشستر، على مسرح السياسة. فبعد أن اندلعت نيران الحرب، وأصبح العالم المتمدن يخشى انكسار الحلفاء، وقد صاروا إلى ضنك معنوي، وحاجة مالية قصوى؛ عرفت الصهيونية هذه الحقيقة المؤلمة، وانتهزت هذه الفرصة النادرة، فانحازت بكل قواها تشد أزر الحلفاء، وتقدم لهم أجل الخدم وأنفع المساعدات. وبذل علماؤها في سبيل نصرتهم، دمهم ومالهم ونتاج عبقريتهم، فأوجد (وايزمن) متفجرات هائلة، كان لتأثيرها العجيب أثر رهيب في تغيير مجرى الحرب؛ كما أنه اخترع لهم الكمامات الواقية، غداة استعمل الألمان الغازات السامة.

وعندما صرح المستر (أيكويث) رئيس الوزارة البريطانية، عقب دخول تركيا الحرب: (إن ناقوس جنازة تركيا قد دق لا في أوروبا فقط، بل وفي آسيا أيضاً)، ابتهجت نفوس اليهود، وعادت آمالهم تنتعش، فقابل (وايزمن)، (لويد جورج) بحضور (هربرت صموئيل) وعرض عليه ما يبغي من مكافآت لاختراعاته، فطلب أن تصبح فلسطين وطناً قومياً لليهود، وأجيب على سؤاله، ثم اجتمع باللورد (بلفور) فسأله عن سبب رفض الصهيونيين أن يرحلوا إلى أفريقيا الشرقية، فكان رد (وايزمن) أن سأله: هل تقبل باريس بدلاً من لندن، فقال: ولكن لندن بلدي، وعندها أجاب وايزمن: وكذلك القدس..!

وفي اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني سنة 1917، عقب دخول جحافل الإنكليز

القدس، أرسل اللورد (بلفور) كتاباً سرياً إلى اللورد (روتشيلد)، تلك الوثيقة التي استنكرها العرب في جميع أقطارهم، وما زالوا يمورون من أجلها ساخطين، متوعدين، مهددين، وهذا نصها:

عزيزي اللورد روتشيلد

(يسرني جداً أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك، بأن حكومة جلالته تنظر بعين العطف، إلى إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين. وتبذل كل ما في وسعها لتحقيق هذه الغاية، ولا حاجة إلى التنبيه أنه لن يعمل شيء يضر بالحقوق الدينية والمدنية لغير اليهود في فلسطين، أو يضر بما لليهود من الحقوق والمقام السياسي في غيرها من البلدان الأخرى).

وقد ظل هذا الوعد الغامض مكتوماً عن العرب عموماً، والشعب الفلسطيني خصوصاً حتى سنة 1918. وعزا اللورد (بلفور) غموضه على الصورة المذكورة قصداً، ليتسنى لليهود أن يعملوا في سبيل مستقبلهم كما يريدون، وجهر بأنه يجهل أن فلسطين بلد يسكنه العرب، وتوهم أن خروج الأتراك منها سيتركها دون سكان.. وقد نال هذا الوعد المشؤوم عطف مؤتمر (سان ريمو) سنة 1920؛ وثبتته جمعية الأمم في الرابع والعشرين من تموز 1922 في المادة الرابعة من صك الانتداب، كما أقره الكونغرس الأمريكي في 30 حزيران من السنة نفسها في وثيقة نصها:

(ولما كان للشعب اليهودي إيمان، منذ عدة قرون، فإنشاء وطنه القديم، الذي كان دائماً يحن إليه، وإذ يتحتم أن يكون بوسعه - استناداً إلى نتائج الحرب العالمية، والدور العظيم الذي لعبه فيها - بعث نفسه وإنشاء وطنه القومي في أرض جدوده.. فقد قرر مجلس الشيوخ ومجلس نواب أمريكا، أن تحبذ الولايات المتحدة إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين).

وكان هذا الاعتراف لليهود، بإنشاء وطن قومي، فوزاً للقضية الصهيونية عظيماً، واعتبر زعماؤنا، أن إنشاء الوطن دين على الأمم، وليس هبة، لما أتوه من خدمات، فوجب على تلك الدول المنتصرة، أن تعيد لليهود وطنهم القديم... كما أعادت للبولنديين والفنلنديين.. وطن أجدادهم..

وعندئذ شمخت أنوف اليهود، وأعلن قادتنا ان فلسطين يهودية كما أن إنكلترا إنكليزية، وأخذت الحكومة تصطبغ بالصبغة اليهودية، حتى أن أول مفوض سامي كان صهيونياً وهو: هربرت صموئيل..

ولم يقف العرب إزاءنا مكتوفي الأيدي.. فكانت تنشب الثورات كل حين وحين، وترسل لجان التحقيق، حتى بلغت سبع عشرة.. وكانت آخرها اللجنة التي أعلن عن تأليفها المستر (ليفن) في بيانه في تشرين 1945، والتي لم تنته من أعمالها بعد والتي تدل القرائن كلها أنها لن ترضي أحد المتخاصمين..

وهنا سكت محدثنا المصري، فشكرناه على ما أجاد وأفاد؛ وكان بوق السيارة ينادي المسافرين، حين ودعنا المكان، وغيده الحسان، لنعود كرة أخرى إلى مدينة الربيع...

أيها العربي

لقد استمعت إلى حديث صهيوني مؤمن بقضيته، وهي باطلة أمام الله والتاريخ، والناس أجمعين..

ولقد رأيت كم جاهد قادتهم، وبذل أثرياؤهم، في سبيل نجاح الحركة. فلم يتوان مفكروهم، ولا تقاعس عامتهم، عن السير قدماً رغم العقبات الكؤود .. فما أحرانا نحن، وحقنا صراح أبلج، أن نلم الشعث، ونوحد الصفوف، ونهيئ البرامج، كما فعلوا في مؤتمراتهم السبعة عشر، وما وضعوا فيها من خطط، كانت خير نواة لاستعمار أرضك، ووطنك المقدس...

عودة إلى تل أبيب

عاد صاحبنا إلى تل أبيب، ووقف في محطة (إيجد) الكبرى، يتنفس بإجهاد وإعياء، بعد انتقالات متواصلة بين المستعمرات، راح ينظر إلى المحطة، لا تمتلئ مرة، إلا لتفرغ، ولا تفرغ إلى لتمتلئ كرة أخرى، صفوف بشرية لا تنتهي كصفوف النمل، وحركة غير عادية لم يألفها من قبل، أمواج بشرية متلاطمة متتابعة، تزخر بالنشاط والحيوية.

ولقد تذكر أنه وقف في ساحة الشهداء بدمشق مرات، وفي ساحة البرج ببيروت مراراً، وهما ساحتان محترمتان لهما بعض الميزات والمزايا ولا شك، ولكنه لم يشهد قط مثل هذه الطوفانات البشرية، وهذه الكثافة الجديرة بالنظر والاعتبار.!

وكان الوقت مساء الجمعة، وغداً سيكون السبت، يوم العيد الرسمي للعاصمة الصهيونية.. ولذا فقد ازداد النشاط، وشرع الأهلون يستقبلون سبتهم، بمظاهر الإجلال والاحترام. لقد عملوا ستة أيام بذلوا فيها جهودهم وفكرهم ونشاطهم، فليستريحوا نهار السبت، وهو اليوم الذي استراح فيه ربهم من عناء صنع هذا العالم، من كرة الشقاء والبلاء وأفانين العذاب...

وكان ما كان.

وقبع صاحبنا مستنداً إلى حاجز من حواجز المحطة، يروي باصرتيه بهذه الصور المتحركة الحية، لينقلها ناطقة إلى أخوانه العرب، أنّى كانوا، فلعل فيها ما يحفز إلى التفكير والعمل، ومجاراة قافلة الأحياء، واليقظة بعد سبات طويل، ونوم لا شك عميق.! وابتاع شطيرة من تلك الحوانيت الصغيرة القائمة في بناء المحطة، وراح يلتهمها بحماسة، وهو أكثر ما يكون شوقاً إلى (طاحونة مخلل) تذكره بعهود الربوة، وجنينة أم الخمسة، وبستان النعنع.!

وكانت المحطة محشراً دنيوياً، من طراز لا يفرّ فيه المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه.. فقد التقى صاحبنا ببعض تلميذاته وتلاميذه ممن رآهم في (شفيا)

و(شفاييم)، ومن سكاني (تل أبيب) نفسها، فسر لمرآهم، وهش ويش، وسألهم عن صحتهم العزيزة المرتجاة.. لقد جاءوا (تل أبيب) لقضاء عطلة الأسبوع، وليلطفوا أوار قلوبهم، ويرطبوا أعصابهم الدافئة، وليمنحوا الجسد راحته والفكر إجازته. وهل في العالم لذة أمتع من الراحة بعد عمل متعب منتج؟ إنها الوساد اللينة، التي لا تضارعها وسائد الحسان..

على بلاج تل أبيب.

كان (اليامّ) على حد تعبير العبريين (وهو اليم أي البحر) هائجاً صاخباً بعد ظهر ذلك اليوم.. و(اليام) سرير مفرٍ لذ للمغامرين، من أنصار الشيطان، والجمال.. على السواء.! وإن من يزور (تل أبيب) ولا يسبح يوم السبت في (بلاجها) الفاتن، فقد أضاع متعة هيهات أن تعوض.. لقد كانت أمواجه في فوران وغليان، كنفوس السابحات والسابحين.. ولكن.. فليزمجر ما شاء، فلن تلين قناة الجمهور اللاهي العابث، وإنما ستزيد جموعه فرحاً ومرحاً ونشاطاً..

فهل تخيلت الحشر في رقعة لا تتجاوز الكيلومترين طولاً والخمسين متراً عرضاً، وقد خرج الناس حفاة عراة، لا ليتطلبوا من الله رحمة وغفراناً، بل لينشدوا من الشاطئ لهواً وغزلاً وافتتاناً. نعم.! إذا تخيلت ذلك، فاعلم أن القوم هنا في حشر.. غير أنه لا يدعون الله، بل يطلبون لذات الحياة الدنيا، بالانطلاق من قيود المجتمع، ويسيرون على مبدأ ساعة لربك، وأخرى لقلبك، والدنيا زوال.!

على ذلك البلاج الذي تتيه الصهيونية بإنشائه، وتعده مفخرة من مفاخرها.. على تلك الرمال الذهبية الناعمة، التي كانت بالأمس القريب صخوراً جرداء قاحلة؛ وتحت سماء صافية، كعيون العذارى، وأمام البحر الذي لا يستقر له قرار، امتدت مئات الكراسي الطويلة، واضطجع عليها السابحات والسابحون، كباراً وصغاراً، إناثاً وذكوراً، يتأملون الأفق البعيد، والموج يصارع البشر، أو يقرؤون الصحف، أو يستسلمون إلى الغزل السافر المكشوف.. حيث لا يسألك عابر سبيل، ما أنت بحواء من الفاعلين.؟

سامح الله الأيام، فقد أنستنا سابحات (تل أبيب) مهمتنا إلى حين.!

هيا قارئي العزيز:

إذا سمعت أن شابات وشباناً من اليهود، ذهبوا إلى فلسطين ولم يعودوا، وإذا اتصل بك أن هنالك من العرب من يسافر عشرين مرة في السنة إلى فلسطين، باسم العلم

والسياحة، أو الكسب والتجارة، وإذا علمت أن هنالك من يقضي أيامه على أحر من الجمر، بانتظار رؤية فلسطين؛ فاذكر أن في بلاج (تل أبيب) سحراً يجذب النفوس، وجمالاً يأسر القلوب، ومتعاً هيهات أن تنضب، وفتيات صهيونيات من كل جنس ونوع، يبدين من الإغراء فنوناً، ومن الإباحية السافرة ضروباً؛ مبدؤهن الغاية تبرر الواسطة، آلين على أنفسهن جمع المال من أي سبيل، ولو كان ببيع اللذات على البلاجات، وفوق الرمال، وفي هدأة الليل البهيم.!

في شوارع تل أبيب

خرجنا من البحر ثملين بنشوة الجمال، وقصدنا شوارع المدينة، ننعم أعيناً ظمأى إلى الحسن والحضارة، أعيناً يقظة إلى اصطياد كل طريق جديد، يزيد في المعلومات، ويوسع أفق الاطلاع، ويكشف آفاقاً جديدة من الحياة الصهيونية.

خرجنا إلى شارع القصور، ولك أن تسميه بشارع الجنان والحور العين، وما راحة تمنحها لجسدنا وعقلنا بالوقت الضائع المفقود..

وسيذكر صاحبنا ما عاش، رئيساً قديماً له، يحسب أن قيمة الموظف، ومقياس نشاطه، وتفانيه في الخدمة، ومعيار كفاءته، هو بعدم استعماله إجازته. وإذا كانت القوانين تمنح الموظفين إجازة شهر، فهي لم تمنحهم ذلك إلا إذا أصابهم مرض، أو فقدوا عزيزاً، أو نزلت بهم المصائب. أما الإجازة لقضائها في المصائف، وعلى شواطئ البحر، فهي تدبير لا يليق بكرامة الموظف النزيه الحريص على المصلحة العامة؛ وسيذكر صاحبنا، والأسى يحز فؤاده، أن رئيسه هذا، لا رد الله غربته، قضى أربعين سنة في خدمة الحكومة، ولم يستعمل أثناءها إجازته؛ اللهم عفوك، إلا مرة واحدة، لمدة سبعة أيام، وذلك حين زواجه الميمون، أي حين بلغ الخامسة والخمسين وأصحاب العقول بألف خير..

ولو أن هذا الرئيس آلة جامدة، لاستراح في غضون أربعين سنة، ولكنه العمل، والوظيفة، والسلطان، بل العقل الانكشاري الهمايوني الحميدي، الذي ابتليت به هذه البلاد، والذي لم تجن منه سوى انعدام الثقة بين رئيس ومرؤوس، ولم تحصد منه سوى الضغائن والأحقاد والفرار من المسؤولية؛ تلك النتائج التي كان لها أسوأ العواقب في جهاز الحكومة تسعى جاهدة لتتبوأ مركزاً ممتازاً تحت الشمس...

كان القوم في عيد.. وهم يحسنون استعمال ساعات الراحة؛ يذهبون إلى الأرياف، والى الملاعب والمسابح، والملاهي، ودور السينما، يستعيدون نشاطهم، ويتهيؤون لأسبوعهم

المقبل، وفي ذلك تجديد للقوى، واستقبال لآتيات الأيام، بالأمل، والسرور، والمرح، والتفاؤل الشديد..

وكان صائدو الصور يتجولون بآلاتهم هنا وهناك، في حركة ونشاط؛ مما دعانا إلى تسجيل هذه الرحلة في صورة حية. تتجلى فيها أشكال العجول الحنيذة على مصاطب المرعى، كما كان يقول شيخنا المرحوم (المبارك).. ولقد وقفت على مرتفع في حديقة، وبجانبي صاحبنا بقامته المديدة الضخمة، يسبح رأسه في قبعة عريضة واسعة من الفلين.. ووقف المصور بوضع مسرحي يغلق عيناً ويفتح أخرى، ويثني رجلاً ويميل رأساً، ثم أشار إلينا بالتريث والهدوء، وبابتسامة صغيرة؛ وما هي إلا لمحة الطرف حتى سلمنا بطاقة كتب عليها بالعبرية والإنكليزية ما لم نفهمه، فشده صاحبنا، وحسب (الراجل) سخر منه، وكاد يضع يده على جنبه، يفتش عن خنجر يطعن به من أهان الشرف الرفيع، لولا أن فهم المصور النبيه المراد، وأنقذ الموقف بلباقة، ويدله من مشهد درامي إلى موقف مضحك، بإعلامنا أن البطاقة هي عنوانه لا صورتنا الكريمة، وما علينا سوى الحضور غداة الغد لنستلمها، بعد دفع الأجرة حالاً. فهز صاحبنا رأسه علامة استحسان، بينما كانت عيناه تبحلقان في فتاة يعرفها، تمنى لو رآها قبل دقائق، لتبعث في النفوس الحرارة، وتجمع الشمل، وتكون نعم الكامخ، بين الشاطر والمشطور.!

لم نر في حياتنا زحاماً منتظماً كالذي شاهدناه في تلك الليلة. وإذا علمت أن الرصيف في شارع (اللّنبي)، وهو الشارع الرئيس في تل أبيب، إذا علمت أن الرصيف، بعرض شارع من شوارعنا الضخمة التي نعتز بها، وشاهدت تلك الأمواج البشرية المتراصة المتتابعة، أدركت اي زحام شاهدناه في المدينة التي لا تنام. أجل، كان زحاماً منتظماً من اليمين ومن اليسار، فلا سيارة تدهس، ولا رجل (يزعوط) ولا سائر يدفعك دون أن يعتذر، ولا مجنون عار يركض في الطرقات، ولا شجار ولا خصام، ولا بصاق هنا وهناك، ولا مغازلات بريئة أو جانية؛ وإنما هي طرق نظيفة، يشتهي المرء أن يجلس فيها، مع بعض أفراد العائلة المؤلفة من عاتكة وأم حسين وأم سحلول وأولادها، كما يجلسن في الصيف على أرصفة شارع بغداد، وعلى جوانب السبع بحرات، ليتمتعن بعشاء شهي من (المجدرة) و(طواحين المخلل) يقضمونها بأسنان حادة، لا عمل لها سوى القضم والمضغ، ولا شيء سوى ذلك.

وكانت سائر المحلات مغلقة، إلا من باعة المرطبات والحلويات. فترى أمامها صفوفاً لا تنتهي من الزبائن، كل ينتظر دوره؛ ولو كان للباعة آلاف السواعد، لعجزوا عن

تلبية مطالب الراغبين في الشراء؛ فما على العاملين إلا تقديم البضاعة دون توقف، وما على الباعة سوى قبض النقود. ولعل القوم هنالك يجنون الأرباح، ولكنهم يعرفون كيف يصرفون. وفي ذلك لذة هيهات أن يدركها من يعيش في فقر خوفاً من الفقر.!

ولن تجد في الشوارع ماء تلجأ إليه إذا أصابك الظمأ، فصنابير الفيجة مفقودة، لكن ماء الصودا المثلّج مبذول، فادفع واشرب، وحيّا الله دمشق وماءها.!

وأمام هاتيك المخازن المغلقة، ترى الألواح البلورية الهائلة، المستوية حيناً، والمعقوفة أحياناً، وراء الشباك الحديدية، وقد نضدت في واجهاتها البضائع المختلفة، من قبل اختصاصي فنان، يتجاوز أجره راتب موظف ضخم في دوائرنا. والكهرباء تشع منها، فتزيدها بهاء وجمالاً. وهل من عين آثمة تروم سرقة أو أذى.؟ لم نشعر بذلك قط، ولمَ يحدث.؟ وهل يخرب الإنسان بيته بيديه.

وانظر إلى تلك الإعلانات الموضوعة داخل إطارات زجاجية في الجدران، وقد قال صاحبنا حين رآها: تالله لو أن هذه الإعلانات موضوعة في مدينتنا، لما رأت النور يوماً وليلة، ولحطمها أول طفل يشاهدها، إن لم تكن أول مظاهرة تمر بها. وهل ينسى صاحبنا كم من ألواح زجاجية حطمت في الإضرابات، وكم من (يافطات) غدت أثراً بعد عين، بفعل فتية لا في العير، ولا في النفير، دأبهم إلقاء الفوضى والتخريب، دون رادع أو زاجر.؟

وكانت أمام صالات السينما صفوف لا تنتهي، أو (ذيول) كما يسمونها، خليطة من ذكور وإناث، وكبار وصغار، لا يحرمون أنفسهم متعة السينما، ولو مرة في الأسبوع.. والمطاعم والمقاهي، الغارقة في فيض من الأنوار، تستقبل زبائنها من أصناف الناس (الأوادم) الآتين في أبهى زينة ولباس، وهدوء عميق، يجلسون ليستمتعوا بالطمأنينة والدعة، دون أن تسمع أصوات الندل (تلعلع) واحد بريمو، تنين شاي، ثلاثة كسما، ولا أصوات اللاعبين، شيش بيش، طرق طراق... ذكور وإناث حول موائد، خوانها ذو لون منعش، وأحاديثهم خافتة، تمتزج بابتسامات تنم عن سرور نفسي، واتزان واعتدال؛ هذا يقرأ، وذاك يتأمل صامتاً ساكناً، وهنا وهناك يتحلق القوم، ويتحدثون في حدود الأدب، فلا تسمع إلا همساً، ولعل الفضل الأكبر في ذلك يعود إلى بروز المرأة في مجتمعاتهم، فتهذب أذواقهم وتصقل نفوسهم.!

والمقاهي تكتظ بالخادمات؛ والحوانيت تزخر بالبائعات الناعمات.. فكل امرأة عندهم تعمل، وكل فتاة تشتغل، حتى كادوا يسرفون في ادعاءاتهم بأنهم أصبحوا أكثر من

العـرب عـدداً، لأن نـساءهم يعملـن، ونـساء العـرب لا يكلفـن بغـير تـدبير المنـزل، والأكـل والثرثرة.!

فهنـاك تعمـل الفتيـات الأملـودات في الملاهـي والمطـاعم والحوانيـت، نهمات إلى كـل شيء إلا الثرثرة في غير حينها، يتكلمن أكثر من لغة، إلا العربية؛ وإن مـن يعـرف العبريـة في هاتيك الربوع، ومن يتقن عادات القوم وتقليد فعالهم، يفز بكل مـا يتمنـى مـن عمـل، وربـح، وعلاقات وصلات، ولحوم ساخنة، وأجسام دسمة، ووجوه نيرة لذيذة...

وما يلفت النظر يوم السبت، وخلال الأعياد، خلو الـشارع مـن باصـات اليهـود، فهـي لا تعمل، لأن سائقها بشر، ويحاجة إلى الراحة كغيرهم تمامـاً؛ فليس مـن العـدل أن يعملـوا دون استراحة، ولو كان في عملهم جني الأرباح الطائلة لشركة (إيجد)، وهـم خـير مـن يعـرف الاستغلال والاستثمار، فهل سمع عمالنا وتجارنا ورؤساؤنا ذلك.؟ إني أتمنى مخلصاً لو أن رئيس صاحبنا الذي قضى أربعـين عامـاً في عمـل متواصـل، دون إجـازة، أن يحـضر إلى تـل أبيب، يشاهد كيف تعيش مخلوقات الله، وكيف تقدر الكرامـة الإنسانية، وكيـف يتـضاعف الإنتاج إذا نال الفكر والجسم حظهما من الراحة..

هيا نتسكع في شوارع تل أبيب

لا تكاد الساعة تدق الثامنة، حتى ترى الحوانيت والمخازن والمحلات التجاريـة، ودور الصناعة تفتح أبوابها . وينتشر القـوم في كل مكـان يطلبـون الـرزق، ويبتغـون العمـل، فتـدب الحركة في مدينة الربيع، وتفيض بالنشاط والحرارة..

وممـا يلفـت النظـر، هـو انـدفاع الأهلـين إلى الـشراء والبـذل، فـلا تعجـب إذا رأيـت حوانيت الحذائين مثلاً، وأصحابها لا يهدؤون ساعة، يلبون طلبات الزبـائن الـتي لا تنقطـع، فالقوم يتقنون جني المال، ويحسنون صرفه، وتلك لذة لا يعرفها إلا المجربون..

والآن، تعال ندخل حانوتاً من هذه الحوانيت الضخمة التي تحتوي آلاف الأصناف..

ودخـل مخزنـاً تـلألأت علـى أبوابـه الأنـوار، ونـسقت فيـه البـضائع تنـسيقاً بـديعاً، وظهرت آثار النظافة والترتيب في كل زاوية من زواياه.

وانحنـت غيـداء أمـام الزبـونين الكـريمين قائلـة: (بيفـا كاشـاه) أي تفـضل بلغـة إسـرائيل،، وهـز صـاحبنا رأسـه بالـسلام، وشـرعت تخاطبـه بلغـة إسـرائيل؛ وهـزّ صـاحبنا رأسـه بالـسلام... ولمـا ألقـى سـلاح العجـز، رجاهـا أن تـتكلم بالفرنـسية الـتي يفهمهـا؛ فاندفعت تتحدث بلهجة باريسية، تلثغ بالراء، وراحت تعرض بضائعها .

فطلب صاحبنا صابون (كوزموتيك)؛ فدهشت للأمر، وهل هو مواد متفجرة، أم قنابل من نوع جديد؟ ولكنه طمأنها إلى أنه ينفع في رفع الشاربين، فتغدوان كذنبي هر، أو (غيدون) دراجة، فاعتذرت لعدم وجود هذا الصنف... وسألت صاحبنا : والآن خبرني: أمتزوج أنت أم عازب؟ فقال: إني لم أعثر على نصفي الآخر، ولم أتمم ديني بعد، أما رفيقي هذا، فهو متزوج، وله أولاد، فانهالت بسيل من الإيضاحات، لمَ لم يتزوج؟ فأكد لها أنه ينتظر عودة الحياة التجارية، وتسهيل المواصلات، وينتظر عروس أحلامه البولونية.. فقالت بعد أن تأكد لها أنه يهودي صميم: إبقَ هنا، ولا تغادر فلسطين، إن أرض الميعاد بحاجة إلى أبنائها، فدعاها لزيارة دمشق فقالت: لن أستطيع.. فلا يجوز لنا ترك وطننا لنذهب إلى بلاد (الغوييم) الكفار، إلى سوريا مثلاً، لنصرف أموالنا . فليأت إلينا الأجانب، وليصرفوا أموالهم، لنجمعها في بناء الوطن. إن الوكالة تحظر علينا مغادرة فلسطين للسياحة، لتبقى الأموال هنا، فتتكاثر، وتنمو المشاريع، ويزدهر الوطن. فأمن دون مناقشة، على كل كلمة من كلماتها، وأكد لها أنه في دمشق. لا يشتري حاجة واحدة إلا من أبناء ملته، وأنه داعية صهيونية؛ فأكبرت فيه هذا النبل وهذا الاندفاع..

وسألته، كما سأله كثير غيرها، لمَ لا يتقن العبرية، بينما يتكلم الفرنسية كأحد أبناء السين، فأنبأها أنهم لا يهتمون في دمشق كثيراً في تعليم العبرية، بل يقنمون بسور الصلاة، ويهتمون بالفرنسية، لغة المدارس والشارع والبيت..

وهكذا، ما دخل حانوتاً إلا ووجد من يحسن الفرنسية، كما يحسن كل لغة من لغات العالم، وما دخل حانوتاً إلا وقاده الحديث إلى البقاء في فلسطين، وعدم العودة، ليجد الخطيبة المرتجاة. ولعله لم يختم حديثاً إلا بدعوة البائعة الظريفة إلى قضاء سهرة، تذهب الحزن عن العبدين الفقيرين اللذين خدعت بهما كثيرات من بنات صهيون...

واندفاع البائعات في إرضاء الزبائن مما يضرب به الأمثال. وإذا كنت في شك من أن اليهود أمة تحسن حساب الدوانق، والقيام بالمشاريع المالية والتجارية، فشرِّف [إلى] تل أبيب، وسترى عجباً...

فلن تقف البائعة مكتوفة اليدين، غير مبالية، ما دامت ستتقاضى أجرها آخر النهار. لا.! بل تراها في حركة دائمة، مندفعة في إخلاص وشهامة يحسدها عليهما كثير من موظفينا الخاملين.. تنثر أمامك البضائع دون تعب أو كلل، وتدافع عنها دفاع محام يعتقد بأحقية قضيته، وتستدعي كل زميلة لها لتتفاهم وإياك باللغة التي تختارها، وتقدم إليك كل التسهيلات، مع ظرف فيه إغراء وفتون.. وفي سبيل الأرباح يهون كل شيء..

والقوم هنالك يحترمون قوانين الحكومة..

ووزارة الإعاشة، إن كان ثمة وزارة، محترمة الجانب، فالتسعيرة الإجبارية مطبقة على العين والرأس، والويل للمتلاعبين، ولمخالفي أوامر الحكومة. فلا هوادة، ولا وساطة (أبو فلان) أو التاجر العلاني من الشركة الثلاثية أو السباعية...

وفي كل المخازن، في جميع المدن والقرى، من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، ترى البضائع تعلوها بطاقات جميلة، كتب عليه السعر الموحد (أوتيليتي) وهكذا استراح البائع، والمستهلك، ولم ترتفع أسعار الحاجيات، في سوق سوداء أو ظلماء..

وتذكر صاحبنا وزارة الإعاشة في سوريا، وكيف كانت وزارة إماتة، وتشليح، ونهب ومورد عذب، لتنمية خزينة الدولة، حتى غدت سوريا ثاني بلاد العالم بعد طهران، في الغلاء.. وضجت من ذلك الأرض والسماء...

ودخل مخزناً، وابتاع حوائج كثيرة، ثم طلب زوجين من الجوارب، فاعتذرت البائعة، لأن قوانين الدولة لا تسمح للمستهلك إلا بجورب واحد. ولما أعلمها أن الحكومة لا تراهما الآن، وأنه اشترى أشياء كثيرة، رفضت الطلب ثانية، لكنه وجد للمسألة حلاً، بأن يجعل زوجاً له وآخر لصديقه، فاحتملت الحل على مضض، لأنها شمرت بالاحتيال على القانون.

وسأل صاحبنا أحد الباعة عن بلده، وعن سبب هجرته، فأجاب: ألمانيا.. ثم أشار إلى عنقه، علامة حبل المشنقة، أو سيكن الجلاد. ثم قال: هتلر.. فما كاد يلفظ الكلمة حتى صرخ صاحبنا بملء شدقيه: (بوز) أي فليسقط بلغة العبران. فسر البائع لهذه المجاملة الطيبة، وأرسل لاسم هتلر فيضاً من اللعنات، وتنزيلاً خاصاً في الأسعار..!

ووقف يستمع إلى نغمات هاوٍ من هواة الموسيقى، وقد علق (نوطته) على مشجب أمامه وراح يعزف بكمانه. فحيا فيه تلك الروح الفنية، التي أبت إلا أن تتجلى في الشوارع وعلى أرصفة الطريق، لتطرب الناس أجمعين..

وقطع تأمله فتاة تدنو وتضع أمام الموسيقار قطعة نقدية؛ فعلم عندئذ أن هذا العازف ليس سوى شحاذ، يستجدي الأكف عن طريق فنه، فذكر صاحبنا شحاذي الشام المشوهين أو المجانين، ممن يملؤون الطرقات ويصرخون بأصواتهم المزعجة، ويشوهون جمال المدينة، والحكومة عنهم لاهية. وأيقن أن هذا الشحاذ قد ارتفع بالمهنة إلى أسمى مراتب الكمال؛ فندب حظ شحاذي دمشق، الذين لم يصلوا إلى هذه الدرجة من رقي المهنة. فتخيل لو أن شحاذينا اقتبسوا طريقة هذا الشحاذ، وشرعوا يطبقون آخر ما وصل إليه الاختراع والاكتشاف في جذب أكف المحسنين. فهذه تدق (الدربكة) وذاك (الناي)

وتلك (القانون) إلى آخر ما يشتهون؛ أفما يطالبهم المارة آنئذ أن يعودوا إلى الحانهم القديمة لينجوا من فنهم البليد.؟

واجتاز صاحبنا شوارع تل أبيب، في رأد الضحى، وفي الأصيل، وفي المساء، وزار معالمها، ومباهجها، فلمس لمس اليد كيف تنشأ مدينة في خمس وعشرين سنة، تضاهي أعظم العواصم، وتباهي أكبر المدن، بنظامها ونظافتها ونشاطها، واهتمام المسؤولين بها، حتى أصبحت جديرة بلقب عاصمة الصهيونيين...

في طريق القدس

هيا إلى البلد المقدس، إلى أورشليم، مدينة السلام، المدينة التي أجمع على تقديسها أهل ديانات الأرض الكبرى الثلاث، ففيها معبد سليمان، رمز أمجاد اليهود، وفيها قبر السيد المسيح، المخلص والفادي لإخواننا المسيحيين، وفيها المسجد الأقصى، الذي أسرى إليه سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم.!

هذه هي القدس التي طالما بذلت في سبيلها دماء، منذ بختنصر، إلى طيطس، إلى الفرسان الصليبيين، إلى صلاح الدين وحطين، إلى اللّنبي والعرب الميامين، إلى الطغمة الباغية من الصهيونيين...

تحت كل حجر من أحجارها ذكرى، وفي كل بقعة من بقاعها جلس الأنبياء والرسل والمصطفون..

فيا بيت المقدس، يا أورشليم، أنت التي تغنت بك التوراة، وشدا بذكرك الإنجيل، وذكرك القرآن، وجعلك مباركة، على مر الدهر والسنين...

أجل.. لم نكد نهبط فلسطين، ونسمع بذكر الأردن وطبريا، والناصرة والخليل، وبيت لحم وأورشليم، حتى عاودتنا ذكريات خالدات، ذكريات رجالات التاريخ، رجالات الأديان الذين فتحوا عيون المشرقين على نور الإيمان، فوهبوا الديانات السماوية الخالدة إلى الغرب الذي هوى إلى أودية الضلالات السخيفة، عندما تتكر للتعاليم وتنكب عنها، وكان في الضالين..

واليوم نمضي، بل نرتفع، بل نتشرف بترابك يا بيت المقدس، يا من لك في قلب كل يهودي ونصراني ومسلم المكان المرموق، نتشرف بك، وتخامرنا فكرة واحدة طغت وهيمنت على مشاعرنا وهي: كيف يجرؤ باغ أن يطأ أرضك، وكيف يقوي فاسق على دوس ثراك، وكيف يمكن أن ترتكب الفاحشة في ربوعك، وأنت أنت، أم الديانات، ومعلمة القبائل والشعوب..؟

إليك تشد الرحال، ويحج الحجيج، أنت يا من يتمنى ملايين البشر أن يكحلوا عيونهم برؤيتك، ويحظوا بذراع من ثراك، ليواريهم في رحابك آمنين..

ولئن بدلت بعد أمنك خوفاً، وبعد هدوئك اضطراباً، فما هي إلا سحابة صيف سوف تنقشع، وكل أجل إلى كتاب، والله مع الصابرين..

◆ ◆ ◆

كانت جموع غفيرة من المسافرين، تنتظر ساعة الذهاب إلى القدس، من محطة (إيجد) الكبرى في مدينة الربيع، وكان العسكريون يقدمون على المدنيين، وما بقي من الركب فسواسية. ولو كنت واقفاً على نار الغضا، لما سمحوا لك بالتقدم عن دور رفيقك، وظلم في السوية عدل في الرعية. وسيذكر صاحبنا عيناً من عيون اليهود، تقدم من كوة قطع التذاكر مخالفاً الأعراف والعادات، دون انتظار دوره، فرده بائع التذاكر رداً جميلاً، مما اضطره أن يقف في آخر الذيل، ولا ماءك أبقيت، ولا هنك أنقيت..

حملتنا سيارة باص واسعة، ذات رفوف للأمتعة، وسيور جلدية يستند إليها الإنسان في المنعطفات، وقد جلس كل راكب في مقعد مريح، لا يحتاج فيه إلى أن يكون محصوراً، مكبوساً مقوس الرجلين..

ومما يلفت النظر، عدم مشاهدة المفتشين في الباصات الصهيونية، فهم يكتفون غالباً بتفتيشها قبل رحيلها، أو يقنعون بذمة السائق وأمانته. وإذا اتفق وصعد مفتش وطلب منك بطاقتك، فإنما يخاطبك بكل أدب واحترام، الشيء الذي كنا نتمناه سارياً في الباصات العربية.. وكذلك، فإن لباس السائقين ومفتشيهم متشابهة ورسمية، بقبعة من الخاكي خاصة، تحمل شارة (إيجد).. ولن ترى أسرع منهم في قبض الدراهم وخزنها في تلك الأسطوانات ذات القعر النابض.. ولا يستغرب هذا الشيء من أهله..

وجلس بجانبي جندي بادلني السلام والكلام، وكان لي نعم الرفيق. فهو يهودي يوناني التحق بقوات الحلفاء، وحارب في البلقان وشمال أفريقيا وإيطاليا، وانتهى به المطاف في فلسطين، حيث أهله وذووه، فاختار هذه الديار وطناً له. وهكذا تجري هجرة خفية جبارة قوامها الجنود والقواد، يدخلون البلاد باسم الحق والقانون، حتى إذا انتهت خدمتهم ظلوا فيها آمنين، وكانوا خير دعامة لرجال الجيش الصهيوني العتيد..

وبجانب صاحبنا، مجندة من مجندات صهيون، كانت له نعم الجليس الظريف، إلى

البلد العتيق. وقد سألها عن المعارك التي خاضتها، ففهمت منه الإشارة؛ وهل معاركها سوى تلك الهجمات الليلية، والانتقال من فراش إلى فراش، ومن ضمة إلى شمة، لتتناول أوسمتها ودرجاتها بجدارة واستحقاق.؟

وكانت السيارة تنهب الأرض نهباً، ونحن في أحلامنا لاهون، وهي تصعد في جبال تشبه جبال لبنان، وقد هبّ النسيم عليلاً منعشاً، كأننا بين عالية وبحمدون، وعلى جانبي الطريق أشجار الفاكهة، من العنب والتين والخوخ وسائر الأثمار..

وأشرفنا على القدس، فإذا هي جاثمة فوق مرتفعات جبلية، حولها أودية شهيرة في التاريخ، ويحيط بها جبال أسماؤها على كل لسان..

قدس شريف، أفندم

لم يكد صاحبنا يهبط من سيارته، حتى أسرع يبتاع أحدث مصور للقدس الشريف. وسرعان ما وقع على بغيته، وإذا به ينشره في عرض الطريق، كسائح أمريكي وصل حديثاً إلى الشرق، بسرواله القصير، وقميصه المفتوح الصدر، المشمر الكمين، وقبعته الخالدة الفضفاضة، التي سببت لنا ألف مشكلة وورطة. والتجأ إلى أقرب بائع مثلجات، ليفحص مصنوعات القوم. وهل تفوق مثيلاتها في دمشق، مطعم العالم، التي تفوق مداخن مطابخها مداخن معامل (كروب) و(ستيتن) مجتمعين. واطمأن قليلاً إلى نفسه، ثم نشر خارطته أمامه. ولكنه أصطدم بأعظم عقبة، ألا وهي جهله الجهات. نعم، إن الخارطة لواضحة جداً، ولكن في أي زاوية هو منها، وما هو اتجاهه؟ وهرع إلى شباب قريبه يسألهم مستفهماً، فعجبوا منه، ومن خارطته، فلِمَ يحملها إذا كان يجهل استعمالها. على أن أحد أولاد الحلال، الذين لا يخلو منهم مكان، أرشده إلى سؤله. وأنباه أنه في شارع يافا، أمام شارع ماميليا[190].. ولكن ما هي ماميليا هذه؟ هي بنت أخت أميليا وفيكتوريا أم أنها من فصيلة اللوبيا والفاصوليا.؟ ووقف أمام سيدة، حياها كما يقتضي المقام، وسألها عن ماميلياه، فأنبأته أنها مأمن الله. فشكرها، وحوقل، ورجع إلى الله..

واتجه نحو المدينة القديمة، ليقف قليلاً أمام أسوارها، كما وقف وركع أمامها قبله الآلاف خاشعين..

---

[190] - هنالك مقبرة مشهورة اسمها مأمن الله وتسمى الآن أيضاً باسم مقبرة الشهداء، وهي أكبر مقابر القدس تقع بظاهر المدينة من جهة الغرب

بين باب الخليل والمسجد الأقصى

وقف بباب الخليل، أحد أبواب المدينة الثمانية التي لا زال بعضها مقفلاً منذ أجيال. وقف مطأطئ الرأس، خاشعاً يتأمل نقوشه العليا وقد كتب عليها: (بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بإنشاء هذه السور المبارك، مولانا السلطان الملك الأعظم، والخاقان الأكرم، مالك الروح والعجم، السلطان سليمان بن سليم خان، خلد الله ملكه، بتاريخ 945 من الهجرة النبوية على صاحبها ألف تحية وسلام). وفي الجدار الداخلي كتب: (لا إله إلا الله، إبراهيم خليل الله). ومن هنا جاءت تسمية الباب، بباب الخليل. وكان خلف الباب والسور، خندق سحيق، كم سفحت على جنباته دماء، وبترت أذرع، وقطعت أعناق، وكم تخضبت أرضه بنجيع العرب والفرنجة على السواء..

وكان الممر إلى المسجد الأقصى ضيقاً جداً، وأرضه مرصوفة بالحجارة على طريقة الترصيف في العصور الخالية، تهبط مئات الدرجات التي يقوم على جانبيها أسواق الخضر واللحوم والعطارة.

ولم نكد نهبط تلك الأزقة، بزينا المعهود، حتى أوقفنا شرطيان، أحدهما فلسطيني والثاني إنكليزي؛ خاطبانا بالإنكليزية، وبرفع اليد، بما معناه ممنوع المرور. وكأنهما حسبانا يهوديين، وإرهابيين والعياذ بالله، نمضي إلى المبكي لنندب عزاً زائلاً ومجداً سالفاً.. ولما أفهمناهما بلسان عربي مبين، وبتلاوة بعض الآيات الكريمة، أنا عربيان مسلمان سوريان، سمحا لنا بالمرور، بعد أن أوسعانا نظراً وفحصاً وتدقيقاً.. ولقد تكررت هذه الحادثة عند كل مفترق، وفي رأس كل زقاق..

وكانت قبعة صاحبنا تخلق لنا ألف مأزق. فإذا رآنا السكان حسبونا أغراباً؛ وإذا أبصرنا المترجمون، خالونا سياحاً، فتهافتوا علينا، ولا نتخلص منهم إلا بتلاوة المعلقات العشر، والآيات المنزلات؛ وإذا رآنا الشرطيون حسبونا يهوداً، فلا خلاص إلا بمعاملات قرطاسية مزعجة وطويلة..

وأخيراً كان الحل الوحيد لذلك، أن أودع صاحبنا قبعته ولو إلى حين.. وأخشى ما كان يخشاه، أن يضيع معالم المستودع، فيعود بقبعة حنين..

وكانت الطريق على الجانبين غاصة بالفلاحات، يعرضن تينهن وعنبهن وثمارهن، وما زلنا في انحدار على الأدراج العريضة حيناً والضيقة أحياناً، بين الحوانيت المتواضعة المتوعة، في طريق باب السلسلة، حيث يزدحم باعة الفخار، والساعاتية والخياطون والبدالون، وتطل على الجانبين شرفات قديمة من العهد الإسلامي، ربما كانت لقصور

الأرستقراطيون النبلاء، والتجار الأغنياء، فيها أحجار منقوشة جميلة، و(شمريات) تذكرنا بقصص ألف ليلة وليلة، حيث الغادات يستترن خلفها، بخمرهن الحمراء والبنفسجية، ومعاصمهن المملوءة بالدمالج والأساور، فيبرزن مناديلهن أحياناً من وراء حجاب، لبعض العشاق المتيمين، كقمر الزمان وشركان.. حتى وصلنا المكتبة الخالدية، وبجانبها ممر ضيق عتيق، هو طريق المبكي.

المبكى

والمبكى حائط حجارته ضخمة، يتصل بسور الحرم من خارجه، ويعتقد اليهود أنه جزء من هيكل سليمان. فيقفون عنده يبكون مجدهم الغابر، ويندبون ملكهم المفقود.. وطول هذا الحائط نحو خمسين متراً، وفي الصف الأسفل من أحجاره تسعة أحجار ضخمة بينها حجر من الشمال، ربما قارب طوله خمسة أمتار ونصف المتر وعرضه ثلاثة أمتار ونصف أيضاً. وفوق هذا الصف خمسة عشر صفاً حجارتها أصغر من غيرها، وعلى هذه الأحجار كتابات بالفحم أو الحفر باللغة العبرانية، أكثرها أسماء بعض الزوار، وبين شقوقها أوراق وخرق تعبر عن استرحاماتهم الدينية للآلهة. وفي جانب الحائط شموع وقناديل وصندوق من الزنك، له أبواب زجاجية، تدخل منها الزيوت والشموع، وتغمس فيها الفتائل لتشتعل القناديل، وثمة طست ووعاء ماء؛ ولا يجوز لليهود أن يجلبوا معهم للصلاة سوى ما ذكر، وذلك حسب قرار لجنة البراق؛ كما لا يجوز لهم وضع ستائر أو حواجز على الجدار أو الرصيف لفصل النساء عن الرجال، أو لغاية أخرى.

وتوجد من جهة ساحة الحرم حجرة دخل بعضها في حائط المبكى، يقال لها مربط البراق، ليلة الإسراء، كما تروي التقاليد الإسلامية؛ لذا فقد سمي المبكى بالبراق أيضاً..

ولعل الخشوع ساور صاحبنا عندما رأى المبكى.. خشوع من نوع شاذ يبعث على التفكير مع أنه يدعو البعض إلى الضحك.

فهنا عشرات من اليهود رجالاً ونساء بين واقف وقاعد، وقد علا ضجيجهم وارتفعت أصواتهم بالبكاء، وفيهم من يقرأ دعاء، أو يتلو آية، أو يندب بصوت عال، حتى أن بعضهم من تتشج نشيج الثكلى من فرط البكاء، وهي مولية وجهها نحو حجر من تلك الأحجار تكاد تبلله بدموعها.

فهل يبكي اليهود أسفاً على المجد الزائل، والسلطان الآفل، كما يزعمون، أم أن الأمر لا يعدو الحادث النفسي الخاص نحو مريض أو فقيد.. فإذا ما ذكره أحدهم، أو

صلى من أجله، أو طلب له الشفاء، تفجرت الدموع من مآقيه، كما تفعل الثاكل إذا شهدت مأتماً، فتذكر مصيبتها، ولو مضت عليها السنون.؟

أم أن رجال الدين، وطبقة الرعاع يقرنون الشعور بما هو محسوس كالبكاء، مبالغة في تدينهم، وإغراقاً في تدينهم وإغراقاً في عبادتهم، فيقلد الواحد الآخر، بحكم قانون (ريبو) وتحصل المناحة الكبرى.؟

ولئن صح أنهم يبكون مجداً ضائعاً، فإن لليهود إذن شعائر جنسية لا مثيل لها.. فإذا كان هؤلاء الباكون، وجلهم من البسطاء الشعبيين، لهم مثل هذا الشعور السياسي أو الاجتماعي، فكيف بالطبقة الراقية المتعلمة.؟[191]

بعد مرور آلاف السنين على تهديم المعبد، يقفون هنا، نائحين باكين، ينشدون الأناشيد، ويندبون الهيكل وخرابه، وما تهدم من جدرانه، وما ضاع من عزه، واحترق من جواهره، وما أصاب كهانه من الذل، وما نال الشعب من السبي والتشريد، ويستنزلون الرحمة على صهيون، ويتوسلون إلى الله أن ينجيهم مما هم فيه، ويعيد إليهم ملكهم في أورشليم..

وقفنا نتأمل الباكين، وهياكل البوليس تمر أمامنا، يحملون بنادقهم سريعة الطلقات، ويستعدون لكل حادث مفاجئ، فذكرنا اضطرابات 14 آب 1928، يوم قام الصهيونيون في تل أبيب بمظاهرات صاخبة، حملوا فيها أعلاماً موشحة بالسواد، هاتفين: الحائط حائطنا، وعار على الحكومة.. ثم تتجدد المظاهرات في اليوم التالي في القدس، ويغرس العلم الصهيوني في جدار المبكى، وينشد المحتشدون المسلمون في الغد، بمظاهرات أخرى، رداً على اليهود، ويصلون إلى الحائط، ويقلبون منضدة الشماس اليهودي، ويخرجون من شقوق الجدار استرحامات اليهود ويحرقونها.. ثم نسمع من وراء الغيب:

والبراق الشريف يهتف يا طه	فتبكي الرمال في سيناء
لم تمت أمة أريقت دماها	في سبيل الحرية الحمراء..

ثم نشاهد اليهود كرة أخرى أمامنا، وقد أمسكوا التوراة واتجهوا إلى هذا الجدار يصلون ويدعون، بأصوات بحاء، خشنة، متنافرة، مختلطة بالدمدمة والتسبيح.. كأنهم يحتفلون بيوم 9 آب ذكرى خراب الهيكل من قبل (طيطس)، قبل آلاف السنين..

---

(191) - هذا المقطع منقول بنصه عن رحلة جرجي زيدان إلى فلسطين التي تناولناها في الجزء السادس من هذه الموسوعة

وأي يهودي أفاق، طاف الأرض، ثم حطت به الرحال في فلسطين، يقف أمام المبكى، وهو رمز أمجاده، ولا يفيض قلبه خشوعاً وحماسة، ليعود إلى تلك الأيام، أيام العز والسلطان؟ إن اليهود ليستمدون من هذا الجدار قوة وإيماناً، وإنهم ليلتجئون إليه كلما تتكر لهم الزمان.. ولكن.. وتقدرون.. فتضحك الأقدار.!

لقد قال السيد المسيح لذلك اليهودي، الذي منعه ظل جداره، وهو مجهود، وقرى داره، وهو جائع: ستظل تائهاً في الأرض حتى أعود..!

وجاء القرآن، فتوعّد اليهودي الأفّاق بأجلى بيان: ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله، ذلك بأنهم يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير الحق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون..﴾.

فليصل اليهودي ما شاء بجدار مبكاه، وليمرغ رأسه بغباره، وأحجاره، وليسكب أنهار الدموع، وليشعل القناديل، وليحرق البخور، وليستجد عواطف الخافقين؛ فإن لعنة الله، ودعوة السيد المسيح، لا تزالان تحرقان قدميه، ولن يقر له قرار، حتى يلج الجمل في سم الخياط..

◆ ◆ ◆

أيها العربي

عندما كنا نجتاز طرق القدس القديمة، ونشاهد إخواننا العرب، وبقاء ما كان على ما كان، ونذكر الصهيونيين ونهضتهم الجبارة، تمنينا أن يستفيد إخواننا العرب أجمل وأبرع ما عند اليهود، وأن يتحركوا بسرعة، ليلحقوا عدائي الصهيونية لأن الأخذ بما يأخذ به أعداؤهم واجب لا معدى عنه، لتتسنى المقاومة المجدية.

كنا نتمنى أن يكون أهلنا العرب، دنيا جديدة في القدس القديمة، تضاف إلى حماستهم ومروءتهم، فتشكل صرحاً هيهات أن تناله القنابل الذرية.. كما نتمنى دماً جديداً في شرايينهم ليكتسحوا به هؤلاء البكائين حول الهيكل، النادبين حظهم وبؤسهم، وهم أعدى أعداء العرب، وأجشع الرأسماليين والمستعمرين..

ولئن اكتشف العلم (البنيسيلين) وما هو أقوى منه لقتل أشد الجراثيم خطراً، فإن البينيسيلين العربي الذي سيقضي على جرثومة الصهيوني، حثالة الشعوب، ومبعث الفتن، هو الاتحاد والتضامن، والنظام والإبداع، وتحديد المبادئ والغايات، وتفضيل المصالح

العامة على الشهوات الخاصة، والعمل المتواصل، تعضده القوة، ويمده المال، وعندئذ يفرح المؤمنون..

◆ ◆ ◆

في المسجد الأقصى.

غادرنا المبكى ميممين وجوهنا شطر المسجد الأقصى، عن طريق باب السلسلة؛ فأبصرنا باباً من طراز عجيب نفيس، يمثل أبواب المساجد القديمة خير تمثيل؛ وفوقه مئذنة، تشرف على المبكى، وتلقي عليه آناء الليل وأطراف النهار دروساً لن تنتهي، بأن العزة لله ولرسوله، وللمؤمنين، وبأن ما كان أساسه على الرمال فزائل، وما كان أساسه على الباطل فمهدوم..

هاهو ذا المسجد الأقصى الذي باركنا حوله، قبلة الإسلام الأولى، ومعراج سيد الرسل، بساحته الفسيحة الأرجاء وبحيرة وضوئه، وسبيل مائه، تتسجم فيه عبقريات الشرق الفنية بنقوشه وألوانه، وبلاط قيشانيه، ونوافذه، وقبابه، تزخرفها الآيات القرآنية المسطورة على القاشاني الملون بكل ضروب الفن والجمال..

ودخلنا الحرم من باب الصخرة المرمم في عهد السلطان سليم، واحتوانا ساعتئذ ذلك الجو الرهيب، من الخشوع والإيمان، والسكينة والهدوء العميق.

فهنا، وفي هذا المكان، عرج سيد الأكوان، محمد صلى الله عليه وسلم. ولتبارك صخرة وطئها، وإني أكاد أشم أريج المسك يتضوع منها، بعد أربعة عشر قرناً..

فسر أيها الزائر، واستلهم الرحمة والغفران، واطلب من الله النصر للمسلمين، وجمع شمل العرب، فهذا مكان يستجاب فيه الدعاء.

وقبة الحرم ترتكز على أربع دعائم ضخمة، بين كل دعامة وأخرى، ثلاثة أعمدة، فوقها أقواس مزخرفة بالفسيفساء، الذي لا يزال يحتفظ برونقه وبهائه رغم كرّ الليالي، ومرور القرون، مما أسبغ على المسجد جمالاً رائعاً..

وقال دليلنا يشرح ألوان الأعمدة، والدعائم الملونة، وهو يلمسها بيده، فنجاريه تحبباً وتقليداً، حتى نكاد نعفّر وجوهنا بغبارها: هذا لون يسمونه (شحم بلحم، أي البصطرمة)؛ وعجبنا لهذا التشبيه، الذي أجاد فيه وأفاد، فكأنه حسبنا من سكان جبل قاف، أو جزائر الواق واق، فانتقى تعبيراته من قاموس فنه الرخيص؛ ولم يترك صاحبنا

النكتة تفر من يديه، فجعل يجري على نفس الأسلوب ويقول بكل جد واتزان: (الله.. الله.. يا سيدنا الشيخ.. والله شيء بروحين القلب.. شو هالأعمدة.. الله أعلم أنه رفعها الفداوية أيام السلطان الملك الظاهر، والدعائم عمرها الجن أيام سيدنا سليمان.. إيهْ.. الله ينور البّنا بالإيمان.. ولا يحرمنا زيارة الشفيع.. يا سيدي).

وهنا وقف وجهاً لوجه مع الشيخ، وقال له بحركة مسرحية: (الله بدُو يمز دينو.. الله كريم.. الخير فيَّ وفي أمتي إلى يوم القيامة.. والله ما نحنا إلا في روضة من رياض الجنة.. الله يحسن الخاتمة..).

فسر المطوف جذلاً، ونادى صديقاً له معتماً، ليقدمه إلينا، نحن أبناء دمشق المحروسة، كنانة الله في أرضه..

وتشرف الرجلان بالشاب الصالح.. وراحا يشرحان بإسهاب عن السجاد الفاخر الذي قدم هدية من لدن خليفة المسلمين، السلطان عبد الحميد..

والصخرة المشهورة محاطة بإطار مرتفع من الخشب المزخرف، ولونها يميل إلى الصفرة. ووقف شيخ الجامع بجوارها يقول: «هنا مكان قدم النبي، حينما هبط؛ فمسح صاحبنا وجهه وذقنه بالغبار تبركاً.. وهذه زجاجة فيها شعرة من شعرات الرسول..»، وسواء صدق الخبر، أم لم يصدق، فقد لمس صاحبنا الزجاجة، ثم أجرى أصابعه على عينيه.. وإنما الأعمال بالنيات..!

وتحت الصخرة مباشرة، مصلى سليمان، وخلوة داود وإبراهيم، عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام، وهنالك موضع توسده النبي، وآخر مكان عروجه..

وأقسم صاحبنا للدليل المحترم، بعد أن تأمل ملياً في زخارف الفسيفساء التي لا توصف، وفي القاشاني وهو آية الآيات في الإبداع، أن الحرم شيء (يجنن) بفنائه، وجماله..

لكن المزعج في هذا المسجد، هو خلوّه من الكهرباء، فلا زال يضاء بالشموع. وما ضر القوم لو أفادوا من هذا الاختراع العصري البديع النظيف، وهو لا يخالف الدين وتعاليمه، فيزداد المسجد نوراً على نور، وبهاء ورونقاً.؟ ونحن نرجو مخلصين أن ينظر القائمون على شؤون المسجد في هذا الاقتراح بعين الاعتبار، وفي ذلك خدمة لدين الله، ورفع من شأن العروبة.

وقصدنا جامع عمر، وهو في صعيد واحد والمسجد الأقصى؛ وفي صحنه بركة ماء للوضوء، سرنا منها تلك الكراسي الحجرية التي يسكن إليها المتوضئون؛ وفيه أشجار سرو

وعفص باسقة؛ وهو سطح لقبو هائل، تتجمع فيه مياه المطر، ويفيد منها الناس في الشرب والوضوء، وهو ماءٌ عذبٌ فراتٌ.

وقد جُدد المسجد، ورمم بناؤه، بمساعي جلالة ملك مصر، فاروق الأول، والمجلس الإسلامي الأعلى، بعد أن كاد يوشك على الانهيار بكامله. وقد جلبت أعمدته الرخامية من أوروبا؛ وفيه فيسفساء جميلة؛ وقيل لنا بأن منبره الخشبي مصنوع دونما مسامير حديدية، وهو هدية السلطان صلاح الدين الأيوبي؛ صممه حميد بن ظافر، وصنعه وحفره سليمان بن معالي، وهو من خشب الأرز.

ويطل الجامع على جبل الزيتون، وجبل المكبر، حيث قدم الخليفة عمر، وكان ينتظره البطريرك (صوفرونيوس) وحاشيته، وفيه بقايا أعمدة رومانية قد كسرت أجزاؤها، لتشويه الحيوانات المنحوتة عليها، من سبع وطير، وفيه مقام زكريا ومحرابه...

هيّا إلى كنيسة القيامة

خرج صاحبنا من المسجد الأقصى، وجامع عمر، وقد ازداد إيماناً، ورسخ عقيدة، بمستقبل العروبة والإسلام.

وما كان يزعجه غير هذا السروال القصير الذي جعله قبلة أنظار المصلين في بيوت الله، وسوى تلك القبعة التي أودعها وخشي ألا يهتدي إلى مستودعها.

ولولا آيات بينات رددها أمام كل مطوف، تذكر بحادثة الإسراء، وعز المسلمين، وذل المشركين، ولولا أن سيماه الرزين، وحافظته الجبارة، تنقذ المواقف الشائكة كل حين، لما اكتشف هويته أحد، ولحسبوه ورفيقه من المنافقين الكافرين..

خرج من المسجد، ونشر بين يديه كعادته مصور المدينة، وجعل يدرس الخطط والتفاصيل لزيارة معالم المدينة المقدسة، ولو لم تزقزق عصافير بطنه بأنغام دونها أنغام أم كلثوم، لما غادر المكان إلى يوم الدين.

تناول غداءه في المدينة التي باركها الأنبياء، فكانت مشرق الهدى والسلام؛ ومهبط الوحي والإلهام، مجتلى عين موسى، ومسرح قلب عيسى، ومسرى روح محمد، كما يقول أستاذنا الزيات.

وقد ذكر لساعته موعداً ضربه لصديق تعرف إليه في (باث كليم) حيفا، يسكن المرحلة السادسة، فأسرع يحث الخطا؛ ويمر في تلك الدروب التي سار فيها السيد المسيح، له المجد.

وقبل أن يتحدث، ويفتح فمه ببعض التفاصيل، يجب أن يسجل هذه الحقيقة، ويعلن على رؤوس الأشهاد أنه ناقل أمين للصور والأخبار، وأنه لا زال مسلماً حنبلياً، ولا شي أكثر من ذلك..

وبعد هذا الإعلان، هيا إلى المراحل الأربع عشرة، التي سار فيها المسيح، يحمل صليبه على ظهره؛ حتى إذا بلغ المرحلة السادسة جاءته (جوليا) السيدة الرومانية، وكان الشوك قد أدمى وجهه، فمسحته بمنديل، فانطبع الوجه بدمائه عليه، وهو محفوظ في دار آثار روما، مع بقايا الصليب الخشبي..

وهبطنا الحجرة التي كانت تقيم بها جوليا هذه، والتي سميت بعدئذ (فيرونيكا) وشاهدنا بئرها، وبجانبها تماثيل تصور الحادث تماماً خير تمثيل. فها هو ذا الجندي الروماني (لونجينوس) يقود السيد المسيح ويعذبه، والسيد يحمل صليبه على كتفه، وقد كبا به، والدماء تسيل غزيرة من وجهه.. وهاهي فيرونيكا قادمة تحمل المنديل؛ ووراء الجميع سمعان الكرداني، يساعد المصلوب، في حمل الصليب، منذ المرحلة الخامسة..

وهاهي ذي كنيسة القيامة، أو القمامة، أو القبر المقدس.. وهي بناء قديم ضخم يقع في منتصف المدينة، مع ميل قليل نحو الشمال والغرب، وقد اشتهرت هذه الكنيسة وزادت أهميتها، لوجود قبر المسيح فيها، ويسمى بالقبر المقدس. والعلماء مختلفون في هل هو قبر المسيح حقيقة؟ أي المكان الذي قبر فيه بعد صلبه كما تروي الأناجيل؟ أما العامة فيعتقدون بما ورثوه عن آبائهم، والباحثون لا زالوا في اختلافاتهم، وكل بما لديهم فرحون.

وكنيسة القيامة بناء كبير مؤلف من القبر المقدس وعدة كنائس ومصليات ومزارات وغيرها، لسائر الطوائف المسيحية. وفي الواجهة باب يدخل منه إلى الكنيسة، عليه نقوش رومانية وعربية؛ والغريب، أجل الغريب، أن مفتاح الكنيسة يقبض عليه مسلم من (آل النسيبة)[192]، وهو تقليد فرضه عمر بن الخطاب، للحؤول دون اصطدام الكهنة بعضهم ببعض؛ وهم ينتمون إلى عدة طوائف، وكل طائفة تروم الاستئثار بالمفتاح، وليس هنالك غير من يدعي لنفسه حصة الأسد.

وأول شيء يقابل الداخل، حجر مستطيل طوله سبع أقدام وعرضه قدمان. لونه أصفر ضارب للحمرة، يسمى حجر الدهن أو المسح، يُقال أن جسد المسيح وضع عليه وحنطه (نيقوديموس) وعلى مسافة قليلة منه، حجر آخر، يقال إن النساء وقفن عنده وقت التحنيط؛ وتمشي إلى اليسار، نحو بقعة مستديرة في وسطها بناء عال فوقه قبة

---

[192] - وردت في النص خطأ آل البنيسي

قطرها (65) قدماً. ويحتوي على القبر المقدس. واجهته متجهة نحو الشرق مقابل الكنيسة الخاصة بالروم الأرثوذكس، التي فيها عرشان كبيران، أحدهما للبطريرك الأنطاكي، والآخر للبطريرك الأورشليمي، وفي وسطها مكان يعتقدون أنه مركز العالم، أو نصف الدنيا، وعلم الجغرافيا في ألف خير..

وإذا تأملت واجهة القبر أدهشك كثرة ما فيها من أدوات التكريم والتعظيم، كالقناديل والمصابيح الذهبية، والشموع الضخمة؛ والرايات المقدسة، والصور عليها الحلي من الذهب والفضة، تملأ الواجهة إلى أعلاها. وفي أسفل الواجهة مدخل الضريح، وقد علق في سقفه ثلاثة وأربعون قنديلاً من الذهب، أربعة منها للأقباط والباقي مقسوم بين الطوائف الأخرى على السواء. وعلى جدران تلك الحجرة نقوش تمثل بعض حركات المسيح، وكل منها لطائفة من الطوائف المشتركة في هذا المكان. وفي الحجرة تتلى الصلاة كل يوم، وهو أقدس مكان في كنيسة القيامة. ولذلك اتفقت الطوائف المسيحية على الاجتراء من قربه، أو الحصول على مكان يمكن أبناء كل طائفة من الوقوف فيه، عند الاحتفال بانبثاق النور في يوم سبت النور. والنور في ذلك اليوم يخرج للناس من كوة في جدار القبر، فيقتبسون منه بشموع أعدوها في أيديهم؛ فإذا أضيئت تبركوا بلهيبها، فيدنونها من وجوههم أو ثيابهم على نسبة إيمانهم وصحة اعتقادهم. ولقد قيل لنا، إن الحجاج الروسيين قديماً كانوا من أكثر الناس إيماناً. فيتقدم أحدهم، وبيده شمعة أو شمعات، يدنيها من النور الخارج من الكوة، فإذا أضاءت أدار لهيبها حول وجهه، وأدخلها تحت ثيابه، وهو لا يخشى احتراقاً..

ولنشاهد الآن تمثال العذراء مريم.. وهو محلى بالجواهر النادرة، ومحفوظ في صندوق زجاجي، فلم يجتمع الجمال المجسد، مع الحلي الثمينة، كما اجتمعت هنا..

وتتمنى أن تشاهد كل حجر وكل زخرفة، لولا أن البناء قديم، وقد خشي انهياره، فقامت مصلحة الآثار بتركيب الدعائم الخشبية ليستند إليها البناء وقبته، بغية الاحتفاظ بهذه الدرر الثمينة، التي أراقت أوربا في سبيلها الدماء، وباسمها أعلنت الحروب الصليبية، لطخة العار في جبين الشعوب الأوروبية إلى يوم الدين..

وللكنيسة أقسام لسائر الطوائف، فهذا جناح الكاثوليك، وفيه الحجر الذي عذب عليه المسيح، وذاك جناح اللاتين، حيث تمثل الهياكل حالات الصلب المختلفة.. وهناك جناح اليونان الأرثوذكس، وفيه سجن المسيح. وهكذا سائر الأمكنة، لكل طائفة بقعة منها؛ ولا يسمح لطائفة أن تتعدى حدودها. ومن تجاسر فتعدى حدوده منعه جاره المعتدى

عليه، وكثيراً ما كان يحتدم الخصام قديماً، وتتعطل لغة الكلام، ليحل محلها العصي والخناجر.. وقد يتضاربون بها. فإذا مست المكنسة جزءاً من موقف الجار نبهه، فإذا لم يذعن منعه بالقوة. كأن تنظيف المكان، يجعل للمنظف حقاً في تملكه، من قبيل وضع اليد.[193]

ولعل الزائر لا يستطيع إدراك عظمة هذه الكنيسة، وما فيها من آثار باهرة خالدة، إلا بالإطلاع الواسع على تاريخ النصرانية، وأيامها الأولى، وعندئذ يدرك. روعة ما يراه، ويصل كل حادث بحديث..

وادي ستي مريم

خرجنا من باب السيباط [الأشباط]، وهو الباب الذي دخل منه عمر بن الخطاب القدس، قبالة جبل الزيتون، أو جبل الطور، أو كما يسمونه تديناً جبل النور. حيث صعد منه عيسى عليه السلام إلى السماء، وحيث تقع كنيسة الجسمانية، وكنائس أخرى، وأديرة وقبور الأنبياء..

وإنك لتشاهد كنيسة الروس من بعيد، بهندسة بنائها، وغريب قبابها وصلبانها، حتى تتخيل لساعتك موسكو ولينينغراد، تقرع فيها النواقيس بتوقيع موسيقي خاص، اشتهر به الروس منذ عهود القياصرة.

وهرعنا إلى هذه الكنيسة، ونحن نسرح أبصارنا عن بعد، فنشاهد أسوار المدينة وبيوتها، ونشرف على أبنيتها فنراها واضحة جلية، بمآذن الحرم، وقباب الكنائس، ومنارة جمعية الشبان المسيحيين.. ولابد لمن يزور القدس، أن يصعد جبل النور ويشرف منه على هاتيك الروائع..

ولقد مررنا بكنسية الجسمانية، حيث صلى المسيح آخر صلاته قبيل الصلب، وهي مشتركة بين كافة الطوائف، فيها صخرة الاحتضار، تنير فيها الشموع، وتحيط بها النسور والطيور تمثيلاً للملائكة الأطهار؛ وسقفها قباب تختص كل أمة بواحدة منها. فهذه لإيطاليا، وتلك لإنكلترا، وسبحان من جمع البشر في صعيد واحد، ولو اختلفت بينهم المذاهب والنزعات..

ولقد بنيت هذه الكنيسة على أنقاض كنيسة قديمة أخرى، لم يبق من آثارها سوى تلك الفسيفساء الحجرية التي تزين بعض أقسام الأرض..

---

[193] - هذا الكلام مأخوذ من رحلة جرجي زيدان سابقة الذكر.

وثمة لوحات زيتية بحجم الجدار، رسمها فنانون بولونيون، تمثل إحداها (يهوذا الأسخريوطي) يبيع السيد المسيح بدريهمات معدودات، ويتجلى على وجه (يهوذا) الجشع والأثرة والمكر؛ وهنالك لوحة تمثل اليهودي نفسه يساوم على الثمن، بشح وحرص. وثمة لوحة مهداة من الأمة الهنغارية، تمثل السيد المسيح يصلي صلاته الأخيرة.. ولاشك في أن ريشة رسامها أبدعت أيما إبداع، يذكرنا بآثار ميكيل آنج ورفائيل وفناني النهضة..

وكانت الكنيسة الروسية هادئة صامتة، صمت السهول الروسية تحت غطاء الثلج.. ولئن كانت الأبنية تعبر عن الأذواق والأخلاق، فإن بناء هذه الكنيسة يعبر بأجلى بيان عن الخلق الروسي الصامت الرصين.. فلم تكن الراهبات فيها يلتفتن إلى زائر، لأنهن يصلين بلباس الحداد، وهن يرتلن بأنغام موسيقية روسية، فيها خشوع واطمئنان..

ولعل أروع ما شهدناه من الآثار الفنية الدينية، التي تزخر بها كنائس القدس، هي التماثيل الملونة في كنيسة الألم. فكان أحد المواقف يمثل حادثة بيلاطس، وهو يغسل يديه بالماء، علامة البراءة، ويقول: (إن الرجل بريء - يقصد السيد المسيح - ولا سبيل لإدانته؛ إني أشهد أنه لم يقترف ذنباً، ومن الظلم الحكم عليه بالموت، ولقد حكمت عليه تحت تأثير الضغط والإكراه.. لأن اليهود ألحّوا عليّ بذلك، وهددوني بقيصر..) وتكاد الأشخاص تنطق وتكلم.. وفي الكنيسة عينها تماثيل صنعها فنانون إيطاليون، لم نرَ لها مثيلاً.. فكان بعضها يمثل (مار يوحنا) يغطي عيني العذراء، لئلا تشاهد ابنها يقضى عليه بالموت، وتصحبها مريم المجدلية، وقد ارتسم الذعر على وجهها وحركاتها، إلى جانب جمال التقاطيع، وتضاعيف الثياب الملونة، الملاصقة للجسم، فتنمّ عن مفاتنه؛ كما برز جلياً ذلك الحنان والخوف على وجه العذراء، خوف الأم على وحيدها، والذعر من الموقف الرهيب، وهي ترى حياة ابنها بين شفتي القاضي.. أما اليأس والحزن، فقد ارتسما بجلالهما على تقاطيع سحنة يوحنا..

منارة جمعية الشبان المسيحيين

قصدنا دار جمعية الشبان المسيحيين (واي. م. سي. أي)، فشاهدنا حديقتها البديعة الصنع والترتيب والتنسيق.. وولجنا ردهاتها الفسيحة الهادئة، فهنا صالة عامة، وهناك مطعم (بوفيه)، وهذه مكتبة عامرة للمطالعة، وتلك غرف التسلية، وحجرات نوم الزائرين، وغرف الاستقبال والحفلات..

وهل يزور صاحبنا الدار، ولا يصعد برجها العالي، ذا المصعد الكهربائي، وسلّمها الضيق اللولبي الذي تقدر درجاته بالمئتين وست الدرجات..

صعدنا المنارة، والأجراس تقرع بالكهرباء، فتصدر أنغاماً موسيقية وألحاناً رتيبة، حتى إذا وصلنا القمة، كادت الروح تبلغ الحلقوم، وتجد لنفسها أقرب طريق إلى السماء.. وصاحبنا مصاب بمرض الفزاع، ويخشى الخلاء كما تخاف الأطفال من العفاريت، فوقف خلف المتفرجين، في الصف الخامس، لأنه لم يكن هنالك صف سادس، وأخشى ما يخشاه أن يقرأ اسمه في صحف الغد، في عمود الوفيات؛ وأشرف على المدينة الخالدة؛ فرأى أمامه فندق الملك داود والمسجد الأقصى، وكنيسة القيامة ودار المندوب السامي تهجع فوق قمة زمردية خضراء، وآلاف الأبنية الحديثة والقديمة، ووراء الجميع يتبختر جبل الطور، ووادي ستي مريم، ووادي قدرون والرباب ويهوشافاط..

وللمنارة أربع شرفات تطل كل واحدة على جهة من جهات القدس. وأمام الواقف في كل شرفة، لوحة نحاسية هي مصور ناطق لما أمامك من المناظر، ناتئة ملموسة، رقمت بأرقام كتب بجانبها اسم كل بقعة. فما عليك إلا أن تتأمل المدينة قدر ما تسمح الشرفة، فتمين البناء، ثم تنظر صورته في اللوحة، وتقرأ رقمه في الهامش، فتدرك معالم المدينة المقدسة دون دليل.

وهبطنا السلم، بينما انهمك صاحبنا في عد الدرجات التي اختلفت بين الخشب والحديد والحجر، وهو يقرأ المعوذتين وآية الكرسي، ويرجو الله أن يكون خير الساترين...

ولكن الذي أقلقه، وأثار مراجل غضبه، رؤيته خطيبة مع خطيبها، أو لعلها عاشقة مع عشيقها، سبقانا إلى النزول، وكأنهما وجدا خلوة صحيحة في هذه المنارة الشاهقة، تدعو إلى القبل وغير القبل، من رقيق الدعابة، وناعم الضم والعناق.. ولولا مفاجأتنا، لالتصق جسم بجسم، وساق بساق.. فكاد يسلك سبيل أولاد (الحارة) بالانتصار إلى الشرف الرفيع، غير أنه خشي أن يحدث ما لا تحمد عقباه. فتكلم عقله بصوت أعلى من قلبه، وكفى الله المؤمنين القتال..

الوكالة اليهودية : حكومة ضمن حكومة

في بقعة من أجمل بقاع القدس، وفي ملتقى شارع الملك جورج الخامس وطريق الكيرين كايمت، تقوم الوكالة اليهودية، دماغ الصهيونية المفكر ورأسها المدبر.

ولن تغرينا أبنيتها العديدة الحديثة، بقدر ما يهمنا من يقوم على شؤونها، فهنا حكومة منظمة، بدوائرها ومؤسساتها وبرامجها وميزانيتها وموظفيها. ولو سمينا كل دائرة من دوائرها بوزارة، لرأينا وزارات الداخلية والخارجية، والمالية والدفاع، والمهاجرة

والاستعمار، والزراعة والصناعة، والصحة والمعارف، والاقتصاد والشؤون الاجتماعية، ووراء الجميع جيش من الخبراء في كل فرع من فروع المعرفة.

والوكالة اليهودية، شخصية معنوية خلقتها الحقوق الدولية، حين نصت عليها المادة (4) من صك الانتداب على فلسطين بقولها:

(ويعترف بهيئة يهودية صالحة، كهيئة عمومية، لتشير وتعاون في إدارة فلسطين، في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية، وغير ذلك، مما يؤثر في إنشاء الوطن القومي اليهودي، ومصالح السكان اليهود في فلسطين، وتساعد وتشترك في ترقية البلاد، تحت سيطرة حكومتها دائماً).

(ويعترف بأن الجمعية الصهيونية، هي هذه الهيئة المنصوص عليها فيما تقدم، ما دامت الدولة المنتدبة ترى أن نظامها وتأليفها يجعلانها لائقة صالحة لهذا الفرض، وعلى الجمعية الصهيونية أن تتخذ ما يلزم من التدابر، بعد استشارة الحكومة البريطانية، للحصول على معونة جميع اليهود، الذين يبغون المساعدة في إنشاء الوطن القومي اليهودي).

وهكذا فليست الوكالة حزباً كما نفهم من معنى الأحزاب، بل مجموعة من الشخصيات اليهودية في جميع أنحاء العالم، تنتخبها الهيئات اليهودية مرة كل سنتين في مؤتمر عام، لتتحدث باسمها وتهتم بشؤون اليهود عامة ويهود فلسطين خاصة.

ولم تنص المادة الرابعة الآنفة على تشكيلات الوكالة، بل ترك أمرها إلى اليهود أنفسهم الذين وضعوا دستورها ثم عدلوه عام 1929، فأصبحت تتألف من أعضاء متساوين من الصهيونيين وغير الصهيونيين، على أنه يجب أن يكون رئيس الهيئة الصهيونية رئيس الوكالة.

وأقسامها ثلاثة: المجلس الاستشاري، واللجنة الإدارية، والهيئة التنفيذية.

فالمجلس الاستشاري هو الهيئة العليا في الوكالة، يجتمع كل سنتين في دورات عادية، ليضع تصميم السياسة التي تنهجها الصهيونية؛ والمجلس هو الذي ينتخب اللجنة الإدارية والتنفيذية؛ وله مقر في القدس وآخر في لندن. وللوكالة موازنة سنوية ضخمة، بلغت العام الماضي (4) ملايين جنيه جمعت من التبرعات النظامية لمصارف (الكيرين هيسود)، لتنفق على الهجرة والمعارف والإدارة.

ومن صريح المادة الرابعة تتجلى لنا اختصاصات الوكالة:

فهي تمثل الشعب اليهودي أمام الدولة المنتدبة لغايات محدودة؛ ولا تستطيع قانوناً

تمثيله إلا فيما يتعلق بإنشاء الوطن القومي، كما أنها لا تستطيع تمثيله أمام الدول الأخرى؟ ورغم شخصيتها الحقوقية فلا قيمة لها إلا أمام الدولة المنتدبة وعصبة الأمم سابقاً.

والوكالة ثانياً، ليست سوى هيئة استشارية، والحكومة المنتدبة غير مكلفة بالأخذ برأيها، رغم أنها تستشيرها في كل ما له مساس بالوطن القومي. والظواهر كلها تؤيد أنها لا تقوم بعمل ما دون استشارتها.

وأخيراً ليس للوكالة حق التدخل في الإدارة. وهذه القضية هي التي أثارتها اللجنة العربية العليا سابقاً، وممثل الفاتيكان، حينما فسرا المادة الرابعة: (تشير وتعاون في إدارة فلسطين، وتساعد وتشترك في ترقية البلاد) فأجابت السلطة أن الوكالة لم تحاول ولن تحاول الاشتراك في الحكم.

والمواد 6–11 من صك الانتداب تشرح مهمة الوكالة: من إنشاء وطن قومي وتسهيل قضايا الهجرة، والاستعمار، واستثمار البلاد.

على أن هذه الوكالة هي دون أدنى ريب حكومة ضمن حكومة. فهي التي تنظم ترحيل المهربين من اليهود، من بلدان أوروبا. ثم تنظم حشدهم في مرافئ إيطاليا أو اليونان، ثم تستأجر السفن أو تشتريها لنقل هؤلاء المهربين، ثم تقوم باستقبال شحنات هذه السفن في فلسطين وتوزيعها على المستعمرات والمصانع..

ولا نكاد نسمع قضية تهريب، أو أعمالاً إرهابية، إلا ونرى وجه الوكالة اليهودية يطل من بعيد أو قريب، حتى ضج العالم المتمدن من فعالها، ولم يأل عرب فلسطين جهداً في طلب إلغائها.

في حالة واحدة قامت الحكومة فحلت اللجنة العربية العليا السابقة، مع أنه لم يكن لتلك الهيئة أية صلة بالحادثة المذكورة. فما بال الحوادث الرهيبة المتوالية لا تدفع بالحكومة فتحل هذه الوكالة؟ وما بالها لا تغل يدها عن كل تدبير وهي التي تشاهد كل يوم من فعالها عجباً؟

لقد استأثرت هذه الوكالة بكل نفوذ، واستولى اليهود بواسطتها على كثير من المناصب العليا، بحيث استطاعت في مدى أعوام قليلة: الاستئثار بسياسة البلاد، ومرافقها الاقتصادية.

وإذا كانت الفقرة الثانية من المادة (4) تقول: (يعترف بأن الجمعية الصهيونية هي هذه الهيئة المنصوص عليها، ما دامت الدولة المنتدبة ترى أن نظامها وتأليفها يجعلانها

صالحة ولائقة لهذا الفرض.) أجل! ما دامت صالحة ولائقة لهذا الفرض! فكيف نفهم صلاحها ولياقاتها وهي التي تدبر المؤامرات من وراء ستار، وتدير حركات المنظمات الإرهابية، ولا تساعد الحكومة بأي عمل للحد من نشاطها..

فلم تسهم أو تتعاون مع الحكومة في قمع الإرهاب، لاعتقادها أنها تهدف إلى نفس الغاية التي يهدف إليها الإرهابيون، وهي إنشاء وطن قومي.

إن الواقع والمنطق والحق لتقول مجتمعة: حلوا هذه الوكالة؛ فهي أصل البلاء ورأس الشقاء.

على أن الحكومة المنتدبة، شعرت منذ أمد بعيد، بأعمال الوكالة وتجاوزها صلاحياتها، لذا عرضت على عرب فلسطين تأسيس وكالة عربية، فرفضوا الاقتراح بكل إباء، لأنه يخدم مصالح بريطانيا واليهود، أكثر مما يخدم مصالح العرب. أضف إلى ذلك أن الوكالة اليهودية معترف بها دولياً، وهي تمثل يهود العالم، أما الوكالة العربية فسيخلقها قانون محلي، ولا تمثل سوى عرب فلسطين.

وهكذا ولد المشروع ميتاً، وظلت الوكالة اليهودية تعيث في الأرض فساداً..

في فندق النجوم.

وكأن الأقدار أبت إلا أن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن..

فقد اخترنا لإقامتنا في القدس، بعد طول تفكير، فندقاً عربياً. غير أن صاحبه على ما بدا لنا يحفظ حقوقه عن ظهر قلب، ويجهل كل واجباته، مما دعانا إلى مغادرته في ذلك الليل البهيم، غير مأسوف عليه، لنفتش عن فندق آخر.. ولولا مساعدة شرطي شهم من أصل دمشقي، والدم كما يقولون (بيحن) لأقمنا على أكبر الظن في فندق النجوم، نفترش الغبراء، ونلتحف الزرقاء.. وأخيراً، حطت رحالنا في فندق عليه سيماء عزيز قوم ذل، تديره صهيونية روسية، استقبلتنا بحذر شديد، بعد أن شاهدتنا نرتدي ألبسة الخاكي، فحسبتنا جنوداً فارين من ثكناتهم، وإيواء الجنود عندها ممنوع. ولما شرحنا لها بكل لغة ممكنة هويتنا، دخل الإيمان قلبها، واستقبلتنا مع فتياتها المغناجات، بكل ترحاب.

وهكذا بدله الله بفندقه المهجور، فندقاً ستظل لياليه خالدةً في دنيا المغامرات إلى يوم (ويخلق ما لا تعلمون)...

هيّا إلى الخليل

هلم معي إلى الخليل... إلى (حبرون) بلد الرجولة والبطولة والشجاعة.. هم معي إلى معقل من معاقل العروبة والإسلام، البلد الذي لم يدنس ترابه صهيوني قط.. بعد أن حرمت أرضه عليه، فظل يرمقه من بعيد دون أن يستطيع دنواً.. ولقد حاول الصهيونيون ذلك، ولكن غضبة الخليليين الأشاوس، ردت شذاذ الآفاق وحثالة البشر على أعقابهم، بعدما أنزلوا من صياصيهم، وهدمت ديارهم، وشردت نساؤهم وأطفالهم.. ولئن عجبت كيف لا تسير باصاتهم إلى الخليل، أو نابلس، وهي التي تجوب كل مكان، فأدرك الآن السبب، وإن فيه عبرة لأولي الألباب..

وما كدنا نضع أقدامنا في (باصنا) العربي، حتى جرى باسم الله، ويكاد الراكبون يجلس بعضهم في أحضان بعض، من شدة الازدحام..

وبإشارة من صاحبنا (الخبير) بطبائع البشر، لم نحلق ذقوننا، إكراماً لعيون الرحلة الميمونة.. فلعل الأهلين يحسبوننا من (المتوكلين) ولو بصورة مشوشة.. فقد كان إسبال الذقن من طرقه وأساليبه أحياناً.. يرى فيه أسلوباً ناجحاً للغش والخداع.. وخاصة في فحوص الفقه والأوقاف، والفرائض والإحكام الشرعية قديماً في معهد الحقوق.. فكانت ترتسم على وجهه أمارات الزهد. فينال علامة فيها كرم وجود من أساتذته الفقهاء.. أو ليست الذقون تجارة رابحة في هذه الأيام..!

وجلس صاحبنا بجوار محام قدسي، وجلست بجوار فلاح خليلي..

ولعل المحامي أوجس شراً من صاحبنا، رغم أنه لا يحمل قبعته اليوم.. فلم ندر لذلك سبباً.. فهل رأى أنياب الصهيونية الزرقاء، في ثياب الشورت، وانحسار الرأس.. فاتخذ موقف الحيطة والحذر؟ فهذا شاب حليق، ذو سروال قصير، فلا شك أنه من أولاد إسحق ويعقوب. ولعل الرجل المحامي أراد أن يسخر من صاحبنا، فشرع يتلو آيات الجهاد، وما وعد الله به المشركين؛ ثم تحدث عن موقف الإسلام من اليهود الذين يقتلون الأنبياء بدون حق؛ ولكن عندما صحح صاحبنا للفقيه الكبير بعض أخطائه القرآنية، اعتدل

الرجل في جلسته، وابتسم ابتسامة زائفة، بعد أن أيقن أنه أمام مسلم عربي، لا شبهة في إيمانه وعروبته.

وتبدلت اللهجة، وسارت المعركة في طريق معاكسة؛ فراح المحامي يمتدح صاحبنا بعد التعرف به، ويشيد بمحاسن الشام، التي قضى فيها شطراً من حياته، أيام (اصطمبول) وحرب (السفر برلك)؛ ورغم ثقافته المفروضة، واطلاعه بحكم مهنته، كان يمثل دور النعامة أمام الصياد؛ فما سمع منه صاحبنا سوى مديح العرب، وتنديد باليهود، دون أن يذكر شيئاً عن قصور الأولين، وعدم مجاراتهم الآخرين؛ متجاهلاً تخاذلهم وتفرقهم وجهل أثريائهم وتقاعسهم عن نصرة قضيتهم..

وعندما اجتزنا الأماكن الأثرية: بيت راحيل، وأم يعقوب، ومقام النبي يونس، وبرك سليمان، ومقام الخضر، شرع صاحبي الخليلي يتلو على مسامعي أخبار بلدته، ويعترف بتأخر العرب عن مجاراة عدوهم. ويدعو الله أن يكشف هذه الغمة عن الإسلام والمسلمين، ثم يعود بالذاكرة إلى أيام السلطان عبد الحميد، وحكم ـ العصملي ـ حين كانت كلمة الإسلام هي العليا، ويترحم على السلطان، أيام (المزيكة) و(السلاملك) ويؤوب راجعاً من جولته قائلاً بكل بساطه: الله ينصر السلطان، ويعز الإسلام..

وإن من يسمعه يقارن بسذاجة بين القرية الصهيونية والقرية العربية، لتمتلئ نفسه حسرة، فهو يلمس الفرق الواسع، دون أن يعرف سبيل الخلاص؛ وينتظر من يأخذ بيده من المصلحين الفعالين، فلا يجدهم، فيرتمي في أحضان لا حول ولا قوة إلا بالله..

وخرج إلينا في الطريق مفتش البطاقات، وقد عقف شاربيه، وشمر عن ساعدين موشومين بالأزرق، حيث يمثل الرسم أفعى وخنجراً يقطر دماً.. وجعل يطالبنا بالبطاقات ويشاجر القوم، ويتحداهم، حتى خشينا على أنفسنا ما لا تحمد عقباه، فانكمشنا في مقاعدنا نرجو الخلاص والسلامة..

وما كادت السيارة تصل الخليل، وتقف، حتى سدت الطريق أمامنا، فلا هبوط ولا نزول.. فقد أحاطت جمهرة غفيرة من المنتظرين المسافرين بالسيارة، وأوصدوا بابيها، ونوافذها؛ وكل يبتغي الصعود، بكل ما أوتي من قوة وبأس، ولكْم وركل.. فلا هم يصعدون، ولا نحن نقوى على النزول.. وتعالى الصراخ والهتاف، والسباب والشتائم، والعبيد الفقراء، ونحن منهم، ينتظرون الفرج من رب الأرباب.. وظل الجميع على هذه الحالة، دقائق معدودة، حسبناها ساعات طويلة، حتى حصلت المعجزة، واندفع الراكبون كجلمود صخر حطه السيل من عل..

لا عذر اليوم للفوضويين.. وإذا كانت الحكمة تنشد أنى وجدت، وأمام أخواننا الخليليين، كل نهار نماذج حية من التنظيم الصهيوني، ومن تلك (الذيول) التي لا تنتهي، فمن الظلم الجائر، والجهل الفادح، أن تستمر هذه المهازل، ولا نجد لها رادعاً وزاجراً. إن في التنظيم راحة واكتساب وقت، للسائق، والمفتش، والركاب، وبرهاناً جلياً على أن هذه الأمة المناضلة جديرة بالحياة والاستقلال، وأن تتبوأ مكانها الممتاز بين شعوب الأرض..



ويممنا وجهنا شطر المدينة، التي تشبه القدس القديمة بدروبها وأبنيتها وحوانيتها قاصدين أشهر مكان فيها وهو مسجدها..

وطول المسجد (197) قدماً وعرضه (111) قدماً، وحوله سور ضخم يشبه سور هيكل سليمان، وهو مبني بالأحجار الضخمة، حتى أن بعضها ينيف طوله على سبعة أمتار ونصف، وأصله من بناء اليهود وصار قبل الاسلام كنيسة، ثم جعله المسلمون جامعاً.. وراعنا كثرة المتسولين على درجات مدخله. وأول ما يفاجئك داخل الجامع لوحة نقش فيها تخليداً لذكرى ترميمه وتجديده:

عبد الحميد له المآثر تحمد ... وإليه مسعى الخير دوماً يسند

إن تسألن عن ظل عصر أرخنْ ... قل ظله عبد الحميد الأمجد

على أن قسماً آخر من دعائمه ونوافذه، رمم من جديد بنفقة عزيز مصر فاروق الأول حفظه الله وأدامه...

والجامع قائم فوق مغارة سميت (المكيفلة) أو (ممرأ) كما جاء في التوراة، وقد اشتراها سيدنا إبراهيم الخليل من الحيثيين ليدفن فيها زوجته (سارة)؛ ودخولها ممنوع حتى على المسلمين، وقديماً كان لا يؤذن في رؤيتها إلا بفرمان خاص من السلطان. وقد صدر مثل هذا الفرمان سنة 1862 لولي عهد إنكلترا، لما زار تلك السنة بلدة الخليل...

أما القبور فكان وضعها في الغار متسلسلاً؛ فهذا قبر إبراهيم، وإزاءه قبر سارة امرأته، وهنا قبر اسحق وأمامه قبر رفقه زوجته. وقبة قبر يعقوب وبجانبه قبر لائقه امرأته. وبجناح خاص قبر سيدنا يوسف، على الجميع أتم الصلاة وأفضل التسليم. ولكل قبر حجرة قائمة بنفسها، لها باب من قضبان الحديد مطلية بالفضة؛ وفي وسطها مزار كالقبة، على شكل الأضرحة في المزارات الاعتيادية، وكلها مكسو بالديباج المطرز بالآيات والكتابات والنقوش الجميلة.

ولكل ضريح وصف خاص وعليه نقش خاص وكتابة خاصة، تدل على اسم المدفون فيه. فعلى ضريح يعقوب كتب: (هذا قبر يعقوب النبي عليه السلام) وعلى قبر لائقه (هذا قبر سيدتنا لائقة رضي الله عنها، زوجة النبي يعقوب عليه السلام) وعلى حاشية غطاء قبر يوسف وشي بالعربية فيه آيات قرآنية تتعلق بيوسف.

وأمام القبور أواني البخور وشمعدانات مطلية بالفضة. وقد كتب على لوحة أمام ضريح الخليل أبيات خمسة هذا مطلعها:

عطفاً خليل الله أرجو نظرة ... أرقى بها العلياء في الدارين..

وعلى جدران المسجد آيات قرآنية منحوتة في الرخام، أو مسطورة على القيشاني. وشاهدنا لوحتين بخط وزير الأفغان الطبطبائي في إحداهما بعد بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [194] وفي الثانية: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [195]. ومنبر الجامع كما قيل لنا من أقدم منابر العالم الإسلامي. مصنوع من خشب الجوز التركي، وعمره (900) سنة تقريباً؛ أنشئ في عهد المستنصر بالله الفاطمي ليوضع في عسقلان، فنقله السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى الخليل. ونقوشه تتألف من زخارف فاطمية بارزة، متقنة الصنع، مترعة بالأشكال الهندسية بين مخمسات ومسدسات؛ وبجانب المنبر محراب مصنوع من الفسيفساء المذهبة الملونة، تؤلف في مجموعها نقوشاً عربية ترجع إلى عهد الملك قلاوون. وثمة لوحة بخط يوناني قديم من زمن (جوستنيان)، فيها ذكر إبراهيم ودعاء لمن بنى البناء، ولوحة أخرى بأسماء سبعة من العمال الذين رفعوا السقف وعقوده في القرن الرابع الميلادي، عهد الملكة هيلانة، أم قسطنطين.

وبين مدخل أضرحة الآباء البطاركة، والباب الخارجي للمسجد، باب يعود لأيام سليمان بن عبد الملك وهو حاجز منيع..

وقد يصل اليهودي إلى مدخل رواق الجامع، حيث الدرج الحجري، ولا يستطيع أن يتعداه، ليزور بطاركته إبراهيم وإسحق ويعقوب، وأزواجهم؛ وإن قلبه ليفيض حسرة، وكبده تتشقق، طلباً للزيارة، ولكن دون ذلك أهوال.. فما عليه إلا الوقوف خارج الجامع، كما يقف بجدار المبكى، خارج جامع المسجد الأقصى يندب هيكل سليمان، وأمجاد إسرائيل!.

---

[194] - سورة ص، الآية 45.

[195] - سورة يوسف، الآية 6.

في بيت لحم

(في بيت لحم، ولد المسيح، كانت صغيرة، صارت كبيرة)

تلك هي المعزوفة التي عاودت صاحبنا وهو يهبط السيارة في الطريق، بين الخليل والقدس، ليسلك ذلك الدرب المشرق الباسم إلى بيت لحم.

عاودته تلك المعزوفة، التي طالما سمعها كل سنة، أثناء تردده على بيوت الله، ليشهد حفلة ميلاد السيد المسيح، له المجد.

واليوم، ما كان خيالاً أصبح حقيقة، وهاهو ذا وجهاً لوجه أمام القرية التي شهدت ميلاد كلمة الله، عيسى بن مريم، والتي تقع فيها أقدم كنيسة في العالم، كنيسة المهد، التي بنتها عام (329) القديسة هيلانة، فاستحقت شكر الأجيال، وأصبحت بين الخالدات والخالدين..

وما كدنا ننحني خضوعاً لنجتاز الباب الضيق لهذه الكنيسة الفخيمة، حتى واجهنا أربعة وأربعون عموداً من المرمر، المشرب بالحمرة، قائمة على صفين متقابلين متوازيين، يتركز عليها السقف بسطحيه المائلين. وفي الأواسط، وبين الأعمدة، تتدلى بسلاسل طويلة، تحمل مصابيح نحاسية صفراء، كانت تستعمل للإضاءة في سابقات الأيام.

والبناء روماني قديم، تستر جدرانه العالية الفسيفساء؛ وفي أقسامها العليا صور قديمة يعلوها الغبار، تمثل القديسين، كما أن على الأعمدة صوراً ملونة أخرى، تمثل حياة المسيح وحوادثه المختلفة، يكاد يعفو الزمان عليها لقدمها. وتحت كل صورة كتابة يونانية تشرح المآل.

ولن يستطيع قلمنا العاجز أن يصور التحف الثمينة، والآثار الرائعة في هذه الكنيسة. فها هي ذي صورة العذراء مريم بذراعين من فضة، وهي هدية بيت لحم للكنيسة، وفوقها جثمان السيد المسيح مصنوع من العاج، فوق قماش من المخمل؛ وأما المذبح فهو من خشب محفور مذهب مزركش، تضيئه الشموع، وتحف به الشمعدانات العظيمة؛ وفي كل جانب صور كبيرة ثمينة رائعة، للسيد المسيح أو أمه، أو القديسين.

ووضع على طرف المذبح كتاب مقدس، مفتوح على اللحن الثالث في السحر، جاء فيه: (ما دمت متغربة يا نفسي، فتوبي، فإن التراب في القبر لا يسبح، ومن الذنوب لا ينقذ).

ورحم الله حجة الإسلام الغزالي القائل: (طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله) ونحن قصدنا الزيارة، وتأمل الآثار، فإذا بنا أمام لحن صوفي، تهتز له النفس خشوعاً، ويهيمن على الأحاسيس، وينتقل بنا إلى عوالم علوية.

(ما دمت متغربة يا نفسي..).

جعل صاحبنا يردد ذلك بصوت فيه رنة موسيقية، فأعجب به سادن الهيكل، فاحتفى بنا، وحسبنا من كبار المتدينين المتعصبين لدين السيد المسيح، وكادت تغرورق عيناه، وصاحبنا يفسر له الكلمات.. فاللهم إيماناً كإيمان العجائز..

ثم دخلنا سرداباً كبيراً تحت الكنيسة، برفقة عائلة عربية، تتألف من أم تنم تقاطيعها عن جمال كان فاتناً، ويصحبتها ابنها، وابنة نحيلة وضع لها صاحبنا حالاً علامة (6) من عشرة في مقياس الجمال، تقديراً واستحساناً.!

دخلنا السرداب، فوجدنا في كل مغارة ذكرى خالدة لم يقو الجديدان على محوها، فالتماثيل الرائعة منثورة هنا وهناك، والصور بارزة، والجامات البلورية تغطي الجدران. ولن ترى العين أجمل من تلك الصورة التي تمثل العذراء ورضيعها، وهي مصنوعة من الصدف.. أو تلك الصورة القائمة في مغارة الأطفال تخليداً لذكراهم، عندما قتلهم الرومان فيها.. فترى إليهم على الجدران بالفسيفساء الحجرية الملونة، وتكاد تنطق.! فلا تغيب عنك الظلال، ولا خصلات الشعر الدقيقة، حتى ولا ذلك الفزع المتجلي في وجوه الأطفال، وتلك القسوة الجامحة في وجوه الطغاة.. كلها كانت بارزة ممثلة أجلى تمثيل..

وشاهدنا تلك السجادة الكبيرة الأثرية، غير قابلة الاحتراق، التي أهداها عاهل فرنسا لويس الرابع عشر.. وفي أرض المغارة نجم من الفضة عليه نقش باللاتينية مفاده ميلاد المسيح. وفي جدار تلك المغارة كوة، عليها آثار نقوش بالفسيفساء تدل على أن هذا المكان كان مزيناً زينة باهرة في أيام قسطنطين. وله احترام عند المسلمين. ومقابل تلك الكوة باب صغير ينزل منه بثلاث درجات إلى المذود الذي وضع فيه المسيح عند ولادته. لكن المذود نفسه غير ظاهر، لأنهم كسوه بالرخام الأبيض من أسفله، وبالأسمر في صدره؛ ووضعوا فيه تمثالاً من شمع يمثل الطفل يسوع. وبجانب المغارة مكان يريدون به موقف

المجوس لما جاؤوا ليسجدوا.. ثم قصدنا مغارة الحليب وهي خارج الكنيسة الكبرى، برفقة العائلة العربية وسرب من الجنود الزنوج الذين لم يصلوا مكاناً إلاّ وخروا فيه سجداً. وكنا ندخل على أثرهم، فننعم بالرؤية، ويغرمون بالحساب.

وفوق الباب الخارجي للمغارة، نافذة بلورية يبدو فيها تمثال العذراء، وعلى رأسها تاج، وأمامها مزهرية، وقد كتب على يمينها بالعربية، مع الترجمة اللاتينية: (أعطنا الرحمة الكاملة). وعلى يسارها: (وإذا ملاك الرب تراءى ليوسف في الحلم قائلاً: قم، وخذ الصبي وأمه، واهرب إلى مصر، وكن هناك حتى أقول لك، فإن هيرودوس مزمع أن يطلب الصبي). وعلى الباب كتب: (أظهري ذاتك أماً لنا.)

وفي داخل المغارة، فوجئنا بمنظر يمثل مار يوسف مع العذراء وابنها، وبمنظر آخر يمثل الطفل يسوع وهو يرضع.

وغادرنا الكنيسة لنزور حوانيت البلدة، ومصانع الآثار الصدفية، والخشبية، التي اشتهرت بها بيت لحم، ففقدت موارد طيبة لها من جيوب السائحين..

وهل ينسى الإنسان أزياء النساء في بيت لحم؟ وهي أزياء فريدة في بابها؛ فيها جمال الشرق وسحره وألوانه.. فترى المرأة وقد وضعت على رأسها طربوشاً طويلاً سترته بقماش ملون، فأحاطته كما تحيط عنقها بالأطواق والنقود الفضية، وارتدت ألبسة زاهية طويلة فضفاضة؛ تسير فنسمع رنيناً مؤنساً في تلك الطرقات المشرقة النظيفة، في البلدة التي حظيت بمولد السيد المسيح صلوات الله عليه وسلامه...

وقصدنا (الباص) برفقة العائلة الكريمة، التي طاب لها الجو بصحبتنا في تلك الربوع، فرأت مناظر ما كانت تتاح لها لولانا، ونعمت بشروح هيهات أن تطلع عليها لولا صاحبنا.

ولعل العائلة الكريمة وجدت فينا شابين ممتلئين حماسة لدين الله، يفيضان عليها المعلومات الجامعة المانعة عن المصلوب ودعوته ورسالته.. ولقد تجلت، علم الله، مهارة صاحبنا بأجلى معانيها؛ فما كنت تسمع منه سوى التراتيل الكنسية، والتعابير الكهنوتية، التي لا تدري من أين يكتشفها. حتى أن المرأة سألتنا عن مذهبنا قائلة: (أنتم روم أم كاثوليك.؟) فأجاب بدون انزعاج: (لا، بل كاثوليك لاتين..) وصمت، ثم غير دفة الحديث..

ولقد أغراها صاحبنا بزعمه أنا نزور البقاع الطاهرة، باسم العلم والفضيلة والدين، لتأليف كتاب عن أيام النصرانية الأولى، يأمل له الذيوع والشيوع، في مشارق

الأرض ومغاربها . ولعل هذه الأم الطيبة، وجدت فينا صيداً ثميناً لابنتها العذراء، فدعتنا بحرارة لزيارتها في حيفا .. لعل الجو هنالك ملائم ليكون أحدنا نصف ابنتها الآخر، ومتمماً لدينها ودنياها .

وعدنا وقد بدا الكمد على محيا الفتاة، أسفاً على هذا اللقاء الخاطف، والوداع العاجل؛ على أن صاحبنا لم تلن قناته، ولم يسلس قياده، وهو من يحتفظ بحقيبته ستين خصلة من الشعر مختلفة الألوان، اجتزتها يد المحبة من رؤوس الحسان؛ فقنع من الغنيمة بالإياب ومن الوداع بنظرات لو ترجمت إلى لغة المحبين لكانت: سنأتي، وانتظري..

الميت يحيا..

من لم يقصد البحر الميت في فلسطين، فكأنه لم ير شيئاً من النشاط الصهيوني الصناعي. ولئن سمي بالأمس البحر الميت، فلك أن تسميه اليوم بحر الحياة والحركة!.. فعلى ضفافه، قام أروع مشروع صهيوني، بعد مشروع كهرباء فلسطين؛ فأفاد الصهيونيون منه دون العرب، فوائد جمة، في المال والعمل والنفوذ الاقتصادي.

تلك هي الأسباب الموجبة التي تذرع بها صاحبنا لننعم بهذه الرحلة. فقصدنا منذ الصباح الباكر محطة سيارات (ايجد).. وراعنا فتيات يحطن أباهن، دون بكاء أو عويل؛ رغم أن الإمارات كلها، كانت تدل على أنه مسافر إلى بلد بعيد، ولعله سيمتطي الطائرة، من مطار (خاليا) القائم على ضفاف البحر الميت!.

كنا نظن أن النحيب سيتعالى، والزفرات ستتصاعد، وستشد الأثواب، وتقطع الأزرار، عند الفراق، لئلا يسافر الأب الرؤوف، وإظهاراً لألوان الحنان الشرقي.. لا! لم يحدث شيء من ذلك، وليس سبب هذا الصبر، أن العواطف البشرية، نضبت من قلوب القوم، ولكن الحقيقة، هي أن مفاهيم الحياة، تغاير ما نفهمه ونشعر به..

فقد اضطر ابن إسرائيل طيلة العصور، إلى الحل والترحال، فلا يكاد يلقي عصا التسيار في مكانه، حتى يغادره إلى آخر، ومبدؤه في ذلك: وطنك حيث عملك وربحك.. ولا يهمه أبداً، أن يكون الأب في تل أبيب، والابن في طبريا، والبنت في (هونولولو)، وأختها في أمريكا!.. وفي سابقات الأيام، كان يشاهد صاحبنا في دمشق، أطفالاً كالزهر، إناثاً وذكوراً، يرسلهم آباؤهم وأمهاتهم، إلى المستعمرات الصهيونية في فلسطين، ولما يتجاوز أحدهم العقد الأول من حياته، والأهلون صابرون كأنه لم ينلهم من فراقهم مكروه!..

نعم، لقد شاهد الفتيات، يحطن أباهن، وفي يد كل واحدة منديل، يضغطن عليه بكل يدهن، حتى إذا حم الفراق، أقبلن بكل هدوء، فقبلن الأب بعد مصافحته، دون نحيب، ودون ملء الدنيا، صراخاً وعويلاً!..

وسارت السيارة، في الساعة المحددة تماماً كالعادة، واطمأن كل راكب إلى نفسه، في

مقعده المريح. وللمرة الأولى، جرت الرياح بما لم يشته صاحبنا المحترم! فلقد قدر لنفسه، أن تكون الطريق بين القدس والبحر الميت، خالية خاوية، فما عليه جناح، إذا اعتزل الناس في آخر السيارة، واستسلم إلى رقاد لذيذ، يفي به بعض ديونه، من النوم الفائت، في الليالي السابقة...

ثروات عربية في أيد يهودية :

لم تكن غايتنا، زيارة البحر الميت، والتمتع بمياهه، بل كان هدفنا الأسمى، زيارة المعامل القائمة على جوانبه.. والبحر الميت أخدود انهدامي، لا يقل عمره عن (30) ألف سنة؛ أي أنه حسب علم الجيولوجيا المحترم، من آثار الدور الانهدامي الثالث. ويتصل ببحيرتي الحولة وطبريا، بواسطة نهر الأردن، الذي ينحدر حتى ينتهي عند البحر الميت، بعمق (2592) قدماً عن سطح البحر. وهو أعظم انخفاض في العالم كله. أما سطح الماء فينخفض عن سطح البحر نحو (1300) قدم! وطول هذا البحر (49) ميلاً وعرضه (10) أميال؛ وبما أن الحر شديد هناك، وما يغذي البحر من الأنهار قليل لا يتجاوز نهر الأردن، فإنه يمعن في التبخر المستمر، منذ آلاف السنين؛ حتى أصبح ثلثه الآن أملاحاً متكاثفة؛ إذ يتبخر منه كل يوم ستة ملايين طن من الماء، الذي يترك في الأغوار أملاحاً تقدر بـ (1300) مليون طن. وملح الطعام هو جم المقدار في هذه المياه، حتى أنهم ليستخرجون سبعة أطنان منه، إزاء كل طن من البوتاس، وأما سائر الأملاح الفرعية، التي تستخرج بعد ذلك، فهي كثيرة: كالفوسفات، والصود الكاوي، وغاز الكلورين، وكلور حمض الماء، وعدة مركبات صودية.. وبالإجمال، فإن في هذا البحر كنزاً رائعاً لا تقل قيمته عن (240) ألف مليون جنيه!

ولم تفت أقطاب الصهيونية، هذه الثروة الهائلة، فأدخلوها في برنامجهم الصناعي الكبير. وما حانت سنة 1923 حتى تم الاتفاق، بين وكلاء التاج للمستعمرات البريطانية، بالنيابة عن حكومتي فلسطين وشرقي الأردن، وبين (نوفومسكي) و(تولوخ) على شروط استثمار البحر الميت. فتأسست شركة من أجل ذلك، باسم (شركة البوتاس الفلسطينية المحدودة الضمان). ومدة امتيازها (75) عاماً؛ وليس لها خلالها أن تتنازل عن الامتياز أو تؤجره، أو تتصرف فيه على وجه آخر، دون موافقة الحكومة؛ كما أنه ليس لها أن تمتلك ما تجده من الذهب، والمعادن الثمينة، والآثار القديمة، والزيوت المعدنية النفيسة!.

وقد ضمن اليهود بحصولهم على هذا الامتياز، زيادة هجرتهم إلى فلسطين؛ وإكثار شعبهم، عدا وضعهم يدهم على أعظم ثروة فعلية في البلاد!

وترى إلى هذه المعامل، قائمة على ضفاف البحر، وفوق مياهه، بمبانيها الفخمة، ومداخنها التي تقذف الدخان القاتم، في سماء لم تعكرها في خاليات القرون، قزعات الدخان الأدكن! وكانت المعامل محروسة من جميع جهاتها، كمنطقة حربية، لا يسمح لأحد بزيارتها ما لم ينل رخصة رسمية من إدارة الشركة في القدس.. ولعل ذلك، هو ما زهد صاحبنا في زيارتها، فرضي من الغنيمة بالإياب. فما كادت السيارات تقف، حتى أسرع إلى الحمامات القائمة بجوار مستعمرة (خاليا) على ضفاف البحيرة، يختال بجسمه الضخم، أمام الجنس اللطيف، ناسياً أن بني آدم، ليسوا جميعاً ممن يقال لهم يا نحيف القوام!.

وفي المستعمرة محطة للطيران المائي، وفندق عصري ممتاز، وبار ومطعم ومياه عذبة، وأحواض أزهار، وأشجار باسقات.. مما يدعو إلى تداعي الأفكار في المعلومات الجغرافية الخاطئة القائلة: بأن البحر الميت، لا تعيش فيه الأسماك، ولا تنبت على ضفافه النباتات.. فقد وجد صاحبنا أن نصف الشطر الأول من التعريف صحيح، والشطر الثاني خطأ صراح.. فعلى ضفاف البحيرة برك تربى فيها الأسماك، وهي على قيد أشبار من الماء المر العلقمي! ومع أن هذه الأشجار والأزهار قليلة، فهي صفعة عادلة للعلم الجامد. فكم تمنى أن يأتي مؤلفو الكتب الجغرافية التجارية ليتحققوا من صحة اكتشافاته الهائلة!.

بكاء شيلوخ، دموع التماسيح

لعل زيارة بحيرة لوط أو البحر الميت، لم تبد لنا جميلة مفيدة، لو لم نتعرف إلى ذلك اليهودي العراقي الدميم.. لقد كان متوطناً في فلسطين مع زوجته وأولاده، وهو رجل ثرثار جداً، استطاع بلسانه السليط، أن يملأ فراغ (الباص) طوال الطريق، صراخاً ولعلعة مزعجة!.

كان يملك 95% من القبح المرجعي القديم، وست أسنان سوداء، وصلعة مضيئة لامعة، وحنجرة قوية من نحاس!. أما زوجته، فكانت ذات وجه، يحمل كافة الألوان الطبيعية الستة، مع زوائد و(بوارز) من بطن منتفخ، إلى عجيزة غليظة، وجبهة عالية!. كل ذلك جعل لحديثه الطريف، صبغة حارة مزعجة.. بيد أن الطريق القائظ، دفعنا إلى

التسلي بسماعه، يثرثر مع جاراته (البغداديات) والبيروتيات، والأميركيات اللواتي جئن يستحممن للاستشفاء.

وعندما صعد من البحيرة، وقد دهن جسمه بطينها، جلس مع صاحبنا على الحصباء تحت الشمس اللاذعة، يستمتعان بحديث جذبني (قتاره) سريعاً.. فدنوت لأتفهّم الكلام الساخن الباكي!.

ومط شفته كقطعة من (الكاوتشوك)، وتدلع وهو يدلك صدره.. ولست أدري، من أين له هذه المعلومات الخصبة، عن الصهيونية وأنبائها وتاريخها؟ فهل جمعها من المصادر المختلفة المملوءة بها مكاتبهم، أم أنها نسخة أصلية، يوزعها قادة صهيون على شعب إسرائيل، لتكون ذات شكل واحد، وروح واحدة، في الدفاع والبكاء والاستخذاء؟!.

قال شيلوخ - وقد سميته كذلك، لأني رسمت له صورة في نفسي، لا تبعد عن هيئة ذلك المرابي الأول، بسحنته وثعلبته الثقيلة الممقوتة -: إن القرون العديدة المنصرمة، لم تزد اليهود إلا إيماناً بحقيقة راهنة، وهي أن ديار الغربة، ديار عذاب؛ وأن القرن العشرين، قرن العلم والنور، قد برهن بجلاء، على أن اليهود، سيبقون أبد الدهر، كبش الفداء، أمام كافة الشعوب، ماداموا بعيدين عن وطن قومي، يعيشون فيه أحراراً مجتمعين، تحوطهم السكينة والطمأنينة!.

إن عشرين سنة خلت في أوربا، كانت كافية، لتلقن الشعب اليهودي، درساً لن ينساه، لما حوته من ضروب النفي والنهب والمذابح والمقاطعة..

ولعل هذا العصر المرعب، المترع بالأرزاء، هو العصر الوحيد، الذي انطوى على أعظم حادث في تاريخ اليهودية؛ ألا وهو اعتراف العالم المتمدن، بحركة الصهيونية الرسمية، وذلك بإعلان وعد بلفور، لإنشاء الوطن القومي، وتفويض إنكلترا من قبل جمعية الأمم، بتحقيق الأهداف التي جاهد اليهود في سبيلها!

وضحك هنا، قبل أن يفتح فمه قائلاً: إن نتائج كل حرب، هي سيئة بحد ذاتها، على الغالب والمغلوب، غير أنها ستكون أسوأ بكثير من ذلك على اليهود!. لأنهم أقلية في كل شعب.. إنهم يعتبرون دوماً في رأس القائمة، يحملون أوزار غيرهم وشرورهم. وليس أسهل حينئذ من مصادرة أموالهم وأراضيهم، فينهبون ويطردون ويشردون بلا شفقة ولا رحمة.. في كل زمان، وتحت كل كوكب..

لقد كان اليهود في المجتمع الإقطاعي، وسيطاً تجارياً بين الإسلام وأوروبا؛ ولم يتأخروا قط عن مناصرة الصليبيين وتمويلهم؛ فتمتعوا لقاء ذلك، بحماية الملوك والأمراء،

ونالوا امتيازات هامة، كما كانوا في ظل الإسكندر والرومان! وعندما حصل الصراع بين الأرقاء والأسياد، وبين البورجوازية الناشئة الحديثة والنبلاء، تدهور النظام الإقطاعي عندئذ، ولجأ رجاله إلى كبش الفداء، ليحولوا سخط الجماهير الثائرة الناقمة على اليهود. ولم يجد هؤلاء بدأ من الفرار إلى أواسط أوربا والأناضول! واليهودي بطبيعته، وبتحكم الظروف فيه، صار أريباً ذكياً، يلين مع العاصفة الهوجاء، دون أن ينكسر.. فلم يفن اليهود، رغم الحوادث المذكورة والمذابح، بل التجؤوا عقب انهيار النظام الإقطاعي، إلى الرأسمالية، التي اعتقدوا بأنها ستنجيهم وتحررهم من الضغط، لأن البورجوازية شعرت بفائدتهم حينئذ وقيمة مساعدتهم..

أجل، لقد تحول فقراء اليهود، وصغار تجارهم، إلى عمال تدريجياً، حتى نمت الصناعة الكبرى، ونمت الرأسمالية اليهودية معها. وهذا هو ما يفسر حركات الهجرة من الشرق إلى الغرب، وأقصد بذلك الهجرة من روسيا إلى الولايات المتحدة.. حيث الحقوق السياسية كانت متوفرة للسكان، وخاصة لليهود، مما يجعلنا نفهم سر التقدم، وعملية الرأسمالية الصناعية الحرة..

ولابد هنا من الانتقال حسب التسلسل الواقعي، إلى مرحلة الرأسمالية الاحتكارية! فإن نمو الرأسمالية، جعل الدول تنحو نحو الاستعمار، وتقسيم العالم أسواقاً لها.. وعلى هذا اندلعت نيران الحروب، وانفصل عقب حرب (1914) النظام الاشتراكي عن الرأسمالية، وانتشرت البطالة، وتصدع على أثرها النظام الرأسمالي..

لقد حصل صراع بين (البروليتاريا) والبورجوازية.. صراع مكاني، وصراع عالمي! حتى بين البورجوازيين أنفسهم.. ومقابل ذلك نشب الصراع بين المستعمرات والمستعمرين من الدول.. وفي كل ذلك، كانت تنصب النقمة على الكبش الطريد، الذي يختفي غالباً وراء المال منقذ إسرائيل..

وهنا، صرخ شيلوخ، منادياً صديقة له: راشيل.. راشيل..

ثم كلمها بعبريته الرنانة المدوية، وجعل يقهقه! فأقبلت تسعى إليه، باسمة حتى جلست معنا، فعرفها بنا، وكأنه أفهمها أننا يهود لا صهيونيون.. وعندما رآنا ذابلين، ننظر وصل ما انقطع من البحث قال: إن ضمانة الشرف والحياة والمال، تقوم في الشعب المنظم، ولن يكون هنالك شعب منظم دون أرض، كما أنه لن تكون هنالك إرادة حرة فوق الأرض، إذا لم يكن الشعب هو سيدها ومالكها! فلا حرية ولا كرامة ولا سلام لشعب، لا وطن له! فالوطن هو الصلة الوحيدة للنمو المستمر الهادئ، والتقدم المطرد.. ولكم نال اليهود

بسببه، طوال عشرين قرناً، من حرمان وعذاب!. إن جميع خدام قضيتنا، يرون أن عصرنا، هو خير العصور لإنشاء هذا الوطن!

ثم بدأ يحول لهجته، إلى صبغة مسرحية، وقد أصاب سحنته ما يشبه الزلزال! قل.. لي.. بالله.. أليس من أكبر الخدمات الإنسانية، التي تقدمها البشرية لهذه الملايين المبعثرة في أربعة أركان الدنيا، هو أن تعطف على قضيتنا؟!

نحن لا نريد سوى وطن روحي سياسي قانوني، تحميه إرادة الشعوب المهذبة، التي أيدته.. وشرع شيلوخ يحلم.. إن عدد اليهود في العالم اليوم (17) مليون تقريباً، وإن لهم من المقومات الفكرية والروحية والمادية، ما يؤهلهم لحماية هذا الوطن المنشود.. وخير مثال لهم: أولئك المستعمرون الحاليون.. وإن وجود مليون يهودي مبدئياً في فلسطين، ينشئ رقبة الجسر، والقاعدة المالية والسياسية الهامة ليهود العالم، وليس بعيداً ذلك اليوم الذي يبلغ فيه عدد اليهود (30) مليوناً من الأنفس العاملة. إن فلسطين والشرق العربي وسورية ولبنان والعراق، وأكثرها مناطق صحراوية خالية خاوية، يمكننا أن نعتبرها، مجالاً حيوياً لنا.. فهي إذن، خير ملاذ لعشرين مليوناً من اليهود!

ولم تتركنا زوجه هادئين نستمع إليه، فقد أصرت مع (راشيل)، على أن يذهبا معه إلى السباحة، فاعتذر لنا بصوت رفيع رنان، وأسرع يقفز على الحصباء كالقنفذ تتبعه (راشيل)! وسار في أثرهما صاحبنا، وتركني وحيداً مرة أخرى!

رحت أتأمل هذه الأجسام البشرية أمامي، بعضها جميل، وأغلبها دميم.. ذلك أن من يزور البحر الميت، غالباً ما هو مريض، أو عجوز، يسعى لتقوية عضلاته وجسمه، بما في الأمواه من أملاح معدنية! ولقد اكتشف صاحبنا، أن ماء البحر كثيف، لدرجة تكفيه أن يلقي جسمه فيه ليطفو، من دون أن يبدي حراكاً. ولكن، حذار من دخول الماء إلى عينيك، فإنك لن تقوى على احتمال الآلام الشديدة.

استلقى المغامر الرفيق إلى الماء وراح يقوم بحركات ماهرة لبقة، جعلته ينساب بين المستحمات، كغواصة تعود إلى قواعدها.. وكان يقف أحياناً، أمام جسم غض مقبول فيسأل صاحبته: هل تلاقين من ملوحة الماء ما ألاقيه.؟ ويكون الجواب، بالإيجاب دائماً! ولقد أبصر عجوزه الدردبيس، مستلقية على حصباء الشاطئ، في عمق لا يزيد عن ربع المتر، وهي تحسب نفسها في المحيط الهادي، تسبح فتحرك زعانفها كالضفادع، ولا يكاد ربع المتر هذا، يستر أكمة ظهرها المحدودب! وشاهد أيضاً سرياً من الفتيات، يذهبن إلى

مكان قصي، ليطلين أجسامهن بذلك الطلاء الأزرق المذكور؛ فيتألقن تحت أشعة الشمس، كتماثيل نحاسية، في معابد هندية!. وشاقته هذه العملية، وخاصة بين الفيداوات، فراح يخطر على الحصباء، ثم يغوص في البحيرة، مفتشاً عن ذلك الصباغ المدعي بـ (تخمة الماء).. وما هو إلا تعامل المواد الكيميائية مع التراب.. ولا يختلف في قوامه عن المرهم؛ وهم يزعمون أنه يشفي من الأمراض الجلدية والعصبية..

وهنا، لم يتردد في طلي جسمه كله، حتى الوجه والخدين والأذنين، لا لعلمه الأكيد، بنفع الطلاء، - وهو أمر مشكوك فيه - بل لأنه علاج مجاني، ولأنه لا يقل ذكاءً واقتصاداً عن أولئك المدهونين والمدهونات، من قمة رؤوسهم حتى أخامص أقدامهم..

وخرج الجميع من البحر، وقصدوا السيارة.. ولم يكد شيلوخ يجلس في مقعده ويطمئن إلى زوجه المصون، حتى حيانا وابتسم، أو بمعنى أصح، كشر عن أنيابه وقال بصوت يوشك أن يسمعه الجميع بعد أن أخرج علبة سجائره: أتدخنون؟ فاعتذر صاحبي كما اعتذرت.. ثم دار الحديث بأن سأل الرجل صديقي عن مهنته: فاعترف بكل خجل أن صناعته موظف! فقال شيلوخ:

وكيف رأيتم فلسطين، والمعامل.. والبحر! إنها - على ما أعتقده - مسلية مفبطة، وقد أبرزتها الأيدي اليهودية العاملة، عروساً شرقية متحضرة؟ وتابع:

إن الشعب اليهودي، الذي أسهم بخدمات جلى للبشرية، لم يكافأ عنها بشيء، بل على العكس، ظل مهملاً مزدرى! فهذا هو (آنشتين) صاحب نظرية النسبية، وذلك هو (فرتز هابير) مكتشف الآزوت، و(برغسون) و(سبينوزا) وغيرهم، وغيرهم.. لم تكافئهم الشعوب على قدر جهودهم! فكأن اليهود خلقوا للمغارم دون المغانم! إن روحنا منذ عهود الأنبياء والرسل، مشبعة بعواطف العدالة الاجتماعية والدولية.. وعدد طلابنا وأساتذتنا في الجامعات، أعلى من نسبتنا العددية! وإن هذه الروح العلمية، ستخلق في فلسطين، جيلاً مشبعاً أيضاً، بمبادئ الحق والخير والجمال!.

إن إنشاء الوطن القومي في فلسطين، هو فائدة عالمية يجب أن تعضده سائر الشعوب. وهنا وقف (الباص) قرب مخفر للبوليس البريطاني، على الطريق، وركب أحد الجنود العرب، قبالة صاحبنا شيلوخ. وما إن حركنا رأسينا مشجعين له ليتم حديثه، حتى تطفل الشرطي، واشرأب بعنقه متشوقاً إلى كل كلمة تخرج من فم الصهيوني.. أما الرجل الشاكي الباكي فقد شرع ينفخ سيجارته كالشياطين، ويقذف الكلام كالحمم، دون أية مبالاة بمن حضر أو غاب من الناس وعاد يقول: إن زعماءنا وأقطابنا مجمعون على أن لا

سلامة ليهود العالم، إلاّ بتجمعهم في وطنهم المنشود.. وكما أن (الايرلنديين) لم يتراجعوا عن مطالبهم، ولا (البوير)[196] في سالف الزمن، فإننا نحن كذلك!

نعم، لا شيء أسوأ من فقدان الحرية.. غير أن هنالك ما هو أسوأ منها وأشر، ألا وهو فقدان الوطن! فالأرض هدفنا قبل كل شيء، والزراعة كعبتنا؛ ولئن طرد اليهود من كل مكان، وأجبروا على التجارة الصناعة دون الزراعة ـ وهي ينبوع غزير الفوائد لدى كل الأمم ـ فسيكون هدفنا الأول في فلسطين، الأرض والزراعة!

وإذا كانت كل حركة تجديدية، أو كل تبديل وتغيير في حياة الشعوب، يستدعي المتاعب والثورات والاحتياجات، فإن سبب ذلك كله، هو عجز الأهلين عن مجاراة الفاتحين المجددين!.

وهنا، قال كلمة تدل على اعتقاده بنا كيهود، بعد أن تحمس وانتفخ:

فإلى هؤلاء الذين يناوئوننا في فلسطين نقول: لا تفكروا في إلغاء وعد (بلفور) بل حاربونا بسلاح، حاربونا بالزراعة، والصناعة، والتجارة، والعلم، والتنظيم، ونسيان المصالح الخاصة في سبيل المصلحة العامة! حاربونا برسم البرامج والأهداف لمئات السنين!

ثم ضحك ضحكة جريئة خشنة، نزعت وسادة الطمأنينة التي نرقد عليها.. وقال: إن وسائلنا العاجلة، لإنشاء الوطن القومي، الذي يعضده صك الانتداب، ووعد (بلفور)، وعطف العالم المتمدن، ستقوم على هجرة كلية خاطفة، تساندها رؤوس أموالنا، للقيام بالمشاريع الحيوية! ولا سلامة لهذه الأموال في المهجر أبداً.. وإنما سلامتها هي بين جنبات الوطن القومي! ولو فرضنا المستحيل ونمت ثورة شيوعية هنا، فلا خطر منها على أموالنا، لأنها ستبقى في فلسطين، متكتلة في الأرض، لينتفع بها المجموع.. وإن أمريكا أنصفتنا حقاً حينما قالت: إن منح فلسطين لليهود، ليس عملاً عادلاً فقط، بل هو مكافأة لهم على ما بذلوه أثناء الحربين لقضية الحلفاء!

فعلينا أن نمد يد المساعدة، لتغذية صناديقنا المالية، وتقوية وكالتنا اليهودية، ولنعمل كل ذلك يداً واحدة، بشجاعة ومن دون توقف أصلاً! فمهما فقدنا من مال، ومهما بذلنا من تضحيات، فهو قليل، مقابل خلاصنا من حياة الغربة الذليلة، حيث تنهب ثرواتنا، ويذبح رجالنا، وتنتهك أعراضنا.

إن كل تضحية في سبيل فلسطين، ستكون ضئيلة جداً، إذا قورنت بما خسرناه مالياً وروحياً في الحرب الحاضرة! وليدرك الشعب اليهودي أنه بنضاله لوطنه القومي، إنما يناضل من أجل حياته، وسلامته ومستقبله.. إن نضالنا لن يذهب سدى، آجلاً.. أو عاجلاً!

---

[196] - البوير: ثوار جنوب إفريقيا البيض الذين ثاروا على الاستعمار البريطاني

إن سبعة عشر مليوناً (؟) مجتمعين، هم أكثر مما يلزم لبلوغ هذه النهاية، وإن تنظيم جهودنا وقوانا، وتوجيهها لإنشاء الوطن المنشود، يتعلق به سلام قضيتنا النهائي، وسيتقرر لأجيال طويلة! وهنا، ربتت على كتفه زوجه، لتعطيه قطعة من (السندويش) أخذ يلتهمها بشراهة! ولم نكد نعتدل في جلستنا، حتى وقف (الباص).. وهم شيلوخ بالنزول مودعاً: شالوم! وإذا بالجندي يقترب منا، بعد أن سمعنا نتكلم العربية الشامية، ونتبادل النظرات، فقال: حضرتكم عرب؟ قلنا: نعم! قال: و.. و.. يهود؟ قلنا مذعورين: لا.. أبداً..! فزفر عندئذ زفرة ارتياح وهمس: أتدرون من هذا؟ - وغمز بعينه - إنه من رجال الصحافة الصهيونيين البارزين..!!

أيها العربي

هذا حديث هام يمثل وجوهاً عديدة للصهيونية:

يمثل لك أن الصهيونيين، كباراً وصغاراً، مشبعون بفكرة الوطن القومي، مؤمنون بتحقيقه، يفقهونه ويدافعون عنه بكل قواهم؛ ومن ورائهم الوكالة الصهيونية، تمدهم بالمعلومات، وتزودهم بأفانين الدعاية.

ويمثل لك أن مطامع الصهيونيين لن تقف عند حد.. فمجالهم الحيوي هو بلادك العربية طراً، لا فلسطين وحدها. صرحوا بذلك في كل مناسبة، فآمنوا به، ويريدون أن ينالوه بكل ما أوتوا من قوة مادية ومعنوية.

ويمثل أخيراً قوة الصهيونية الصناعية الجبارة.. إن استثمار البحر الميت ليس بالأمر السهل، إنه شركة من أعظم شركات الشرق الأدنى، غمرت منتوجاتها الخافقين، وراح العربي يشتري بماله ما يساعد الصهيوني على القضاء على العروبة وبلادها. فقاطع بضاعته، واصبر على حاجتك، وارفع يدك عن سلعته، فهي تلدغك كالعقرب؛ وحذار أن تنسى أن أغلب رؤوس الأموال اليهودية هي أميركية أو إنكليزية، وإن أية لجنة تحقيق لن تنصف العرب، ولو شاهدت حقهم كالشمس في رابعة النهار...

فيا أيها العربي

إلى العلم ندعوك، وإلى الوعي الصحيح نهيب بك، وإلى المشاريع الصناعية نستثير همتك. واذكر دائماً وأبداً ما قاله ذلك اليهودي: (لا تفكروا في إلغاء وعد بلفور، بل حاربونا بسلاحنا، حاربونا بالزراعة والصناعة والتجارة والعلم والتنظيم ونسيان المصالح الخاصة في سبيل المصلحة العامة، حاربونا برسم البرامج والأهداف لمئات السنين..)

الجامعة العبرية

مخزن أسلحة..

ليست الجامعة العبرية من مبتكرات (وايزمن) و(بلفور) أو غيرهما، ممن اعتادوا الرقص على القبور.. ولكنها ترجع إلى عهود تاريخية سحيقة في القدم.. هذا ما قاله صاحبنا، والسيارة تتسلق (جبل الزيتون)، لتدرك الجامعة العبرية في ضحى النهار المشرق؛ ثم شرع يدلي ببعض منسياته، عن أعظم مؤسسة صهيونية ثقافية، يرجع تاريخ الحلم بها إلى أواسط القرن الأول للميلاد، حين رفع (يوحانان بن زكاي) طلباً إلى القيصر الروماني (وسباسيانوس) يلتمس فيه إنشاء مؤسسة عبرية، تحفظ تراث اليهود الفكري. فأذن له، وأقيمت الجامعة، قرب ميناء حيفا، في مدينة (يني)، ثم دمرتها الزلازل، فأنشئت ثانية في مدينة (أوشا) قرب طبريا. ولم يكتب لها العمر الطويل أيضاً، فاندثرت دون أن تترك منها سوى رؤيا لاذة، ظلت تدغدغ أفئدة اليهود، حقبة من الدهر! وقد ألمح إلى ذكرها غير واحد من قادة الفكر، ومنهم (روسو) في كتابه (إميل)؛ بيد أنها لم تبرز ثانية إلى الوجود، إلا مع اليقظة العالمية اليهودية.. فقد فكر فيها لأول مرة (هرمان شابيرا)، - أستاذ الرياضيات في جامعة (هيدبرغ) في ألمانيا -، فحض على إنشاء هذه الجامعة عام 1882، ولم يوضع المشروع، موضع التنفيذ، إلا عام 1913. فبدأ البناء عام 1918، وظلت تنمو باستمرار، حتى وصلت إلى ما هي عليه بالتدريج. ففي عام 1928، وظلت تنمو باستمرار، حتى وصلت إلى ما هي عليه بالتدريج. ففي عام 928 توحدت معاهد العلوم اليهودية والشرقية، والآداب الغربية، في كلية الآداب، وفي عام 935 نشطت كلية العلوم، ثم كلية الطب عام 939، وكلية الزراعة عام 940.

وربت على كتفي منبهاً إياي إلى وقوف السيارة.. فهبطنا صامتين، نمتع أبصارنا بالأودية، ونشرف على المسجد الأقصى، والربوع الخضراء، والبيع المنثور في كل مكان، بين الأشجار، وخلف التلال، وكأنها مزيج من الأحلام والخيال والسحر.. وحمدت الله ثلاثاً،

أن قطع الحديث علي، هجوم المشاهد التي تخلب الألباب والعقول! ذلك أن دم العروبة الحار، مازال يمنعني من سماع أنباء النشاط الصهيوني.. فهو نشاط من شأنه أن يبعث في نفسي التشاؤم، ويرهبني كما يرهبني العدو المستحكم، فتتهدم قصور سعادتي، التي أنشأتها، بالتفاؤل والأمل، منذ نعومة الأظفار، وتنهار كأنها قصور من ملح!

نعم! لم يكد صاحبنا ينشر خريطته المعهودة، ويشير إلى بناء الجامعة، أو على الأصح إلى أبنيتها المتعددة، حتى شرع يزيد تلميذه البائس المسكين، من المعلومات الواسعة الفسيحة؛ فيتلو عليه آي بلاغته مرة أخرى! فسلمت أمري إلى الله، وفي سبيل العلم، أصخت إليه، يسرد علي نشاط العدو الهائل، في هذه القلعة المشرفة على القدس، فقال:

وكان من أشهر المتحمسين للأستاذ (شابيرا) ولمقالاته الرنانة (تيودور هرتسل) ثم (وايزمن).. فشريت الأرض فوق الطور، وأعلن اللورد بلفور - سحقاً لذكراه - عام 925 افتتاحها رسمياً، في حشد من العلماء، ومجندي الصهيونية!

ثم قهقه صاحبي بصوته الجهوري وتابع: وهكذا فأنت ترى كيف ظهرت الجامعة بسرعة البرق، وكيف نمت باطراد؛ وذلك بفضل التآزر والتساند الفعلي، بالمادة والمادة وحدها، لا الكلام والخطاب!..

مكتبة عامرة بالذخائر

جذبت كلمة المكتبة صاحبي، فطفق يفرك يديه بهجة وسروراً.. وطلب إلى [مرافقتنا] بإلحاح أن ترينا هذه الدار؛ فلم تدعه يتمم حديثه، حتى جذبته من يده، وكأنه طفل شب عن الطوق! وهرع كالظامئ ينهل من مشاهد الكتب، خاشعاً متصدعاً من الاحترام، وكأنه في محراب! شرعت غادتنا، وكأنها مجبولة من صبر وتؤدة، تدير عجلات أرجلنا، في كل قسم من المكتبة، فإذا بها أعظم مكتبة في فلسطين، بل من أهم المكتبات في الشرق الأدنى! فهنالك قاعة المطالعة، تزخر بالكتب المختلفة المتنوعة من عبرية وإنكليزية وألمانية. ويسودها الإتقان والترتيب والنظام، حيث الحواجز، والمناضد، على الأكناف، تتألق جدة ونظافة. وإلى جانبها بهو خاص، لأسماء الكتب وأرقامها، وتسمى حجرة (الكاتالوك) أو الفهارس! وهي مترعة الأطراف والأواسط بجوارير، مقسمة مرقمة، تحتوي على بطاقات مكتوبة ومعنونة، بأحرف وأعداد متسلسلة، توصلك إلى ما تبتغيه من أمكنة الكتب وأرقامها، في الطابق الأسفل تحت بهو المطالعة تماما! فثمة المكتبة المصدر أو مخزن الكتب.. وقبل أن نهبط سلم هذا المخزن، مررنا بقاعة الصحف والمجلات العلمية

الاختصاصية.. وهي مرتبة ومنضدة على رفوف عديدة، على اختلافها وكثرتها، وقد جمعت منذ القدم حتى أصبحت تتعدى الحصر!

وهبطنا سلماً لولبياً، قادنا إلى أرض من البلور الكثيف، تقوم عليه رفوف حديدية، تحمل الكتب المكدسة على أطرافها؛ وتفصل بين أنواعها، حواجز معدنية مدهونة، بما يمنع عنها الصدأ واحتمال الحريق! أما الكتب المطلوبة إلى دور المطالعة، أو الآتية منها، فتروح وترجع، على مصاعد كهربائية. ثم أرتنا آلة لتعديل الجو في الغرف، وجعله ثابتاً، صيفاً شتاءً، لئلا يتأثر الورق فتفسد الكتب.

ولقد همست دجاجتنا، في أذن (الشاطر حسن) - تفخر أمامه بالمكتبة . وكأنها تقبله: ألا ترى أيها الدمشقي، كيف نمت هذه المكتبة في زمن قصير، وبسرعة خاطفة؟ فهي تحوي منذ عام 940 ما يربو على (400) ألف مجلد! وربما كان بين أعدادها، أكثر من ألف مجلد عربي قديم! ولا تعجبوا من ذلك فإن لهذه المكتبة أربعة أهداف: فهي مبدئياً ذات مهمة قومية خاصة، وثانياً فهي تمتاز بمهمة وطنية شاقة، تضطلع بها بنشاط؛ ثم بمهمة جامعية جليلة؛ وأخيراً بمهمة تثقيفية عامة! أما كتبها الكثيرة فقد جمعت عن طريق الشراء أو المبادلة أو الهبات!

العلم والكيمياء للفتك

غادرنا المكتبة، نتمم جولتنا في أرجاء الجامعة، بجانب دليلتنا المفتان، فولجنا ملعب الكرة، ومدرج الألعاب الرياضية والفنية.. وهو ملعب يرقد بين الأشجار الصنوبرية، ويشرف على الأودية والجبال، وتفوح من أرجائه رائحة العفص والصنوبر فتؤرج المدرج الذي يبدو كأنه ملعب روماني، يقع على هذه التلة بين الوهاد والهضاب؛ كما يظهر البحر الميت من بعيد، بسواحله البيض ابيضاض الأملاح المستخرجة منه! ولقد كنت أتحرق شوقاً لرؤية قسم العلوم الكيميائية، وقسم الطبيعيات، التي يعنى بها الصهيونيون عناية كبرى، فيدرسون فيها أمراض البلاد الحارة، المنتشرة في فلسطين، وفي سائر البلاد المجاورة، مع طرق مكافحتها!

وكان البناء واسعاً، مقاماً على أحدث طراز للأبنية العلمية الملائمة لمثل هذه الغاية. فالأبواب من البلور الواسع، والخشب مدهون بالطلاء الأبيض الكثيف حتى لتحسبه مرآة مجلوة، والغرف ناصعة نظيفة جداً، والأرض والسلالم والجدران كلها بيضاء كالحمامة أو القطن المنفوش! أما القيمات على الغرف، والممرضات الجميلات، فلابد وأنهن اختلسن

غفوة رضوان ففررن من جنانه، وفضلن الحياة بين الجرذان والأرانب والطيور الكثيرة المعدة للتجارب، بعيداً عن نعيم رياض الخلد ومعاشرة الغلمان المرد وصبايا الحور العين!.

فإلى هنالك قصدنا، بعد أن ودعنا دليلتنا الحسناء، وشكرنا لها طيب سعيها؛ وخدمنا الحظ، فتعرفنا بفتى عراقي متخصص في علم الجرائم، وهو يعرف العربية معرفة تامة.. فبدأ يشرح لنا كل خفي عسير، وهو يحسبنا من بني ملته.

فمررنا بقسم الصحة والجراثيم، حيث يعنى القائمون عليه هناك بدراسة الأمراض المعدية المنتشرة في بلاد فلسطين والشرق الأدنى؛ وأما قسم الطب فتنتشر فيه المختبرات بين يدي الأساتيذ للقيام بدراسات متنوعة اختيارية للمولعين من العلماء.. كعلم الطفيليات والأنسجة، والكيمياء العضوية، والكواشف.. وقد حدثنا الشاب أنهم يعنون عناية خاصة، ومنذ سنوات بدراسة أمراض السرطان، فأنشؤوا لهذه الغاية مختبرات وحجرات عديدة، وذلك بفضل تبرعات المحسنين المجهولين عام 934 الذين تبرعوا بـ (39) ألف جنيه فلسطيني للهدف المذكور؛ كما أنه وصل إلى الجامعة مبالغ أخرى من المحسنين أنفسهم دون أن تعرف أسماؤهم، على فترات متقطعة.. وذلك لإنشاء القسم الكيميائي الملحق بالمختبرات لداء السرطان! وهذا عين ما يتبرع به رأسماليونا وتجارنا، وما يقوم به علماؤنا الأطباء لخدمة المجتمع! وهنالك رأينا كل ما يتعلق بأحدث أدوات التصوير بأشعة (إكس)، وما يتعلق بالاكتشاف والاختراع العلمي الحديث البحت.. وذلك في سبيل تكتل الثقافة اليهودية، وإبراز العالم اليهودي حياً يستحق كل إجلال وتكريم من قبل العالم المتمدن!

وقصدنا بعدئذ دار كلية الآداب التي تشمل معهد العلوم اليهودية؛ بما فيه من العلوم الشرقية والغربية ومتحف الآثار اليهودية. وشاهدنا كليات العلوم التي تضم داري (آنشتاين) للطبيعيات والرياضيات وطبقات الأرض. وهنالك كلية للزراعة، وهي مؤسسة مشتركة بين الجامعة العبرية ومحطة التجارب في (رحابوت)، وتلقي دروسها بالعبرية.

ويتفرع عن كلية الطب المستشفى الجامعي التابع لجمعية (الهداسة) ومدرسة الممرضة للهداسة أيضاً؛ كما يوجد في (الجاعونة) محطة خاصة لبحث حمّى الملاريا، ترتبط بكلية الطب أيضاً!

الهداسة جندي للخدمة

عندما يقال: فتش عن المرأة؛ يحسب بعضهم أن هذه الجملة تضم كثيراً من المغالاة

وصنوف المبالغة.. ولكنا، أبداً لم نفلح في رحلتنا، لولا أولئك الظباء الهيفاوات، اللائي كن لا يفرقن بين الجنسين تفريقاً محسوساً!

لست أدري ما الذي جمعنا بهذه الغادة المباركة!

فقد دخلنا مشفى (الهاداسا) نستأذن، فقوبلنا بالرفض؛ رغم أننا من بني إسرائيل.. المزيفين.. بيد أن النسوة شغوفات، لا يفلت من شباك أنظارهن إنسان دون تمحيص وتدقيق، فما إن نظرت إلينا إحداهن، وهي وراء (الداكتيلو) من تحت رمش طويل واسع مكحل، حتى ابتسمت! ولعلي حسبت الابتسامة لي، فرددت لها التحية بأحسن منها، غير أنها عبست - وكسفتني - ولم تلتفت إلي، بل قدمت من صديقي الذي كان يحمل قبعته بيده وسألته بفرنسية ركيكة جداً. هل أنت أديب؟ فتمتم كعادته.. و.. و.. فأسرعت بضمائد الإسعاف أقول: نعم.. إنه صحافي! قالت: مؤكداً.. يبدو ذلك عليه.. فلقد قرأت أن الأدباء والشعراء والصحافيين يهملون ذقونهم أحياناً على سبيل (الموضة) في التغيير والتبديل!

وتحمل صاحبنا هذه الصدمة المزلزلة بصبر وجلد؛ وتنازل فنطق وعرفها بي.. أو بالأحرى عرفها بنا معاً.. إسرائيليين من دمشق، يفتشان عن مأوى للهجرة! فضحكت.. وجعلت تردد لفظة: أوه المسولة.. ما أكثر المهاجرين الهاربين! إن فلسطين تتسع لكثير منهم.. وتنتظر الكثير من أقصى العالم! إننا نحيهم وليت للمهاجرين جميعاً فماً واحداً لأقبلهم.. ثم كلمت رئيس المكتب بالعبرية، فقرع جرساً، أقبل على إثره شاب يتكلم العربية قليلاً! فتحادثنا ملياً.. وبعدئذ أشير إلينا باتباعه، فسرنا، وكان نعم الدليل!

كان يعرف العربية، ويفهم الفرنسية، ويتقن الإنكليزية والعبرية! وكان أول ما فوجئنا به، علامة الخاتم السليماني، شعار الصهيونية المقدس، تضمه الممرضات على رؤوسهن، كما فرشت أرض المدخل به من البلاط الأحمر. ولقد علقت على الجدار الأيسر لوحة واسعة جداً، تمثل مصوراً لأمريكا المتحدة وولاياتها جميعاً، وأسماء الجالية اليهودية الموزعة هناك، وبجانبها قوائم بأسماء المتبرعين من اليهود والأعضاء، الذين يرعون مشفى (الهاداسا)، أعظم مشفى في الشرق الأدنى..

كانت رائحة الطعام تفوح وتملأ الخياشيم، ولم يعد صاحبنا يقوى على السير بعد ذلك، ولم يعد يكترث بشيء إلا بالمطبخ! فأردت أن أثنيه عن عزمه، فلم أفلح ولم يصغ إلي.. وهمس في أذن الدليل مازحاً: ألا تطعمون الأضياف في الظهر، كعادة (الكيبوتس)؟ فقهقه الشاب وقال: لا.. لا، هنا يقدم طعامنا للمرضى فقط والموظفين، أما إذا شئت رؤيته فهلم بنا.. ورضي صاحبنا من الطعام بالنظر..

ولجنا الباب بين الطاهيات اللذيذات، بلحومهن المزدهرة، وبشراتهن الناعمة الأوربية.. وكان مطبخاً حقاً.. شبيهاً بما شاهدناه في (شفيا)؛ بيد أنه أعظم وأضخم، وعلى شكل أكثر تعقيداً وتركيباً! فالأواني هنا، أوسع مما هنالك وأكثر عدداً وجدة! ولقد شدهنا أمام مخبز المعجنات، الذي يعمل على الكهرباء، بشتى علبه المعدنية المغلقة الواسعة.. وثمة آلة كبرى لخفق العجين وسحق الطحين، وخزانة أخرى هائلة للتبريد وحفظ الأطعمة.

ولم يرعنا ويسيل لعابنا، سوى جام بلوري، نضدت فيه اللحوم والدواجن المطهية، وأصناف (الكاتو) استعداداً لإرسالها إلى جهاتها الخاصة.. فأومأ صاحبنا بإصبعه هامساً: أنظر إلى هذا الطائر السمين ذي اللحم الوردي، يقال في رسالة الغفران إن اسمه (الديك العقوق) الذي لم يشهد التاريخ أن أكله غير الكفرة! وقد روى بعضهم أنهم يخرون لدى رؤيته ساجدين! ثم ألقى عليه نظرة ملتهبة، كانت تكفي لحرقه..

أما بيت المؤنة، فكان هائلاً جداً، لا يمكن أن نقارنه بمخزن المؤن في جامعة أو مستشفى آخر؛ وفيه تحفظ المواد ضمن أقفاص كبيرة. وأما بهو الطعام فقد قسم إلى حجرات وفسحات واسعة، فهنالك ردهة الموظفين والموظفات، وهنالك مطعم الناقهين والناقهات من المرضى، وثمة مطاعم الأساتذة.. وهلم جرا! ويصعد الطعام إلى الطبقات العلوية بمصاعد كهربائية صغيرة..

قادنا الدليل إلى حجرة واسعة خاصة بتنظيف الأواني، فدهشنا حقاً بما رأيناه، ولولا بقية باقية من الإيمان بالنفس والثقة بالمستقبل، لتزعزعت عقيدتنا بهمة إخواننا العرب وقواهم التقدمية! فقد كانت هنالك آلات وأدوات خاصة مختلفة تدار على الكهرباء، لغسل الصحون على البخار، وتنظيف الأواني، وتسخين الأكال وتبريدها ..! أما نظافة الممرضات - لا الجمال والنعومة اللتان تضرب بهما الأمثال - فحدث عنها ولا حرج، فهن كالقطن المندوف بياضاً وصفاءً..

وكان غسل الأثواب والأوعية والألبسة المختلفة يجري على الكهرباء أيضاً. فتهبط من الطبقات العليا في ميازيب خاصة داخل الجدران تصل مباشرة إلى مكان المغسل، وتؤخذ من جوارير خشبية تفتح فوق أقفاص ذات عجلات من المطاط، لا صوت لها ولا حس، تحمل تواً ما فيها إلى البراميل الضخمة الدوارة، حيث يوضع فوقها مسحوق الصودا مع الصابون بمقدار مرتب من وعاء كبير بجانب كل برميل؛ ثم تستخرج الأثواب إلى آلة العصر، ومنها إلى آلة التجفيف. وتمدد الأثواب فوق سطح متصل بالآلة، تدور فوقه

اسطوانة حامية بدورات متوافقة مع انسياب السطح، فتخرج مجففة من الجانب الآخر ومكواة. وقد يكرر عليها هذا العمل، في آلة أخرى مثلها لتجف نهائياً. أما الأثواب البيضاء اللطيفة أو الحريرية فتكوى بالمكاوي اليدوية الكهربائية في قسم خاص بها، له موظفاته وعماله وخدمه. فترى الجميع وراء عملهن، وقد ارتدين الأبيض فبدون كالحمائم والزنابق. أما اللحف والأقمشة الملونة الكثيفة، فتجفف في خزائن خاصة، ذات حواجز معدنية توضع بينها، ثم ترفع الحرارة بالكهرباء حسب الحاجة واللزوم!

أحب الشاب أن يرينا دار التوليد، فلم نرفض له طلباً! فصعدنا إلى الطابق الثاني، على ممر طويل مفروش بالمطاط، فلا تسمع فيه نأمة أو حركة أو وقع قدم!

كانت الدار تعج بالأمهات الوالدات، وأهليهم الزوار، وأغلبهم من الصنف الشعبي الفقير! أما حجرة الرضع والمواليد، فهي عبارة عن بهو واسع، يخترقه النور من جدار بلوري كثيف مؤلف من قطعة واحدة؛ وعليه سجف متحركة.. وفيه صفوف الأسرة الصغيرة البيضاء، وقد لف كل رضيع فيها بأثوابه وملاءاته، وكتب على السرير في لوحة صغيرة: اسم الوليد ولقبه وتاريخ ولادته وأوصافه المرضية. ويوجد في المستشفى آلات لتعديل الجو صيفاً وتسخينه شتاء؛ وضعت محركاتها في أقبية البناء! وأخيراً أدركنا الوقت، ومللنا مشاهدة النشاط، وأضحينا متخومين مناظر ورؤى؛ فودعنا الشاب، وخرجنا نركض في أكناف المستشفى، فقد أهلكنا الجوع، وكاد صاحبي يفنى نهماً، بعد أن حركت عصافير بطنه، ألوان الطعام في المطبخ، وصنوف الكاتو والمعجنات.. وخاصة ذلك الديك العقوق! ولولا خوف من الله، لاختلس قطعة ليبرهن فيها على جهاده في أرض العدو..

ولقد ضعنا في الممرات وتهنا بين أشجار الصنوبر والسرو، فظللنا هائمين على وجهنا، حتى قربنا من جناح الممرضات، فخرجت إلينا ممرضة! ولأول مرة جعلنا مرآها نؤمن بالقبح الخام اليهودي! كانت مشرفة على الخمسين؛ ولكنها كقضيب الرمان، صلبة و(معرقبة).. ولم أسمع صاحبنا يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم في حياته إلا في تلك الأونة! فإن نظراتها التي كانت ترسل شرار مدفع (الهاون) جعلته يموت فزعاً ويتقلص متراجعاً القهقرى! ثم حدثته بصوت مقيت عبري، كانت (توصوص) به كالصرصور، فتخرج الألفاظ من فمها كلعنات إبليس.. فأشار إليها، بأننا نود مخرجاً إلى الطريق العام.. فافتر ثغرها الكهفي عن أسنان مرقعة مبرية، وأومأت بيدها بعيداً، كأنها تطردنا طرداً لا هوادة فيه ولا رحمة! فأسرعنا هاربين من الباب الذي كانت تحرسه، ونحن ننشد: سالمة يا سلامة.

كان صاحبنا يود أن يسأل عن مصادر لكتابه العريق في القدم، والذي يتذكره بين الحين والحين، فيتنهد من كل قلبه ويزفر، لأنه لم يتم بعد.. وقد ينتهي إن شاء الله من تأليفه عام 1970.. وكان بحثه مما يشوق اليهود ويرغبهم فيه، وخاصة إذا صدقوا مؤلفه كيهودي فعّال! ولو عرفوا أنه مسلم عربي، أصيل في عداء الصهيونية، لانهالوا عليه ركلاً ووخزاً حتى أوصلونا إلى البحر الميت. ولكنه لم يدرك سرنا إنسان - ولله الحمد - وعندما سأل عن غرف الأساتذة في كلية الآداب، عجب القوم، ولم يتطوع أحد ليكون دليلنا أبداً! ولولا نجدات الصبايا الأملودات المعطوفات، لما حظينا بمقابلة أشهر أساتذة الجامعة من مجندي الصهيونية الراسخين في العلم!

معجم كبير للغة عظمى

كانت الغرف في الطابق العلوي حيث يقيم الأساتيذ المحترفون.. وهي حجرات عديدات مختلفة لأبحاثهم وأعمالهم ومطالعاتهم.. وكنا نقصد بصورة خاصة قسم الأبحاث الشرقية، الذي يشرف عليه أمثال العلامة (بيروّ)، و(بوير) وأضرابهما من المستشرقين..

وعندما تبينت للأستاذ الكبير.. أهدافنا وهويتنا كيهود، لم تخف دهشته لهذه الروح اليهودية الشامية؛ فدعانا إلى الجلوس. وقد سر وأعجب.. وما إن سأله صاحبنا عن مصادر لكتابه العزيز، الذي انقطع فيه - بنص الطريق - وهو تاريخ اليهود تحت حكم العرب في الأندلس، حتى دله على مصادر عديدة؛ وأضاف بأنهم يدرسون الآن: اليهود تحت حكم الفرنجة في الأندلس. وكان الأستاذ أول من لقيناهم من المستشرقين الألمان. وهو يتكلم العربية الفصحى بلكنة أعجمية! فقال يشرح لنا اختصاص هذا القسم من الجامعة في مضمار العلم والثقافة.

نحن هنا نهتم بدراسة مواد اللغة العبرية وآدابها القديمة والحديثة؛ وننهمك بشروح التوراة والتلمود والفلسفة اليهودية، والتاريخ اليهودي، والجغرافيا التاريخية لفلسطين القديمة! وسأله صاحبنا بلغة فصحى: وكم تستغرق الدراسة عندكم؟!

فأجاب بهدوء: ثلاث سنوات! وبمعدل ثماني ساعات أو عشر كل يوم.. ثم عاد إلى حديثه: ونحن نعمل هنا - في معهد العلوم الشرقية - وهو معهد له خطورته وأهميته العالمية، لأن إدارة الجامعة تعنى به خاصة وتعتبر أبحاثه من المبادئ الأولية في أهدافها؛ ذلك أن موقع الجامعة الجغرافي هو في مدينة من أهم المدن الشرقية الرئيسية - في الشرق

الأدنى ـ فالجامعة تبذل جهدها، لتدريس العلوم الشرقية، القديمة والحديثة على وجهها الكامل! وقد أسس معهد العلوم الشرقية عام 1726. وقام بتنظيمه وإدارته الأستاذ (هوروفيص) المستشرق في جامعة (فرانكفورت) في ألمانيا!

فقال صاحبنا: وما غاية المعهد؟ فأجاب الأستاذ: الغاية من ذلك هي إعداد رجال، يعملون على نبش كنوز الشرق العلمية والأدبية من مدافنها، وتوثيق عرى التفاهم الروحي، بين الشرق والغرب، ولاسيما بين الشعوب المجاورة لفلسطين والشرق الأدنى!

ثم تنهد الأستاذ، واستعاد بعض قواه وشرع يقول:

ويدرس في المعهد ثلاث مواد أصلية، ومادتان ثانويتان؛ فالمواد الثلاث الأصلية هي: الثقافة الإسلامية ـ واللغات السامية ـ واللغة والآداب العربية.. أما المادتان الثانويتان، فهما: علم الآثار في الشرق الأدنى، وعلوم مصر القديمة!

فمادة الثقافة الإسلامية تشمل: الآثار الإسلامية، والتاريخ الإسلامي في القرون الوسطى، واللغة التركية، والفلسفة الدينية الإسلامية، وعلم الاقتصاد والاجتماع في الشرق الأدنى بصورة عامة، وفي فلسطين بصورة خاصة. وأما مادة اللغة والآداب العربية، فتشمل: اللغة العربية، والأدب العربي القديم، وقواعد اللغة العربية، والقرآن، والأدب العربي الحديث.. وقد عهدنا إلى بعض الباحثين الملحقين بالمعهد، بأعمال هامة، لها أثرها البعيد، في الآداب العربية والتاريخ الإسلامي.

فقاطعناه قائلين: نظن أنكم تقصدون بذلك، المعجم المفهرس للشعر العربي القديم! فابتسم وقال: أخال أنكم اطلعتم على ذلك في المجلات والصحف! أجل، إننا نعمل في سبيل هذا المعجم، منذ زمن طويل، كما نهتم أيضاً بإصدار كتاب أنساب الأشراف أيضاً، للمؤرخ العربي القديم (البلاذري)..

وهاكم تفصيل ذلك: إن المعجم المفهرس الذي قرأتم عنه، مستمد من الشعر العربي القديم، منذ نشأته إلى آخر عهد بني أمية! وقد بلغ عدد البطاقات، التي جمعت ونظمت حتى الآن، أكثر من (500) الف بطاقة! ثم نهض ودعانا إلى خزائن مرتفعة، ذات جوارير مرقمة، سحب أحدها، فإذا به مترع بالبطاقات المرصفة المكدسة، وتناول قسماً منها ليرينا إياه قائلاً: ولهذا المعجم أهمية كبرى. فهو يلقي ضوءاً جديداً، على الآداب العربية القديمة، فيساعد على فهمها من الوجهتين اللغوية والتحقيقية! أما أثره في الناحية اللغوية من الآداب المذكورة، فهو أن المعجم سيشتمل على جميع ما ورد في الشعر العربي القديم، من كلمات وألفاظ وتعابير، فيمكننا أن نعتبره، أوثق مصدر للغة العربية القديمة!

هذا، عدا عن أن الكلمات المستعملة في اللغة العربية القديمة، يوجد بينها عدد عديد، لا يمكن العثور عليه، حتى في أقدم وأعظم المعاجم العربية؛ كالتاج واللسان وغيرهما .. فلا يتعذر إدراك معناها من سياق الكلام، في هذا المعجم المفهرس! خذ مثالاً على ذلك هذه البطاقة..

انظر إلى الرقم والكلمة.. فهي: مهبّر، الواردة في بيتٍ لعمر بن أبي ربيعة، حيث يقول:

ألا، لا وبيت الله إني مهبّرٌ..

فإن هذه الكلمة، غير موجودة في القاموسين المذكورين أو في غيرهما؛ وإنما جاءت في ملحق القواميس العربية، للعلامة (دوزي) فقط.. و(دوزي) هذا، تولى شرحها، باعتبار أنها وردت لأول مرة في مقدمة ابن خلدون! أما الحقيقة التي أطلعنا عليها فهي أنها وردت قبل ذلك بـ (700) سنة في المصرع المذكورة لابن أبي ربيعة.. فانظروا إلى البطاقات وتأملوها..

وتأملناها كاملين. ولا مؤاخذة. وهززنا برأسنا إعجاباً ودهشاً.. وقرأنا ما يلي:

(هبّر) نال الأعاديّ منهمّ فيلق هبروا

الأخطل (270 = 4) طبعة صالحاني، بيروت عام 1891.

ألا، لا وبيت الله إني مهبّرٌ

عمرو بن أبي ربيعة (40 = 7) طبعة شوارتس ليبزيغ 1907.

حساماً إذا ما هزّ لم يرض بالهبر

حاتم الطائي (28 = 17) طبعة شوطس ليبزيغ 1989.

كلون الملح ضربته هبير.

المتنخل في مجموعة أشعار الهذيليين (97 = 5) طبعة هل لبيزيغ 1933.

فطافت بالهبير بحيث كانت

ديوان الفرزدق (27 = 6) طبعة بوسيه، باريس 1870.

فالهيج أعلى هبيره السهل

عبيد بن الأبرص (17 = 10) طبع لايدل ليدن 1913.

فظلت وظلوا يركبون هبيرها

الفرزدق (235 = 6)...

وعلاوة على ما تقدم، فإن هذا المعجم يساعد مساعدة قيمة، على تحديد معنى الكلمات، في الآداب العربية القديمة، كما ظهر لكم في هذه البطاقات..

وأما أثره في الناحية التحقيقية، فكثيراً ما تطالعنا بعض الكتب الأدبية، بمثل هذه الألفاظ: قال الشاعر، أو: وقال آخر: أو: وقال الأول، وما أشبه ذلك عند سرد الأبيات، لجهل ناظمها الحقيقي!

فالمعجم يسد هذه الثغرة، ببيان اسم الناظم لكل بيت مجهول، مع الإشارة كما رأيتم إلى المصادر وعدد الصفحات والأسطر، التي يمكن الرجوع إليها للتحقق من ناظمها.

وفضلاً عما ذكرت، فإنه يخفف عن الباحثين، عناء التنقيب في دواوين ضخمة، أو مجموعات شعرية كبيرة، لمعرفة موضع بيت ما في إحدى القصائد أو الديوان بأجمعه. هذا وقد نسب بعض الرواة من العرب، طائفة من الأشعار لغير ناظميها، أو أنهم نسبوها لشعراء متقدمين متعددين، في وقت واحد. فالمعجم المشار إليه، يساعد على تحقيق اسم الناظم الحقيقي، لكل بيت من هذه الأبيات، وإزالة ما يكتنفه من غموض تلك الجهة.. ولقد حصل في الشعر القديم، لذات الأسباب المذكورة أو لغيرها، كثير من التغيير والتبديل والتحريف؛ هذا المعجم سيساعدنا على معرفة ذلك أيضاً، مع تحديد النص الصحيح، لكثير من الشعر العربي الذي وصلنا على غير صورته. وأما كتاب أنساب الأشراف الذي ذكرته لكم، فيقع في عشرة أجزاء، ولا نزال في غمار البحث والتنقيب عنه.. وقد صدر منه حتى الآن جزءان.. وأخيراً فإن معهدنا هذا ألحق به عام 1935 قسم خاص بالموسيقا الشرقية للقيام بأبحاث منظمة عن هذه الموسيقا بصورة عامة والموسيقا الفلسطينية بصورة خاصة. واعلموا أيها الأبناء قبل أن تغادرونا بأن الجامعة العبرية هي معهدكم، وهي المعهد الأوحد للعلوم اليهودية لليهود، وهي أعظم وأكمل معاهد العالم! وإن إدارتنا لتبذل جهدها للتحسين والنمو المطرد، كيما تقدم ليهود الشرق أجل الخدمات!

وما كدنا نودعه لنغادر الأبنية الجامعية، حتى وجدنا أنفسنا أمام بهو كبير، فيه عدة مقاعد منظمة غريبة الشكل، أوضح لنا موظف هنالك، شيئاً مما غمض علينا.. فهي قاعة المساجلة والمناظرة بين الطلاب والأساتذة، تتسع لأربعمئة طالب، وإلى جانبها بهو آخر أصغر منها لذات الغرض! أما المقاعد، فلكل طالب مقعد منفرد، يتصل بلوحة جانبية، مثبتة فيه، للكتابة عليها والاستملاء.. ثم سرنا بضع خطوات، فرأينا مدرج المحاضرات، الذي يتسع لألوف الأشخاص.. وسألنا فتىً كان يوصل سلكاً بمكبر للصوت، استعداداً لاجتماع خطير، فأجابنا رغم انهماكه في عمله، قائلاً: إن الاجتماعات التي تعقد عادة هنا، هي علمية، وقومية وسياسية.. وعندما تزور البلاد شخصية كبرى من الصهيونيين لاجتماع عام، تستقبل هنا في هذه القاعة، كما استقبل في الماضي (وايزمن)،

وبلفور، وغيرهما من رجالات اليهودية.. وإن هذا الاجتماع الذي نستعد له، هو في سبيل الاكتتاب لشراء الأراضي.. وقد وضعوا على باب الجامعة علمين صهيونيين وفي وسطهما لوحة كبرى من القماش، خطت عليها فقرات حماسية عبرية سياسية..

وهكذا، عدنا إلى القدس، ونحن نذكر هذه القلعة الحصينة، أو المعمل الكبير، لخلق شباب صهيون العامل المفكر، وهي أخطر المؤسسات لتقوية الوطن القومي المنشود..

◆ ◆ ◆

ايها العربي

لقد قرر المؤتمر الإسلامي المنعقد في 17 ـ 12 ـ 1931 في بيت المقدس، إنشاء جامعة إسلامية عليا، ذات فروع متعددة، تفي بحاجة المسلمين في دينهم ودنياهم، وتكفل للمتعلمين منهم تعلماً ثانوياً أن يستغنوا أو يستغني بعضهم عن الالتجاء إلى الجامعات غير الإسلامية.

واتخذ المجلس الإسلامي عام 1935 خطوات أولية لتأسيس جامعة إسلامية، ولكن المشروع ما لبث أن توقف بسبب التطورات السياسية.

وسمعنا أخيراً أن مدينة نابلس تفكر في هذا المشروع وأن الحكومة ستنشئ للعرب جامعة علمية عربية، وقد اعتمدت 70 ألف جنيه لهذا الغرض.

وبعد، ففي كل خطوة كنا نخطوها في رحاب الجامعة العبرية، كنا نتمنى من صميم الفؤاد أن نرى للعرب جامعة، تكون ميداناً لأبحاث ودراسات واكتشافات العلماء العرب، ونعم المصنع الأمين للشباب معقد الرجاء ومناط الأمل..

وإذا كانت الجامعة العبرية لم تبصر النور بين عشية وضحاها، بل نمت وترعرعت بالعمل المستمر، والبذل المتواصل، ووضوح الهدف، حتى غدت منارات وصوى في هذا الشرق العربي، فما أحرانا أن نلم الشعث، ونضاعف الهمة لإنشاء جامعتنا العتيدة المرتجاة..

ولسنا ننكر أن تأسيس (جامعة) يجب أن تسبقه خطوات تمهيدية، من أهمها دعم التعليم الثانوي، وإعداد الأساتذة، وإيجاد الأماكن الخاصة بالتدريس والسكن؛ وكل بحث جدي يجب أن تسبقه مؤتمرات صغيرة تمثل فيها البلاد العربية.

على أننا اليوم، وقد أصبح خطر الصهيونية جارفاً، ونما الوعي القومي في الشعوب

العربية؛ وبتنا نعتقد أن لا سبيل إلى قهر العدو إلا بسلاحه، والعلم في كل عصر ومصر أمضى سلاح؛ فمن العجز أن نقف مكتوفي الأيدي، ولا نجاري مواكب الزمن، ولا نقارع الخصم بحجته.

لنتذكر أن كثيراً من هيئة أساتذة الجامعة العبرية كانوا في أعظم جامعات العالم، ولقد تركوا مناصبهم هنالك ليلتحقوا بجامعتهم التي يغذونها بنتاج عبقريتهم، والتي يعتزون بها، ويسيرون بها قدماً.

ولنذكر أن الهبات والتبرعات تنهال على هذه الجامعة سراً وعلناً، وفي كل يوم ينمو فيها جناح، وتتوسع دائرة، وتسير قدماً نحو الكمال..

فالسبيل واضحة، والأهداف نيرة، والغاية نبيلة، ومثلنا العربي يقول: ما حك جلدك مثل ظفرك..

فإلى تحقيق هذه الجامعة العربية المرتجاة، نهيب بالعرب جميعاً، برجال الفكر والمال والنفوذ، وبالهيئات الرسمية وغير الرسمية؛ ولعل جامعة الدول العربية تعير هذا الموضوع الخطير بعض اهتمامها، فنرى في المستقبل القريب، وفي ظلال المسجد الأقصى جامعة عربية، تنشر شموس العلم والمعرفة، في هذه الربوع الشرقية الحبيبة إلى قلب كل عربي واعٍ مخلص مجاهد...

العودة

عاد صاحبنا من رحلته، بعد أن شاهد نواحي واسعة مجهولة، من حياة الصهيونية في فلسطين، ولمسَ لمس اليد أشياء هيهات أن يتاح لغيره أن يطلع عليها.

لم يعد يرى في عودته المستعمرات يدب فيها النشاط، والمصانع تزخر بالعاملات والعمال، والجامعة تعمل في سبيل نشر الثقافة اليهودية وإحيائها، والصهيونيون يكدحون ويجاهدون، والشوارع تعج بالمارة، والشطآن تتمرغ فوقها الأجسام البشرية.. لم يعد يرى في عودته كل هذه الأشياء بل راح ينظر إلى ما وراء ذلك ويستشف خباياه..

فإذا كنا ندرس التاريخ مثلاً، لا لنطلع على حياة الشعوب اليومية، أو مظاهر حضارتها، وثوراتها واضطراباتها، بل لنفقه ما وراء ذلك، ولنستخلص دروساً تفيد في سير مواكب الشعوب، فنعلم كيف تنشأ الأمم وكيف تسمو وكيف تنهار، ولنقتبس منها العظات، لئلا يصيبنا ما أصاب من قبلنا، فإن صاحبنا كان ينظر في رجعته إلى ما وراء الصهيونية الماكرة، أي ما وراء المحسوس منها والظاهر للعيان..

كان يرى تياراً جارفاً لشعب موتور، يسعى جاهداً لإنشاء دولة صهيونية على رفات شعب آمن مسالم، من دون أن يعبأ بالعقبات، أو يخضع لقانون.

عاد، وقد انتشرت أمامه صفحات سوداء، تحمل أرجاس الصهيونية، إلى جانب صحائف أخرى بيضاء، تحمل الإجلال والهتاف لهذا الشعب العربي المجاهد النبيل...

أجل! فإن تلك المستعمرات والمعامل والمتاجر، والملاهي ودور الثقافة والصحة، وسائر المؤسسات الصهيونية، لم تعد في نظره، قوية صامدة أمام أعاصير المقاومة العربية؛ ولم يعد سلاح أبناء إسرائيل ذا حد مرهف مخيف، مادام العرب يحاولون أن يملكوا مثله، ويجاهدوا في سبيل ثلمه وتحطيمه.

نواح مظلمة في حياة الصهيونية

غرباء في أوطانهم

ما كادت الحرب العالمية الأولى تضع أوزارها، حتى أذيع وعد بلفور، بعد كتمانه طويلاً؛ ففسره غلاة الصهيونية بمعنى تهويد فلسطين لغة وروحاً وديناً وسياسة؛ وراحوا يدعون إلى الهجرة، فلبى نداءهم نفر من الشباب المتحمسين المتهورين، وطوائف من المغرورين المخدوعين، وجماعات من التقاة السذج، والفقراء العاطلين؛ تدفقوا كالسيل الجارف إلى فلسطين، يعضدهم في ذلك حشد كبير من أصحاب الملايين..

هبطوا فلسطين، فظلوا فيها غرباء، في الوجه، واليد واللسان.. غرباء في لغتهم الأصلية، وفي تقاليدهم وعاداتهم ونظم معاشهم.. ومع كل ما بذلوه في ميادين التربية والتعليم، لصهر جميع العناصر، فلا زال الاختلاف قائماً. لأن اجتماع الطباع المتنافرة، والأخلاق المختلفة، والأمزجة المتباينة، في صعيد واحد، أمر صعب التحقيق، مهما سمت الغاية، ونبل المبدأ. فهذا مهاجر شرقي يزدري المهاجر الغربي، والعكس صحيح. حتى أن الشرقي نفسه ليحتقر الشرقي، والغربي نفسه ليمتهن الغربي. فهنا مهاجر شامي، يشمخ أنفاً على المهاجر اليماني، وهناك الألماني المشبع بفكرة تفوق الدم والعنصر، يشيح بوجهه عن المهاجر الروسي، ربيب سيبريا، أو روسيا البيضاء..

فكيف بهذه الطبقات المختلفة، التي يكره بعضها بعضاً، تنشئ أمة من الأمم، تباينت أهدافها وتنوعت مصالحها؟ ناهيك من الشعب اليهودي الذي لا يعرف لنفسه وطناً إلا الربح، والكسب، والمال.. وأنى لهؤلاء القوم، أن يحيوا مع العرب، سكان البلاد الأصليين؟ ألا إن خلط الماء بالزيت، لأهون من حياة العرب، مع شذاذ الآفاق من الصهيونيين..

نفوس في الجحيم

غرّروا بهم، وحملوهم إلى فلسطين، وقالوا لهم: كدوا واكدحوا لتأكلوا وتلبسوا وتسكنوا.. اعملوا لتعيدوا هيكل سليمان، وعرش إسرائيل.. لتنشئوا وطناً تستقرون فيه، وتخلصوا إلى الأبد من حياة (الجيتو) والإرهاق المستمر.. ولقد عرفنا كثيراً من الشآميين والشآميات، ممن ذهبوا إلى فلسطين، ليعيشوا عشرة أشخاص، ذكوراً وإناثاً في غرفة واحدة، لا يتجاوز حجمها خزانة الملابس.. ونعرف في (تل أبيب)، وراء تلك الدور المتألقة بأنوار الكهرباء، أكواخاً حقيرة صغيرة رطبة، تحمل أدناس الصهيونية وأرجاسها، يقطنها أناس خدعوا بعظمة الرسالة، ونبل الهدف، فأصبحوا يتمنون العودة إلى مساقط رؤوسهم،

بيأس غلاب، وصبر نافد.. وفي كل مكان، حيث يتاح الإفصاح بحرية عن الفكر، يصرح المضطهدون بما يخالج نفوسهم، وعلائم الأسى ترتسم على وجوههم..

عرفنا فتيات كزهرات الربيع، وقطر الندى، طاهرات بارات، غادرن دمشق مغريات بالدعايات المزوقة الباطلة، وحللن فلسطين؛ فكان نصيبهن العمل القاسي في الحقل، في صبارة الشتاء، وحمارة القيظ، وفي المعامل والمصانع، في جو مفعم بالروائح الكريهة، والأخطار الجسام، لقد قيل لهن: اعملن لتأكلن، اعملن في سبيل وطن مرتجى، اعملن ولو هتكت الأعراض، وامتهنتِ الكرامة البشرية.. فغدونَ ووراء الثغور الباسمة أحزان دفينة، وهموم مكتومة!

ومن ذا يجرؤ على معاكسة التيار الطامي؟ وأي صهيوني يستطيع الجهر برأيه، أو يلوح بالعودة إلى بلاده؟ إن سيف (ديموكليس) مسلط فوق عنقه.. وهل جاءك نبأ الباخرة (باتريا)، المترعة بالمهاجرين إلى جزيرة (مورتينوس)، كملجأ مؤقت منحتهم إياه بريطانيا؟ لقد نسفها الصهيونيون، وهم يصرخون: إما فلسطين، وإما الموت في قاع البحار..

وعلى الرغم من كل الاحتياطات والدعايات، والوعيد والتهديد، فإن (32) ألف يهودي غادروا فلسطين بين عام 1920 و1932 فقط.. ولو أن الاضطهادات النازية تأخرت قليلاً لكان مغادرو فلسطين، أضعاف أضعاف المهاجرين..

فلو أن اليهود طراً يعتقدون الصهيونية، ويؤمنون بها، لما وجدوا عن فلسطين بديلاً. ولكنه، اليهودي الأفاق.. اليهودي الذي لا يعرف لنفسه ديناً، سوى صفحة الدينار، شيلوخ البندقية، لا تهمه فلسطين، كما لا تهمه أي بقعة في العالم. فموطنه حيث يعمل ويكسب، وداعاً للحنين إلى الأوطان، إلى أبد الآبدين..

خلاعة وإباحية

هنالك على ذرا الكرمل، وفي مغاني الهادار، على شاطئ البحر، وضفاف النهر، في الدور والفنادق، وفي المستعمرات، وتحت كل خافق، مازالت بنت صهيون هي الغانية التقليدية العارية، تتلوى على سرير الفحش، بين شباب الوطن القومي، وطالبي اللذة من أي جنس ولون.. فترى حدائق الأطفال، والمياتم والملاجئ، مترعة بالأولاد الطبيعيين، جنود الصهاينة في قادمات الأيام.. هنالك في المستعمرات، شباب مراهقون، وفتيات مراهقات، ونساء عازبات، أرامل متصابيات، وزوجات ملولات.. يعبثن تحت الظلال، وفي الغرف، وخلف التلال!

هنالك إباحية سافرة، وتحرر مبذول وضيع.. فلمن هذه المقاعد الشعرية، تحت الخمائل المنزوية؟ ولمن تلك الأرائك الخشبية في شعفات الجبال، وجنبات الأودية؟ ولمن تلك الهمسات والقبلات، والأنين والعنين، في رأد الضحى، وهدأة الليل، بين النخاريب والزوايا؟ ومن هؤلاء القوم في الليالي القمراء والظلماء، على رمال الشاطئ، وفوق مقاعد لا تنتهي، وماذا يفعلون؟ أجل! لم تزل لعنة الربا على رجالهم، والزنا على نسائهم، إلى يوم يبعثون.

وهل هؤلاء الفتيات المتمايلات في الشوارع، بمظاهر شاذة لا تتلاءم مع تقاليد البلاد، وأفعال غريبة لا تتفق وأحوال الفضلاء، يسرن بسراويلهن القصيرة، حتى لتكاد تبدو عاناتهن.. والأثداء تطل براعمها عليك من شتى الفجوات.. واللحوم بارزة، والإغراء سافر.. هل هؤلاء إلا صبايا دونهن نساء الماخور، خرجن يتصيدن ساعات اللذة بعد عمل المزرعة، والمصنع المرهق؟ جرب أن تدخل مخزناً، أو مكاناً عامراً بهن؛ تظاهر بالصهيونية، تكلم العبرية، وتعال ارو لي الأحاديث.. سترى ما لم تحلم به.. إنهن يخطفنك.. يراودنك عن نفسك، دون بذل حلال أو حرام.. لأنك عبري، تساهم في بناء الهيكل، وملك سليمان!

جزاء سنمار

ولعل إنكلترا لم تندم على وعد بذلته، كما ندمت على وعدها اليهود بالوطن القومي، فلقد ضحت بالكثير من سمعتها، وراحتها، وجنودها، وأموالها.. وعادت العرب والمسلمين كافة من أجلهم..

وماذا حصدت؟ لقد لاقت الأمرين منهم.. ففي كل يوم تهديد وقتل، ونهب وتدمير، واعتداءات متوالية على الرجال والأملاك.. ذلك هو اعترافهم بالجميل، وجزاء الإحسان بالإحسان، بعد أن أنقذوا من براثن الموت، وسياط الطغاة..

إنهم يفتكون بأصدقائهم ولا مخالب لهم.. فكيف بأعدائهم العرب، وخاصة بعد أن تنبت لهم الأظفار، وتحدد الأنياب..

ألم تسمع صرخة زعيمهم (وايزمن) يقول: (سنبقى في فلسطين.. سواء أردتم أيها البريطانيون أم أبيتم.. يمكنكم أن تعجلوا أو تؤخروا قدومنا.. ولكن من الأفضل لكم أن تساعدونا، لئلا تنقلب قوانا التعميرية إلى قدرة تدميرية، تضطرب لها الدنيا بأجمعها.. إننا نريد أن نجعل فلسطين يهودية، مثلما أن إنكلترا إنكليزية)..

واستمع إلى آخر يقول: (لن يستولي الشعب اليهودي على فلسطين، حتى تتحل الإمبراطورية البريطانية، وما غايتنا إلا القضاء على السياسة البريطانية الاستعمارية).

وقد وجدوا في غرفة المتهمة (حاسيما) من أفراد عصابة (شتيرن) وثيقة جاء فيها: (وإننا نعتبر كل عنصر غير يهودي يسيطر على هذه البلاد عدواً لدوداً لنا، وهكذا نرى في بريطانيا العظمى عدواً لنا ما دامت تسيطر على فلسطين).

ولكنه (الولد المدلل) ومن أجله يهون كل عذاب؟

على نفسها جنت براقش

إن الصهيونية شؤم على اليهود أنى كانوا؛ فبعد أن عاش العرب وإياهم مدى العصور إخواناً، يتعاونون تعاوناً شريفاً، فكانوا تحت حكمهم في الأندلس سراة، لهم ما للجميع وعليهم ما عليهم، جاءت الصهيونية الماكرة، الضالة المضللة، ونفخت في أنوفهم، فجعلتهم أعداء لكل مسلم وكل عربي. لقد طوحت بالروحانية الصوفية اليهودية، وجعلت منهم - إذ ينتحلون الصهيونية - مواطنين سيئين، لا يعتمد عليهم؛ ففقدوا بالتالي عطف العالم، وعدُّوا منبعاً للشر والمصائب..

فلن يستطيع الأمريكي مثلاً، أن يفهم قول (وايز) حاخام (نيويورك) الأكبر: (أنا أميركي منذ ستين عاماً، ولكنني يهودي منذ ثلاثة آلاف عام). ولن يهضم الشرقي قول (أبي العافية) رئيس (السيفاراد) في فلسطين: (إن اليهود مضطهدون في كل بلد شرقي).

لا! إن العرب لم يكرهوا اليهود من قبل، فإن السيد المسيح يقول: (أحبوا أعداءكم..) والقرآن الكريم يقول: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌّ حميم﴾...

نعم، لم يكره العرب اليهود، ولن يكرهوهم أبداً، لأنهم أهل الذمة، أهل الكتاب؛ ولولا انتماؤهم إلى الصهيونية لما خلق هذا الكره المقدس؛ أجل! هي الصهيونية التي أساءت إلى الأمتين، من حيث لا ندري، لأنها شاءت أن تجعل من فلسطين العربية دولة يهودية، وأن يعود إليها عرش إسرائيل..

فليذكر اليهود أنهم اضطهدوا تحت كل كوكب، لأنهم دخلاء لا يمتزجون بغيرهم، ولأنهم أدعياء الشعب المختار، ونقاء العنصر، ولأنهم صالبو المسيح، ومقرضو الربا وما يتبع ذلك من قسوة وضعة ودناءة، فكانوا كبش الفداء طوال العصر، وفي كل مكان إلا بين ظهراني العرب.

إن العرب لم يشهدوا مرة واحدة ذلك الكبش.. ولم تثر في وجهه أية عاصفة من شأنها إسالة دمائه، وتضحيته على مذبح الشهوات والغضب! إن التاريخ ليعلمنا أنهم كانوا المقربين لدى بلاط الخلفاء في الشرق والغرب؛ في بغداد ودمشق والقاهرة والأندلس، وإن المسلمين استقبلوهم أحسن استقبال، وأحسنوا إليهم وآووهم، حين جاؤوا في القرن الخامس عشر من إسبانيا مشردين طريدين..

فإذا انقلبت اليوم الآية، وأصبح العرب من أشد الناس مقتاً لكل من هو يهودي في فلسطين، وأصبحت تزر الوازرة وزر الأخرى، فالفضل في ذلك للصهيونية.. وكم كان العرب واليهود في غنى عن ذلك!

على أن العرب لم يمقتوا إلا من ادعى الصهيونية، وحمل رسالتها .. وثمة شتى الحلول لمحو هذا الحقد وفي قمتها: اغسل أيها اليهودي يديك من الصهيونية ولا تدع إليها، وغادر فلسطين، واختر لنفسك أي وطن تشاؤه، إلا فلسطين.. لأنها صغيرة في مساحتها، فقيرة في مواردها، لن تتسع لبني قومك بالغين الملايين فضلاً عن أنه من الجريمة أن تشيد سعادتك على شقاء الآخرين.

أن جمهورية (دومينيكو) تفتح ذراعيها لكل زائر، وهي على استعداد لقبول كل مهاجر.

وأن أمريكا اللاتينية، وخاصة (البرازيل) من الأماكن الصالحة لسكناكم، ويمكن أن تصبح من أغنى دول العالم، إذا سكنها (150) مليوناً من البشر، وليس فيها اليوم أكثر من (40) مليوناً؛ إنها مترامية الأطراف، غنية الموارد، لا كفلسطين الفقيرة الضيقة.

وهنالك (نيوزيلندا)، فهي واد خصيب لليهود، كاليابان مساحة، وتتسع لتسعين مليوناً في حين لا يتجاوز عدد سكانها اليوم مليوني نسمة..

وأستراليا، تتسع إلى جانب سكانها الحاليين لعشرين مليوناً آخرين، دون الحاجة إلى التوسع في أعمال الري القائمة الآن.. ثم إنه لا يمكن لأستراليا بملايينها السبعة الحاليين الدفاع عن نفسها، إذا فكر عدو بمهاجمتها، لسبب قلة سكانها، واتساع مساحتها. وحسبك لتدرك اتساعها أن تعلم أن الباخرة (كوين ماري) تتم دورتها حول أستراليا في أربعة أسابيع، إذا سارت بأقصى سرعتها.

فإذا أراد اليهود أن يضعوا حداً لآلامهم، وينالوا صداقة العرب، فعليهم أن يوحدوا كلمتهم، وينزعوا من أدمغتهم فكرة فلسطين، ويتجهوا نحو وطن آخر، يكون أنفع لهم وأجدى..

عبيد، وعبيد

أبى الصهيونيون إلا أن يجمعوا النقيضين. فتراهم مرة يدعون الحرية، وتراهم أخرى أذلاء خانعين. فالأرض التي يمتلكونها في فلسطين، لا يسمونها قرية، أو مزرعة، أو أي اسم تعارف الناس عليه، بل يسمونها مستعمرة؛ كأنهم لا يجدون في قاموس لغتهم المهذب، سوى هذا اللفظ البغيض..

مستعمرة.. أجل مستعمرة (كيبوتس)؛ كأن بذور الذل والهوان قد باضت وفرخت في خلايا أدمغتهم، وكأن البشرية لم يكفها جهاد القرون، لتتخلص من ربقة الاستعمار، حتى أتى أدعياء المدنية، يجددون هذا الاسم البغيض، في ديار قوم ليس أحب إلى قلوبهم من الحرية والاستقلال..

وهؤلاء الزاعمون أنهم أحرار، وأنهم شعب الله المختار، سادة البشر وصفوة الخلق، يلدون وخمائر العبودية تجري في عروقهم، ولن يستطيع المرء، مهما أوتي من العقل، أن يفهم كيف يغادر اليهودي الأمريكي بلاده، ليأتي إلى فلسطين، ويسعى جاهداً لتظل بلاده منتدبة، أو مستعمرة، أو موصى عليها!

وبعد ألم يصرح بن غوريون (بوجوب الانتداب واستمراره، لتأييد الهجرة، وصيانة حق اليهود في الوطن القومي؟).

ألم يقل غيره: (إننا نعارض فكرة تحقيق الحكم الذاتي لفلسطين، لأننا نصبح مرة ثانية أقلية، كما هو حالنا في كل مكان آخر، وتحبط الغايات المنشودة من إنشاء الوطن القومي)؟

وإذا كان الأحرار لا يطيقون القيود والأغلال، فهل لقبول الصهيونيين الانتداب أو الوصاية أو الاستعمار سوى تفسير واحد: هو أنهم عبيد يعانون مركب النقص في صورة حادة منذ أقدم الأجيال؟.

نعم. إنهم يتنازلون راضين مختارين عن حرياتهم، ليصبحوا في فلسطين أذلاء عبيداً خولاً. فما أبخس الغاية، وما أغلى الثمن..

شحّذني وأنا سيدك

حياة الصهيونية سلسلة من المؤامرات، لأن أصحابها بحاجة ليل نهار إلى مقوٍ ودافع لعلمهم الأكيد أن دعوتهم باطلة مشكوك في نجاحها، وأن إنكلترا لم تناصرها لأحقيتها أو عدالتها، ولكن لاجتماع مصلحتها ومصلحة الصهيونية. فالإنكليز يعتبرون فلسطين ممراً

للهند، ونقطة ارتكاز لهم في الشرق، وأماناً لقناة السويس، والصهيونيون يعدون فلسطين وطنهم الروحي والتاريخي، وهكذا فقد اتفق الفرضان، وكلاهما باطل..

ومن العجيب، أن أمريكا الديموقراطية، تساعدهم، وتسخو لهم بالوعود، كأن تأييدهم هو الورقة الرابحة لكسب أصواتهم في الانتخابات؛ فهي تصرح: (إن منح فلسطين لليهود، ليس عملاً عدلاً فقط، بل مكافأة على ما بذلوه أثناء الحرب، لنصرة قضية الحلفاء، وعملاً تاريخياً للتعويض عليهم). وهكذا وجدوا في (ترومان) نصيراً قوياً، فألحوا عليه بفتح باب الهجرة، وظفروا بتصريحه المعروف بالسماح لمئة ألف يهودي بدخول فلسطين؛ رغم أن سلفه الطيب الذكر (روزفلت) وعد جلالة الملك عبد العزيز آل السعود، بألا يعمل شيئاً من دون رأي العرب؛ وكم نتمنى أن يحل (ترومان) المشكلة الصهيونية بفتح أبواب أمريكا لليهود، وهم جماعة إنتاج وعمل، وعليه أن يبدأ البر بنفسه.

والحق الذي لا ريب فيه، أنه ما أتت لجنة تحقيق إلى فلسطين . ولقد بلغت سبع عشرة . وما درس صحافي، أو كاتب أو باحث، معضلة فلسطين، حينما يضع العدل رائده، والإنصاف دليله، إلا وآمن بأن حق العرب صراح أبلج، وأيقن أن الآمال الصهيونية باطلة، ولا يمكن تحقيقها إلا بالقوة المسلحة. وليس أدل من هذا الإجحاف بحقوق العرب، وبطلان المسألة الصهيونية؛ وليس من المعقول أن تستخدم القوة لتنفيذ الوعود، إن كانت عادلة!

وإن تعجب، فاعجب لأول مفوض سامٍ عُين لفلسطين، وهو (السير هربرت صموئيل) الصهيوني؛ فقد دخل البلاد تحرسه المصفحات، وتحوم فوقه الطائرات، وتحيط به الفرسان والمشاة، وهذا أكبر دليل على ما تخشاه الحكومة من تعيين يهودي حاكماً لبلد عربي.

وهاهو ترومان يصرح قائلاً: (إننا سنعمل كل ما باستطاعتنا لإنشاء دولة يهودية في فلسطين، شريطة ألا يكلفنا ذلك إرسال جيش للمحافظة على الأمن هنالك).

ولكن أي أمن سيخيم فوق ربوع يأبى أهلها الميامين الاعتراف بوعد باطل، لشعب موتور، يريد إجلاءهم عن أرضهم وأرض آبائهم وأجدادهم زوراً وبهتاناً، بعد أن سمعوا أحد زعمائه يقول بوقاحة ذهبت مثلاً: (يجب على العرب أن يقوضوا خيامهم، ويعودوا إلى الصحراء التي جاؤوا منها)؟!

وهكذا، فإن من كان يستجدي قطعة أرض ليجد فيها ملاذاً وسكناً، كشر عن أنيابه

الزرقاء، ولبس ثوب النمر، وراح يزمجر، طامحاً طامعاً قائلاً: (إن اليوم الذي سيبنى فيه الهيكل لقريب، وسأعمل بقية حياتي في سبيل إعادة بناء هيكل سليمان، في مكان المسجد الأقصى..).

وتتضخم حماقاتهم، وتزيغ أبصارهم، حين يصرخون بملء أشداقهم: (ليس من الممكن أن يكون في فلسطين سوى وطن قومي واحد، وهو الوطن اليهودي؛ ومن المستحيل أن يكون ثمة مساواة في الشركة بين اليهود والعرب، بل ينبغي أن تكون هنالك سيادة يهودية).

فهل هذا هو الوطن القومي الذي لا يخل بحقوق سكان البلاد الأصليين، إنهم لا يطلبون وطناً مشتركاً، بل وطناً مستقلاً هم أسياده.. يطلبون كل ما فيه تمييز ومحاباة لهم. يطلبون طرد الأصيل، ولو على أسنة الرماح!

ولذا تثور ثائرتهم، ويجن جنونهم حين تلوح في سماء العلاقات الدولية بارقة عطف على العرب؛ وما هذه الاعتداءات المتوالية، والاغتيالات الدنيئة؛ والتدمير والنسف، والنهب والتقتيل، سوى تفريغ لجام غضبهم. وإذا كان الفرد يفقد اتزانه العقلي والعاطفي في الأحوال الشاذة، وخاصة في ثورات الهيجان، فهذه الحقيقة تنطبق كذلك على الصهيونيين الذين قاست منهم إنكلترا في هذه السنوات الأخيرة الأمرين.

لقد أثاروا غضب الدنيا على تصرفاتهم الدنيئة، وهم يحسبون أنهم بهذه التصرفات الآثمة سيلفتون أنظار العالم المتمدن، للعطف على قضيتهم. حتى قال السير ادوار كريج: (إنه لا يوجد في العالم من يريد أن يرى في فلسطين دولة إرهابية على غرار النظام النازي)..

قصور من ورق وأباطيل

وهؤلاء المطالبون بأرض فلسطين، يستندون في ادعاءاتهم إلى أسس سخيفة مرفوضة، يستندون إلى ثلاث دعائم واهية، تنهار بنفسها، هي الحق التاريخي، والديني، والقانوني.

وحقهم التاريخي يعني وجودهم في فلسطين منذ ألفي سنة. ولكن، سائل الأجيال والقرون، سائل سهول فلسطين وجبالها، سائل بحارها وأنهارها، سائل كل بقعة من بقاعها، وكل حجر من أحجارها، كم تداولتها من أمم، وكم وطئها من شعوب تجيبك لو تستطيع الكلام: سكنني أكثر شعوب الأرض. ولكن ما استوطنني طويلاً حتى يوم الناس

هذا سوى العرب. وإن مرور اليهود بفلسطين منذ ألفي سنة، لا يخولهم حق العودة إليها ثانية..

لم يقطن اليهود فلسطين مرة، إلا وهاجروا تحت تأثير الفتوحات والمجاعات، والأطماع والأرباح..

نعم! مرة واحدة دخلوها فاتحين، ليذيع قائدهم (يشوع بن نون) خطبته التاريخية: (حرقوا كل ما في المدينة، واقتلوا كل رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم، بحد السيف، واحرقوا المدينة بالنار مع كل ما فيها).

فأي عدل وأدب ورحمة بين قوله، وقول الصديق يوصي جيوش المسلمين الفاتحين: (لا تخونوا ولا تغدروا، ولا تغلوا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرة ولا بعيراً. وسوف تمرون بأناس قد فرغوا لأنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له).

ولازال أتباع إسرائيل يتبعون وصية يوشع، ولازال المسلمون سائرين على نهج الصديق..

نعم، سكن اليهود فلسطين في غابر الدهر؛ ولو جمعنا كل عهودهم فيها، منذ آلاف السنين، لما تجاوزت أربعمئة سنة، كانوا فيها بين سبي وتشريد واضطهاد. بينما ظل المسلمون والعرب في هذه الديار، منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً، يمارسون سلطانهم بهدوء واستمرار، والتاريخ يؤيد هذا النوع من التملك للبلاد والثروة إذا كان مبنياً على حسن النية، ويعده سبباً من أسباب الملكية الشرعية.

ولئن جاز لكل شعب أن يزعم حقاً له في أرض سكنها أجداده، فما قول الأمريكيين لو طالبهم الهنود الحمر بالنزوح عن الولايات المتحدة، وماذا يقول الإسبان لو ادعى العرب أنهم أصحاب حق في شبه الجزيرة (ايبريا)..

فأي حق هو هذا الحق التاريخي، الذي يدحضه الواقع بأجلى بيان؟

ويستندون إلى حقهم الديني.. وقد أوردنا في تضاعيف الكتاب من شواهدهم ما فيه الكفاية، لتأييد هذه الحجة الواهية، ونضيف قول (حزقيال) في أسفاره: (افتح قبوركم، واصعدكم من أجدادكم يا شعبي، وآتي بكم إلى أرض إسرائيل).

ولكن هذا الكلام قيل أيام سبيهم البابلي، فعادوا ثانية إلى فلسطين، وتحققت النبوءة، وبنوا الهيكل ليدمر ثانية على يد (طيطس) الروماني، الذي ختم صفحات

تاريخ اليهود في فلسطين، فمضوا أيدي سبأ، ليذوقوا عذاب التشريد والعبودية من جديد.

وإذا كان اليهود يستندون في حق العودة إلى فلسطين إلى توراتهم، وهو كتابهم، فمسيحيو العالم ومسلموه يستندون إلى إنجيلهم وقرآنهم، وهما لا يشيران قط إلى عودتهم، بل ينكرانها، ويعدانهم أن يظلوا تائهين معذبين.

وأكبر الظن أنه سها عن بالهم العهد الذي وقعه عمر بن الخطاب، للنصارى تلبية لطلب البطريرك (صوفرونيوس) حين فتح القدس: (بألا يسمح لأحد من اليهود بالسكنى معهم).

وهيهات أن يتدبروا قول أحد أحبار نصارى العرب: (إن الدين المسيحي يقول لليهودي إن روابطي بفلسطين هي أقوى جداً من روابطك. فإن يكن لك فيها أنبياء وملوك، فهي موطن مخلصي وإلهي، وموطن رسله، ومهد كنيسته).

وكأنهم لم يعلموا أن لفلسطين في نظر المسلمين المكان المرموق، ففيها أولى القبلتين، ومقام ثالث المساجد التي تشد إليها الرحال، وفيها قال تعالى: ﴿يا قومِ ادخلوا الأرض المقدسة التي كتبت لكم[197]﴾.

أضف إلى ذلك، متى كانت القوميات تبنى على النبوءات، والأوطان تشاد على كلمات الرسل، والممالك تؤسس على بشائر الأنبياء!

فأي حق هو هذا الحق الديني المزعوم، الذي يدحضه الواقع بأجلى بيان! ويستندون أخيراً إلى حقوق قانونية، وفي طليعتها: وعد بلفور، وصك الانتداب.

وإذا علمنا أن تصريح بلفور أعطي لليهود يوم (2) تشرين الثاني عام 1917 وفلسطين لا تزال تحت حكم الأتراك، وأهل البلاد الأصليون لم يُستشاروا في الأمر، أدركنا قيمة هذا الوعد القانونية.

فمن بديهيات القانون أنه لا يجوز لأحد أن يتصرف في ملك غيره بدون إذنه، ولا يجوز لأحد أن يأخذ مال غيره بلا سبب شرعي، الأمر بالتصرف في ملك الغير باطل..

فكيف يجوز لإنكلترا إذن أن تدلي بهذا التصريح، وأنّى لها أن تعد اليهود بفلسطين، وإنشاء وطن قومي لهم، وهي لا تملك البلاد آنئذ، ولا سلطان لها على العباد؟ إنه وعد غير قانوني ولو وافقت عليه (52) دولة، وسجل في صك الانتداب، وأيدته جامعة الأمم..

---

(197) - سورة المائدة، الآية 21

ولقد أصاب كبد الحقيقة من قال: (إن وعد بلفور وعد سياسي لا قانوني). وإلا فأي فرق بين هذا الوعد، وبين أن يأتي إليك غاصب، بيده سند، موقع عليها من شخص لا يملك حق التوقيع، ويشهد عليه اثنان وخمسون شاهد زور، قائلاً لك: إن هذا البيت الذي تسكنه ملكي، وعليك أن تخليه بأمر موقع هذا السند..

وإذا كان الانتداب موضوعاً على الشعوب المنسلخة عن الإمبراطورية العثمانية، أو الشعوب التي بلغت درجة من الرقي، وهي بحاجة إلى مساعدة دولة أخرى، فما كان اليهود شعباً يوم وضع صك جمعية الأمم، ومادته الـ (22) المتعلقة بالانتداب، وما كانوا كذلك من شعوب الإمبراطورية العثمانية..

أضف إلى ذلك أن عبارات التصريح المنوه عنه، لا تشير قط إلى تحويل فلسطين بجملتها وطناً قومياً لليهود، وإنما تعني أن وطناً كهذا يؤسس في فلسطين، ويقوى؛ وليس معنى تقويته إرغام الأهالي على التنازل عن أملاكهم وإجلائهم عن بلادهم وإفقارهم، بل النهوض بهم مع زيادة في الطائفة اليهودية.

عرب فلسطين بعد ربع قرن

ولنا أن نتساءل بعد ذلك، ماذا أفاد العرب من قدوم الصهيونيين إلى فلسطين؟

وماذا جنوا بعد ربع قرن من انتداب مزدوج جائر، لم تبتل به بلد من بلاد الله؟ وهل تحققت أمنية المرحومة جامعة الأمم، بإيداعها أمر فلسطين إلى إنكلترا؟

إن العرب لم يجنوا في هذه الغضون، سوى انتقاصات متوالية لحقوقهم الطبيعية، من إدخال اللسان العبري، وإقامة القضاء اليهودي، وتشجيع التجارة والصناعة والزراعة الصهيونية، ثم تلك الامتيازات التي لا تنضب، الممنوحة إلى الصهيونيين، في حلهم وترحالهم!

أفاد العرب تكاثر اليهود، وازدياد نفوذهم لدى الحكومة، واتخاذ بريطانيا كل الوسائل لتأمين وطن قومي يهودي لهم، فخلقت الوكالة الصهيونية لتهتم بمصالح اليهود، دون غيرهم. وبموجب امتيازاتها أصبحت كحكومة داخل حكومة.

لقد كفت أيدي العرب عن التصرف في شؤون وطنهم، لتسلم إلى أيدي شذاذ الآفاق، بينما كانوا يتمتعون إبان الحكم العثماني بحقوق واسعة، حتى كان منهم النواب وكبار الموظفين.

أفاد العرب أن بلادهم غمرت بشعب قذير مزاحم متسلح بالمال والعلم والخبرة، مع

أن مهمة الانتداب الأخذ بيد أهل البلاد الأصليين، لرفع مستواهم كي يستطيعوا حكم انفسهم بأنفسهم.

أفاد العرب تدخل المستعمر في شؤون معارفهم، وتوجيهها كيفما شاء، بينما ترك اليهود أحراراً في تعليم أولادهم وتربيتهم كما يهوون، تتولى ذلك دائرة معارفهم الخاصة ذات الميزانية الضخمة والمناهج المرسومة.

أفاد تدخل المستعمر في التضييق على حرية الصحف، وحرمان العرب من حق التشريع..

أفادوا أمراضاً اجتماعية وجيوشاً من العاطلين من العمال والفلاحين..

أفادوا فقراً وجهلاً وتشريداً ونفياً.. صحائف يسود لها وجه الإنسانية ويندى لها جبين البشرية.. أفادوا خروجهم من ديارهم وجلاءهم عن أراضيهم.

لنتصور جلاء العرب عن مرج ابن عامر، أخصب سهول فلسطين، وأهم منتج للغلال فيها؛ لنتصور إجلاء نيف وعشرين قرية عربية يقطنها ما لا يقل عن عشرة آلاف نسمة، أجلوا بالقوة، والرصاص، والسياط، عن أرض آبائهم وأجدادهم..

لنتصور جلاء العرب عن عشرات القرى الأخرى، يتركون أمجادهم وتاريخهم وذكرياتهم، يتركون معابدهم ودورهم ومرابعهم، ليحتلها موتورو الشعوب، وشذاذ الآفاق.. وبالأمس القريب، في أواخر عام 1943 أخرج سكان قرية الشيخ يونس، لتضم إلى بلدة (تل أبيب)، بالقوة الغاشمة التي لا تعبأ بالقوانين، ولا بتذمر الأهلين..

أفاد العرب أنهم أصبحوا كمية لا يعبأ بها في بلادهم.. ففي كل مناسبة، يُقال الطوائف اليهودية، والطوائف غير اليهودية، كأن اليهود أصل، والعرب فرع.. وهذا أقصى ما عرف في التاريخ من ضروب الامتهان والإهمال، والخداع والتهليل!

أفاد العرب عدم المساواة بأجلى معانيها.. فحيثما وجد عربي ويهودي، فضل ثانيهما على أولهما، حتى في تعهدات الحكومة والبلديات؛ وفي المصارف والمؤسسات المالية، تفضل معاملة اليهودي على العربي، وبفائدة أقل مما يؤخذ من العربي..

وفي الأعمال الصناعية والزراعية، لم يستخدم العرب؛ وهل أدل على ذلك من عقود إيجار بنك (كيرين كايمت) حين تقول في مادتها (23) (يتعهد المستأجر بأن يجري جميع الأشغال المختصة بفلاحة الأرض، وزراعتها، بواسطة عمال من اليهود، وإذا خالف هذا الشرط، يدفع عشرة جنيهات فلسطينية عن كل مخالفة؛ ويعتبر استخدام العمال من غير اليهود، دليلاً قاطعاً على الإخلال بهذا العقد).

وفي مقاولات مصرف (كيرين هايسود) ينصون على أن: (يتعهد المستأجر بأن يستأجر عمالاً من اليهود فقط، إذا اضطر لاستخدام عمال). فأين هذا الواقع مما جاء في الكتاب الأبيض: بأن الهجرة، إذا كانت ستؤدي إلى حرمان العرب من العمل، فيتحتم على الدولة المنتدبة إيقافها؟!

وأخيراً.. لقد نعمت سوريا ولبنان والعراق، وحتى شرقي الأردن بالاستقلال.. فهل فلسطين أدنى من هذه الأقطار حضارة ورقياً وثقافة..؟!

طريق الخلاص

الآن وبعد خمس وعشرين سنة، من نشوب هذه المشكلة الصهيونية المعقدة في فلسطين، نسرح الطرف لنجد حلاً ناجعاً لها، فلا نعثر إلا على لجان إثر لجان، وتوصيات بعد توصيات، وكلها محذرات مؤقتة، لم تستطع حسم الداء من أساسه، ويبقى العرب في بحران سياسي غاشم، إن لم يلتجؤوا إلى وسائلهم الخاصة، وينقذوا أنفسهم بأنفسهم.

ونظرة واحدة إلى المشكلة، نظرة فيها حزم وحكمة، وبصيرة وصراحة، تدلنا على طريق الخلاص مِنْ هذا الضيف الثقيل، والكابوس المفاجئ.

إن الدواء متصل بعضه ببعض، كالحلقة المفرغة، وعلى رأس قائمة العلاج: لا تبع أرضك أيها العربي، وقاطع الإنتاج الصهيوني..

لا تبع أرضك أيها العربي

ظلت الصهيونية تائهة حيرى عشرات السنين، بين أوائل حركتها، وتصريح بلفور؛ حتى كاد اليأس يدب في نفوس أصحابها؛ لأنهم لم يجدوا لأنفسهم أرضاً يلجؤون إليها.. فقد وقفت الحكومة العثمانية لهم بالمرصاد، فحرمت عليهم امتلاك الأرض، فظلوا خارج فلسطين؛ ولكنهم ما كادوا يظفرون بوعد بلفور المشؤوم، وتضع الحرب أوزارها، حتى سارعوا إلى أرض الميعاد يمتلكون الأرض: فبذلوا كل رخيص وغال للحصول عليها؛ ودفعوا في العشرة مئة، وفي المئة ألفاً!

وليتك تسمعهم اليوم كم يأسفون لِمَ لم يستغلوا الحوادث، ويبتاعوا أكبر جزء ممكن من أرض فلسطين العربية، منذ أوائل الهجرة..

إنهم يشترون الأرض أولاً، ثم يأتون بمهاجريهم؛ واليوم وقد امتلكوا ما استطاعوا امتلاكه، وللأرض درجة من الاستطاعة لتحمل كثافة السكان، فهم إن لم يجدوا أمامهم أرضاً يشترونها، أسقط في أيديهم وانهارت أحلامهم.

إن بيع الأرض أمر منوط بالعرب وحدهم. فهم سادة أرضهم، وملاك تربتهم.

ونحمد الله على أن إخواننا عرب فلسطين، يشعرون بهذا الشعور، وقد اقترح رجالهم البارزون أكثر من مرة أن تغدو الأرض وقفاً ذرياً لا يصح بيعه، ولا فراغه.

لأنهم علموا أن بيع الأرض معناه الجلاء، والتشريد والبطالة، وفقدان العمل؛ بعد أن شاهدوا ببصيرة القلب كيف يتقدم تيار بيع الأرضين، ليدفع العرب أمامه، وليحتل اليهود الديار؛ ولو استمر بيع الأرض، لما بقي في فلسطين عربي..

إن اليهود لا يهتمون بشيء اهتمامهم بالأرض، فامنعوها عنهم، تحرموهم من الماء والهواء، تمنعوهم من الحياة، بل تمنعوهم من آمالهم العذاب، فتشاهدوا بأعينكم انهيار أحلامكم، واذكروا دائماً شريعة اليهودي، ومثله الأعلى في الحياة؛ اذكروا أن مثله هذا هو الريح، وإذا ذهبت الأرياح قوّض خيامه، وطوى أعلامه، وسار يبغي وطناً جديداً..

إن منع بيع الأرض هو الحصن الحصين الذي تتكسر على سفوحه أحلام صهيون؛ ولئن فعلتم ذلك، حصرتم أعداءكم في حلقة ضيقة يصعب عليهم تجاوزها، ولن يرغمكم على معاملتهم أحد، ولما كان كل زارع بحاجة إلى شخصين اثنين يعملان من أجله في المدينة، فاذكروا أنكم بإحجامكم عن بيع الأرض، تعدمون ثلاثة أفراد بضربة واحدة..

واذكروا أن شكاواهم ما ارتفعت إلا من أجل الأرض وامتلاكها، فخلاصنا في أيدينا، وحذار من الانسياق مع تيار الشهوات، واتباع أطماع النفس..

وإذا كان لليهود صندوقا (كيرين كايمت) و(كيرين هايسود) وغايتهما شراء الأرض ثم تعميرها . وتقوم ماليتهما كما رأينا على التبرعات . فما على العرب إلا أن يدفعوا الشر بمثله، وينشئوا الصناديق المشابهة.. وإذا كان صندوق الأمة العربية يقوم بهذا المجهود، فإنه يحتاج إلى تغذية رأسماله، ليقوم بالمهمة الملقاة على عاتقه خير قيام.. ولن تتحقق هذه الأمنية الغالية إلا بالبذل من الأفراد والحكومات؛ ولنذكر أن اليهودية العالمية، لا تتوانى لحظة عن مساعدة يهود فلسطين، وإذا كان لا يبني الممالك كالضحايا، فلن يبني مجد فلسطين العربية كالتضحيات..

إن سياستهم ترمي إلى إنشاء دولة يهودية في فلسطين، وهذا لا يستطاع إلا بحشد عدد كبير من اليهود في البلاد، إلى أن يصبحوا - لا قدر الله - أكثرية فيها. فالسياسة الصهيونية قائمة في الحقيقة على بقاء باب الهجرة مفتوحاً. وإذا رأيت اليهود يقاومون كل محاولة ترمي إلى وقف الهجرة، أو يبرمون بالكتاب الأبيض، ويثيرون ضده أشد الدعايات، ويقومون بأعمالهم الإرهابية، ليرغموا السلطات البريطانية على إلغائه، فلعلمهم أن وقف الهجرة معناه القضاء على الصهيونية!

ولكن، مهما يكن موقف الحكومة البريطانية من الكتاب الأبيض، ومن لجنة التحقيق، فإن في استطاعة عرب فلسطين إيقاف الهجرة، ولو وقفت دول العالم طراً في سبيلهم، وذلك بالحيلولة دون تسرب الأراضي العربية لليهود، وامتناع العرب عن شراء المنتوجات الصهيونية.

فالهجرة اليهودية لن تكون ممكنة، إلا إذا استطاع اليهود الاستيلاء على الأرض، لحشد المهاجرين فيها، مع تنمية صناعاتهم، التي من شأنها أن توسع مقدرة البلاد على استيعاب العدد الأكبر من المهاجرين.

وبرنامج التوسع الصهيوني لا يحتاج إلى بيان، فمجالهم الحيوي يشمل فلسطين وشرقي الأردن وسوريا والعراق، ومصر أيضاً..

إنهم يريدون أن يجعلوا من فلسطين مركزاً استراتيجياً ممتازاً للتسلط على البلاد العربية، وبالأمس القريب، حين أعلن استقلال شرقي الأردن، احتجت الهيئات الصهيونية العالمية قائلة على لسان (شرتوك)[198]: (إن إلغاء الانتداب على شرقي الأردن، وإعلان استقلاله، مسألة خطيرة جداً، فإن أمل الصهيونية كان يقوم دائماً على إقامة اتحاد فلسطيني أردني، وجعل اليهود قادرين على مساعدة الشعب الأردني المتأخر)..

واحتجت الوكالة الصهيونية الأمريكية للرئيس ترومان، على ما تقترفه بريطانيا من إعلان شرقي الأردن دول مستقلة، وطلبت إليه التدخل وإقناع بريطانيا بالعدول عن هذا الأمر، واختتمت احتجاجها قائلة: (إن شرقي الأردن تملكها فلسطين اليهودية، ويدعمها في هذه الملكية العدل والتاريخ والحقوق الشرعية، وقد وضعت تحت الانتداب، كما وضعت فلسطين، لينشأ فيها وطن قومي يهودي..)

فليذكر العرب أنهم لا يبيعون أمتاراً من الأرض، بل يبيعون وطنهم ووطن آبائهم وأبنائهم، ولا حياة لشعب لا أرض له؛ وليجعلوا دستورهم في الحياة: بيعوا اليهود كل شيء إلا الأرض، ولا تشتروا منهم شيئاً إلا الأرض.

المقاطعة

وليست فكرة المقاطعة وليدة اليوم.

ففي عام 1930 قاطع عرب فلسطين اليهود مقاطعة تامة، ودعوا إلى ترويج المصنوعات العربية، فألحقوا باليهود خسائر فادحة: حتى اضطرت الحكومة إلى سن

---

[198] - موشي شاريت (موسى شرتوك)، من آباء الصهيونية و زعيم حزب الماباي وأول وزير خارجية لإسرائيل

قانون خاص يعاقب كل داعٍ إلى المقاطعة؛ وكان من محاسن هذه المقاطعة، أن تدارك الوطنيون بأنفسهم أشياء كثيرة كانت تنقصهم، وكانوا قبلاً يعتمدون في الحصول عليها على اليهود؛ فوجد لدى العرب عدة متاجر وشركات وصناعات مختلفة، ولو طالت المقاطعة آنئذ، والحركة الصهيونية لم تكن قد وقفت على قدميها بعد، لقضت على الناحية الاقتصادية اليهودية قضاء مبرماً..

وبعد ستة عشر عاماً، يعلن العرب، لا في فلسطين وحدها، بل في سائر أقطارهم، من أسياف بحر الظلمات إلى شواطئ الخليج الفارسي، مقاطعتهم للبضائع الصهيونية؛ وذلك بالإيماز من جامعتهم العربية. فقد درست وسائل الفتك الصهيونية درساً عميقاً، واستعرضت الأخطار التي تهدد البلاد العربية، من تجمع اليهود في نطاق الوطن القومي، الذي أرادوه، موئلا لهم، فإذا هي على كثرتها وتنوعها تتلخص في استعمار فلسطين: باستخلاص أراضيها وثروة أبنائها، واستعمار البلاد العربية جميعاً بغزو أسواقها بمنتجات الصناعة اليهودية، التي ازدهرت في الحرب، مع أنها غير متقنة، ولا رخيصة..

ولما كان الصهيونيون يعتبرون البلاد العربية مجالهم الحيوي، وسوقهم التجارية، الممتازة، فإن عواقب مقاطعة بضائعهم وخيمة جداً على مستقبلهم، فإذا كانت تباع وتجد لها المستهلكين أثناء الحرب، فاليوم وغداً، حينما تعود التجارة العالمية إلى سابق عهدها، وتتراكم البضائع الصهيونية، ولا تجد لنفسها مستهلكاً، تعم البطالة، وتتفاقم الخسائر، ويواجههم الموت الاقتصادي المحتوم، بتهدم مصانعهم، ويعود اليهودي لينشد معزوفته التاريخية، وطني حيث ربحي، فتنهار آمالهم باستعمار فلسطين..

إن الصناعة اليهودية لا تقنع بالمستهلكين من اليهود، وتحتاج إلى عشرات أضعافهم، وترى في البلاد العربية المجاورة خير سوق لتوزيع مصنوعاتها.

أضف إلى ذلك أن المقاطعة نعمة عميقة، فهي ذات وجهتين، سلبية وإيجابية: سلبية بمقاطعة المنتوجات الصهيونية، وكل مؤسساتها ومرافقها، وإيجابية بإنشاء المعامل والمصانع، وإنشاء الشركات، وإحياء الزراعة في الأراضي العربية..

ولئن كانت المقاطعة شاقة أحياناً، وخاصة على عرب فلسطين الذين كانوا عالة على المنتوجات الصهيونية، فإن ما تطمح إليه النفوس من عواقبها ونتائجها، يعزينا عن كل حرمان آني.. فمن ذا الذي يرى المحلات اليهودية، والباصات، والمقاهي، ودور السينما، قد أقفرت من زبائنها العرب، ولا يمتلئ قلبه غبطة؟

إن مدينة حيفا، لا يوجد فيها دار سينما عربية؛ وكانت الدور الصهيونية ملتقى

لرواد هذه المتعة الطريفة. ولكن، ما كادت المقاطعة تبدأ حتى صد العرب عن ارتياد هذه الدور، ولو حرموا متعة من متع الحياة.. فإن من يصمم على قبر عدوه، يستعمل جميع الأساليب المشروعة، وقد يحرم نفسه لذات عدة، فيجوع، ويبرد، ويتألم، ولكن نبل الهدف، وشرف الغاية ينسيانه كل هذه المشاق، وفي سبيل العزة والكرامة يهون كل بذل..

خطوة . فخطوة أيها العربي

امتنع عن بيع الأرض، وقاطع المنتوجات الصهيونية، ثم خبرني عن أحلام إسرائيل.. لن يقوم لأمة قائمة إلا بحياتها الاقتصادية، ومن وضع يده على المال، سيطر على سائر مرافق الحياة، وما نشبت حرب في التاريخ، إلا ووجدنا بعد فحص وإمعان، أن في رأس قائمة الأسباب المباشرة الحقيقية سبباً اقتصادياً بحتاً..

وهكذا إذا تحققت هاتان الأمنيتان: عدم تسرب الأرض للصهيونيين، ومقاطعة بضائعهم، نكون حاربنا عدونا بسلاحه، سلاحه الذي استند إليه طول العُصر.

فالمعركة معركة موت أو حياة. ونحن أمام تدابير تحمينا وتدفع عنا أفدح الأخطار، وهي مقياس لاتحاد العرب وتضامنهم وجدارتهم للحياة..

◆ ◆ ◆

ولكن المعركة لم تنته بعد. وفلسطين مازالت تئن.. والأخطبوط الصهيوني مازال يمد أصابعه ليلتهم كل ما يستطيع التهامه من البقاع المقدسة..

إن الشعب العربي الفلسطيني، لازالت أكثريته الساحقة بحاجة إلى إنعاش، فعلينا أن نخلق نهضة شاملة لكل نواحي الحياة: من القرية إلى المدينة، ومن البيت إلى المدرسة، ومن الصناعة إلى التجارة والزراعة، ومن الأحزاب السياسية إلى الأحزاب غير السياسية.

ولن يضرنا قط أن نسلك السبل المشروعة التي نهجتها الصهيونية..

وإذا كنا قد أفدنا من رحلتنا ما نستطيع أن نقدمه لإخواننا العرب، فإننا أدركنا تمام الإدراك، أن الصهيونيين في فلسطين، يمتازون بالتنظيم والتضحيات، والوعي القومي، وحسن الدعاية..

عناصر أربعة، ما سار عليها شعب ولا أمة إلا ونال النجاح.

فلنحاول تطبيقها على كل شأن من شؤون حياتنا في فلسطين، لنطبقها على الزراعة العربية مثلاً.

علينا أن نستعمل وسائل الصهيونيين وفنهم وخبرتهم، علينا أن نستفيد من كل التحسينات العلمية والفنية التي أدخلوها على الزراعة والتي اكتسبوها طوال الأيام. فمن العار أن يهرف زنيم: (إن المحراث العربي يشبه محراث العبري في عهود التوراة، وقد يكون أدنى منه).

لنحسن القرية العربية، ولنرفعها إلى مصاف قرى القرن العشرين، وليَعِشْ فيها بشر واع يتمتع بالصحة والعلم والمال.

علينا إنعاشها بكل ما أوتينا من قوة، لرفع مستواها الصحي والثقافي والاقتصادي؛ وإذا كان الدافع الأكبر للعربي، في بيع أرضه، هو الفقر والجهل، فلنعالج هذين الداءين الوبيلين بصبر وحزم، وأناة وتصميم.

إن القرية العربية تستدعي إنشاء الجمعيات التعاونية لشراء المحاصيل وبيعها، تماماً كما يفعل الصهيونيون، وإذا كان سكان القرية، لا يستأجر كل فرد منهم لولده معلماً خاصاً ليعلمه، بل يبعثون أولادهم طراً إلى مدرسة واحدة، لما يعلمون في ذلك من اقتصاد وفائدة، كذلك، من الأفضل أن يتعاونوا في إنتاجهم وتداولهم وتوزيعهم واستهلاكهم.

نريد أن نرى (تنوفا) عربية و(هامشبير) عربية، وبالأحرى (هستدروت) عربية.. ويمتاز الصهيونيون بالتضحيات: التضحيات المادية والمعنوية..

فإن سائر مستعمراتهم وكثير من معاملهم خاسرة؛ ورغم ذلك، فالوكالة الصهيونية، ومن ورائها يهود العالم، تمدهم بالمساعدات المالية التي لا ينضب معينها. يتبرعون بالملايين دون أن يرجوا جزاءً أو شكوراً. وإذا دعاهم الداعي لينخرطوا في الجيوش السرية، والعصابات الإرهابية، ضحوا بنفوسهم في سبيل بناء المستقبل. ولا يتقاعس أعظم عظيم بينهم، عن أن يشمر عن ساعديه ليعمل في الحقل أو المعمل، ولو كان يحمل أرقى الألقاب الجامعية، فهم ينسون مصالحهم الخاصة في سبيل النفع العام...

وإذا كان العربي لا يحجم عن بذل النفس والنفيس في سبيل الغاية المقدسة، فقد آن الأوان، لتتدفق الأموال الشعبية والحكومية على صناديق الأمة العربية في فلسطين، فننقذ الأرضين، وننشئ المعامل، ونكافح المرض والجهل والفقر.

ويمتازون بالوعي القومي، فإن أهدافهم واضحة، وبرامجهم جلية، يلقنونها

لأطفالهم في رياض الأطفال، ويرعونها في المدرسة والمعهد والجامعة؛ ولا ينون عن إلقاء المحاضرات، وإذاعة المنشورات، لتحديد المبادئ والغايات..

وهكذا خلقوا خلقاً جديداً؛ فانظر العامل في معمله، والزارع في حقله، والتاجر في متجره، إن السرور ليغمرهم لدى قيامهم بأعمالهم. فهم يعتقدون بإيمان لا يتزعزع أنهم يعملون في سبيل الوطن القومي وإعادة أمجاد إسرائيل. فيقول أحدهم: (إني لا أشعر في فلسطين بمركب النقص؛ فإن لي هناك شيئاً هو ملكي؛ وأنا وقومي نمشي ورؤوسنا مرفوعة؛ وهنا لا أرى قط لوحاً كتب عليه: (الزبائن محدودون) أو (لا يسمح لليهود والكلاب بالدخول). ولنا أغانينا ورقصنا القومي؛ وقد صارت لغتنا العبرية لغة حية).

نفسية زاخرة بالأمل والنشاط، خلقت في نفوس هؤلاء القوم؛ فما أحرانا في هذه المرحلة الحاسمة من نضالنا، أن نذكر قول النبي العربي الأعظم ﷺ، حين كان يعود من الحرب: (رجعنا من الجهاد الأصغر، إلى الجهاد الأكبر، جهاد النفس). فأزمتنا روحية نفسية، لا جسدية مادية، هي معضلة القلوب، لا معضلة الجيوب؛ فلا يأس مع الحياة، ولا حياة مع اليأس. لنوحد الصفوف، ولننس الضغائن والحزازات الشخصية، والمنعنات العائلية، و(إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً، كأنهم بنيان مرصوص). فالمعركة حاسمة، والنصر معقود اللواء لأشد الفريقين إيماناً، ولن يفل الحديد إلا الحديد.

ويمتازون بالدعاية..

فنحن في عصر يفيض دعاية، حتى غدا في الحق على قدر صاحبه. وإذا كان الصهيونيون قد وجدوا في مشارق الأرض ومغاربها، من يشد أزرهم، ويعطف على قضيتهم، ويدعم مطالبهم، فالفضل في ذلك عائد بالدرجة الأولى إلى شبكة دعاياتهم القومية المنظمة..

هذه أمريكا مثلاً: وهي من نعلم من الرقي والعمران، قد أخذت بدعايات اليهود وترهاتهم. فالمسيحيون فيها يتبرعون للصهيونيين بنصف مليون دولار سنوياً، والقسس يدعمون إنشاء الوطن القومي، وأصبح الأمريكيون لا يفرقون بين مشكلة يهود أوربا ومشكلتهم في فلسطين. لقد آمنوا بأن فلسطين هي وطن اليهود، فيجب أن يعودوا إليها، لأنهم سكانها في عهود التوراة.. فليسكنوها اليوم! إنهم معذبون، مضطهدون، وهم ضحية بريئة لشعوب بربرية، إنهم كبش الفداء الضعيف على الرغم من علمهم وكفاءاتهم وخدماتهم للمدنية.

بمثل هذه الأباطيل استطاع اليهود إقناع الخافقين، وبتلك الدعايات المنظمة

تعضدها الأموال والجهود كسبوا المعركة أو كادوا، مع أنها لا تستند إلى حق، بل تعنى أشد العناية بكسب عواطف العالم..

وإن دعاياتهم ليست كلاماً مرصوفاً أو تمنيات عابرة، بل دخلوا البيوت من أبوابها، واستخدموا الصحف الكبرى، ودور الإذاعة. وألقوا المحاضرات، ونشروا الرسائل والكتب، حتى أن الوكالة اليهودية خصصت للدعاية عام 945 أربعة أو خمسة ملايين جنيه، هذا عدا ما تنفقه المنظمات اليهودية الأخرى في العالم..

على أن المجال لازال متسعاً أمام العرب، لتبلغ أصواتهم الآفاق. فالشعب الأمريكي نفسه، الذي خدع بترهات الصهيونيين، هو أقرب الشعوب لتفهم قضيتنا، وأكثرهم عطفاً علينا. لأن موقفه من اليهود شديد الشبه بموقفنا، فهو لذلك يشعر بما نشعر به [!؟]. فالأمريكي لا يستطيع أن يهضم قول (وايز)، حاخام (نيويورك) الأكبر: (أنا يهودي من ثلاثة آلاف عام، ولكنني أمريكي منذ ستين عاماً).

ولا يستطيع الأمريكي كذلك أن يرى نواطح السحاب، وأكثرها ملك اليهود، إلا ويفيض قلبه حسرة. فاليهودي يهودي قبل كل شيء، والأمريكي يتولاه الألم منه وهو يزاحمه على مرافق الثروة..

أضف إلى ذلك أن القضية الفلسطينية، ليست قضية محلية تحل في القدس أو في القاهرة أو دمشق، بل هي قضية عالمية؛ بحاجة إلى أقلام مرهفة، وألسنة ذربة وقرائح فياضة، تكتب وتخطب وتجادل وتناقش في لندن وواشنطون وموسكو، وفي كل عاصمة كبرى.

أجل! لئن امتاز الصهيونيون بالتنظيم والتضحيات والوعي وحسن الدعاية فعلينا أن نقبس الحكمة أنى وُجدت، ولا جناح علينا. وأخيراً لنجعل نصب أعيننا أن لا راحة لفلسطين إلا بإلغاء وعد بلفور، وزوال الانتداب، وإعلان فلسطين دولة مستقلة حرة؛ وإن شعباً كالشعب الفلسطيني الأبي، لم ينم على ضيم طيلة سبعة وعشرين عاماً، لواصل بإذن الله إلى حقه، بقوته ونضاله، ولو كره المستعمرون..

◆ ◆ ◆

وبعد، فقد عاد صاحبنا تسيطر عليه فكرتان: أولاهما أن الصهيونية حركة جبارة ماكرة، تشق طريقها قدماً، وقد برهنت على عمل وتنظيم وذكاء وصبر، ولكنها مازالت بحاجة إلى جهود وعطف ونضال طويل، لتحقيق برامجها والفوز بآمالها ...

وثانيهما أن عرب فلسطين، لم يهنوا ولم يجزعوا طيلة ربع قرن، بين فكي انتداب مزدوج، لم تبتل بمثله بلاد أخرى؛ فقاموا بالمستحيل لإحباط مشاريع أعدائهم، وعرقلة مهمتهم، وهم يزدادون قوة ومنعة، وعلماً ومالاً، وتنظيماً وإيماناً، يوماً بعد يوم..

عاد وقد آمن إيماناً راسخاً بأن أحلام الصهيونية لن تتحقق كما شاء أصحابها، ولن تزدهر أكثر مما ازدهرت طيلة ربع قرن، فلا زال بين أصحابها وهدفهم المنشود أهوال وأهوال..

وبينما كان العالم أجمع يعطف على القضية الصهيونية، ويعاضد إنشاء الوطن القومي دون أي حساب لملايين العرب المسلمين، تبدلت الدنيا غير الدنيا، وبدأت العيون تتفتح على هذا الخطر الماحق الذي يهدد الأماكن المقدسة لدى سائر الملل والنحل..

عاد وقد أيقن أن عرب فلسطين لم يعودوا وحدهم في ميدان المعركة، يصلون أهوالها، بينما إخوانهم في أدنى الأرض وأقصاها في شغل شاغل عنهم، ويعطفون عليهم عطفاً أفلاطونياً، بل بدأ رجال العرب ينتبهون إلى أمر هذه البلاد المقدسة، فينمو الوعي القومي والوطني والديني عند الجميع، ويتسارعون إلى عقد المؤتمرات، وتنظيم الخطط، ومد يد المساعدة الفعلية، وإذا بقضية فلسطين تصبح قضية العرب والإسلام قاطبة لمكانتها المقدسة ولعلم العرب أجمعين أن خطر الصهيونيين سيهدد بلادهم في آتيات الأيام..

فلقد أدرك العرب أولاً، أن أطماع اليهود لن تقف في فلسطين، بل ستتعداها إلى ما جاورها من البلاد العربية، بعدما سمعوا (بن غوريون) يقول: إن خارطة فلسطين إنما هي خارطة الانتداب، وإن للشعب اليهودي خارطة تاريخية أخرى، على شباب اليهود أن يحققوها، وهي خارطة التوراة التي جاء فيها: (وهبتك يا إسرائيل ما بين دجلة والنيل)..

بلاد اعتبروها مجالهم الحيوي، وصرحوا بأطماعهم فيها أكثر من مرة؛ فإذا كانوا يقضون المضاجع في فلسطين، ولما يتعدوا نصف المليون تقريباً، فماذا يحدث غداً، لو تسربوا إلى أوقيانوس العالم العربي، وغدت هجرتهم إليه؟

وأدرك العرب ثانياً أنهم إذا توانوا عن نصرة إخوانهم عرب فلسطين ووقفوا موقف المتفرج، هان الأمر على جميع الأمم، وأصبحوا هدفاً لكل طامع، وغدا ما يسمى بالأمة العربية، اسماً بلا مسمى، فيتهافت عليهم خصومهم يجدون فيهم لقمة سائغة جديدة طرية الجانب، وتنهار كل مهابة لهم في نفوس الخلق، ويسري الداء من فلسطين إلى ما

جاورها، وإن من لم يستطع إيقاف الظالمين في رقعة صغيرة من أرض الوطن، لن يستطيع الصمود أمام جحافل الأمم، التي لا تعرف لها في الحياة مذهباً سوى القوة والغلبة..

وأدرك العرب أخيراً أن العالم طراً، منذ أقدم العصور يكافحون اليهود، لأسباب مختلفة، وتخشى كل دولة نفوذهم، وإذا كان قليل اليهود ليس بقليل، وأن أكثر دول العالم، ممن أوتيت القوة والهيبة والمال، قد ضحت، وحاولت التخلص منهم، فلا يعقل أن يسكت العرب عن وجودهم في فلسطين.. فلن تقول إن (80) مليوناً من الجرمانيين خشوا نصف مليون يهودي، فطاردوهم شر مطاردة، ولن نقول إن (42) مليوناً من الإيطاليين ضاقوا ذرعاً بـ (42) ألفاً من اليهود، بل إن الإنكليز أنفسهم، أرباب (الطفل المدلل)، رفضوا أن يقبلوا في بلادهم يهودياً واحداً إلا كعابر سبيل، رغم أن إمبراطوريتهم لا تغيب عنها الشمس، وكم من مستعمرات لهم خالية خاوية، تتسع لأضعاف أضعاف يهود العالم...

أدرك العرب هذه الأمور وعواقبها، فكانت فلسطين مباركة مرة أخرى، إذ ألفت بين قلوبهم، فاتحدت صفوفهم، ونادوا بالخطر الأكبر، على الوطن الأكبر، فلم يعد عرب فلسطين وحدهم في المعركة، بل التفت العرب حولهم كهالة حديدية تدفع كيد المحتاجين، وأشعبية الطامعين..

ولم يقتصر ذلك على العرب وحدهم، بل تعداهم إلى مسلمي الهند، لاعتقاد الجميع بأن الدفاع عن فلسطين جهاد مقدس، وعلى كل عربي ومسلم أن يؤدي قسطه من هذا الواجب. فليست المصيبة منحصرة في فقد فلسطين، بترابها وأحجارها وأشجارها، ولكن المصيبة معنوية أيضاً، المصيبة بزوال الهيبة، وسقوط الاعتبار بين أمم الأرض، وأن تغدو الأمة العربية هدفاً للمعتدين..

نعم، لم تعد فلسطين وحيدة في المعركة..

فاتحاد الأمم العربية، والشعوب الإسلامية، وعطف الطبقات المتمدنة في أرجاء المعمورة، كل ذلك، جعل صاحبنا يشعر شعوراً عميقاً بانهيار آمال الصهيونية القريب، وأن وراء هذا الليل البهيم صبحاً مبيناً...

لم تعد فلسطين وحيدة في المعركة..

فقضيتها قضية كل عربي، وهي خط الدفاع الأول عن الثغور، ولقد مضى ذلك العهد الذي قال فيه طاغية ألمانيا:

(إن ألمانيا لا ترضى أن يكون على حدودها فلسطين ثانية، ولن تبيح اضطهاد أبنائها كما يُضطهد العرب في بلادهم؛ فالعرب المساكين ليس لهم من يدافع عنهم، بل

ربما كانوا متروكين.. أما ألمان تشيكوسلوفاكيا فلهم من يدافع عنهم وليسوا بمتروكين)..

لقد أصبحت قضية فلسطيني قضية العرب أجمع، وإنّ أي تدخل أجنبي مجحف بحقهم، يعد عملاً ظالماً طاغياً على حرية الشعوب ويقابل بالرفض.

هذا هو رأي ملوك العرب ورؤسائهم وأمرائهم، بل هذا هو رأي رجل الشارع أيضاً..

فالدول العربية والشعوب العربية، أصبحت قضيتها قضية فلسطين، تقابل كل بادرة بحزم وعزم واحتجاجات مدوية، وتنتظر الوقت المناسب لامتشاق الحسام للدفاع عن الحرمات..

ألم يقل جلالة الملك عبد العزيز آل سعود للمستر تشرشل: (إن أية محاولة إنكليزية لتحويل فلسطين إلى دولة يهودية، سيعدها جلالته عملاً عدائياً يحاربه بالسيف، وإنه على اتفاق في هذا الشأن مع سائر رؤساء العرب!؟).

ألم يقل للطيب الذكر (روزفلت): (أقسم بشرفي إنكم إذا أعطيتم فلسطين لليهود، فلن أستريح حتى يقتل أولادي دفاعاً عنها)..؟

◆ ◆ ◆

عاد صاحبنا شديد التفاؤل بالمستقبل القريب..

عاد وملء إهابه أمل شديد بمستقبل بسام زاهر، مآله أن فلسطين لن تصبح وطناً قومياً لليهود، مادامت الأمم العربية تقف صفاً واحداً يلوّح بالنار والبتّار والدم الفوّار في سبيل القضية المقدسة..

ألا إن خلاص فلسطين بأيدينا، نحن العرب، وهي أمانة الآباء والأجداد، وإذا غفل الشعب العربي يوماً، واستكان إلى الدعة، فليذكر المآسي الجائرة في فلسطين طيلة سبعة وعشرين عاماً..

ليذكر البيوت تنسف، والأعمال تعطل، والكرامة تمتهن..

ليذكر السجون وقد أترعت بالأبرياء الذين لم يقترفوا إثماً.. سوى أنهم يريدون أن يعيشوا أحراراً في دنيا الأحرار..

ليذكر المنافي والمعاقل، يُلقي فيها زعماء البلاد، وشبابها، ومفكروها، وهم قلبها النابض، ودماغها المفكر..

ليذكر مآسي الجلاء التي تقشعر لهولها الأبدان...

ليذكر اليتامى والأيامى والثكالى..

ليذكر أعواد المشانق وقد علّق عليها المجاهدون الأبرار، وبطاح فلسطين المترعة بنجيع الشهداء والأطهار...

ليذكر أن اليهود مصرون على تأسيس دولة لهم مهما لاقوا من صعاب..

ليذكر دائماً وأبداً أن عرب فلسطين إن أخرجوا من ديارهم، فلن يسمع في المسجد الأقصى أذان، ولن تقرع أجراس كنيسة القيامة، تدعو المصلين...

وليذكر أن جهاده لن يذهب مع الريح، وسيسطر المؤرخون تاريخه وهم حاسرو الرؤوس، إجلالاً لهذا الشعب العربي الأبي الذي لم يهن ولم يجزع!

عاد صاحبنا وهو مؤمن بأن طريق الخلاص أمامنا، ومفاتيح النجاة بين أيدينا، وذلك بالعمل المستمر المنظم الواعي؛ فلتصبر فلسطين، لتعمل، ولتتفاءل، فلقد مضى ليل الظلم، وبزغت شمس الأمل والرجاء...

المصادر والمراجع

- الموسوعة الفلسطينية، القسم العام.
- الأعلام لخير الدين الزركلي، الطبعة الثانية، مطبعة كوستاتوماس بالقاهرة 1954-1959. والطبعة الثالثة، بيروت 1969.
- القرآن الكريم.
- الكتاب المقدس.
- بلادنا فلسطين، مصطفى مراد الدباغ، طبعة دار الطليعة، بيروت عدة أجزاء.
- بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين، الدكتور كامل جميل العسلي، عمان 1992.
- تاريخ بئر السبع وقبائلها، عارف العارف، القدس، مطبعة دار الأيتام الاسلامية، 1934م.
- تاريخ غزة، عارف العارف، القدس مطبعة دار الأيتام الاسلامية، 1943م.
- جولة في ربوع الشرق الأدنى، للرحالة محمد ثابت، القاهرة 1952 ط3.
- رؤياي، عارف العارف، القدس 1957م ط 2.
- هؤلاء الصهيونيون، بشير كمدان، وشفيق شالاتي، دمشق دار اليقظة العربية، 1946م.
- سليم تماري، مع ناقة الله في سيبيريا، جندي عثماني مقدسي في المنفى الروسي خلال الحرب العالمية الأولى، مجلة الدراسات الفلسطينية، مجلد 19، عدد 76 (خريف 2008).

فهرس